دراسات حول المدينة المنورة

(٧)

المدينة في العصر الأموي

دراسة سياسيّة وإداريّة واجتماعيّة واقتصاديّة وفكريّة

تأليف

محمد محمد حسن شرّاب

مكتبة دار التراث
المدينة المنورة - ص.ب ٢٨٨٥٢

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - بيروت



سمحت بطبعه وتوزيعه في المملكة العربية السعودية إدارة المطبوعات في المدينة المنورة بالخطاب رقم ٣٢٧/م بتاريخ ١٤/ ٤/ ١٤٠٤ هـ.

المدينة في العصر الأموي

دراسة سياسية وإدارية واجتماعية واقتصادية وفكرية

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

تقـــديم

أعترف أنني مبتهج جداً بتقديم هذا الكتاب للقـراء ضمن سلسلة (دراسات حول المدينة المنورة) الذي يمثل فيها الكتاب السابع، وذلك لأمور:

أولهـا: أنه يغطي مساحة هامة من تاريخ المدينة المنورة تغطية فيها كثير من الدقة والشمول.

وثانيهـا: أن مؤلفه من أهل العلم وأصحاب الأقلام الناضجة، ومن ذوي الأقدام الراسخة في البحث العلمي المتزن القائم على النظرة الفاحصة والرؤية الواضحة والاعتدال في الحكم فيما يعرض له من قضايا في حالتي الرفض والقبول، مع الموضوعية الظاهرة في كل ما تناوله من موضوعات.

وثالثها: أن هذه السلسلة (دراسات حول المدينة المنورة) بدأت بحمد الله تجتذب إليها الأقلام وتثير نخوتها لتشترك في الوفاء ببعض ما يجب لبلد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه من حق في دراسة تاريخه ومختلف جوانب حياته فمرحى لأخي الباحث الأستاذ محمد شرّاب وشكراً له على هذه المشاركة الطيبة، وأغتنمها فرصة لإعادة الدعوة لإخواني الكتاب للمشاركة في إعداد هذه السلسلة آملاً أن يكون فيما قدمناه من حلقاتها حتى الآن ما يجلب ثقتهم بها ورضاهم عنها، وما يدفعهم أخيراً لـلاشتراك في إعـداد بعض حلقاتها.

ولا أحب أن أقحم نفسي بين القارىء وهذا الكتاب، بل أوثر أن

أتركه معه وجهاً لوجه، وأنا واثق أنه واجد فيه كثيراً من النفع والغناء، وأنه سيلقى بين صفحاته المدينة المنورة بكل عطاءاتها العلمية والاجتماعية والسياسية في العصر الأموي، وسيكون ذلك حافزاً له على مواصلة السير معنا في هذه السلسلة إن شاء الله.

د/ محمد العيد الخطراوي

* * * *
* * *
*

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى التي باعتْ فرد قُرطها من أجلي، ثم تهدمتْ جسور العودة، فبقيتُ وحدي في ديار الغربة. وحالت الحدود دون الوفاء بحقها وبِرّها. أهدي هذا الكتاب الذي صنعته وفاءً بحقوق دار المصطفى ﷺ..

فإنْ كان فيه إحسان فثوابُه لها، وإن جاءتني دعوةٌ صالحةٌ من القرّاء فهي وقفٌ عليها، لعلي أقدم صدقة جاريةً تنفعها وتفي ببعض حقوقها، وأرجو من الله القبول..

إليك يا أمي

ابنك البار

محمد محمد حسن شراب



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب:

يعتبر تاريخ المدن من أبرز أنواع الدراسات التاريخية لأنه يشمل تاريخاً كاملاً يجمع بين الحياة السياسية ومعالم الحضارة.

وكان أصل هذا الكتاب رسالةً جامعية لنيل رسالة «الماجستير» وقد اخترت لها تاريخ المدينة، مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام التي اختارها النبي مكاناً لهجرته وعاش فيها نحو عشر سنوات مجيدة شهدت انتصارات الإسلام الرائعة وانتهت بانتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية. وقد كانت الهجرة إلى المدينـة انتقالاً بـالإسلام إلى أرض أخصب وأرحب ممـا حقق للإسلام النماء. وضمت المدينة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وأصبح مسجد المدينة أحد ثلاثة مساجد تُشد إليها الرحال عبر العصور الإسلامية. يقصده الحجاج والمعتمرون مما جعل المدينة مركزاً دينياً وفكرياً واجتماعياً بارزاً.

وتاريخ المدينة عاطر وسمين في جميع فتراتـه ولا يقدر بـاحث على استيفائه في كتاب واحد. . فرأيت أن أختار فترة من فتراته، فاخترت «العصر الأموي» وهو عصر تزدحم فيه الأحداث ويزخر بالصراعـات حيث شهد صراع الفرق والأحزاب الإسلامية وشهد تطور الأفكار السياسية والاجتماعية. والمدينة في العصر الأموي هي التي ورثت سنة الرسـول الكريم ومفـاخر خليفتيه الصديق أبي بكر والفاروق عمر رضي الله عنهما. وشهدت أيضاً خمس

سنوات سمان من خلافة عثمان رضي الله عنـه كانت عامرةً بالخير الوفير والعلم الغزير ثم شهدت خمس سنوات عجاف أطلت فيها الفتنة برأسها وانتهت بقتل الخليفة عثمان الشهيد المظلوم. وتبعتها فتن أخرى في عهد الخليفة الراشد الرابع رضي الله عنه وكانت ثمرة هذه الفتن انتقال مركز الخلافة إلى الكوفة ثم إلى دمشق الشام.

وشهدت المدينة في العصر الأموي أحداثاً جساماً أثرتْ في مسيـرة التاريخ الإسلامي فقد عاش في المدينة معظم الهاشميين وكـانت زعامتهم للحسين بن علي الذي قام بحركة معارضةٍ للحكم الأموي في خلافة يزيد بن معاوية، كما شاركت المدينة في فتنة عبدالله بن الزبير الذي امتد نفوذه إلى كل أرجاء الدولة الإسلامية عدا إقليم الأردن الصغير. كما شهدت المدينة فاجعةً تاريخية قد تكون أجل شأناً من مأساة كربلاء التي شهدت مصرع الحسين بن علي، وهي موقعة الحَرَّة على أطراف المدينة.

ولم تكن المآسي التاريخية هي التي تميز العصر الأموي بل كانت هناك شجرات طيبة تبسق، أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربها﴾ وضع بذرتها رسول الله ﷺ وسقاها خلفاؤه الراشدون وتعهدها الصحابة جميعهم فأينعت وأثمرت قمة المجد العلمي الذي كان طابع العصر الأموي. من هذه الشجرات تفرع الفقهاء والمحدثون والمفسرون من التابعين وتابعي التابعين، ومنهم انتقل العلم إلى أنحاء العالم الإسلامي فكان أهل المدينة في القرن الأول قدوة العالم قولاً وسلوكاً.

كانت هذه الأهمة التاريخية التي أحاطت بالمدينة في العصر الأموي، من عوامل اختياري موضوع الرسالة فضلاً عن إقامتي الطويلة في ربوع المدينة واختلاطي بأهلها وعلمائها وزيارة أماكنها الأثرية، التي تذكر بالمجد السالف التالد. فرأيت من الوفاء للمدينة تقديم هذه الدراسة عن فترة بارزة من تاريخها. فقدمت دراسةً متكاملةً تناولت الأحداث السياسية والنظم الإدارية والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي ومظاهر العمران والحياة الفكرية.

واجتهدتُ في دراسة موضوعات البحث بنظرة جديدة تتصف بالشمول والحياد مع اهتمامي بالنقد والتحليل والعرض والصياغة.

وقسّمت الكتاب إلى ستة أبواب: جعلت الأبواب الثلاثة الأولى لمظاهر الحياة السياسية والنظم الإدارية. أما الأبواب الثلاثة الأخرى فتدرس مظاهر الحضارة: جعلت عنوان الباب الأول: عام الجماعة، لأنه العام الذي أُعلنت فيه دولة الأمويين واجتمع العالم الإسلامي كله على خليفة واحد. وبدأته بتمهيد ضمنته موجزاً عن بني أمية قبل عام الجماعة، والأحداث التي حدثت قبل العصر الأموي وأثرها على الحياة في المدينة. ودرستُ المؤثرات التي أثرت أو قيل إنها أثرتْ في الأحداث قبل العصر الأموي. وقد أثرت تلك الأحداث على الحياة في المدينة وأدتْ إلى نقل مقر الخلافة إلى الكوفة. فبينت أثر ذلك على الحياة في المدينة. ثم جاء عام الجماعة بداية العصر الأموي فناقشت موقف أهل المدينة من الخلافة الجديدة وفصّلت القول في الآراء التي يتوزع إليها الناس. وكانت بيعة يزيد بن معاوية بولاية العهد من أهم الأحداث التي كان لها تأثير على تاريخ المدينة ولذلك قدمتُ دراسةً وافيةً عنها.

أما الباب الثاني فيدرس (الأحداث السياسية في المدينة في عهد يزيد بن معاوية وبني مروان) فقد شهدتْ السنوات القليلة التي حكمها يزيد أحداثاً خطيرة، شاركت فيها المدينة المنورة بنصيب كبير. إذْ أصبحت المدينة من أبرز مراكز المعارضة لخلافة يزيد، وقد حاول يزيد استرضاء أهل المدينة واستمالتهم ليضمن ركونهم إلى الهدوء، وليبعدهم عن الانضمام لمعارضيه، ولكن جميع محاولات يزيد باءت بالفشل، فقد حزن أهل المدينة لمقتل الحسين ابن علي واستجابوا لحركة عبدالله بن الزبير. وعاقب يزيد أهل المدينة عقاباً قاسياً، فكانت وقعة الحرة التي حفلت بالفواجع والمآسي.

ويقدم الباب الثاني دراسةً عن الحياة السياسية، والأحداث التي جرتْ في عهد بني مروان، فيدرس جهود الخليفتين مروان بن الحكم، وعبد الملك

ابن مروان في إنهاء نفوذ ابن الزبير في المدينة. ورأينا أبا حمزة الخارجي في المدينة المنورة، ودرسنا موقف المدينة من جماعة الخوارج وآرائهم.

وجاء الباب الثالث عن سياسة الخلفاء الإدارية، وقدمنا دراسة شاملةً عن ولاة المدينة المنورة وخصائص سياساتهم في الحكم، وخصصنا فصلاً عن فترة ولاية عمر بن عبد العزيز أميراً وخليفةً التي كانت فترة عدل وإصلاح ورخاء. وشمل الباب دراسة عن قضاة المدينة في العصر الأموي.

ودرسنا الحياة الاجتماعية في الباب الرابع، حيث قمنا بدراسة عناصر وطبقات المجتمع المدني، وقدمنا صوراً اجتماعية معبرة عن حياة الجد وحياة اللهو في المدينة، حيث اجتمع النقيضان. وتجولنا في أرجاء المدينة المنورة لنقدم دراسة عن مظاهر الحياة الاجتماعية، ثم خصصنا فصلاً عن العلاقات الاجتماعية.

ويتناول الباب الخامس (الحياة الاقتصادية ومظاهر العمران في المدينة) بدأناه بدراسة تمهيدية عن جغرافية المدينة المنورة ومواردها الطبيعية وإمكانياتها الاقتصادية. ثم درسنا سياسة الأمويين الاقتصادية والمالية. وقدمنا فصلاً بعنوان (موارد الرزق في المدينة)، فتحدثنا عن موارد الزراعة والتجارة والرعي والصناعة وغيرها. ثم عقدنا فصلاً عن مظاهر العمران في العصر الأموي، رأينا فيه إصلاحات وانشاءات الولاة وقدمنا فصلاً أخيراً عن (وادي العقيق) باعتباره ركناً من أركان الحياة الاقتصادية.

والباب السادس والأخير يدرس (الحياة الفكرية)، درسنا فيه المظاهر المختلفة للنشاط الفكري العظيم الذي شهدته المدينة المنورة، التي أصبحتْ مركزاً فكرياً بارزاً يعج بالعلماء والأدباء والمفكرين. وقد ساعدت مواسم الحج والزيارة على نموّ هذا النشاط الفكري، وخصصنا فصلاً لدراسة العلوم الدينية، وتحدثنا عن أبرز علماء المدينة ومظاهر نشاطهم ونتاجهم العلمي والفكري، ثم قدمنا دراسة شاملةً عن الحياة الأدبية في المدينة المنورة، وتحدثنا عن أشهر الشعراء.

واطلعنا على كثير من المصادر الأصلية والمراجع الحديثة. وترددنا على مكتبات المدينة، ومكة، والقاهرة، وعمان، ودمشق، وقد واجهتنا صعوبات علمية نجحنا بعون الله وتوفيقه في التغلب عليها. ومن أبرز هذه الصعوبات، اختلاف الروايات وتناقضها، وعدم حيادها. ونحن نعلم أن التاريخ الإسلامي تم تدوينه في العصر العباسي، حيث جامل معظم المؤرخين الخلفاء العباسيين، فشوهوا صور العصر الأموي وأساؤوا إلى كل الخلفاء الأمويين، عدا عمر بن عبد العزيز، كما اختلفت المصادر التاريخية الأصلية في تقويم كثير من الشخصيات مثل: عثمان، وعلي، ومعاوية، ويزيد، والحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير. وكان هناك المادحون المبالغون في المدح، والقادحون المبالغون في القدح، والمصادر الشيعية تهاجم طلحة والزبير وعائشة ومعاوية ويزيد. والمصادر السنية تستنكر فاجعة كربلاء، ومأساة الحرة، وحصار ابن الزبير في الكعبة، وهي في الوقت نفسه تجلّ الصحابة وأبناءهم وتبرر مواقفهم.

كما عانينا في جمع المادة العلمية اللازمة لدراستنا لمعالم الحضارة في المدينة في العصر الأموي، والتي خصصنا لها نصف أبواب البحث فالمصادر الأصلية - كما نعلم جميعاً - تركز الاهتمام على أحداث السياسة وتفاصيل المواقع، ولا تهتم كثيراً بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية. واختلفت أحوال المدينة تبعاً لسياسات الخلفاء، وأهواء الولاة، ولما كانت المدينة عاصمة الدولة خلال عهد الخلفاء الراشدين، ثم مركزاً دينياً طوال العصور التالية، فقد أصبحت المدينة تعج بالزوار والقادمين من مختلف الأجناس والفرق والأحزاب، ولكل منهم رأيه السياسي وفكره المذهبي. ولكل منهم تقويمه للأحداث والشخصيات.

كما وفد على العاصمة المدينة في عهد أبي بكر وعمر وعثمان، الرقيق وسبايا الفتوحات، من أجناس مختلفة. كما تدفقت الغنائم والأموال، وزاد الثراء، وارتفع مستوى المعيشة، وترتبّ عليه في العصر الأموي تغيرات اجتماعية، ولذا تعددت الصور الاجتماعية والاقتصادية. وقدم كثير من

المضطهدين سياسياً، في الشام والعراق ومصر، إلى المدينة باعتبارها مدينة ذات مكانة دينية، ليكونوا آمنين في جوار الرسول الكريم.

* * *

وفي ختام هذه المقدمة، أتوجه بجزيل الشكر ووافر الامتنان لأستاذي المشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور علي حسن الخربوطلي، الـذي أفادني بتوجيهاته.

كما أتقدم بعظيم الشكر وبأطيب الثناء، إلى الأستاذين جمال الـدين سرور، وإبراهيم شعراوي، عضوي لجنة المناقشة اللذين تفضلا بقبول فحص الرسالة ومناقشتي فيها، مساهمة منهما في رفعة الدراسات العليا في التاريخ الإسلامي. جزاهم الله تعالى جميعاً كل خير، ونفـع المولى بهم الإسـلام والمسلمين.

* * * *

* * *

*

مكانة هذا الكتاب

لست أول من كتب في تاريخ المدينة المنورة، ولكن سبقني إلى هذا الشرف قدماءُ ومحدثون. وإذا كان الأمر كذلك، فما موقع هذا الكتاب بين ما سبقه من الكتب؟ هل أضاف إلى ما سبقه جديداً يجعله جديراً بالقراءة؟

هل هو حلقة من سلسلة سابقة، أم هو بداية لسلسلة جديدة تنتظر من يتمم حلقاتها؟

الإجابة عن هذه الأسئلة نجده في هذا العرض الموجز:

١ ـ لقد عُني المؤلفون قديماً بتاريخ المدينة المنورة، ووصلنا عدد من مؤلفاتهم من هذه المؤلفات ما زال مخطوطاً، ومنها ما هو مطبوع.

أما المطبوع: فأقدمه كتاب «تاريخ المدينة المنورة» لابن شبه المتوفى سنة ٢٦٢ هـ وقد أرخ لعصر الرسول عليه الصلاة والسلام، والخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، ويعتبر من أوسع ما ألف وطبع في الفترة التي أرخ لها.

و«أخبار مدينة الرسول» تأليف الحافظ محمد بن محمود بن النجار، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ وحققه الأستاذ صالح محمد جمال. وجل عناية المؤلف بالآثار النبوية، ولا سيما المساجد، والآبار، وتاريخ عمارة المسجد النبوي حتى عصر المؤلف.

ومنها كتاب «التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة» تأليف جمال الدين محمد بن أحمد المطري، المتوفى سنة ٧٤١ هـ. وهو رسالة صغيرة تتحدث عن الآثار النبوية وبعض معالم المدينة المنورة.

وكتاب «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة» تأليف أبي بكر ابن الحسين بن عمر المراغي المتوفى سنة ٨١٦ هـ. وهو كما يظن من اسمه، يؤرخ لمعالم مدينة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويخص المسجد النبوي بنصيب وافر. وما رُوي في فضل المدينة وزيارتها، ومساجدها وآبارها وبعض أوديتها.

ومنها كتاب «معالم طابة» تأليف مجد الدين الفيروز أبادي، صاحب القاموس المحيط، المتوفى سنة ٨٢٣ هـ. والمطبوع منه يتعلق بالأماكن والقرى في منطقة المدينة المنورة، ويعتبر تلخيصاً وجمعاً لما كتبه ياقوت الحموي في معجم البلدان.

وكتاب «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» تأليف محمد عبد الرحمن السخاوي المتوفي سنة ٩٠٢ هـ وترجم فيه لرجالات المدينة المنورة على حروف المعجم، ومن أوسع المطبوع وأشمله كتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» تأليف نور الدين علي بن عبدالله السمهودي المتوفى سنة ٩١١ هـ. تحدث فيه عن تاريخ المدينة في الجاهلية وعن تاريخها في الإسلام حتى عصر المؤلف، وقد جمع فيه كل ما كتبه المؤلفون قبله في الآثار النبوية، ومساجد المدينة وآبارها وأوديتها وجبالها، وما طرأ على المسجد النبوي من التوسعة عبر العصور.

وأخيراً من الكتب المطبوعة «عمدة الأخبار في مدينة المختار» تأليف الشيخ أحمد العباسي. وهو تلخيص لكتاب السمهودي. ومؤلفه مجهول. ولا بد أن تأليفه جاء بعد عصر السمهودي.

٢ ـ وفي العصر الحديث، ألفت كتب، كان جل عنايتها بتحقيق الآثار، آثار

المساجد والديار، والأماكن التي لها ذكر في تاريخ صدر الإسلام. ومن أشهرها ثلاثة كتب، لثلاثة مؤلفين من أهل المدينة.

الأول: «آثار المدينة المنورة» للأستاذ عبد القدوس الأنصاري.

الثاني: «فصول من تاريخ المدينة المنورة» للأستاذ علي حافظ. حوى نبذاً متفرقة عن المدينة في القديم والحديث. وكان قد نشره مقالات في جريدة المدينة.

والثالث: «المدينة المنورة بين الماضي والحاضر» للأستاذ إبراهيم العياشي. اهتم فيه بالقبائل - من الأوس والخزرج - ومساكنهم وآثار المدينة ومعالمها، وتحدث عن تطور المدينة المنورة في العهد السعودي.

ولا شك أن كل كتاب من الكتب التي ذكرتها - يقدم فوائد جليلة لقارىء تاريخ المدينة، وإن كانت في أكثرها تكراراً أو تلخيصاً لما سبقها.

٣ - ولما كانت الكتب السابقة، يختص أكثرها بالجانب الأثري، ولم تعن بالجوانب الحضارية والسياسية والأدبية والاجتماعية، رأيت من المفيد أن أتناول تاريخ المدينة المنورة من هذه الجوانب في عصر من عصورها الزاهرة، وهو العصر الأموي ليكون حلقة في السلسلة الجديدة التي بدأها الدكتور محمد العيد الخطراوي، بدراسة حول «شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج». وهو الكتاب الأول في سلسلة «دراسات حول المدينة المنورة». وتتلوها دراسات أخرى عن الحياة الأدبية في العصر الجاهلي.

وقد تناولت العصر الأموي، لأنه العصر المفترى عليه في كتب التاريخ والأدب، حيث عرض تاريخ المدينة في هذا العصر عرضاً بعيداً عن الصدق وظهرت المدينة من خلاله بصورة لا تتناسب مع ما لهذا العصر من السمو. فأردت إبراز الصورة الحقيقية المشرقة لتاريخ المدينة في العصر الأموي، من خلال دراسة الجوانب الحضارية في تاريخها.

٤ ـ ومن مميزات هذه الدراسة أنني رجعت إلى المصادر التي لا يرجع إليها المؤرخون في العصر الحديث. فقد وجدت أن جل اعتماد المؤلفين على ما رواه الطبري، وابن الأثير، والمسعودي، وابن كثير، وغيرهم ممن ألف في تاريخ العصور الإسلامية. وهؤلاء المؤلفون جمعوا في كتبهم الصحيح والسقيم من الأخبار دون أن ينقاشوها. ومن واجب المؤرخ للمدينة المنورة في العصر الأموي أن لا يقبل من الأخبار إلا الصحيح، لأن هذا التاريخ ـ في معظمه ـ سنة، وصانعوه قدوة. ولذلك رجعت إلى كتب تراجم الرجال التي وضعت لخدمة الحديث النبوي الشريف، ويتحرى مؤلفوها الصدق في نقل الأخبار عمّن يترجمون لهم. ومنها: «الطبقات الكبرى» لابن سعد، «والإصابة في تمييز الصحابة»، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني. وكتب التراجم التي ألفها الحافظ الذهبي، وكتب الحديث الصحيح في المواضع التي تتحدث عن مناقب الرجال، ومن ذلك صحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم. وكتب الفقهاء التي ألفت للردّ على المؤرخين وأصحاب الأهواء. مثل «منهاج السنة لابن تيمية» و«العواصم من القواصم» لابن العربي.

وبعد.. فإنني لا أدّعي العصمة من الزلل، فحسب الإنسان أن يجتهد، ويصدق النية في العمل، فالعصمة لا تكون إلا لنبي.

ولا أدعي أنني أتيت في هذا الكتاب بما لم تستطعه الأوائل، فالفضل ثابتٌ لمن سبق، والأجر حاصل ـ إنْ شاء الله ـ لمن لحق، ولا أقول إلا كما قال ابن مالك:

وهو بَسْبقٍ حائزٌ تفضيلا مُستوجبٌ ثنائيَ الجميلا

أرجو الله تعالى القبول، والعفو عن زلات القلم، وحسبي الله ونعم الوكيل.

المؤلف

محمد محمد حسن شُرَّاب

البابُ الأوّل

عام الجماعة

١ ـ تمهيد:

أ ـ الأمويون قبل عام الجماعة.

ب ـ الأحداث قبل العصر الأموي وأثرها على الحياة في المدينة.

جـ ـ انتقال الخلافة إلى الكوفة وأثره على الحياة في المدينة.

٢ ـ عام الجماعة بداية العصر الأموي.

٣ ـ آراء أهل المدينة زمان معاوية.

٤ ـ موقف أهل المدينة من بيعة يزيد بن معاوية بولاية العهد.

أ ـ مراحل أخذ البيعة.

ب ـ رأي في ولاية العهد.



١ ـ تمهيد

أ ـ الأمويون قبل عام الجماعة:

دخلت المدينة في سلطان بني أمية بعد عام الجماعة سنة ٤١ هـ حيث تنازل الحسن بن علي، لمعاوية، فبايعه الناس خليفة على المسلمين. ولكن الأمويين لم يكونوا بمعزل عن التأثير في الأحداث المدنيّة قبل ذلك التاريخ. بل كان لهم تأثير على الحياة في المدنية، أو كانت الأحداث المدنية تؤثر عليهم بما يمهد لقيام الدولة الأموية.. وقد كانت للأمويين زعامة في قريش قبل الإسلام، وتأخر إسلام الكثير منهم إلى يوم الفتح، ولكنهم بعد أن أسلموا عملوا في خدمة الإسلام بروح قوية، لعلهم يعوضون ما فاتهم من شرف الجهاد في سبيل الله، ويكتب لهم من المجد، ما كُتب لمن سبقهم، وعندما قال الرسول ﷺ يوم الفتح «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ظنّ بعض الناس أن «الطلقاء» صفة ذم، وهي في الحقيقة، تعني عفو الرسول عنهم، ومنّةً منّها عليهم، بالعفو عن أعمالهم التي ارتكبوها بمحاربة الإسلام قبل الفتح. وقدّروا للرسول هذه المكرمة، فانطلقوا يعملون على نصرة الإسلام بكل طاقاتهم. قال ابن تيمية في الردّ على مَنْ ذمّ معاوية رضى الله عنه: «وأما قوله: إنه الطليق ابن الطليق، فهذا ليس نعت ذم، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة، وأطلقهم النبي ﷺ، وكانوا نحواً من ألفي رجل، وفيهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام، وعكرمة

بن أبي جهل، ويزيد بن أبي سفيان، وحكيم بن حزام، وأبي سفيان بن الحارث عم النبي ﷺ، الذي كان يهجوه ثم حسن إسلامه.. ومعاوية ممن حسن إسلامه باتفاق أهل العلم»[1].

ويبدو أن الأمويين كانوا ذوي كفاءة وقدرة على تصريف الأمور، وسياسة الأعمال، ولذلك استخدمهم الرسول عليه الصلاة والسلام، عُمّالاً في الدولة الإسلامية. قال ابن تيمية: «ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله، أكثر من بني عبد شمس، لأنهم كانوا كثيرين، وكان فيهم شرف وسؤدد. فاستعمل عتّاب بن أسيد بن أبي العاص[2]، على أفضل الأرض مكة، واستعمل على نجران أبا سفيان بن حرب، واستعمل أيضاً خالد بن سعيد[3] على صدقات بني مذحج، وعلى صنعاء اليمن، فلم يزل حتى مات رسول الله، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص[4] على بعض السرايا ثم استعمله على البحرين، واستعمل يزيد بن أبي سفيان على صدقات بني فراس وكانوا أخواله، واستعمل الوليد بن عقبة[5]، حتى أنزل الله فيه ﴿ إن جاءَكم فاسق بنبأ فتبينوا... الآية ﴾... وكان معاوية رضي الله عنه، يكتب للنبي ﷺ، فيما بينه وبين العرب، فقد كان تقديم الرجال للعمل حسب أوصاف إذا تحققت فيهم كانوا أهلاً للعمل الذي يتولونه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من أمّر رجلاً لقرابة أو صداقة بينهما، وهو يجد

---

(١) منهاج السنة جـ ٢/٢٠٢.

(٢) عتاب بن أسيد، أسلم يوم الفتح، وكان عمره يوم استعمله الرسول على مكة، نيفاً وعشرين سنة، وكان شديداً على المريب، ليناً على المؤمنين، توفي سنة ثلاث عشرة وقيل سنة ثلاث وعشرين (الإصابة/٥٣٩٣).

(٣) خالد بن سعيد ـ من السابقين إلى الإسلام، قيل كان رابعاً أو خامساً، وهاجر إلى الحبشة.

(٤) أبان بن سعيد: أسلم أيام خيبر، وتوفي يوم أجنادين سنة ١٣هـ (الإصابة).

(٥) الوليد بن عقبة.. أسلم يوم الفتح، استعمله الرسول على صدقات بني المصطلق، فعاد وأخبر أنهم ارتدوا، فأرسل إليهم الرسول خالد بن الوليد، فوجدهم متمسكين بالإسلام، فنزلت الآية». انظر أسباب النزول للسيوطي (سورة الحجرات) وانظر «تهذيب التهذيب» جـ١١/١٤٢.

في المسلمين خيراً منه، فقد خان الله ورسوله، وخان المؤمنين». ويقول ابن تيمية: «إن التقديم للعمل لفضيلة الإيمان والتقوى وبحسب أمور أخرى بحسب المصلحة» (المنهاج حـ ٣ /١٧٦). وانظر «فتح الباري» كتاب الفتن حـ ١٣/٦٧.

وكان يزيد بن أبي سفيان[1] أميراً لأجناد الشام زمن أبي بكر وعمر، فلما توفي ولّى عمر مكانه أخاه معاوية بن أبي سفيان[2].

وبدأت بوادر تطلّع الأمويين إلى ولاية أمر المسلمين، بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد أتى أبو سفيان بن حرب علياً عقب وفاة النبي، وطلب منه أن يتولى الأمر، لكون علي كان ابن عم أبي سفيان، وكان أبو سفيان فيه بقايا من جاهلية العرب، يكره أن يتولى على الناس رجل من غير قبيلته وأحب أن تكون الولاية في بني عبد مناف. وكان خالد بن سعيد غائباً، فلما قدم تكلم مع عثمان وعليّ، وقال: أرضيتم أن يخرج هذا الأمر عن بني عبد مناف[3] وفي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، كانت لهم مشاركة في تدبير شؤون الدولة في عاصمة الخلافة، فكان مروان بن الحكم كاتب الخليفة ووزيره قال ابن حجر في «الإصابة» ثم كان مروان من أسباب قتل عثمان.

وذلك عندما جاء أهل الأقاليم إلى المدينة يشكون أمراءهم إلى الخليفة فحقق الخليفة رغبة كل إقليم فيمن يحبون أن يُولَى عليهم[4] وكان على مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فعزله الخليفة ورغب الناس في تولية محمد بن

---

(١) يزيد بن أبي سفيان: من مسلمة الفتح.. كان يقال له: يزيد الخير، توفي زمن عمر سنة ١٨هـ.

(٢) انظر «التاريخ الصغير» للبخاري، ص ٢٥ طبعة الباكستان.

(٣) منها ج السنة حـ٣/١٦٩، وحـ١/١٦١ وقال: فقد أراد أبو سفيان وغيره أن تكون الإمارة في بني عبد مناف على عادة الجاهلية، فلم يجبه إلى ذلك عليّ ولا عثمان ولا غيرهما.

(٤) التاريخ الصغير للبخاري ص ٤٢.

أبي بكر الصديق، فولاه عليهم، وخرج الناس راجعين إلى مصر فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة، إذا هم بغلام على بعير، ومعه رسالة إلى أمير مصر عبدالله بن سعد، وفي الرسالة «إذا أتاك محمد بن أبي بكر، وفلان وفلان، فاحتل لقتلهم، وأبطل كتابه وقرّ على عملك..»[1]. وكان على الكتاب خاتم عثمان رضي الله عنه فلما رجعوا إلى المدينة، وأطلعوا الخليفة على الكتاب، حلف لهم ثلاثاً ما كتب هذا الكتاب ولا أمر به، ولا وجّه هذا الغلام إلى مصر. فشكّوا في أمر مروان، واتهموه بكتابة الكتاب، فطلبوا من الخليفة أن يدفع إليهم مروان، فأبى عثمان أن يخرجه إليهم، وخشي عليه من القتل، فحاصر الناس عثمان، ومنعوه الماء، وكان بعد ذلك مقتله بسبب ما نسب إلى مروان بن الحكم.

وقد صوّب ابن تيمية رأي عثمان في عدم تسليم مروان إلى الخارجين فقال: وغايته أن يكون مروان قد أذنب في إرادته قتلهم، ولكن لم يتمّ غرضه، ومن سعى في قتل إنسان ولم يقتله، لم يجب قتله، فما كان يجب قتل مروان بمثل هذا، نعم، ينبغي الاحتراز ممن يفعل مثل هذا وتأخيره وتأديبه[2].

ونقل ابن كثير في «البداية والنهاية» أن مروان كتب الرسالة على لسان عثمان، متأولاً قوله تعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً، أن يقتّلوا أو يصلبوا... الآية﴾ وعنده أن هؤلاء خرجوا على أمير المؤمنين من جملة المفسدين، قال ابن كثير: «ولا شك أنهم كذلك، ولكن ليس له أن يفتات على عثمان»[3].

وكان مقتل عثمان رضي الله عنه[4]، بداية فتن بين المسلمين سيكون

---

(١) انظر خبر الرسالة في «تاريخ المدينة لابن شبه» حـ ١١٥٩/٤، عن الزهري عن ابن المسيب.
(٢) منهاج السنة حـ ١٩٠/٣.
(٣) البداية والنهاية حـ ١٨٦/٧.
(٤) روى البخاري في التاريخ الصغير، أن أبا عمرو بن بديل الخزاعي، والبجوي دخلا على =

الأمويون طرفاً فيها، فقد اعتبروا أنفسهم أولياء دم عثمان، وطالبوا الخليفة الجديد علي بن أبي طالب، بأن يقتص من الخوارج الذين حاصروا عثمان، وشاركوا في قتله.. وكان دم عثمان أحد الأسباب التي تذرع بها الأمويون في رفض مبايعته بالخلافة، حتى يأخذ بدم عثمان.

وبعد أن بويع عليٌّ بالخلافة في المدينة، خرج من كان بها من رجال الأمويين، فمنهم من توجه إلى الشام، حيث يقيم معاوية بن أبي سفيان ومنهم من توجه إلى مكة، حيث تجمع بعض الصحابة للتشاور في كيفية الاقتصاص من الخوارج، والأخذ بدم عثمان. فقد رأوا أن الإمام علياً لا قدرة له على ذلك، حيث كان محاطاً بالخوارج، وهم كثيرون.. وكانت ثمرة الاجتماع في مكة، أن قرر المجتمعون، الخروج إلى البصرة للقضاء على مَنْ بها من قتلة عثمان، فشارك بعض الأمويين في هذا الجيش، الذي كانت نتيجة خروجه، معركة الجمل، بين الإمام علي، وبين عسكر الجمل، ومعركة صفين بين أهل العراق، وأهل الشام.

وتعتبر معركة الجمل، بداية مرحلة جديدة في حياة المدينة المنورة، حيث اضطر الإمام علي إلى الخروج من المدينة إلى العراق، للوقوف على آراء الصحابة الذين ذهبوا إلى البصرة، ومناظرتهم فيما خرجوا من أجله. وشاءت المقادير أن يتحول الأمر من المناظرة القولية، إلى تحكيم السيف، عندئذ قرر الإمام علي البقاء في الكوفة ليكون بمقربة من أنصاره، وليكون قريباً من بلاد الشام، حيث يقيم معاوية، الذي رفض البيعة للإمام، ورفض الانصياع لأمر الخليفة بعزله عن بلاد الشام... ولمحاربة الخوارج الذين خرجوا عليه بعد معركة صفين.

= عثمان، فطعنه أبو عمرو في ودجه، وعلاه الآخر بالسيف، فقتلاه. فأخذهم معاوية فضرب أعناقهم.

ب ـ الأحداث قبل العصر الأموي وأثرها على الحياة في المدينة:

١ ً ـ مقتل عثمان رضي الله عنه:

كان لمقتل عثمان رضي الله عنه في المدينة، وما جرى بعد ذلك من الفتن، آثار على المدينة، ظهرت نتائجها إبّان العصر الأموي...، وكان بعضها آثاراً سلبية، وبعضها إيجابية.

لقد كان لمقتل عثمان رضي الله عنه أثر مؤلم على نفوس المسلمين، واعتبروا مقتله جناية كبرى في تاريخ الأمة، تنذر بفتن مظلمة؛ فروى البخاري في التاريخ الصغير، عن يزيد بن أبي حبيب[1]، أنه قال: «أعظم ما أتتْ هذه الأمة ثلاث: قتلها: عثمان بن عفان، وهدمها الكعبة، وأخذها الجزية من المسلمين».

وروي أن ابن عباس رضي الله عنهما، خطب بالبصرة، فذكر عثمان، فعظّم أمره وقال: لو أن الناس لم يطلبوا بدمه، لأمطر الله عليهم حجارة من السماء[2]، وعن زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة رضي الله عنه[3]، فقال: ما تعدون قتل عثمان فيكم، أتعدونه فتنة؟ قلنا: نعم، قال: هي والله أول الفتن وآخرها الدجال، وقال حسان بن ثابت في رثائه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحاً وقرآناً

وقال منبئاً عما سيحدث بعد ذلك:

لتَسمعُن قريباً في دياركم الله أكبر يا ثارات عثمانا

وكان أهل المدينة أشد ألماً لمقتله، لأن الفاجعة وقعت أمامهم، دون أن يستطيعوا دفعاً. ولكن الأمويين ـ بعد توليهم الخلافة ـ بنوا معاملتهم أهل

(١) يزيد بن أبي حبيب:... توفي سنة ١٢٨ هـ، كان مفتي أهل مصر في زمانه، وأخذ عنه الليث بن سعد.

(٢) تاريخ المدينة لابن شبة حـ٤/١٢٥٥، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٣.

(٣) حذيفة بن اليمان، توفي بعد مقتل عثمان بأربعين يوماً، كان يسكن الكوفة، وكان صاحب سرّ رسول الله ﷺ، وروى مسلم في صحيحه عن حذيفة أنه قال: «حدثني رسول الله بما كان، وما يكون حتى تقوم الساعة» (تهذيب التهذيب).

المدينة، على موقف أهل المدينة من مقتل عثمان، وكثيراً ما كنا نسمعهم يتهمون أهل المدينة بأنهم خذلوا عثمان ولم يدافعوا عنه.

ولكن هل حقاً ما تناقلته كتب التاريخ في هذا الأمر؟

الجواب عن هذا السؤال في نقطتين:

الأولى: لم يكن أحد من أهل المدينة، مُحرضاً، أو مشاركاً في التحريض على قتل الخليفة، والكتب الصحيحة تروي أسماء رؤوس الفتنة المحرضين والقاتلين، وليس بينهم واحد ممن كان يسكن المدينة.

رُوي عن طلق بن خشاف قال: قلت لعائشة رضي الله عنها[1]: فيم قُتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه؟ قالت: قُتـل مظلومـاً، لعن الله قتلته،: أباد الله ابن أبي بكر - وفي رواية قتل الله مذمماً تريد أخاها - وساق إلى أعين[2] بني تميم هواناً، وأهرق دم ابنَيْ بُديل[3] على ضلالة، ورمى الأشتر[4] بسهم من سهامه.. قال طلق: لا والله إن بقي من القوم رجلٌ إلا أصابته دعوتها. أُخذ ابن أبي بكر فأقيد ودخل على أعين بني تميم رجل فقتله، وخرج ابنا بُديل في بعض تلك الفتن، فقتلا، وخرج الأشتر إلى الشام، فأُتي بشربة فقتلته.

النقطة الثانية: إن أهل المدينة لم يخذلوا عثمان رضي الله عنه، ولكنهم قدموا أنفسهم للدفاع عنه، فالأنصار الذين ناصـروا رسول الله بـأنفسهم وأموالهم لن يتأخروا عن مناصرة خليفة رسول الله.

روى ابن شبه عن سعيد بن أبي عروبة قال: جاءت الأنصار فقالوا:

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة حـ٤/١٢٤٤، والتاريخ الصغير للبخاري ص ٥٢.

(٢) أعين بن ضبيعة التميمي، ذكره ابن حجر في الإصابة (٢٢٢) وهو الذي عقر الجمل الذي كانت عليه السيدة عائشة.

(٣) هما عبدالله، وعبد الرحمن ابنا بديل بن ورقاء، وقد قتلا في موقعة صفين.

(٤) هو مالك بن الحارث. قال ابن حجر: كان ممن ألب على عثمان، ولاه عليّ مصر ومات مسموماً في الطريق (تهذيب التهذيب).

«يا أمير المؤمنين، دعنا نكنْ أنصار الله مرتين، فأمرهم أن يرجعوا». ودخل زيد بن ثابت على عثمان رضي الله عنه فقال: هؤلاء الأنصار يقولون: دعنا نكنْ أنصار الله مرتين، قال: عزمت عليكم لما رجعتم قال: فرجعوا[١]. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لنا عثمان رضي الله عنه: أقسمت عليكم لما ألقيتم السلاح. فألقيت سيفي، فما تقلدته بَعْدُ[٢].

وقد اعتذر ابن كثير عمن كان في المدينة من المسلمين، من عدة وجوه[٣] أحدها: أن كثيراً من الصحابة أوْ كلّهم، لم يكن يظن أن يبلغ الأمر إلى قتل عثمان. والثاني: أن الصحابة ما نعوا دونه أشدّ الممانعة، ولكن لما وقع التضييق الشديد، عزم عثمان على الناس أن يكفّوا أيديهم ويغمدوا سيوفهم. ففعلوا. والثالث: أن هؤلاء الخوارج كانوا قريباً من ألفي مقاتل من الأبطال، وربما لم يكن في أهل المدينة هذه العدة من المقاتلة ومع هذا كان كثير من الصحابة اعتزل الفتنة، ولزموا بيوتهم[٤].

وروى البخاري[٥] عن عبدالله بن عامر بن ربيعة، أنه قام يصلي من الليل، وذلك حين بدأ الناس في الطعن على عثمان، فأُتي ـ في المنام ـ فقيل له: «قم فاسأل الله أن يعيذك من الفتنة التي أعاذ منها صالحي عباده، فقام فصلى، ثم اشتكى، فما خرج قط إلا بجنازته».

وقال ابن تيمية في المنهاج[٦] فإن خيار المسلمين لم يدخل واحد منهم في دم عثمان، لا قتل ولا أمر بقتله، ولا حرّض على ذلك، وغاية ما يقال:

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة حـ ٤/١٢٠٩.
(٢) المصدر السابق حـ ٤/١٢٠٧.
(٣) البداية والنهاية حـ ٧/١٩٧.
(٤) قال ابن تيمية في المنهاج حـ ٣/١٨٦: وأما الصحابة فجمهورهم وجمهور أفاضلهم ما دخلوا في الفتنة، وروى عن محمد بن سيرين، قال: هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله عشرة آلاف فما حضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين، وقال الشعبي. لم يشهد الجمل من أصحاب رسول الله غير علي، وعمار، وطلحة والزبير، فإن جاؤوا بخامس فأنا كذاب».
(٥) التاريخ الصغير للبخاري.
(٦) منهاج السنة حـ ٢/١٨٦.

«إنهم لم ينصروه حقّ النصرة وأنه حصل نوع من الفتور والخذلان حتى تمكن أولئك المفسدون، ولهم من ذلك تأويلات، وما كانوا يظنون أن الأمر يبلغ إلى ما بلغ، ولو علموا ذلك لسدّوا الذريعة، وحسموا مادة الفتنة»...

ويمكن أن ألخص الموقف بالقول: إن أهل المدينة، أرادوا الدفع عن عثمان رضي الله عنه، ولكن الخليفة المحاصر طلب من المسلمين أن يكفوا عن القتال حتى لا تراق الدماء في سبيله، وخشي أن يسأل يوم القيامة: فيم أريقت هذه الدماء. وقد سئل الإمام علي: فأيّ منزلـة وسعت عثمان إذ استسلم حتى قتل، فقال: المنزلة التي وسعت ابن آدم إذ قال لأخيه: ﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله ربّ العالمين﴾[1]...

ولم يكن يخطر ببال الصحابة وأهل المدينة، أن يصل الأمر إلى قتل الخليفة، فحصل ما قدره الله...

وصحابة رسول الله، الذين كانت لهم الكلمة في المدينة، معدلون، مبرؤون من فعل الكبائر، أو التفكير فيها، أو ما يؤدي إليها. قال ابن حجر: «عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذْ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم﴾.. وآيات كثيرة يطول ذكرها وأحاديث شهيرة يكـثر تعدادها، وجميع ذلك يقتضي القطع بتعديلهم، ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله إلى تعديل أحد من الخلق»[2]...

٢ً - قصة عبد الله بن سبأ:

ومما يناسب أن ندفعه عن مقام الصحابة رضوان الله عليهم في هذا الأمر ما روته كتب التاريخ، وتناقله المؤرخون في العصر الحديث، من أن بعض الصحابة، قد أخذوا آراءهم عن اليهودي عبدالله بن سبأ، فيما قيل

(١) سورة المائدة: ٢٨.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة حـ ١/١٥ طبعة أولى سنة ١٣٢٨ هـ.

حول موضوع الفتنة في أيام عثمان رضي الله عنه.. وإليكم هذا التوضيح الذي يزيل الغموض في هذه القضية، ويبين المؤثرات في الأحداث التي جرت.

فمن هو عبدالله بن سبأ؟ وما حجم الدور الذي أداه في الفتنة؟ وما طبيعة هذا الدور؟. وهل أخذ الصحابة آراءهم عنه، وتأثروا به؟

عبدالله بن سبأ، أو ابن السوداء، الذي تنسب إليه الطائفة السبئية، وهم الغلاة من الرافضة. أصله من اليمن، وكان يهودياً من أمة سوداء، فأظهر الإسلام في أيام عثمان، وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن دينهم، وعن طاعة الأئمة، ويلقي بينهم الشرّ. وكان قد بدأ أولاً بالحجاز، ثم بالبصرة، ثم بالكوفة، ثم دخل دمشق أيام عثمان بن عفان، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر، فأظهر مقالته بينهم. وكان يقول: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع. فمحمدٌ أحقُّ بالرجوع من عيسى.

ثم قال لهم: إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان عليٌّ وصي محمد.. وقال: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصيّ رسول الله، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]... وورد ذكره أول مرة في تاريخ الطبري سنة ٣٠ هـ: في أخبار أبي ذر رضي الله عنه: قال: وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاثين ـ كان ما ذُكر من أمر أبي ذرّ ومعاوية وإشخاص معاوية إياه من الشام إلى المدينة، وقد ذُكر في سبب إشخاصه إياه منها، أمور كثيرة. فأما العاذرون معاوية في ذلك فإنهم ذكروا في ذلك قصةً، عن السريّ يذكر أن شعيباً حدثه عن سيف، عن عطية عن يزيد الفقعسي قال: لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية، يقول: المالُ مال الله..

---

(١) تاريخ الطبري سنة ٣٥ هـ. «وتهذيب تاريخ دمشق» لابن عساكر جـ ٤٣١/٧.

كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين... وأتى ابن السوداء أبا الدرداء، فلم يسمعْ له، فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به، فأتى به معاوية، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر.. وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار.. فما زال حتى ولع الفقراءُ بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء.. وشكا الأغنياءُ ما يلقون من الناس، فكتب معاوية إلى عثمان يشكو أبا ذر، فكتب إليه عثمان أن جهزْ أبا ذر إليّ، وابعث معه دليلاً وارفق به.. فرجع أبو ذر إلى المدينة، واعتزل الناس بالربذة حتى مات رحمه الله تعالى.

ويمكن أن نلخص حياة ابن سبأ؟ بالقول: إنه أسلم في أيام عثمان بن عفان ـ وجاء الحجاز ثم رحل إلى البصرة، ثم إلى الكوفة، ثم إلى الشام، ثم إلى مصر، ثم جاء إلى المدينة مع الخارجين على عثمان، ويذكرون له دوراً في الأحداث التي جرت في العراق بعد أن تولّى علي بن أبي طالب، وانتقل إلى العراق، وينتهي أمره حرقاً، كما قال ابن حجر في «لسان الميزان»: «وأحسب أن علياً حرقه بالنار» لأنه أظهر تأليه الإمام علي.

وقصة ابن سبأ ذكرها بعض المؤرخين القدماء، وأضرب عنها بعضهم..

ويلاحظ القارىء أن المصادر التي ذكرت القصة وأفاضت في ذكرها، تجمع كل ما رُوي في الحادثة الواحدة دون مناقشة أو ترجيح. والكتب التي أهملتها تتحرّى في النقل، وتناقش الروايات، وتأخذ بما صحَّ من الروايات، أو بما فيه وجه للصحة..

ومن النوع الأول: كتب التاريخ العام: الطبري، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ دمشق «لابن عساكر».

ومن النوع الثاني: كتب تراجم الرجال: طبقات ابن سعد، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، «والاستيعاب في أسماء الأصحاب» لابن عبد البر، «وتذكرة الحفاظ» للذهبي، وما يشبهها مثل: أنساب الأشراف للبلاذري، وتاريخ المدينة لابن شبة.

وبعض المصادر جمعت بين الطريقين: فابن عساكر في تاريخ دمشق، وضع ترجمةً لابن سبأ، جمع فيها ما وصل إليه من الأخبار. وأغفل ذكره في تراجم الرجال الذين قيل إن ابن سبأ له دور في حياتهم. وكذلك فعل ابن حجر، حيث أغفله في الإصابة وتهذيب التهذيب، وأفرد له ترجمة في «لسان الميزان».

وعلى كل حال، فإننا لا نجد في كتب القدماء مناقشة للروايات التي ذكرت دور ابن سبأ في الفتنة، ولم يصفْها أحدٌ بالصحة أو السقم، يستوي في ذلك من ذكرها، ومن سكت عنها. وعذر من سكت عنها واضح، أنه لم يثق بطرق نقلها فلم يثبتها، ولو صحت عنده لأثبتها!.

أما كتب التاريخ التي روت القصة، فقد سار مؤلفوها على المنهاج الذي رسموه في تأليفهم. فالطبري، لم يكن من منهجه مناقشة الروايات، وإنما كان منهجه الجمع. أما ابن كثير في «البداية والنهاية» فإنه يجمع بين المنهجين»، فنجده أحياناً يضعّف أو يقوي الرواية التي ينقلها، وأحياناً ينقل عن غيره دون إبداء الرأي فيما ينقل.. ولكن متى يروي ويناقش. ومتى يروي ويسكت. الجواب عن هذين السؤالين يطول، وليس من موضوعي أن أتحدث عنه، وأترك للقارىء أمر البحث فيه.

أما المؤرخون في العصر الحديث، فبعضهم أخذ القصة كما رويت في كتب القدماء واعتمد صحتها. وبعضهم شك فيها، وحاول أن يُوجد الأدلة على أن شخصية ابن سبأ أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة[1].

---

(١) «علي وبنوه» لطه حسين. «أدب مصر الفاطمية» محمد كامل حسين «تاريخ الإمامية» عبدالله فيّاض.

ونحن لن ننساق وراء غيرنا، فننفي وجود شخصيته، ولا يهمني في هذا المقام أن أنفي أو أثبت وجود عبدالله بن سبأ، وإنما يعنيني من حياته، الفترة المحصورة بين إسلامه، إلى نهاية سنة ٣٥ هـ: حيث قُتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وهي الفترة الخاصة، بالزمان، والمكان، اللذين يدرسهما هذا الكتاب.

ولذلك فإنني أقسم حياته «في الإسلام» إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: منذ أسلم أيام عثمان بن عفان حتى نهاية الفتنة التي أدتْ إلى مقتل عثمان.

والمرحلة الثانية: بعد مقتل عثمان، وتولية الإمام علي، وانتقال الفتن إلى العراق. ولا تعنيني المرحلة الثانية، لأنها خاصة بوجود فرقة السبئية، وما دار بين الإمام علي، وعبدالله بن سبأ وفرقته، ودور عبدالله بن سبأ في معركتي الجمل، وصفين وقد جرت هذه الأحداث بعيداً عن مسرح دراستنا. وقد كانت المدينة في عهد الإمام علي خالية من الأحداث، منذ أن رحل عنها إلى الكوفة.. ولم يكن للأحداث في العراق تأثير على الحياة العامة في المدينة.

ولكن المؤرخين في العصر الحديث، الذين ناقشوا قصة ابن سبأ، لم يقسموا الموضوع وإنما جعلوه وحدة، فمن أثبت وجوده، وآمن بدوره، أثبت الوجود والدور في عهد عثمان بن عفان، وفي خلافة علي بن أبي طالب. ومن شك في وجوده ودوره عمم شكه على الفترتين...

وكلا الفريقين، له دليل وهدف:

أما الفريق الذي أثبت وجوده، ودافع عن إثبات دوره في الفتنة، فله دليل، وله هدف ومقصد:

أما الدليل: فهو كتب التاريخ الإسلامي: التي أوردت أخبار ابن سبأ، ومن أقدمها وأشهرها، تاريخ الطبري. ولما طعن الطاعنون في روايات

الطبري (ومنهم الشيعة في العصر الحديث) استند المثبتون على روايات كتب الشيعة القديمة التي تذكر قصة ابن سبأ، لأن ذكره في كتبهم دليل على اعتراف الشيعة بوجوده.

أما هدف هذا الفريق: فهو هدف جاد صادق، وهو الاعتذار عن الصحابة الذين عاصروا الفتن أيام عثمان، وعلي بن أبي طالب، وتبرئتهم من كل تهمة وُجِّهت إليهم سواء في الخروج على عثمان، أم في الحرب بين عليّ ومعاوية. ويريدون إثبات أن الصحابة والتابعين لا رأي لهم فيما دار من الأحداث، وإنما الذي حرك الفتن أعداءُ الإسلام من السبئية.

وهو هدف نبيل، ولكنهم أخطؤوا الطريق إليه، وقد أساؤوا من حيث أرادوا أن. . . يحسنوا، كما سنرى فيما يأتي من الكلام.

ولهم هدف آخر أيضاً، يرمون إليه عندما يثور الجدل بين أهل السنة، وأهل الشيعة، وهو إثبات العلاقة بين مبادىء الشيعة، والعقائد اليهودية[1] لأن ـ عبدالله بن سبأ من أصل يهودي. . .

وعلاقة عقائد الشيعة، بالعقائد القديمة قبل الإسلام، أمر واضح، لا يحتاج إلى كثير من الجدل. ولو لم يكن عبدالله بن سبأ من الشيعة، لبقيت العلاقة موجودة، فالعقيدة الشيعية لم تأخذ من اليهودية فقط، وإنما أخذتْ من العقائد الفارسية أكثر مما أخذت من اليهودية، والدليل على ذلك أن أكثر الأمم تشيعاً، وغلواً هم الفرس، أو البلاد التي حكمها الفرس قبل الإسلام.

وأما الفريق الثاني الذي ينفي أو يشك في وجود عبدالله بن سبأ، فيمكن تقسيمه إلى قسمين:

القسم الأول: من شيعة العصر الحديث، فهم ينكرون عبدالله بن سبأ، ولا ينكرون فرقة السبئية. حيث رأوا أن نسبة عبدالله بن سبأ إليهم،

---

(١) انظر كتاب «الشيعة وأهل البيت» تأليف «إحسان الهي ظهير، رئيس تحرير مجلة ترجمان الحديث، في باكستان. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ.

فيه تشويه لمذهب الشيعة عند المسلمين في العصر الحديث، وخاصة بعد ظهور إسرائيل ووجود الرأي العام المناهض لها عند جميع فئات المسلمين، بعد احتلالها فلسطين وتدنيس المقدسات الإسلامية فيها.

واعتمدوا في نفيهم على الروايات التي أوردها أهل السنة لإثبات وجود عبدالله بن سبأ. ولأول مرة يستخدمون أسلوب أهل السنة وسلاحهم في الردّ على خصومهم، حيث طعنوا في روايات الطبري، معتمدين على رأي أهل السنة في رواة الأخبار ولحسن حظهم أن رواة أخبار عبدالله بن سبأ في الطبري، غير مُعَدّلين في رواية الحديث عند أهل السنة.

والقسم الثاني: ممن يشك في وجود عبدالله بن سبأ: هم من المؤرخين، من أهل السنة[1] واعتمدوا في شكهم على ضعف الرواة، وعلى الاضطراب الحاصل في ورود أخبار عبدالله بن سبأ، مع استخدام شيء من المنهج التاريخي الحديث في نقد الأخبار.

والهدف المُعْلن لهم؛ هو تنقية التاريخ العربي من الأخبار التي لا سند لها، وتنافي العقل والمنطق، ويكون فيها تشويه لفترة ذهبية من تاريخ العرب. ومن هؤلاء... طه حسين في «عليّ وبنوه».. ورغم أن طه حسين، متهم في عقيدته، في إحدى مراحل حياته، فلا يمنع هذا أن يصدق القول، وأن يرجع عن رأي سابق وأن يجدد ولاءه للإسلام. ومما يجعل أهل الإسلام يشكون في آرائه، أنه يتخذ المستشرقين قدوته في منهج البحث، ولكن هذا لا يجعلنا نرفض أقواله إذا رأيناها صادقة.

وبعد: ما حقيقة الأمر في قصة ابن سبأ، وهل هو حقيقة أم خيال، وما نصيب الحقيقة مما نسب إليه من الأخبار.

---

(١) أقصد باصطلاح «أهل السنة» أنهم ممن ينتمون إلى أهل السنة وراثة «كما نقول اليوم فلان» سني «وفلان شيعي» وليس معناها أن فلاناً متمسك بالسنة قولاً وعملاً. فهي إذا أطلقت في العصر الحديث، يقصد بها أنه من الفريق المقابل «للشيعة» وقد يقصد بها «السلفيون» إذا ذكرت في بيان الاتجاهات الفقهية عند أهل السنة.

قلت: لن أتبع سبيل أحد الفريقين اتباعاً كاملاً، وسوف آخذ من أحدهما الهدف ومن الآخر بداية طريق البحث، لأتوصل إلى الرأي الذي يكون أقربَ إلى الواقع بعيداً عن الهوى. وسوف أقصر دراستي على دوره أيام عثمان بن عفان: عن دوره في الفتنة، وعن علاقته وتأثيره على بعض الصحابة في الفترة التي ـ قالوا: إن عبدالله بن سبأ، كان يتنقل في الأمصار يبث دعوته ويكوّن الأعوان، ولم تنشأ فرقة السبئية بَعْدُ.

وتنحصر أخبار ابن سبأ في الفترة ما بين سنة **٢٤** هـ: بداية عهد عثمان بن عفان، ونهاية عهد علي بن أبي طالب حوالي سنة **٤٠** هـ وهي فترة خليفتين راشدين، والدنيا عامرةٌ بأصحاب رسول الله، فتاريخ هذه الفترة سنةٌ، وصانعون قدوةٌ، والحُكم على هذه الفترة بغير دليل ظلمٌ للنصف الأول من خير القرون. وقد رأيت أنَّ إبراز شخصية ابن سبأ في هذه الفترة ليس في مصلحة الإسلام، هذا إذا كان حقيقةً، فكيف به إذا كانت تحوط أخباره الشكوك والشبهات والضعف، وليس فيها نقل ثابت يُركن إليه؟.

وإذا كان الأمر كذلك، فما الأدلةُ التي تجعلنا نتوقف عند دراسة أخباره في هذه الفترة، وما الحكمةُ من ذلك:

١ ـ من المعلوم أن التاريخ الإسلامي لم يبدأ تدوينه إلا في العصر العباسي، وتولى التدوين ثلاثُ طوائف: طائفة كانت تنشد العيش بالتقرب إلى ذوي السلطان ومبغضي بني أمية، بما تكتبه وتؤلفه. وطائفة: ظنْت أن التديّن لا يتم إلا بتشويه سمعة أبي بكر، وعمر وعثمان، وبني عبد شمس جميعاً، وطائفة ثالثة: من أهل الإنصاف والدين، كالطبري، وابن الأثير، وابن كثير، وابن عساكر، رأت أن من الإنصاف أن تجمع أخبار الأخباريين من كل مذهب، مثل لوط بن يحيى، . . . وسيف بن عمر. . وقد أثبت أكثر هؤلاء أسماء رواة الأخبار، ليكون الباحثُ على بصيرة من كلّ خبر، بالبحث عن حال رواته. وقد وصلت إلينا هذه التركة، لا على أنها تاريخُنا، بل على أنها مادةٌ غزيرةٌ للدرس والبحث نستخرج منها

تاريخنا[1] وقد أعلن عن هذا الطبري في مقدمة كتابه فقال: «فما يكن في كتابي هذا من خبرٍ يستنكره قارئه من أجلِ أنه لم يعرفْ له وجهاً في الصحة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبَلنا، وإنما أتى من قِبَل بعضِ ناقليه إلينا».

ونحن نعلم أن الفتن التي وقعت بين المسلمين، أدتْ إلى وضع الأحاديث والأخبار حتى قام علماء الحديث ووضعوا للرواية علماً تُصحح على أساسه الروايات، ولكن الاهتمام كان موجهاً إلى غربلة الأحاديث النبوية، والأخبار التي لها مساس بالدين، أما أخبار التاريخ فبقيتْ كما رواها أصحابها. ولذلك قال الإمام أحمد[2] ثلاثة كتب ليس لها أصول: وهي المغازي، والتفسير، والملاحم. قال ابن حجر: ينبغي أن يُضافَ إليها «الفضائل» فهذه أودية الأحاديث الضعيفة والموضوعة. إذْ كانت العمدةُ في المغازي على مثل «الواقدي». وفي التفسير على مثل «مقاتل» و«الكلبي» وفي الملاحم على الإسرائيليات.

وأما الفضائل: فلا تُحصى، كم وضع الرافضةُ في فضلِ أهل البيت، وعارضهم جهلةُ أهل السُّنة، بفضائل معاوية بدءاً وبفضائل الشيخين، وقد أغناهما الله وأغنى مرتبتهما عنها...

ونقل ابن حجر في «لسان الميزان» عن ابن قتيبة قوله: الحديث يدخله الثبوتُ والفسادُ من وجوه ثلاثة: منها الزنادقة. واحتيالهم للإسلام وتهجينه بدسّ الأحاديث المستبشعة والمستحيلة. والقُصّاص: فإنهم يُميلون وجوه العوام إليهم، ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغرائب، ومن شأن العوام ملازمة القصاص ما دام يأتي بالعجائب الخارجة عن نظر العقول.

وإذا حصل الكذب في الأحاديث وكتب التفسير والمغازي، وتجرأ

---

(١) انظر حاشية «العواصم من القواصم» للشيخ محب الدين الخطيب. ص ١٧٧.
(٢) نقلاً عن «لسان الميزان» جـ ١٣/١.

الوضاعون على مقام الدين، فمن باب أولى أن يُكثروا من الكذب في أخبار الناس، إما لهوى في النفس، وإما لكسب العيش وإرضاء ذوي المكانة، أو ليكون مادةً قصصية يشنفون بها آذان الناس يُميلون القلوب نحوهم.

ولذلك عكف رجال الحديث على تنقية بعض أخبار القرن الأول، مما له علاقة بأصحاب رسول الله ﷺ، وما دار في أيامهم من الفتن، وخصصوا لها أبواباً في كتبهم، أو أتوا بها في أخبار الصحابة موزعة (انظر صحيح البخاري، كتاب الفتن ومناقب الصحابة).. وكان اعتماد الفقهاء - في استباط الأحكام - على ما ورد في كتب الحديث من الأخبار، ولم يتخذوا من مرويات كتب التاريخ حجة. وقد حذّر ابن العربي في «العواصم» من كتب التاريخ. فقال: «وإنما ذكرتُ لكم هذا لتحترزوا من الخلق، وخاصة من المؤرخين وأهل الأدب، لأنهم أهل جهالة بحرمات الدين، فلا تبالوا بما رووا، ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث». ويحذّر ممن كان قبله من المؤرخين وأهل الأدب أمثال المسعودي في «مروج نذهب». والمبرد في كتاب «الكامل»[1].

وهكذا فعل ابن تيمية في كتاب «منهاج السنة» عندما ناقش أخبار الفتن التي حصلت في عهد عثمان، وعلي، ويزيد بن معاوية، فكان كلما عرض خبراً مما يرويه خصوم السنة، بدأ ردّه بقوله «ليس فيه نقل ثابت». ودعّم رأيه بالأخبار الصحيحة النقل التي رواها أهل الحديث.

ونحن في تحقيق قصة ابن سبأ، نتبع طريقين:

إحداهما: طريق أهل الحديث: فهم لا يقبلون إلا الأخبار المسندة إلى أشخاص بأسمائهم، ثم يستعرضون أحوال هؤلاء الأشخاص، فيقبلون من صادقهم ويضربون وجه الكذاب بكذبه.

---

(١) العواصم من القواصم.. تحقيق الشيخ محب الدين الخطيب ص ٢٤٨.

والطريق الثاني: طريق علماء التاريخ: وهم يعرضون كل خبرٍ على سجايا من يخبر عنه، ويقارنونه بسيرته، وهل هو مما ينتظر وقوعه مما نسب إليه، ويلائم المعروف من سابقته وأخلاقه؟

وقد شرح ابن خلدون في مقدمته الطريق السليم لمعرفة صحيح الأخبار من سقيمها ونبّه إلى ما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام، فقال[1]: ـ اعلم أن فنّ التاريخ، فنّ غزير المذهب جمّ الفوائد، شريف الغاية، إذْ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبّت ـ يفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات. لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسية وطبيعة العمران والأحوال والاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يُؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق.

وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل، المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل، غثاً أو سميناً، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات.. فضلّوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط).

٢ ـ إن أول، وأقدم من روى قصة عبدالله بن سبأ ـ من مؤرخي أهل السنة هو محمد بن جرير الطبري. ونقل عنه من جاء بعده من المؤرخين. والطبري إمام موثق[2]. ولكنه جمع في تاريخه كل ما روي من الأخبار في أيامه، وذكر مصادر الأخبار وسمّى رواتها لنكون من أمرهم على بينة.

---

(١) المقدمة/ ص ٧.

(٢) محمد بن جرير توفي سنة ٣١٠ هـ. قال ابن حجر في «لسان الميزان»: ثقة صادق، فيه تشيّع =

وقد أورد الطبري أخبار ابن سبأ سنة **٣٠** هـ في أخبار أبي ذر. وسنة **٣٣** هـ في أخبار عبدالله بن عامر، أمير البصرة، وسنة **٣٥** هـ في قصة مجيء أهل مصر إلى المدينة. وفي سند هذه الأخبار سيف بن عمر. وعند الرجوع إلى أهل المعرفة بأحوال الرجال، نجد أن سيف بن عمر، ممن لا يوثق بأخباره. ونقل ابن حجر في «تهذيب التهذيب» جـ **٤/٢٩٦**: إنه كذاب وضعيف. قال ابن معين: ضعيف الحديث. وقال أبو حاتم: متروك الحديث، يشبه حديثه حديث الواقدي. وقال أبو داود: ليس بشيء. وقال النسائي والدارقطني: ضعيف. وقال ابن عدي: بعض أحاديثه مشهورة، وعامتها منكرة. وقال ابن حبّان: يروي الموضوعات عن الأثبات. قال: وقالوا: «إنه كان يضع الحديث. واتهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط».

وعلى هذا، نرفض خبر اتصال ابن السوداء، بأبي ذر، ونرفض قصة المناظرة التي حصلت بين معاوية بن أبي سفيان، وأبي ذر في قضية المال، على أنها من إيحاء ابن سبأ إلى أبي ذر.

٣ ـ ومما يشكك في أثر ابن سبأ، على الحوادث التي دارت في خلافة عثمان، التناقض الحاصل في الروايات التي تخبر عن زمان، ومكان ظهور ابن سبأ. فالمؤرخون الذين ذكروا أخباره يكادون يتفقون على أن بداية ظهور ابن سبأ، كانت في الحجاز، في زمن عثمان، ثم تابع رحلته إلى البصرة، فالكوفة فالشام، وأخيراً في مصر، حيث سار مع أهل الفتنة إلى المدينة سنة **٣٥** هـ.

= يسير وموالاة لا تضرّ. قال: وقد أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال: كان يضع للروافض، قال ابن حجر: وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندّعي عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى. فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه، ولا سيما في مثل إمام كبير. وقد حصل الوهم لوجود من تسمى باسمه واسم أبيه من الروافض. وهو محمد بن جرير بن رستم الطبري، وللأخير تآليف كثيرة.

أ - ولم تحدد الروايات سنة إسلامه، واكتفوا بالقول: إنه أسلم زمانَ عثمان، ولم تذكر الروايات شيئاً عن نشاطه بالحجاز، فلم يُرو أن أحداً التقى به أو رآه أو سمع منه، ولم تـذكر محـاولةً عن بث دعوته..

ب - في المرحلة الثانية من رحلته - حسب المخطط الذي وضعوه له - يظهر في البصرة في إمارة عبدالله بن عامر. وتقول رواية الطبري في أحداث سنة ٣٣ «لما مضى من إمارة ابن عامر ثلاث سنين بلغه أن في عبد القيس رجلاً نازلاً على حكيم بن جبلة، وكان حكيم رجلاً لصاً، شكاه الناس إلى عثمان، فكتب إلى عبدالله بن عامر أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجَنَّ من البصـرة حتى تأنسـوا منه رشداً، فحبسه، فكان لا يستطيع أن يخرج منها. فلما قدم ابن السوداء نزل عليه واجتمع إليه نفر، فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح، فقبلوا منه، وأرسل إليه ابن عامر، فسـأله: مـا أنت. فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام، ورغب في جوارك.. فقال ابن عامر: اخرج عني، فخرج حتى أتى الكوفة..

وقد تولى ابن عامر إمارة البصرة سنة ٢٩ هـ واكتشف وجود ابن سبأ بعد ثلاث سنوات من إمارته، فيكون قد التقى به سنة ٣٢، أو سنة ٣٣ هـ».

جـ - في المرحلة الثالثة: تكتفي الرواية بالقول: إنه خرج من البصرة، حتى أتى الكوفة فأُخرج منها.. ولم يذكروا شيئاً عن نشـاطه في الكوفة، وكيف أُخرج منها وما سبب خروجه.. وقد سيّر عثمان في سنة ٣٣ هـ جماعة من أهل الكوفة إلى الشام لما كان بينهم وبين سعيد بن العاص، ولم تذكر الروايات أن لابن سبأ تأثيراً عليهم.

د - وفي المرحلة الرابعـة، حسب سير رحلتـه، يصل ابن سبـأ إلى

الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر.

ومن المفروض حسب التسلسل الزمني والمكاني للرحلة، أن يكون ابن سبأ في الشام سنة ٣٣ هـ. لأنه ظهر في البصرة في نهاية سنة ٣٢ هـ، ثم مكث في الكوفة فترة حتى اكتشفوا خبثه، وركب راحلته حتى أتى الشام..

ولكن الغريب أن أخباره في الشام مرتبطة بأخبار أبي ذر، وما دار بينه وبين معاوية: والمناظرة بين معاوية وأبي ذر حصلت سنة ٣٠ هـ: يقول الطبري: في أحداث سنة ٣٠ هـ: «وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاثين ـ كان ما ذكر من أمر أبي ذرٍ ومعاوية، وإشخاص معاوية إياه من الشام إلى المدينة». قال الطبري: وقد ذُكر في سبب إشخاصه إياه منها أمور كثيرة كرهت ذكر أكثرها: فأما العاذرون معاوية فإنهم ذكروا في ذلك قصة جاء فيها: لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر ألا تعجبُ إلى معاوية، يقول: المالُ مالُ الله.. إلخ وأتى ابنُ السوداء أبا الدرداء، فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهودياً فأتى عبادةَ بن الصامت، فتعلق به، فأتى به معاويةَ، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر..

ويظهر الاضطراب في رواية وجود ابن سبأ في الشام من وجوه:

١ ـ أن لقاء ابن السوداء بأبي ذر حصل سنة ٣٠ هـ: وابن السوداء في هذه السنة لم يكتشف ظهوره بعدُ، فقد كان نازلاً على حكيم بن جبلة أو في أي مكان آخر واكتشف ابن عامر وجوده بعد ثلاث سنوات من ولايته. فكيف يكون في البصرة والشام في وقت واحد؟ وقد عاد أبو ذر إلى المدينة سنة ٣٠ هـ، وتوفي سنة ٣٢ هـ في الربذة.

٢ ـ من الغريب أن يسمع أبو ذر لابن سبأ، ويأخذ عنه، ويتأثر بأقواله ولم يسمع له أبو الدرداء، وعبادة بن الصامت مع أنهما كانا شديدين في الحق وكان بينهما وبين معاوية مناظراتٌ وخلاف، ولم يكونا أكثر علماً من أبي ذر(١).

٣ ـ والغريب أيضاً: أن معاوية لم يتخذ موقفاً من ابن سبأ، ولم تذكر الروايات إنْ كان معاوية قد ضاق به، أو شكاه، أو ناظره كما يفعل مع غيره.

وكيف يتركونه يتنقل بين الأقاليم يبث دعوته الضالة، وأمصار المسلمين تكوّن دولةً واحدة، وما يحصل من الفساد في مصر، يؤثر على باقي الأمصار.

هـ ـ المرحلة الأخيرة ـ زمان عثمان ـ وصوله إلى مصر، ومصاحبته الخارجين إلى المدينة: وتقول رواية الطبري: «فأخرجوه من الشام حتى أتى مصر ـ فاعتمر فيهم.. وبث فيهم فكرة «الرجعة» «والوصاية».. وبث دعاته وكاتب من استفسد من الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم»... وأرسل عثمان بن عفان من يستطلع أخبار الأمصار، فكان عمار بن ياسر رسول الخليفة إلى مصر، فعاد الرسلُ جميعُهم إلا عمار بن ياسر فقد «استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا إليه، منهم عبدالله بن السوداء..».

وهناك رواية أخرى في تاريخ دمشق لابن عساكر، عن سيف بن عمر: «لما قدم ابن السوداء مصر.. بدأ فطعن على عمرو بن العاص. وقال ما باله أكثركم عطاء، ألا نصيب رجلاً من قريش يسوي بيننا.. فسألوا عبدالله بن سعد فأشركه مع عمرو،

(١) انظر تاريخ ابن عساكر: ترجمة عبادة بن الصامت: وروي عن الإمام أحمد أن معاوية كتب إلى عثمان: أن عبادة قد أفسد عليّ الشام وأهله»..

فجعله على الخراج، وولى عمراً على الحرب، ثم دخلوا بينهما حتى كتب كلٌّ واحدٍ منهما إلى عثمان بالذي بلغه عن صاحبه، وعزل عثمان عمراً وولاها ابن سعد..». (ابن عساكر جـ ٧).

وفي رواية ابن عساكر تناقض واضح، لأن عمرو بن العاص عزل عن مصر ـ عن خراجها وحربها ـ سنة ٢٧ هـ[1].. فكيف تصدق هذه الرواية، وعبدالله بن سبأ سنة ٢٧ هـ، لم يكن ظهر إلى الوجود بعد، ولم يكن قد بثّ دعاته! لأنه ـ كما يقولون ـ كان يصطنع الدعاة بنفسه في كل بلد يدخلها، ومصر كانت آخر بلد دخلها.

٤ ـ أما المصادر التي أفاضت في أخبار ابن سبأ ـ زمان عثمان ـ فهي مصادر تاريخية بحتة ـ تاريخ الرسل والملوك، والكامل، والبداية والنهاية ـ وقد تحدثنا سابقاً عن قيمة أخبار هذه المصادر. ولذلك قال ابن حجر في «لسان الميزان» وأخبار عبدالله بن سبأ شهيرة في التواريخ. ولكن مصادرنا عن هذه الفترة ليست كتب التاريخ وحدها، وإنما نرجع إلى كتب تراجم الرجال. ويعنينا من تراجم الرجال من قيل: إن لابن سبأ تأثيراً عليهم، أو كان بينهم وبينه لقاء، وكان لهم ذكر في الحوادث التي دارت أيام عثمان، وهم: أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي حذيفة، وغيرهم ممن قيل إنهم قادوا الخارجين على عثمان. وقد عرفنا أن كتب التاريخ، تجمع دون أن تتحرى.. أما كتب الرجال، فإنها تعنى بالتوثيق أو التجريح، ولذلك فإنها تنقد الأخبار قبل نقلها: لأن الهدف من تأليفها إعطاؤنا صورة صادقة عن الرجال الذين يؤخذ عنهم العلم الشرعي. فإن

(١) الطبري أحداث سنة ٢٧ هـ. «والبداية والنهاية» لابن كثير سنة ٢٧ هـ وفيه أن عمراً عمل لعثمان أربع سنوات، وقد تولى عثمان الخلافة سنة ٢٤ هـ. وفي الإصابة ترجمة عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد: ويقول أن عمرو بن العاص عزل عن مصر سنة ٢٥ هـ. وربما يقصد العزل الجزئي حيث عزل أولاً عن الخراج، وبقي على الحرب، ثم عزل عن الحرب.

كانوا أهلاً للثقة أخذنا عنهم، وإن كانوا متهمين رفضنا قولهم. وهناك أيضاً كتب تاريخية، تحرى أصحابها في نقل أخبارهـم، ولم يرووا إلا ما صح عندهم، وهذه يمكن أن نضيفها إلى كتب تراجم الرجال التي ألفت لخدمة العاملين في حقل العلوم الشرعية.

وسوف أستعرض عدداً من هذه المصادر لنرى موقف مؤلفيها من أخبار ابن سبأ، في الفترة التي نتحدث عنها.

وأبدأ بابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ والذي وضعت علوم الإسلام كلها بين يديه بعد أن بلغت الكمال والتمام، ولم يأت من يزيد عليها، فأخذ يجمع، ويلخص، ويبوّب، وينخل، وترك لنا رصيداً جيداً من الكتب في معرفة أحوال الرجال، ومنها: «الإصابة في تمييز الصحابة» و«تهذيب التهذيب» و«لسان الميزان» وقد رجعت إلى تراجم الصحابة «عثمان بن عفان» و«أبي ذر الغفاري» و«عمار بن ياسر» وإلى ترجمة: «محمد بن أبي حذيفة»، و«عبدالله بن سبأ» وقد أفاض في تراجم الصحابة الثلاث، وذكر ما صح عنده من أخبار الفتن، ولكنني لم أجد لابن سبأ ذكراً في حياتهم.

وفي ترجمة «محمد بن أبي حذيفة» يذكر دوره في الفتنة، وتحريضه على عثمان ويروي طرفاً من وسائله في تأليب الناس. ولكنه ينسبها إليه، على أنها من وحي خاطره فقد كان هذا الرجل ذا ذكاء في هذا الموضوع، وله موهبة في إثارة الفتن. ومما يرويه من قصصه عن أبي عمر الكندي في «أمراء مصر»: أن.. ابن أبي حذيفة كان يكتب الكُتب على ألسنة أزواج النبي في الطعن على عثمان. وكان يأخذ الرواحل فيحصرها، ثم يأخذُ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم، فيجعلهم على ظهر بيت في الحرّ، فيستقبلون بوجوههم الشمس ليلوحهم تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة، ثم يرسلوا رسلاً يخبرون بقدومهم، فيأمر بتلقيهم، فإذا لقوا الناس، قالوا لهم: ليس عندنا خبر، الخبر في الكتب، فيتلقاهم ابن أبي حذيفة ومعه الناس، فيقول لهم الرسل: عليكم بالمسجد، فيقرأ عليهم الكتب من أمهات

المؤمنين: إنا نشكو إليكم يا أهل الإسلام كذا، وكذا من الطعن على عثمان فيضج أهل المسجد بالبكاء والدعاء».

وفي «لسان الميزان» ترجمة لابن سبأ: لم يحدد فيها بداية لظهوره، ولم يذكر شيئاً عن نشاطه في عهد الخليفة عثمان. ومما قاله: «عبدالله بن سبأ من غلاة الزنادقة ضال مضل، أحسب أن علياً حرّقه بالنار..». ونقل عن ابن عساكر، أنه من يهود اليمن أظهر الإسلام وطاف بلاد المسلمين، ليلفتهم عن طاعة الأئمة.. ودخل دمشق لذلك..». ولم يحدد زمن ظهوره، أو البلاد التي طاف فيها.

ثم قال: «وأخرج - ابن عساكر - من طريق سيف بن عمر في الفتوح له قصة طويلة لا يصح إسنادها».. ولم يبين لنا أي قصة يريد. وأطول قصة في ترجمة ابن سبأ، عند ابن عساكر، التي يقص فيها رحلة ابن سبأ ابتداء من البصرة، ونهاية بمصر، والتي يقول فيها إن ابن سبأ قد التفّ حول عمار بن ياسر عندما كان عمار بمصر». وقصة أخرى يروي فيها أن ابن سبأ طعن على عمرو بن العاص عندما كان أميراً على مصر[1].

ثم يروي ابن حجر في «لسان الميزان» عدداً من الروايات عن نشاط ابن سبأ في عهد الإمام علي، ويحدد أماكن هذا النشاط، بأنه حصل في العراق، لأن رواة الأخبار من أهل الكوفة الذين عاصروا الإمام عليّ أثناء وجوده في الكوفة.

ونرجع إلى الوراء قليلاً، فنجد المؤرخ العلامة الحافظ محمد بن أحمد الذهبي المُتوفى سنة ٧٤٨ هـ وله عدد من المؤلفات في تاريخ الرجال، من أشهرها: «تذكرة الحفاظ» و«سير أعلام النبلاء». فنجد مروياته خالية مما نسب إلى أبي ذر، وعمار وغيرهما، ممن قيل أنهم اتصلوا بابن سبأ.

---

(١) انظر «ترجمة عبدالله بن سبأ» في تاريخ دمشق لابن عساكر جـ ٧/ ٤٣١.

ومن أهل الأندلس: يوسف بن عبدالله، المشهور بابن عبد البر: وله كتاب «الاستيعاب في أسماء الأصحاب»... وهو من كبار حفاظ الحديث، يقال له: حافظ المغرب متوفى سنة ٤٦٣ هـ: وقد رجعت إلى تراجم الصحابة في كتاب الاستيعاب فوجدتها خالية من أخبار ابن سبأ، مع أنني رأيته أكثر تساهلاً من غيره في نقل الأخبار.

ونرجع إلى الوراء، فنجد محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ. صاحب الطبقات وهو من أهل العدالة، يتحرى في كثير من رواياته، كما يقول ابن حجر في «تهذيب التهذيب». ونجد رواياته خالية من أخبار ابن سبأ في فترة خلافة عثمان.

ولابن قتيبة« كتاب المعارف» الذي جمع فيه من ضروب المعرفة الكثير مما يحتاج إليه الناس. وقد ترجم لعشرات من الصحابة والتابعين، والفقهاء، والخلفاء.. وفي «معرفة» ابن سبأ ذكر نسبة فرقة السبئية إليه، وأن علياً أحرقه وأصحابه بالنار». ولم ينسب إليه اتصالاً بأحد من الصحابة في عهد عثمان..

وابن قتيبة عالم ثقة، نقل عنه ابن حجر في «لسان الميزان» وقد نقل محقق كتاب «المعارف» رأي العلماء فيه، ومنها قول ابن تيمية: إن ابن قتيبة لأهل السنة مثل الجاحظ لأهل المعتزلة، يريد أنه يدافع عن مذهب أهل السنة عن إيمان وصدق، كما يدافع الجاحظ عن مذهب المعتزلة عن اقتناع بمذهبهم».

ويقول الخطيب البغدادي: «وكان ابن قتيبة ثقةً ديناً فاضلاً».

ويقول الحافظ الذهبي «ابن قتيبة صاحب التصانيف الكثيرة، صدوق قليل الرواية». وقد نُسب إليه «كتاب الإمامة والسياسة» وهو ليس من مؤلفاته. وقد شك ابن العربي في نسبة الكتاب إليه. وقال الشيخ محب الدين: «إن مؤلف «الإمامة والسياسة» يروي كثيراً عن اثنين من كبار علماء مصر، وابن قتيبة لم يدخلْ مصر، ولا أخذ عن هذين العالمين،

فدل ذلك على أن الكتاب مدسوس عليه».

ولنرجع إلى «صحيح البخاري» وفيه الكثير من أخبار الصحابة في باب «مناقب الصحابة». وباب «الفتن»، وغيرهما. وهناك أبواب خاصة عن مناقب عثمان، وعمار، وأبي ذر. ولم يصح عنده شيء من اتصال ابن سبأ بهما. وهناك إشارة إلى «أن علياً حرق قوماً» قال الشارحون إنهم أتباع عبدالله بن سبأ، وقال بعضهم: إنهم قوم يعبدون الأصنام[1].

وأختم الكلام عن المصادر الموثوقة، بثلاثة كتب في التاريخ، عرف عن أصحابها الصدق والتحري فيما يكتبون.

وأقدمهم كتاب «تاريخ المدينة المنورة» لعمر بن شبة النميري، المتوفى سنة ٢٦٢ هـ[2] وهو موثق عند أهل الحديث، وقال الذهبي: كان ابن شبة بصيراً بالسير والمغازي وأيام الناس، وذكر من مصنفاته كتاباً «في أخبار المدينة».

وقد فصّل القول في سيرة عثمان بن عفان، وجمع روايات كثيرة عن الفتنة، وعن الرجال الذين نُسْبَ إليهم خصومة مع عثمان بن عفان، ومنهم: الإمام علي، وطلحة والزبير وعبدالله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وأبي ذر الغفاري رضي الله عنهم. وتحدث عن رجال الفتنة من زعماء البصرة والكوفة ومصر، وعلى الرغم من كثرة الروايات التي أوردها، فإنني لم أجد ذكراً لابن سبأ.

والكتاب الثاني: «أنساب الأشراف» تأليف أحمد بن يحيى البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ. وفي «لسان الميزان» وكان عالماً فاضلاً نسابة متقناً». وعنده كلام واسع عن أخبار عثمان ومقتله، وأخبار الصحابة. وليس في

---

(١) انظر «إرشاد الساري» جـ١٤٧/٥. باب «لا يعذب بعذاب الله». وذكر ابن حجر في «فتح الباري» إنهم من الزنادقة.

(٢) في «تهذيب التهذيب» روي أنه توفي سنة ٢٠٢ هـ، وولد سنة ٧٣ هـ. وما نقلته عن تذكرة الحفاظ للذهبي، ووافقه الزركلي في الأعلام.

أخباره ما يشير إلى اشتراك ابن سبأ في الفتنة أيام عثمان.

وأخيراً كتاب «العواصم من القواصم» لابن العربي محمد بن عبدالله المتوفى سنة ٥٤٣ هـ. وهو كتاب، الغرض من تأليفه، التحقيق فيما روي عن مواقف الصحابة في الفتن التي دارت في النصف الأول من القرن الأول. وكان في دراسته ناقداً واعياً، يعرض الأخبار على منهاج أهل الحديث، فما وجد فيه نقلاً صحيحاً أخذ به، ويضرب بروايات المؤرخين عرض الحائط، إذا خالفت الطريق الصحيح في النقل، وعارضت المنهج الإسلامي في التطبيق.

ولا يفوتني أن أذكر كتاب «منهاج السنة» لابن تيمية، وهو شبيه بكتاب «العواصم» في منهجه. فكلاهما يحقق في الروايات التي تنسب إلى الصحابة ما لم يفعلوه، أو يقولوه، وكلاهما فقيه، ينقد الروايات بناءً على السند، ويعرض المتن على ما صح من أصول الشرع، وقد جعل ابن تيمية لابن سبأ دوراً في الفتن التي دارت زمان عثمان، وزمان علي، ولكنه لم يعتمد في ذلك على رواية تاريخية، ولم ينسب لرجل بعينه تأثراً به. فقال في سبب نشوء الفتن أيام عثمان «جـ ٤/٢٢٦» ونشأ في خلافته - يريد عثمان - من دخل في الإسلام كرهاً، فكان منافقاً، مثل ابن سبأ وأمثاله، وهم الذين سعوا في الفتنة بقتله. وفي المؤمنين من يسمع المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وفيكم سماعون لهم﴾.

وفي الجزء الثالث ص ٢٢٠ يقول: «وظهر في زمنه - يريد علي بن أبي طالب الغلاة كعبدالله بن سبأ - وظهر في زمانه الخوارج عليه، ومن الفرقتين ابتدأت الضلالة».

وبعد: فإنني لم أستقص المصادر الموثوقة كلها، ولو أردت ذلك لطال الكلام وليس هنا مكان التوسع فيه، وهو بحاجة إلى دراسة مستقلة.

٥ - أحوال الرجال: إن دراسة أحوال الرجال، الذين نُسب إليهم اتصال بابن سبأ، أو تأثروا به، تجعلنا ننكر كلّ ما قيل. لأن الخبر الصحيح

يجب أن يناسب حال من نُسب إليه أنه فعله.

وممن نُسب إليهم اتصالٌ بابن سبأ: من الصحابة: أبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر. ونبدأ بدراسة حال هذين الصحابيين رضي الله عنهما:

أولاً: أبو ذر الغفاري:

لم يلق ابن سبأ، ولم يأخذ عنه، ولا تأثر بآرائه. والأدلة على ذلك كثيرة منها: أنه ليس هناك نقلٌ ثابت صحيح في هذا الموضوع. ورأينا قبل قليل أن قصة اللقاء لم تذكرها الكتب الصحيحة.

ومنها ما نأخذه من حياة أبي ذر:

وقد وردت قصة إسلام أبي ذر في الصحيحين[1]. ونأخذ من الروايتين أدلةً على سلوك أبي ذرٍ. حيث كان: جهَّاراً بالحقّ لا يخشى فيه لومة لائمٍ. وقد جهر بالشهادتين بعد إسلامه بين ظهراني قريش، فقام عليه القوم حتى أضجعوه، فدفع عنه العباسُ، وفي اليوم التالي عاد لمثلها فضربوه».

وفي «الاستيعاب» أن الرسول قال له: واكتم أمرك عن أهلِ مكةَ، فإني أخشاهم عليك، فقال: «والذي نفسي بيده، لأصوتنّ بها بين ظهرانيهم».

وفي صحيح مسلم، أنه قال: صليتُ قبل أن يُبعث النبيُّ ﷺ حيث وجهني ربي... وأنه أول من حيَّا رسول الله بتحية الإسلام، وأنه عندما جاء يسأل عن رسول الله، رماه الناس حتى صار كأنه نُصْبٌ أحمرُ. وفي «الإصابة» ويقال: إن إسلامه كان بعد أربعةٍ، وانصرف إلى بلاد قومه، فأقام بها حتى قدم رسول الله المدينة، ومضت بدر وأحد، ولم تتهيأ له الهجرة إلا بعد ذلك.

وأخرج الإمام أحمد بسندٍ رجاله ثقات عن أبي ذر، عن رسول الله:

---

(١) صحيح البخاري «باب مناقب الصحابة» جـ ١٨٩/٦. من إرشاد الساري، شرح القسطلاني و«صحيح مسلم». جـ ٣٥٩/٩ من شرح النووي.

«إنَّ أقربكم مني مجلساً يوم القامة مَنْ خرج من الدنيا كهيئته يوم تركتُه». وإنه والله ـ يقول أبو ذر: «ما منكم أحدٍ إلا وقد نَشِبَ فيها بشيء غيري».

وروى ابن حجر عن أبي داود، وأحمد «قول الرسول عليه الصلاة والسلام: ما أقلت الغَبْراءُ، ولا أظلت الخضراءُ أصدقَ لهجة من أبي ذرٍ». وأخرج أبو داود بسند جيد عن علي بن أبي طالب «أبو ذر وعاءٌ مُلِيء علماً ثم أوكيء عليه». ونقل ابن حجر: «وكان أبو ذر يوازي ابن مسعودٍ في العلم». وروى ابن عبد البر أن النبيَّ ﷺ قال: «أبو ذرٍ في أمتي على زهدِ عيسى ابن مريم عليه السلام».

هذه الأخبار عن حياة أبي ذر، تدل على أنه مهيأ بفطرته إلى دعوة الزهد والجهر بالحقِ، وتحمّل الأذى في سبيل ما يعتقد. ورافق ذلك، علمٌ بكتاب الله وسنة رسوله، وشهد ما كان عليه أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما من التقشف والزهد في الدنيا، فأداه اجتهاده إلى إنكار ما رأى من التوسع في الإنفاق أيام عثمان. قال ابن تيمية في «منهاج السنة» جـ ١٩٨/٣ «فإنَّ أبا ذرٍ كان رجلاً صالحاً، زاهداً، وكان مذهبُه أن الزهد واجبٌ، وإن ما أمسكه الإنسانُ فاضلاً عن حاجته، فهو كنز يُكوى به في النار. واحتج بما سمعه من رسول الله ﷺ وهو أنه قال: يا أبا ذر، ما أُحب أنّ لي مثلَ أحدٍ ذهباً يمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار، إلا ديناراً أرصدُه لدَيْنٍ» وأنه ﷺ قال: «الأكثرون هم الأقلون يومَ القيامة، إلا مَنْ قال بالمال هكذا، وهكذا..».

وقال أيضاً في بيان الظروف التي أدت إلى دعوة أبي ذر: «وكان عمر بن الخطاب يقوّم رعيته تقويماً تاماً، فلا يتعدّى لا الفقراء ولا الأغنياء، فلما كانت خلافةُ عثمان، توسع الأغنياءُ في الدنيا حتى زاد كثيرٌ منهم على قَدْر المباح في المقدار والنوع، وتوسع أبو ذر في الإنكار حتى نهاهم عن المباحات.. ثم قال: وقد وافق أبا ذر[1] على هذا طائفةٌ من النساك، وأبو ذر مجتهدٌ في ذلك مُثابٌ على طاعته كسائر المجتهدين من أمثاله».

(١) قوله: وقد وافق أبا ذر... طائفة: يلاحظ أن أبا.. مفعول به منصوب. وطائفة.. فاعل =

وقال ابن العربي في «العواصم من القواصم»: كان أبو ذر زاهداً، وكان يقرّع عمالَ عثمان، ويراهم يتّسعون في المراكب والملابس حين وجدُوا، فينكر عليهم ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم. . فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام، فخرج إلى المدينة، فاجتمع إليه الناس، فجعل يسلك تلك الطريق فقال له عثمان: لو اعتزلتَ. معناه: إنك على مذهب لا يصلُح لمخالطة الناس، فإنَّ للخلطة شروطاً، وللعزلة مثلها، فخرج إلى الربذة زاهداً فاضلاً، وترك جِلَّةً فضلاء، وكلٌّ على خيرٍ وبركة وفضلٍ، وحال أبي ذر أفضل، ولا تمكن لجميع الخلق، وإنما هي مخصوصةٌ ببعضهم».

وهكذا نرى أنَّ ما دعا إليه أبو ذرٍ كان اجتهاداً منه، وظهرتْ دعوتُه زمان عثمان لأن المظاهر التي أنكرها لم تكن موجودةً زمان عمر، فلم يكن الخير قد اتسع كما اتسع زمان عثمان.

وقد كان أبو ذرٍ يدعو إلى ما دعا إليه، قبل أن يذهب إلى الشام، ويروي ابن شبه في تاريخ المدينة جـ٣/١٠٤٠، أن أبا ذر، لحق بالشام للسبب نفسه الذي شكا منه معاوية. عن ابن عباس قال: قال عثمان رضي الله عنه لأبي ذر أنت الذي تزعمُ أنك خيرٌ من أبي بكر وعمر؟! فقال أبو ذر: ما قلتُ هذا، قال عثمان: قلت: إن رسول الله قال: إن أحبكم إليّ وأقربكم مني، الذي يأخذ بالعهد الذي تركتُه عليه حتى يلحقني «وكلكم قد أصاب من الدنيا غيري، فأنا على العهد، وعلى الله البلاغُ. قال له عثمان: الحق بمعاوية، فأخرجه إلى الشام. فلما قدم على معاوية، قدم رجلٌ حديثُ العهد برسول الله فأخذ بقلوب الناس، فأبكى عيونهم وأوغر صدورهم».

أبعْدَ هذه الأدلةِ من دليلٍ على أصالة رأي أبي ذر. وأنه نابع من شخصيته وأنه موافق لما جاء في السنة المطهرة، وسيرة جِلّةٍ من الصحابة؟

وعندما طلب عثمان من أبي ذر اعتزال الناس، لا لأنَّ آراءه تخالف

= مرفوع. فقد جاء من بعده من وافقه. ولم يكن أبو ذر ـ موافقاً من سبقه، كما سنرى من الادعاء بموافقته مذهب «مزدك».

الإسلام وإنما أراد عثمانُ مَنْع فتن يمكن أن تحدث يكون ضررها أكثر (منهاج السنة جـ ٣).

إن الذين يريدون إثبات دور ابن سبأ في الفتنة زمانَ عثمان، يضعون في أيدي أعداء الإسلام سلاحاً قوياً للهجوم على الإسلام.

وقد قلت سابقاً إنَّ المثبتين يهدفون إلى وجود العلاقة بين عقيدة الغلاة من الشيعة، وبين العقائد اليهودية.. وهذه لا تحتاج إلى دليل.. فلو لم يكن ابن سبأ منهم، لعرفنا أثر المبادىء اليهودية الفارسية على مذهب غلاة الشيعة. لأن الفكر الإسلامي الأصيل يدل على نفسه، والفكر الدخيل ظاهر ظهور الرقعة السوداء في الثوب الناصع البياض.

ويأخذ أعداء الإسلام، من إقحام شخصية ابن سبأ في الفتن الأولى - دليلًا على عدم أصالة الفكر الإسلامي حتى عند كبار الصحابة الذين نأخذ عنهم الحديث والفقه. وهذا ما ذهب إليه أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام» ص ١١٠ عندما قال: ونلمح وجه شَبَهٍ بين رأي أبي ذر الغفاري، وبين رأي مزدك في الناحية المالية فقط.. ثم يتساءل: ولكن من أين أتاه هذا الرأي؟ ويجيب عن هذا السؤال بالقول: «إن ابن السوداء لقي أبا ذرٍ، فأوعز إليه بذلك»، ويقول: ونحن نعلم أن ابن السوداء هذا، طوّف في بلاد الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن، واعتنقها أبو ذرٍ حسن النيّة في اعتقادها، وصبغها بصبغة الزهد التي كانت تجنح إليها نفسه».

ولا شك أن هذا تفسير بعيد وخاطىء، استوحاه من آراء المستشرقين الذين اعتمد على مصادرهم في هذا الباب من «فجر الإسلام». وما ذكرته من الأدلة السابقة تبطل دعواه.

ثانياً: عمار بن ياسر:

كان من السابقين الأولين إلى الإسلام هو وأبوه، وأمه وكانوا ممن يُعذّب

في الله. فكان النبي ﷺ يمر عليهم فيقول: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة. وشهد عمار المشاهدَ كلَّها، واستعمله عمر رضي الله عنه على الكوفة، وكتب إليهم أنه من النُّجباء من أصحاب رسول الله. والأحاديث في فضائله كثيرة ((البخاري «مناقب الصحابة»، «والإصابة» رقم ٥٧٠٤)).

وأخرج الترمذي بسند جيد عن رسول الله ﷺ: «إن عماراً مليء إيماناً إلى مُشاشة «وفي رواية» إلى أخمص قدميه». وفي الترمذي عن عائشة مرفوعاً: «ما خيّر عمارٌ بين أمرين إلا اختار أيسرهما».

وقد عتِبَ عمار على عثمان في أمرٍ، بقي في نفس عمارٍ شيء منه. كما يروي الطبري عن سعيد بن المسيب: إنه كان بين عمار بن ياسر، وعباس ابن عتبة بن أبي لهب خلافٌ، حمل عثمان على أن يؤدبهما عليه بالضرب، فكان عمار عاتباً على عثمان في ذلك.. ولم يعلم عثمان بما في نفس عمار، فبعث به رسولاً إلى مصر ليستطلع أخبار الناس، فوجد أناساً ناقمين، فاجتمع رأيه مع رأيهم، فلم يرجع إلى المدينة بالأخبار. وهناك روايتان فيمن اجتمع معهم عمار، فأما رواية الطبري (جـ ٤ سنة ٣٥) فتقول: «واستبطأ الناسُ عماراً حتى ظنوا أنه اغتيل فلم يفجأهم إلا كتاب من عبدالله بن سعد، يخبرهم أن عماراً قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه، منهم عبدالله بن السوداء، وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر».

أما رواية ابن شبة (جـ ١١٢٢/٣) فتقول[1]: فخرج عمار إلى مصر وهو عاتب على عثمان، فألب الناسَ عليه، وأشعل أهلَ مصر على عثمان، فكتب ابن أبي سرح إلى عثمان: «إن عماراً قدم إلينا، فأظهر القبيح، وقال ما لا يحل وأطاف به قوم ليسوا من أهل الدين ولا القرآن».

---

(١) يلاحظ بعض المؤرخين أن «اسم ابن سبأ» لم يرد عند المؤرخين الذين صنفوا كتبهم في القرن الثالث أمثال: ابن شبة، وابن سعد، والمصعب الزبيري. وإنما كثرت أخباره عند مؤرخي القرن الرابع، وما بعده ويستدلون بهذا على أن أخبار ابن سبأ قد تكون من وضع القرن الرابع».

وهناك اختلاف بين الروايتين: الأول: أن الطبري ذكر أسماء الرجال الذين اجتمع معهم عمار بن ياسر. أما ابن شبة فلم يسمهم.

والثاني: أن رواية الطبري عن سيف بن عمر وهو متهم في الرواية.

وأما رواية ابن شبه فهي عن: «عليّ بن عاصم عن ابن أبي ذئب عن يزيد بن عبدالله بن قُسيط، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان». وجميعهم متفق على توثيقهم، إلا عليّ بن عاصم، فلم يتهم بالكذب، قالوا فيه: إنه من أهل الدين والصلاح والخير البارع شديد التوقي.. وكان رجلاً موسراً، وكان الوراقون يكتبون له، فأُتي من كتبه التي كتبوها، وقد روى عنه أحمد بن حنبل، وابن سعد. والقاضي وكيع. وغيرهم (انظر تهذيب التهذيب)...

وتتفق الروايتان على أن عماراً طعن على عثمان، وألّب الناس عليه، وقد رأينا سبب ذلك أن عماراً كان عاتباً على عثمان، وليس بعيداً على العاتب أن يتكلم فيمن يعتب عليه، فالدافع موجود عند عمار ولا يحتاج إلى من يؤثر عليه، بل قد يؤثر هو على الآخرين. وليس غريباً أن يطعن عمار على عثمان، وليس هذا بقادح في أحد الطرفين. وقد حصلت قصص مماثلة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام: قال ابن تيمية في منهاج السنة جـ١٩٢/٣: «وقد تبين أن الرجل المؤمن الذي هو وليّ لله، قد يعتقد كفر الرجل المؤمن الذي هو وليّ لله ويكون مخطئاً في هذا الاعتقاد ولا يقدح هذا في إيمان واحدٍ منهما وولايته، كما ثبت في الصحيح أن أسيد بن حضير قال لسعد بن عبادة بحضرة النبي إنك منافق تجادل عن المنافقين. وكما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «قد شهد بدراً وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فعمر أفضل من عمارٍ، وعثمان أفضل من حاطبٍ بدرجاتٍ كثيرة، وحجة عمر فيما قال لحاطب أظهر من حجة عمار، ومع هذا فكلاهما من أهل الجنة. فكيف لا يكون عثمان وعمار من أهل الجنة، وإن قال أحدهما للآخر ما قال، مع أن طائفة من العلماء

أنكروا أن يكون عمار طعن على عثمان».

وما نقمه بعض الصحابة على عثمان من الأعمال، لم ينكر وجوده أحد، وقد التمس الفقهاء للفريقين أعذاراً مقبولة، واعتبروا ذلك من باب الاجتهاد الذي يثاب فيه الطرفان. قال ابن تيمية في منهاج السنة «جـ ١٩١/٣» وكان عثمان في السنة الأولى من ولايته لا ينقمون منه شيئاً، ولما كانت السنة الآخرة نقموا منه أشياء، بعضها هم معذورون فيه، وكثير منها كان عثمان هو المعذور فيه».

وقال ابن تيمية معللاً سبب النقمة: جـ ٢٢٦/٤. وداوم المسلمون على مبايعة عثمان والرضا عنه ست سنين، نصف خلافته معظمين له مادحين أفعاله، لا يظهر من أحد منهم التكلم فيه بسوء.

ثم بعد هذا صار يتكلم فيه بعضهم وجمهورهم لا يتكلم إلا بخير، وكانت قد طالت عليهم إمارته، فإنه بقي اثنتي عشرة سنة، لم تدم خلافة أحد من الأربعة ما دامت خلافته».

ثالثاً: رؤساء الفتنة في البصرة والكوفة ومصر:

فقد كان لكلٍ دوافعه إلى الفتنة، وكان لكل من المؤهلات الشخصية، ما يجعله يقود، ويخوض. وقد أجمل ابن العربي القول فيهم، فقال: «وأمثل ما روي في قصته ـ يعني عثمان ـ أنه تألب عليه قوم لأحقادٍ اعتقدوها: ممن طلب أمراً فلم يصل إليه، وحسد حَسادةً أظهر داءها، وحمله على ذلك قلةُ دينٍ وضعف يقين، وإيثار العاجلة على الآجلة. وإذا نظرت إليهم ـ دلّك صريح ذكرهم على دناءة قلوبهم، وبطلان أمرهم» «العواصم ص ١١١».

وقال ابن تيمية: «وكان الذين اجتمعوا على قتله» يعني عثمان «عامتهم من أوباش القبائل، ممن لا يُعرف له في الإسلام ذكر بخيرٍ، ولولا الفتنة لما ذُكروا». «المنهاج جـ ٢٢٦/٤».

ومن أشهر المحرضين على عثمان في مصر، محمد بن أبي بكر الصديق، وقد أوجز ابن تيمية دوافع التحريض، وقدم لنا صورة عن شخصيته فقال: ومحمد بن أبي بكر، ولد عام حجة الوداع بذي الحليفة ـ ولم يدرك من حياة النبي إلا أربعة أشهر، ومات أبو بكر وعمره أقل من ثلاث سنين، ولم يكن له صحبة مع النبي ولا قرب منزلة من أبيه إلا كما يكون لمثله من الأطفال. . ويقال: إنه أتى حداً فجلده عثمان عليه، فبقي في نفسه على عثمان، لما كان في نفسه من شرفه بأبيه أبي بكر، فلما قام أهل الفتنة على عثمان، قالوا: «إنه كان معهم». وروي أن عائشة رضي الله عنها، دعت عليه لاشتراكه في الفتنة، وسمته «مذمماً». ومنهم محمد بن أبي حذيفة، استشهد أبوه باليمامة، فضم عثمان محمداً إليه ورباه، فلما كبرُ واستخلف عثمان، استأذنه في التوجه إلى مصر فأذن له، فكان من أشد الناس تأليباً عليه، وكان قد طلب من عثمان أن يوليه عملاً ز أمهله عثمان حتى يصلح للولاية، فحقد على عثمان من أجل ذلك فلما خرج إلى مصر أخذ يؤلب الناس، ويزور الرسائل على لسان زوجات الرسول «الإصابة ٧٧٦٧».

وكان زعيمُ أهل البصرة، حكيم بن جبلة، وكان شاباً جريئاً، فسعى في الأرض فساداً أيام عبدالله بن عامر، فشكاه الناس إلى عثمان، فأمر بحبسه في البصرة، فكان من أشدّ الطاعنين على عثمان، وقتل في معركة الجمل مع علي بن أبي طالب.

وزعيم أهل الكوفة، مالك بن الحارث الأشتر، وهو رجلٌ حاقدٌ طامع حاسدٌ كان قد أكثر الطعنَ على الخليفة، وعلى سعيد بن العاص أمير الكوفة هو وجماعة من أهل الكوفة، فشكاه سعيد إلى عثمان، فأمر عثمان بتسييرهم إلى الشام، ثم إلى الجزيرة وكانوا من أهل الفصاحة والجدل، وقد عجز معاوية عن الوقوف أمام جدلهم حتى كتب معاوية إلى عثمان أما بعد: فإنك بعثت إليّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُملون عليهم «الطبري سنة ٣٣هـ». فردهم معاوية إلى الكوفة، فعادوا إلى بثّ الكلام الفاسد بين

الناس، وأكثروا من الطعن.. واجتمعوا على خلعِ سعيدٍ، وتولية أبي موسى الأشعري على الكوفة..

فكان الأشتر إذن ضليعاً في الفتن منذ أمدٍ وهو مستعد لها بطبعه وتربيته لأنه كان حاسداً يطمع في الولاية. روى الطبري أن علياً لما فرغ من البيعة بعد معركة الجمل ـ استعمل عبدالله بن عباس على البصرة، فبلغ الخبرُ الأشتر فغضب وقال: علام قَتَلْنا الشيخ إذن؟ اليمن لعُبيد الله، والحجاز لقُثم، والبصرة لعبدالله، والكوفة لعليّ.. ثم دعا بدابته، فركب راجعاً. ولكن علياً استرضاه، فولاه إمارة مصر بعد صرف قيس بن سعد عنها فلما وصل إلى السويس، شرب شربة عسل، فمات منها سنة ٣٨ هـ.

ويمكن أن نوجز القول في قصة ابن سبأ في النقاط التالية:

١ ـ مما سبق، نستطيع أن نقول: لم يصل إلينا نقل صحيح عن اتصاله بأحد من الصحابة، أو غير الصحابة في زمن عثمان.

٢ ـ إن السبئية نشؤوا في العراق في عهد الإمام عليّ، ولو صح وجوده في مصر زمان عثمان، لوجدنا أثراً لمبادئه، حيث ينسبون إليه تأثيراً كبيراً على أهل مصر عندما خرجوا لمناظرة عثمان، ولكننا لم نجد مخلفات لفكرة «الرجعة والوصاية» التي كان يدعو إليها. وإنما وُجدت هذه الفكرةُ في العراق حيث تجد المناخ المناسب لقبولها.

٣ ـ إن الفتنة زمان عثمان، ليست بعيدة عن البيئة العربية فهي عربية: لأنها ليست بعيدة عن طبائع العرب، وما انقاد العربُ في زمن الرسول، وعهد أبي بكر وعمر، إلا بالإسلام أولاً الذي يساوي بين الناس، والحزم ثانياً الذي كان يقضي على كل نعرة جاهلية.

فلما تفرق العرب في الأقاليم، وابتعدوا عن مركز الخلافة في

الحجاز، وأحسوا بشيء من اللين في سياسة الخليفة، بدؤوا يرجعون إلى طبيعتهم القبلية.

٤ ـ إنَّ نفي أثر ابن سبأ، تأكيدٌ لأصالة الفكر العرب الإسلامي المأخوذ من القرآن والسنة، ولا سيما في الفترة التي نؤرخ لها، وهي النصف الأول من القرن الأول.. وأعداء الإسلام يريدون تشويه هذه الأصالة بنسبة الأفكار الإسلامية إلى أصول قديمة، وليس بعيداً هذا الاتجاه من وصف القرآن بأنه من أساطير الأولين، كما كان يقول الجاهليون.

٥ ـ هناك اتجاه عند الكُتَّاب المسلمين في العصر الحديث، إلى إقحام ابن سبأ في كل حركة من حركات التاريخ الإسلامي، ويهدفون من وراء ذلك إلى تنبيه الناس من دسائس اليهود، ومؤامراتهم لتخريب الإسلام. ولكن دسائس اليهود أقدم من وجودِ ابن سبأ، وتاريخهم مليء بالغدر والخيانة والمكر، منذ أن أرسل الله موسى لبني إسرائيل، وما حلت النكبات بهم على مرّ التاريخ إلا لسوء سلوكهم، وتاريخهم مع الرسول عليه السلام شاهد على كرههم لكل خير. فنسبة ابن سبأ إليهم لن يزيدهم بشاعةً، فكل يهودي يمكن أن يكون فيه من الخُبث ما عند ابن سبأ...

ولكن علينا عندما ننشر جرائمهم ودسائسهم، ألا نجعل رجالنا وقوادنا أُلعوبةً بأيديهم، كما نفهم من أخبار ابن سبأ في القرن الأول.

٦ ـ إذا افترضنا وجود دورٍ لابن سبأ، في الفتن التي دارت في القرن الأول فقد لا تتعدى تأليب غوغاء الناس، وقطع كل طريق أمام الصلح والإصلاح بين أخوين متخاصمين. فقد كان الهدف من الخروج على عثمان تصحيح ما رأوا أنه اعوجاج في سياسته، ولم يكن هدف الزعماء قتلِ عثمان، فإذا ظهرت بوادر التقارب بين الفريقين، أفسدوها بإيجاد ما لا يُمكن معه الإصلاح، فكان قتلُ عثمان.

وقد ظهر هذا جلياً في معركة الجمل، حيث كانت المناظرة دائرة

بين فريقي الصحابة لإصلاح ذات البين والـرجوع عن القتـال، وفي اللحظة التي أحس فيها الأعداءُ إمكانيةَ وجود الصلح، يسددون سهامهم إلى المعسكر الأخر، فيحصل القتل وعندما تسيل الدماء يصبح الصلح صعباً.

٧ ـ لا أدري لماذا يُصرّ الباحثون في العصر الحديث، على اقحام ابن سبأ في حركات تاريخنا. إذا كانوا يريدون إثبات دور اليهود في محاولة تخريب الإسلام: فهذا ثابت وزيادة، ولا ينكر أحدٌ أنهم كرهوا وجود الإسلام وأنهم يعملون على محاربته، وهذا ثابت لهم في القديم والحديث. ولكنني أرى ـ أن التهويلَ في أمر ابن سبأ، ومحاولة إثبات سلطانه الخفي على النفوس يجعلنا نشك في جزء كبير من تراثنا، ونوجه الاتهام إلى كثير من قادتنا ممن لهم أثر ملموس في صناعة تاريخنا، وقد وجدنا شيئاً من هذا في العصر الحديث، عندما أخذوا في التشكيك في قادة الفكر، والأدب ـ والسياسة العرب، فوجهت إليهم الاتهامات بغير دليل.

نحن نعلم أن جميع الأمم السابقة تعمل على هدم الإسلام، لأنه قضى على ما كان لها من المجد السابق، وهناك من هُم أخطر من اليهود في هذا الميدان وهم الفرس والمجوس، فإن اليهود إذا كانت عداوتهم ظاهرةً وباطنةً، فإن المجوس عداوتهم باطنه، حيث دخلوا في الإسلام أفواجاً، ويعملون على نقض الإسلام باسم الإسلام، وقد ذكر لنا التاريخ عدداً كبيراً من زعمائهم ممن أظهر الإسلام وأضمر المجوسية. فقالوا عن «البرامكة» إنهم لم يتخلوا عن مجوسيتهم وقالوا في سبب قتل «الإفشين» إنه كان مجوسياً...

وبعد: فإنه لا فائدة ترجى لحضارتنا وتاريخنا من وراء إثبات دور ابن سبأ وتأثيره على رجال العرب والمسلمين.

ومن العجيب أن من يُعتبر ابن سبأ جزءاً من تاريخهم، ولا يستطيعون إنكار جماعته من الشيعة، يحاولون اليوم أن يتبرؤوا منه، لأنهم رأوا فيه مسبةً وعاراً عليهم. ونحن المسلمين ـ أهل السنة ـ نحاول إثبات تأثيره على تاريخنا

من باب النكاية في أعدائنا، متغافلين أو غافلين عما يمكن أن يحدثه ذلك من تشويه لتاريخنا في أزهى عصوره..

حـ - انتقال مقرّ الخلافة إلى الكوفة وأثره على المدينة:

لم يكن نقل مقرّ الخلافة من المدينة إلى الكوفة، إجراءاً إدارياً، ولكن الظروف السياسية هي التي أجبرتْ الإمام علياً على البقاء في العراق...

وقد تنبّأ عبدالله بن سلام بما حدث، عندما نصح الإمام علياً ألا يخرج من المدينة وقال له: والله لئن خرجت منها لا يعودُ إليها سلطان المسلمين أبداً[1] ولم يكن هدفُ الإمام من الذهاب إلى الكوفة، هو الحرب، وإنما كان هدفه التفاهم مع الذين خرجوا إلى البصرة، ولكن ضعاف النفوس المندسين في عسكر الطرفين لم يتركوا مجالاً للإصلاح، فكانوا كلما اقترب الفريقان من الصلح، هيّجوا الأمر بتسديد السهام القاتلة..

وعندما انتهت الفتنة الأولى، بينه وبين أهل الجمل، اضطرته الأحداث الجاريةُ أنْ يكون في العراق، ثم جاءَته المنية قبل أن تنتهي الأحداث. وبقيتْ المدينة فترة خلافة الإمام عليّ، خاضعة لسلطانه، يولّي عليها النواب من قبله... وبهذا زال المركز السياسي عن المدينة، ولم تعد عاصمةً سياسية للدولة الإسلامية.. وتجرأ مَنْ أتى بعده على أن يجعل مقرّ دولته في المنطقة التي يجد فيها الأنصار، فمعاوية جعل عاصمته دمشق لأنه كان مدعوماً بأهل الشام. وابن الزبير جعل مقر إمارته في مكة حتى بعد أن دانتْ له المدينة المنورة بالولاء.

ومن الآثار المترتبة على ذلك، ضعف الحياة الاقتصادية، حيث لم تعد المدينة مركزاً لبيت المال الذي ترد إليه أموال خراج الدولة.

---

(١) عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، صحابي، أسلم عند مقدم النبي إلى المدينة وكان اسمه الحصين، فسماه الرسول عبدالله، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها. توفي سنة ٤٣ هـ. «الإصابة في تمييز الصحابة».

وهجرة الخلافة، هاجر معها عدد كبير من الناس إلى الأمصار الإسلامية إما للحرب وإما للرزق، حيث توجد مصادر الرزق أوْفى وأوفرَ في مِصْرَي العراق، ومصر والشام. . .

وربما من الآثار الإيجابية المفيدة، لهجرة الخلافة: أن المدينة أصبحتْ بعيدةً عن الأحداث السياسية فترةً من الزمن، ولزمها، وأوى إليها مَنْ اعتزل الفتن من الصحابة والتابعين. . . روى ابن شبه قال: ما مات ناس من أهل بدر حتى لزموا البيوت بعد قتل عثمان رضي الله عنه، فما خرجوا من بيوتهم إلّا إلى قبورهم. . . وكان هذا خيراً على الحياة العلمية في المدينة، حيث تفرغ الناس لرواية الحديث، وتفسير القرآن، واستنباط الأحكام الفقهية فقصدها الناسُ من أجل العلم، ومنذ العصر الأموي، تصبح المدينة مقراً لأهل الفتوى وأهل العلم الشرعي من الصحابة والتابعين، حيث يتخرج على أيديهم جيل من العلماء يكوّنون مدرسة المدينة، ويضعون أصول الفتوى في العالم الإسلامي. . قال الشيخ أبو زهرة: ولما اشتدت الفتن وغلا مرجلها كان أكثر العلماء يأرزون إلى بلاد الحجاز، ويتخذون من المدينة ومكة حرماً آمناً، إذ الحجازُ في أكثر العصر الأموي كانت الفتن فيه أقل من غيره، وحيث كان الهدوء والاطمئنان، فثمة العلم والبحث ولذلك كانت المدينة في عصر التابعين لها مقامها في العلم[1]. وسوف نرى ذلك مفصلاً في باب «الحياة الفكرية».

---

(١) مالك، حياته وعصره للشيخ أبي زهرة ص ١٤٧.

٢ - عام الجماعة

عندما يُذكر عام الجماعة، تغمر الإنسانَ مشاعرُ غير محدودة من السرور والارتياح، ويحسّ كأن الدنيا قد اتسعت من حوله بعد أن كانت تضيق به، ويحسب أن العالم كله كان ينتظر بزوغ هلال العيد، فعمته الفرحة برؤيته. . . وإذا ذُكر عامُ الجماعة الأول، فلابدَّ أن يُذكر معه معاويةُ رضي الله عنه، لأن جماعة المسلمين التفتْ حوله، ورضيتْ به أميراً عليها، وابتهج خيارُ المسلمين بهذه الوحدة الجامعة، بعد الفرقة المشتتة. . . ولكنّ الإنسان ينتابه الغمّ عندما يتجول بين كتب التاريخ، في القديم والحديث، فيجد المطاعن الخفية، والمعلنة في سيرة مَنْ أقاموا جماعة الأمة. . فإذا لم يطعنوا صراحة في شخص معاوية، طعنوا في نظام الحكم الذي سار عليه، ويجعلون هذا الطعن طريقاً إلى الطعن في شخصه، والدولة الأموية من بعده؛ وليس هذا مقام الدفاع عن معاوية ودولة معاوية، ولكنني أحببت أن أضع كلمة ممهدة بين يدي دراسة الحياة السياسية إبان عهده، وموقفه من الأحداث، وموقف الناس من عهده. . ولن أُعمل الفكر وأجتهد في الحكم على معاوية وخلافة معاوية، فليس بعد اجتهاد العلماء الأفذاذ من اجتهاد ولذلك سأكتفي في هذا المقام بنقل آراء العلماء المحققين في هذه القضية وأقصد بالعلماء المحققين: أهل الرواية والدراية، ولن أذهب إلى المراجع التي يرجع إليها المؤرخون، لأنها مراجعُ تروي، ولا تنقد، ولا تصلح مروياتها للحكم على الفترة التي نؤرخ لها: . . وقد جاء الطعن على معاوية رضي الله عنه مما رُوي عن سيرته من

الأخبار الملفقة، وسوف أنقل هنا رأي إمام مجتهد في هذا الموضوع، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة».

فقال في الجزء الثالث/١٨٥ «فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خير من معاوية ولا كان الناسُ في زمان ملكٍ من الملوك خيراً منهم في زمن معاوية إذا نُسبت أيامه إلى أيام مَنْ بعده، وأما إذا نُسبت إلى أيام أبي بكر وعمر، ظهر التفاضل. وعن قتادة أنه قال: لو أصبحتم في مثل عمل معاوية، لقال أكثركم هذا المهديّ.. وعن مجاهد قال: لو أدركتم معاوية لقلتم هذا المهديّ، ورُوي عمن كان عند الأعمش أنهم ذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال الأعمش، فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حِلْمه، قال: لا والله، بل في عدله، وعن أبي قيس قال: كان معاوية قد جعل في كل قبيل رجلاً، وكان رجلٌ منا يكنى أبا يحيى، يُصبح كلَّ يوم فيدور على المجالس: هل وُلِد فيكم الليلة ولدٌ، هل حدث الليلة حادث، هل نزل الليلة بكم نازل، قال: فيقولون: نعم، نزل رجلٌ من أهل اليمن بعياله، يسمونه وعياله فإذا فرغ من القبيل كلِّه، أتى الديوان، فأوقع أسماءَهم في الديوان. وعن عطية بن قيس قال: سمعتُ معاوية بن أبي سفيان يخطبنا يقول: إنَّ في بيت مالكم فضلاً بعد أُعطياتكم، وإني قاسمه بينكم، فإن كان يأتينا فضلٌ عاماً قابلاً قسمناه عليكم، وإلا فلا عتبة عليّ، فإنه ليس بمالي، وإنما هو مال الله الذي أفاء عليكم... وفضائل معاوية في حسن السيرة والعدل والإحسان كثيرة. وفي الصحيح: أن رجلاً قال لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية، إنه أوتر بركعة، قال: أصاب، إنه فقيه». وعن أبي الدرداء قال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة بصلاة رسول الله من إمامكم هذا، يعني: معاوية.. فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه، والشاهد بالفقه ابن عباس، وبحسن الصلاة أبو الدرداء، وهما هما، والآثار الموافقة لهذا كثيرة»... أما المدخل الثاني للطعن، فقد اعتمدوا فيه على الحديث النبوي: «الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة، ثم مُلْكٌ بعد ذلك»[1].

(١) الجامع الصغير للسيوطي، عن الإمام أحمد، والترمذي، وابن حبان.

وللعلماء المحققين حول هذا الحديث كلام:

١ ـ قال أبو بكر ابن العربي: إذا عددنا من ولاية أبي بكر إلى تسليم الحسن، كانت ثلاثين سنةً لا تزيد ولا تنقص يوماً.

٢ ـ وقال أيضاً: وهذا حديث لا يصحُّ. وقال الشيخ محب الدين: لأن راويه عن سفينة، سعيد بن جهمان، وقد اختلفوا فيه قال بعضهم: لا بأس به، ووثقه بعضهم، وقال فيه الإمام أبو حاتم: «شيخ لا يحتج به». . . وفي سنده حشرج بن نباته الواسطي: وثّقة بعضهم، وقال فيه النسائي: ليس بالقوي. . . وعبدالله بن أحمد بن حنبل يروي هذا الخبر عن سُويد الطحان، قال فيه الحافظ ابن حجر «ليّن الحديث».

٣ ـ وقال ابن العربي؛ ولو صَحَّ حديث سفينة، فهو معارض لهذا الصلح المتفق عليه، الذي تنبأ به الرسول عليه الصلاة والسلام عندما قال: «ابني هذا ـ الحسن ـ سيدّ، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». فنفذ الميعاد، وصحت البيعة لمعاوية، وذلك لتحقيق رجاء النبي ﷺ.

٤ ـ والحديث ـ حديث سفينة ـ يعارضه الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم وغيره في كتاب الإمارة: عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ، فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش».

قال الإمام النووي: إن المراد في حديث الخلافة ثلاثون سنة، خلافة النبوة وقد جاء مفسراً في بعض الروايات «خلافة النبوّة بعدي ثلاثون سنة». ثم تكون ملكاً، ولم يشترط هذا في الاثني عشر.

وقال ابن العربي: ويحتمل أن تكون مراتب في الولاية: خلافة ثم ملك فتكون ولاية الخلافة للأربعة، وتكون ولاية الملك لابتداء معاوية.

وقال الشيخ محب الدين الخطيب: الخلافة والملك والإمارة، عناوين

اصطلاحية تتكيّف في التاريخ باعتبار مدلولها العملي، والعبرة دائماً بسيرة المرء وعمله، ومعاوية قد ولي الشام للخلافة الراشدة مدة عشرين سنة، ثم اضطلع بمهمة الإسلام كلها عشرين سنة أخرى، فكان في الحالتين قوّاماً بالعدل، محسناً إلى الناس من كل الطبقات. . .

ـ فليس بعد هذه الأدلة لأحد أن يصدق الروايات البعيدة عن الصدق، والتي ليس لها سند ثابت. . فقد نال الخلافة، وكان جديراً بها، لم يكن أفضل ممن سبقه، ولكنه أفضل ممن جاء بعده، ويكفي أن يكون قد اجتمع الناس في عهده على إمام واحد ليكون ذلك شاهداً لعهده بالخير، وقد بايعه وعاصره عشرات من الصحابة، ومئات من التابعين، الذين لا يردهم عن قول كلمة الحق لومة لائم، فما قالوا كلمة تطعن فيه وفي عهده، وسلموا عليه بالإمامة.

فإلى مثل هؤلاء نرجع وإلى أقوالهم نطمئن، وما سواه فهو الباطل. . .

المدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان:

رحل الإمام علي عن المدينة إلى الكوفة، بعد ثلاثة أشهر من بيعته، وقضى سنيّ خلافته في العراق، فانتقلت الخلافة حيث يقيم الخليفة. وانشغل عليٌّ مدة خلافته بالحروب، حيث ابتدأ بحرب الجمل ثم معركة صفين، وبعد صفين انشغل بحرب الخوارج الذين انتقضوا عليه بعد معركة صفين، والتحكيم. وأخيراً قتل الإمام عليّ بيد أحد الخوارج[1] فبايع الناس بعده ابنه الحسن، ولكن الحسن تنازل بعد قليل عن الخلافة إلى معاوية، لأسباب يذكر منها المؤرخون:

---

(١) قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي الحميري، أدرك الجاهلية، وهاجر في خلافة عمر، وقرأ على معاذ بن جبل في اليمن، فكان من القراء وأهل الفقه والعبادة، وكان من شيعة علي، ثم خرج عليه انظر «الإصابة» رقم ٦٣٨٠ أو الأعلام للزركلي.

أن الحسن بن عليّ لم يكن له رأي في الحرب التي دارت بين أبيه ومعاوية وكان الحسنُ قد نصح أباه أن لا يغادر المدينة. وأن يحفظ دماء المسلمين بملاينة معاوية[1].

ووجد الحسن في أهل العراق عامة وأهل الكوفة خاصة توزعاً في الأهواء، فلم يكن يطمئن إليهم، لأنهم اعتدَوْا عليه ونهبوا متاعه. فقد ذكر الطبري[2] وغيره من المؤرخين، أن العراقيين نهبوا سُرادق الحسن حتى نازعوه بساطاً كان تحته. ونزل الحسن المقصورة البيضاء بالمدائن، وكان عمُّ المختار ابن أبي عبيد عاملاً على المدائن، وكان اسمه سعد بن مسعود، فقال المختار وهو غلام شاب[3]: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك، قال: توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية فقال له سعد: عليك لعنةُ الله، ورفض العمل بمشورته.

فلما رأى الحسنُ تفرق الأمر عنه، بعث إلى معاوية يطلب الصلح. وقال الحسن معللاً سبب الصلح[4] «يا أهل العراق، إنه سخّى بنفسي عنكم: ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي».

كذلك وجد الحسن نفسه أنه لا قِبَل له بجيش معاوية وأهل الشام. فقد كان أهل الشام متحدين، يسمعون كلام معاويةَ ويدافعون عن ملكه. وكان معاوية يستميل كثيراً من زعماء العراق بالمال عن طريق الجواسيس، فيكون أحدهم في جيش عليّ وقلبه مع معاوية..

---

(١) وروي في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «إن ابني هذا ـ يعني الحسن ـ سيدٌ، وإن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين» فأصلح الله به بين أصحاب عليّ وأصحاب معاوية.. وهذا الحديث دلل على أن الفريقين كانا من المؤمنين. ويؤيده قول الله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾. انظر منهاج السنة جـ ٢/٢٠٤.

(٢) الطبري جـ ٦/٩٤.

(٣) المختار الثقفي، من أهل الطائف، كان من أنصار بني هاشم قتل كل من له يد في قتل الحسين، وبايع محمد بن الحنيفة، قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ. انظر «الإصابة رقم ٨٥٤٨» والأعلام للزركلي.

(٤) الطبري جـ ٦ ص ٩٤.

ولذلك يئس الحسن من القتال، ورأى أن يحقن الدماء، فراسل معاوية، للتنازل له على شروط منها: أن يأخذ ما في بيت مال الكوفة، مع مقدارٍ من المال في كلّ سنة، وشرط على معاوية الأمان لأهل العراق، وأن يترك الأمر شورى بعد وفاته.. فوافق معاوية على شروط الحسن، وتم الأمر لمعاوية وبويع له بالخلافة، وبايعته بقيةُ الأمصار، وسمي هذا العام: عام الجماعة. ولكن معاوية لم يكن يطمئن إلى وجود الحسن، لأنَّ الحسن سيكون عقبة في طريق معاوية إذا نقض شروط الصلح..

فلم تطل حياة الحسن بعد تخليه عن الخلافة، ومات مسموماً، فقيل: إن معاوية دس له السم عن طريق زوجته.. وسواء صح هذا أو لم يصح، فإن موت الحسن أراح معاوية وشعر أنه أصبح في حلٍّ من شروط المعاهدة وقد تُوفي الطرف الأول منها[1]، وقال ابن تيمية، فيما تزعمه الشيعة من أن معاوية سم الحسن: «لم يثبتْ ذلك ببيّنة شرعية، ولا نقلٍ يُجزم به، فالقول به قول بلا علم».

بقيت المدينة خاضعةً لسلطان عليّ مدة توليّ علي الخلافة، ولكن تبعيتها لسلطان عليّ، كان بفعل الواقع لا بفعل القوة. فقد كانت مقراً للخلافة، وبويع علي بالخلافة فيها، ثم رحل عنها، وكان يولّي عليها نواباً[2]. وظلت بمعزل عن الصراع منذ أن تركها علي، لأنها لم تكن هَدَفاً يسعى إليه

(١) الحسن بن علي.. وأمه فاطمة الزهراء. كان عاقلاً حليماً محباً للغير، فصيحاً، من أحسن الناس منطقاً وبديهة. وكان معاوية يوصي أصحابه باجتناب محاورة رجلين: هما الحسن بن علي، وعبدالله بن عباس، لقوة بداهتهما.. رجع إلى المدينة بعد تنازله عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ هـ. وكانت مدة خلافته ستة أشهر وخمسة أيام، يقال: إن الذي دس له السم زوجته: جعده بنت الأشعث، أعطاها معاوية مائة ألف فسقته السم، وقيل: إنه وعدها أن يتزوجها، أو يزوجها ليزيد. وتوفي الحسن سنة ٥٠ هـ وفي أنساب الأشراف للبلاذري جـ ٤٠٤/١ «توفي سعد بن أبي وقاص والحسن بن علي بعد ما مضت من إمرة معاوية عشر سنين، وكانوا يرون أنه سمهما».

(٢) ناب عنه في مدة خلافته ثلاثة نواب: تمام بن العباس، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصاري.

المتخاصمون ولأن امتلاكها لا يزيد في قوة المالك. فقد كان أكثر الصراع لامتلاك منابع الثروة، وخاصة العراق، ومصر. أما المدينة فلم تكن تتطلع إليها الأطماع ولأن من حصل على بيعة العراق ومصر، يستطيع أن يحصل على بيعة الحجاز بفعل القوة.

وأول إجراء اتخذه معاويةُ حيال المدينة المنورة، بعد التحكيم، حيث أرسل بسر بن أرطأه[١] في جيش، فقدموا المدينة، وعاملها يومئذٍ لعليّ أبو أيوب الأنصاري، ففر أبو أيوب ولحق بعليّ، ودخل بسر المدينة، ثم أمر أهل المدينة بالبيعة لمعاوية وأرسل إلى بني سلمة فقال: ما لكم عندي أمانٌ ولا مبايعةٌ حتى تأتوني بجابر بن عبد الله[٢] فأُخبر جابر، فانطلق حتى جاء أم سلمة زوج النبي، فقال لها: ماذا ترين، فإني أخشى أن أُقتل وهذه بيعة ضلال فقالت: أرى أن تبايع، وقد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة[٣] أن يبايع. فأتى جابر بُسراً فبايعه، وهدم بسر دوراً بالمدينة ثم انطلق[٤]. ولكن هذه البيعة لم تكن هي بالتي أدخلت المدينة في سلطان معاوية، وإنما كان عمل معاوية هذا إرهاباً للأمصار التي تتبع علياً وتهديداً لأتباعه، ولذلك فقد تركها بسر بن أرطأه ولحق باليمن حيث كان عُبيد الله بن العباس والياً عليها لعليّ، فهرب عُبيد الله، وأخذ بسرٌ ابنيه فقتلهما[٥].

---

(١) بسر بن أرطاه العامري القرشي، ولد بمكة وأسلم صغيراً، وكان من رجال معاوية، أرسله معاوية ليوقع بمن يراه من أصحاب علي سنة ٣٩ هـ في المدينة ومكة واليمن. أصيب في آخر حياته في عقله وتوفي سنة ٨٦ هـ. (تهذيب التهذيب، نقلاً عن التاريخ الصغير للبخاري)، وقال الدارقطني: له صحبة، ولم يكن له استقامة بعد النبي ﷺ. وقال الذهبي: له أحاديث عند أبي داود وفي مسند أحمد: وكان له نكاية في الروم.

(٢) بنو سلمة: قبيلة من الخزرج ومنهم جابر بن عبدالله الصحابي، كان من المكثرين من الحديث، وكان يؤخذ عنه العلم في المسجد النبوي توفي سنة ٧٨ هـ (تهذيب التهذيب).

(٣) أم سلمة، كانت قبل الرسول عند أبي سلمة بن عبد الأسد، وكانت لها منه أولاد، منهم عمر بن أبي سلمة. وكان عمرُ مع عليّ يوم الجمل. واسمها هند بنت حذيفة (تهذيب التهذيب).

(٤) عمدة الأخبار في مدينة المختار/ ٩٠.

(٥) المعارف لابن قتيبة/ ١٢٢.

أما دخول المدينة في سلطان معاوية، فقد كان بعد عام الجماعة سنة ٤١ هـ حيث قدم معاوية المدينة عام الجماعة، ولابد أنه قدم لتأكيد البيعة له، وفرض سلطانه. وحدد سياسته في الخطبة التي ألقاها. قال ابن كثير[1] لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة تلقته رجال من وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعزَّ نصرك وأعلى أمرك، فما رَدَّ عليهم جواباً حتى دخل المدينة، فقصد المسجد، وعلا المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإني والله وليت أمركم حين وليتُه وأنا أعلم أنكم لا تُسرون بولايتي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسةً، ولقد رُمتُ نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، وأردتها على عمل ابن الخطاب فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك، وحاولتها على مثل سنّيات عثمان، فأبت عليّ، وأين مثل هؤلاء، ومن يقدر على أعمالهم، هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم.. غير أني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعةٌ ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرةُ وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خيرٌ لكم، والله لا أحمل السيف على مَنْ لا سيف معه ومهما تقدم مما قد علمتموه قد جعلتُه دُبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله، فارضوا مني ببعضه، وإياكم والفتنةَ، فلا تهموا بها، فإنها تُفسد المعيشة وتكدر النعمة».

ونلاحظ في هذه الخطبة أن هوى أهل المدينة لم يكن مع معاوية، وإنّ في قلوبهم انحرافاً عنه، وكانوا يفضلون علياً على معاوية، ولكنهم لم يكونوا راضين عن الحرب بين علي ومعاوية، ولم ينخرطوا فيها كما فعلت الأمصار الأخرى واكتفى أكثرهم بالإنكار القلبي، مع الاعتزال.

وقد عرف معاوية ما في قلوب أهل المدينة، ولكنه حاول بالسياسة أن يكسب ودهم ويحافظ على عهده لهم، ما حافظوا على بيعتهم له. روي أن معاوية قدم المدينة، فدخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة ابنة عثمان

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٣٢.

وبكت ونادت أباها، فقال معاوية: يا ابنة أخي، إن الناس أَعْطَونا طاعةً وأعطيناهم أماناً وأظهرنا لهم حِلماً تحته غضب، وأظهروا لنا ذُلّاً تحته حقدٌ ومع كل إنسان سيفه، ويرى موضع أصحابه فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني ابنةَ عمّ أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرض الناس»[1].

إذن بايعت المدينة معاوية عن رضىً من أهلها أو عن كرهٍ من بعضهم فقد تنازل الحسن وبايع، وسكن المدينة، فبايع أهلها، ولم يعارض إلا الحسين[2]، ولكن أخاه الحسن أمره بالبيعة، فامتثل لأمر أخيه، وبقي الحسينُ بعد موت أخيه الحسن ـ وانتقال الزعامة إليه ـ محافظاً على بيعته ويرفض نقض البيعة رغم الوفود التي كانت تأتيه سراً من العراق وتطالبه بنقض البيعة والمطالبة بالخلافة[3].

فهدأت المدينة، وأخلدت إلى السكينة، وانصرف أهلها إلى أعمالهم وانقطع أهل العلم إلى رواية ما حفظوه من حديث رسول الله، واستمتع أهل الأموال بما عندهم. وأغدق معاوية الأموال على سراة الناس لاستمالتهم. وكان كرم هؤلاء يسع الكثيرين من أهل المدينة.

وأحب كثير من الناس سُكنى المدينة، للمجاورة أو للاستمتاع بالهدوء الذي يخيم على أجواء المدينة حيث عاشت فترة بعيداً عن الصراع السياسي في عهد معاوية[4].

وقد رأى أهلُ المدينة ـ بعد فترة من الفتن ـ أن إمامة المفضول خير من

---

(١) العقد الفريد جـ ٤/٣٦٤. والبداية والنهاية جـ ٨/١٣٢. انظر هذا الخبر في «منهاج السنة» لابن تيمية. واستدل به على أن معاوية، لم يقتل قتلة عثمان بعد بيعته، إما لعجزه، أو لما يفضي إليه ذلك من الفتنة، وشوكة معاوية واجتماع الناس عليه أكثر من اجتماع الناس على عليّ، ولهذا فإن علياً يكون معذوراً عندما لم يقتل قتلة عثمان. جـ ٢/٢٠٩.

(٢) البداية والنهاية جـ ٨/٦ وقال: والصواب مع الحسن رضي الله عنه.

(٣) الطبري جـ ٦ ص ٩٣ والأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص ٧٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ٣ ص ١٧٥.

إمامة الأفضل[1]، إذا كانت إمامة الأفضل ستأتي بالويلات وتجر المسلمين إلى حروب طاحنة. وقد عبرت السيدة عائشة عما وقر في نفوس أهل المدينة عندما سألها أحدهم: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء، ينازع أصحاب رسول الله؟ فقالت السيدة عائشة: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البَرَّ والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة وكذلك غيره من الكفار[2]. ولا شك أن هناك فرقاً بين فرعون ومعاوية لأن معاوية صحابي مسلم، لا يُكره الناس على غير الإسلام. ولكن قولها يدل على مدى الاستسلام للواقع الذي آمن به الناس أو هي دعوة إلى الرضا عما هو واقع، إذا كان تغيير الواقع غير ممكن أو يؤدي إلى شرّ أكثر مما يأتي بخير.

وسياسة الهدوء، والانخراط في سلك الجماعة التي ارتضاها أهل المدينة، كانت بفضل عدد كبير من الصحابة، اعتزلوا الفتنة، وكانوا يعظّمون إراقة دماء المسلمين، ويعتبرونها ذنباً يفوق كل ذنب.

رُوي أن ابن عباس كان والياً على البصرة لعليّ، فاستحل الفيء على تأويل قوله تعالى: ﴿واعلموا إن ما غنتم من شيء فإن لله خمسه، وللرسول ولذي القربى﴾[3] واستحله لقرابته من رسول الله[4]، فلما علم عليّ، طلب منه أن يُرجع المال، فلما رأى ابن عباس أن علياً لن يقلع عنه، كتب إليه: أما بعدُ فإنه بلغني تعظيمك عليّ مرزئة مالٍ بلغك أني رزأته[5] أهل هذه البلاد، وايم الله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من عقيانها ومخبئها،

---

(١) منهاج السنة جـ ٤٧/١. وأهل السنة يقولون: «ينبغي أن يولّى الأصلح للولاية إذا أمكن، إما وجوباً عند أكثرهم، وإما استحباباً عند بعضهم. وإن من عدل عن الأصلح مع قدرته، لهواه، فهو ظالم - ومن كان عاجزاً عن تولية الأصلح مع محبته لذلك، فهو معذور. ومن تولى فإنه يستعان به على طاعة الله حسب الإمكان».

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣١/٨.

(٣) سورة الأنفال آية ٤١.

(٤) انظر تفصيل هذه المسألة في منهاج السنة جـ ١٨٧/٣.

(٥) رزأ المال: أصاب منه شيئاً.

وبما على ظهرها من طِلاعها[1] ذهباً أحبُّ إليّ من ألقى الله وقد سفكت دماء هذه الأمة لأنال بذلك الملك والإمرة، أرسلْ إلى عملك من أحببتَ فإني ظاعنٌ والسلام»[2].

وقال الأوزاعي[3]: أدركتْ خلافةَ معاوية عدةٌ من الصحابة، منهم: أُسامة بن زيد توفي سنة ٥٤ هـ. وسعد بن أبي وقاص ـ ٥٥ هـ. وجابر بن عبدالله ـ سنة ٧٨ هـ. . . وعبدالله بن عمر ـ ٧٣ هـ. وزيد بن ثابت ـ ٤٥ هـ. وأبو سعيد الخدري سنة ٧٤ هـ. . . ورجال أكثر ممن سمينا بأضعاف مضاعفة، كانوا مصابيح الهُدى وأوعية العلم، حضروا من الكتاب تنزيله ومن الدين جديده، وعرفوا من الإسلام ما لم يعرفه غيرهم، وأخذوا عن رسول الله تأويل القرآن. ومن التابعين لهم بإحسانٍ ما شاء الله منهم المِسْور بن مَخْرمة[4] توفي سنة ٦٤ هـ. وسعيد بن المسيب سنة ٩٤ هـ. . وفي أشباه لهم لم ينزعوا يداً من جماعة في أمة محمد ﷺ»[5]. وكان معاوية عند عهده لأهل المدينة وفياً بالسياسة التي رسمها في خطبته عند زيارة المدينة، وكان يقدم من الترغيب أكثر مما يعلن من الترهيب. كان إكرامه لرجالات المدينة إكراماً يفوق كل وصف، وما قصده أحد في طلب إلا أعطاه. لقد كان يخص وجهاء القوم، ولكن هؤلاء كانوا موزعين لعطايا معاوية، كلما كثرت عطايا معاوية كثر إنفاقهم على أهل المدينة.

روي أن معاوية قضى عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار،

---

(١) طلاع الأرض: ملؤها.

(٢) العقد الفريد جـ ٣٥٥/٤. . وانظر «منهاج السنة» جـ ١٧٣/٣ فيمن أخذ المال من نواب علي.

(٣) عبد الرحمن بن عمرو. إمام الديار الشامية في الفقه ـ ولد في بعلبك ـ وسكن بيروت وتوفي بها سنة ١٥٧ هـ، عرض عليه القضاء وامتنع (انظر ترجمته في «تهذيب التهذيب») جـ ٢٤١/٦.

(٤) ولد بعد الهجرة بسنتين، وقبض النبي وعمره ثماني سنين، وهو معدود في صغار الصحابة انظر «الإصابة» و«الاستيعاب».

(٥) البداية والنهاية جـ ١٣٢/٨.

وما كان عليها من الدَّين الذي كانت تعطيه الناس. وبعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف، ففرقتْها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً؟ فقالت: ألا ذكّرتني[1].

وكان الحسن والحسين يفدان على معاوية فيجيزهما بمئات الألوف من الدراهم أو الدنانير، وكذلك كان عطاؤه لعبدالله بن جعفر، وعبدالله بن الزبير. أضف إلى هذا، ما كان ينفقه على الأمويين في المدينة، حيث أصبحت المدينة الموطن المفضل عند الأمويين، ورجع إليها من هجرها وقت الفتنة، حتى بلغ عدد الأمويين أكثر من ألف رجل في أول أيام يزيد[2].

ولو لم يجد الأمويون في المدينة الأمان، لغادروها إلى أيّ مكان يجدون فيه المتعة والراحة.

ولكن هذا الصفاء، يحلّ محله الخصام في الفترة الأخيرة من عهد معاوية، بعد موت الحسن بن عليّ، عندما قرر معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد[3]، ووجد المعارضة من زعماء أهل المدينة، عندئذ قرر معاوية استخدام سياسة الشدة والتضييق، فضيّق على أهل المدينة وحرم الكثير منهم عطاءهم مما أدّى إلى أن يبيع كثير من أهل المدينة أرضهم وبيوتهم، فاشترى معاويةُ قدراً كبيراً منها، وفي هذه المرحلة بدأت النفوس تتأهب للفتنة، وتكونت الأحزابُ الجديدةُ، وبدأتْ المعارضةُ تعمل في الخفاء.

ويُروى أن معاوية أراد أن ينقلَ منبر رسول الله من المدينة، وقال: إني رأيتُ أن منبر رسول الله وعصاه لا يُتركان بالمدينة وهم قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه، فأمر بمنبر رسول الله أن يُحمل إلى الشام، فحرك المنبر

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ترجمة ١٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ٣ ص ١٧٦.
(٣) الطبري جـ ٦ ص ١٧٠، ابن الأثير: الكامل جـ ٣ ص ٢١٥.

فكُسفت الشمسُ، حتى رؤيت النجومُ باديةً يومئذ، فكف عن ذلك وزاد فيه ست درجاتٍ وكساه[1].

وإذا صحت هذه الرواية فإنها تدل على الناحية التي كان يخشاها معاوية من أهل المدينة، وهي المركز الديني. ولذلك حاول أن يحوّل جزءاً من هذا المركز إلى الشام.

ولكن مما يضعّف هذه الرواية، كسوف الشمس لخلع المنبر. فقد ضرب الحجاج الكعبة بالمنحنبق فيها بعد، وحمل القرامطة الحجر الأسود من الكعبة، ولم تكسف الشمس يومها، ولن يكون منبر رسول الله أكرم عند الله من الحجر الأسود والكعبة. وإذا كان قد كف معاوية عن فعله، فإنما يكون قد رجع لنصيحة، أو لرأي رآه. وإذا ـ كُسفت الشمس يومها، فلن يكون ذلك لخلع المنبر، وإنما جاء مصادفة.

* * * *
* * *
*

(١) الطبري جـ ٦ ص ١٧٠. والكامل لابن الأثير سنة ٥٠ هـ.

٣ ـ آراء أهل المدينة المنورة في عهد معاوية

يمكن أن نعتبر خلافة معاوية، فترة ركود سياسي في المدينة المنورة، لأنها كانت بعيدةً عن الأحداث السياسية، وربما بدأ التحرك السياسي في الربع الأخير من خلافة معاوية، ولكنه لم يكن مُعلناً، أو كان سلوكاً شخصياً من بعض الأفراد، لا يعتمد على تجمع حزبي كبير، كما سيبدو أيام يزيد بن معاوية. ويمكن أن تصنف الناس حسب آرائهم إلى الاتجاهات التالية:

١ ـ الأنصار:

لا يمكننا أن نجعلَ الأنصار ضمن الأحزاب السياسية في العهد الأموي، فلم يكن منهم، أو لهم، دعاةٌ إلى حقّ الأنصار في الحكم فقد ظهرت النزعة السياسية للأنصار في يوم السقيفة عقب وفاة الرسول عليه السلام، وبعد أن اتفق المسلمون أن تكون الخلافةُ في المهاجرين، وفي قريش خاصة، انضووا تحت لواء الخلافة الإسلامية وماتت النزعة السياسية المستقلة في مهدها، وبقوا مخلصين في ولائهم، حينما كانت المساواةُ والعدل في عهد أبي بكر وعمر، وفي عهد عثمان أبدوا رأيهم في خلافته وكان رأيهم العام مع التيار المعارض لسياسة عثمان، ولكنهم لم يتزعموا حركةً معارضةً مستقلة، ووُجّه إليهم اللوم من أنصار عثمان على قعودهم عن نصرته[١]. وعندما تولّى

(١) انظر ما سبق في التمهيد، وقد روينا أنهم قعدوا عن الدفاع عنه، بعد أن أمرهم عثمان رضي الله عنه، بالكف عن حمل السلاح.

عليّ كانوا أكثر تفاؤلاً بخلافته وكانوا يميلون بقلبهم إليه، وكان عدد من رجال عليّ من الأنصار، وقلة منهم ناصروا معاوية أو مالوا إليه، فاختار علي ثلاثة من ولاته من الأنصار، وهم قيس بن سعد بن عبادة وعثمان بن حنيف، وسهل بن حنيف وشارك هؤلاء علياً في حروبه، وكان الجيش الذي خرج من المدينة لمحاربة أهل الجمل، ومن ثم في صفين، فيه ثمانمائة من الأنصار[1]. ولكن هذا العدد لا يمثل الأنصار جميعهم لأن كثرتهم تخلّف عن المشاركة الفعلية، لأنهم كانوا غير راضين عن هذه الحرب[2].

ولكن معاوية لم يكن راضياً عنهم، فهم أولاً: من أهل المدينة الذين اتهموا بالقعود عن نصرة عثمان، وهم ثانياً: بايعوا علياً ورضوا عن خلافته وكانت عواطفهم معه، وهم ثالثاً: شاركوا في الحرب التي شنها عليٌّ على معاوية.

ويظهر لنا موقف معاوية من الأنصار من هذا النص الذي أثبته المسعودي في مروج الذهب[3] قال: دخل قيس بن سعد بعد وفاة عليّ ووقوع الصلح، في جماعة من الأنصار على معاوية، فقال لهم معاوية: يا معشر الأنصار بم تطلبون ما قبلي؟ فوالله لقد كنتم قليلاً معي، كثيراً عليَّ ولقد فللتم حدّي يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظّى في أسنتكم، وهجوتموني في أسلافي بأشدّ من وقع الأسنة، حتى إذا أقام الله ما حاولتم مَيْله، قلتم: ارع فينا وصية رسول الله. فقال قيس: نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله، لا بما تمتّ به إليك الأحزاب. وأما عداوتنا لك، فلو شئت كففتُها عنك، وأما هجاؤنا لك: فقول يزول باطلُه ويثبت حقُّه، وأما فلُّنا حدّك يوم صفين، فإنا كنا مع رجل نرى طاعته طاعةً لله، فقال معاوية يموّه: ارفعوا حوائجكم»[4].

(١) العقد الفريد جـ ٣١٣/٤.
(٢) الطبري جـ ٦ ص ١٧٥.
(٣) مروج الذهب جـ ٢٦/٣.
(٤) وانظر مختصر هذا الخبر في البداية والنهاية لابن كثير، جـ ١٠١/٨.

وفي النص، ما يدل على أن بعض الأنصار كانوا مع معاوية، حيث قال: «كنتم قليلاً معي» وروي[1] أن عدداً من رجال الأنصار لم يبايعوا علياً منهم حسان بن ثابت[2] وكعب بن مالك[3]، ومحمد بن مسلمة[4]، والنعمان ابن بشير[5]، وزيد بن ثابت[6]، وفضالة بن عبيد[7]، وكان النعمان بن بشير ـ هو الذي أخذ قميص عثمان ملطخاً بالدماء، إلى معاوية في الشام، وقد شهد مع معاوية معركة صفين[8]. ولم يشتهر عن غيره أنه شارك في الحروب.

وهكذا يمكن أن نقول: كان بعض الأنصار مع علي، وقليل منهم مع معاوية والعدد الأكثر كانوا معتزلين، لم يشاركوا في الفتن.

٢ ـ الهاشميون:

لقد أصبحت المدينة خاصة والحجاز عامة موطناً للهاشميين بعد مقتل عليّ وتنازل الحسن عن الخلافة سنة ٤١ هـ. حيث رجع من كان منهم في العراق إلى المدينة واستقروا فيها. وكان الهاشميون محلّ الإجلال والتكريم من معاوية إما خوفاً منهم ومداراةً لهم لكسب ودهم، وإما إكراماً لهم.

وكانت زعامة الهاشميين إلى الحسن بن علي، وما دام الحسن قد تنازل

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢٢٧/٧.

(٢) حسان بن ثابت الشاعر توفي سنة ٥٤، رثى عثمان بعد مقتله.

(٣) كعب بن مالك الشاعر، من الخزرج توفي سنة ٥٠ هـ. حرض الأنصار على نصرة عثمان (الإصابة).

(٤) محمد بن مسلمة صحابي خزرجي اعتزل الفتنة وتوفي سنة ٤٣ (تهذيب التهذيب).

(٥) النعمان بن بشير من الخزرج: أول مولود أنصاري بعد الهجرة، بايع لابن الزبير في حمص، وقتل سنة ٦٥ هـ «تهذيب التهذيب».

(٦) وزيد بن ثابت: متوفى سنة ٤٥، صحابي (الإصابة).

(٧) فضالة بن عبيد: من الأوس، صحابي. ولاه معاوية القضاء في دمشق توفي سنة ٥٣ (تهذيب التهذيب).

(٨) الأعلام، للزركلي، وفيه أن التي أرسلته بقميص عثمان، نائلة زوجة عثمان.

عن الخلافة راضياً مختاراً، إذن كان راضياً عن سياسة معاوية أو ساكتاً عنه، مادامت سياسته لا تمس شروط الصلح.

بل كانت سياسة الحسن تميل إلى ملاينة معاوية قبل بدء الحرب بين علي ومعاوية ولم يكن من رأيه أن يسافر أبوه إلى العراق للحرب. وكذلك كان رأى محمد بن الحنفية[1] وعبدالله بن عباس. وقد رافقوا علياً في الحرب وهم كارهون لذلك ورأينا ابن عباس يترك ولاية البصرة أيام عليّ ويتجه إلى مكة، يستقر فيها، والحسن يترك الخلافة بعد ستة أشهر من توليها. فقد جرب الهاشميون حظهم في الخلافة عندما تولاها الإمام علي فلم ينالوا حظاً من الدنيا، لأن علياً كان أشدَّ قسوة في توزيع الأرزاق على أهله، من قسوته على الرعية. فكانوا يطلبون المال من معاوية في حياة عليّ وأثناء خلافته. رُوي أن الحسن بن علي، وعبدالله بن جعفر أرسلا إلى معاوية يسألانه المال، فبعث إليهما بمائة ألف، فبلغ ذلك علياً، فقال لهما: ألا تستحيان؟ رجل نطعن في عينه غُدوة وعشية، وتسألانه المال؟ فقالا: بل حَرَمتنا أنت وجاد هُو لنا. وجاء إليه أخوه عقيل يطلب مالاً، فرده، فذهب إلى معاوية، فنال منه مالاً وفيراً[2].

ومما دعاهم إلى لزوم الطاعة، أن سنوات الخلافة كانت سنوات حرب وفتن ذهب ضحيتها رئيسهم ـ وكانوا يجدون منافسةً شديدةً من القرشيين وجُملةُ قريش تدفعهم عن الخلافة[3]، ولم يكونوا يجدون التأييد إلا من أطراف

---

(1) محمد بن علي بن أبي طالب، أمه خولة بنت جعفر الحنفية، ينسب إليها، تمييزاً له عن أخويه الحسن والحسين. توفي سنة ٨١ هـ (تهذيب التهذيب) ٣٥٤/٩.

(2) البداية والنهاية جـ ١٣٧/٨.

(3) ويبدو أن الأمويين كانوا يحسدون الهاشميين على مركزهم الديني. فقد روى ابن الأثير في الكامل سنة ٤٩، إن الحسن بن علي أوصى أن يدفن عند النبي ﷺ إلا أن تُخاف فتنة، وأذنت السيدة عائشة في هذا، فلما توفي الحسن لم يمانع أمير المدينة سعيد بن العاص، ولكن مروان جمع بني أمية، ومنع مِنْ دفن الحسن بجوار الرسول فسكت الحسين خوفاً من الفتنة، وصلى عليه سعيد بن العاص، فقال الحسين: لولا أنها سنة، لما تركتك تصلي عليه (وانظر نسب قريش للزبيري ص ٤٠).

الناس الذين لا قيمة لرأيهم في مجال السياسة.

وبقي هذا موقف معاوية من الهاشميين، وموقف الهاشميين من معاوية حتى مات الحسن بن علي، فآلت رئاسة الحزب الهاشمي إلى الحسين بن علي، بل أصبح زعيم حزب الشيعة الذي بدأ يتكون بعد وفاة الإمام علي في العراق.

وكان الحسين أثناء حياة أخيه الحسن، وفياً بالعهد، مطيعاً لأخيه، ولكنه كان ينكر الصلح بين الحسن ومعاوية، لأنه يعتبر الصلح إنكاراً لسياسة أبيه الذي قُتل في سبيلها[1].

وكان الحسين يختلف في طبعه عن أخيه الحسن، فكان حاداً صارماً، وكان يتجرع مرارة الصبر على ما لا يحب، وكان يتحرق إلى الفرصة التي تتيح له استئناف الجهاد من حيث تركه أبوه. ولذلك اشتد نقده، وعلا صوت معارضته حتى انعكس هذا على حزب الشيعة في العراق. ولكن الحسين لم يستطع أن ينقض بيعة أعطاها لمعاوية.

ولكن هذه الشدة في سياسة الحسين، لم تكن عامةً في بني هاشم، ولم يوافقه عليها أخوه محمد، وابن عمه عبدالله بن العباس. ولم يرفض أحد من زعماء الهاشميين البيعة ليزيد، إلا الحسين بن علي. وهذا يدل على أن معارضة الهاشميين كانت جزئية، ولم تكن عامة.

وبقي هذا حالهم حتى بعد مقتل الحسين، وقيام أهل المدينة بثورتهم يوم الحرة حيث اعتزل محمد بن الحنفية، وابن عباس، ولم يؤيدوا الناس في الفتنة، كما اعتزلها الابن الوحيد للحسين الذي نجا من معركة كربلاء، وهو علي بن الحسين زين العابدين.

وعندما كانت تقوم ثورات ضد الأمويين فيما بعد، بزعامة هاشمية لم

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ١٩٧.

يكن تدبيراً من الهاشميين بصورة جماعية، ولم يكن مصدرها من المدينة، بل كانت على طريقة حركة الحسين، يتجمع الغاضبون على بني أمية.. في بلد من البلدان فيراسلون زعيماً من زعماء بني هاشم لإضفاء الشرعية على حركتهم، وجلب الأنصار إليها فينتقل هذا الزعيم إلى مركز الحركة، ويكون مصيره كمصير الحسين بن علي.

وعندما رأى أبناء عبدالله بن العباس، أن أبناء عمهم العلويين، يكادون يهلكون بسبب استغلالهم في حركات فاشلة، أخذ العباسيون يخططون بأنفسهم، ليكونوا هم القادة، لذلك ولي محمد بن علي بن عبدالله بن العباس[1] إمامة الهاشميين سِراً في أواخر الدولة الأموية، ولكن دعوتهم لم تكن في المدينة المنورة.

٣ ـ الأمويون:

كانت المدينة في عهد معاوية مركزاً كبيراً للأمويين، فقد هاجر إليها من هاجر بعد فتح مكة، ثم زاد عددهم بتولي عثمان الخلافة. ورحل منهم عدد عندما خرج الناس على عثمان، وأثناء ولاية علي، ثم عادوا واتخذوها مركزاً لهم بعد استقرار الأمر لمعاوية. حتى وصل عدد الرجال منهم ما يزيد على ألف رجل أيام يزيد بن معاوية.

وهناك تفسيرات متعددة لتمركزهم في المدينة المنورة وليس في الشام عاصمة الخلافة..

منها أن المدينة المنورة أصبحت مركز الطبقة العليا من القرشيين الذين أُبعدوا عن الحكم، وتأتيهم الهبات والعطايا وهم آمنون في منازلهم. حيث كانت المدينة بعد زوال الفتنة عنها من المدن الهادئة البعيدة عن المعارك

---

(١) محمد بن علي، والد السفاح والمنصور، أول من قام بالدعوة العباسية، ولي إمامة الهاشميين سراً في أواخر الدولة الأموية. توفي سنة ١٢٥ (الأعلام للزركلي).

السياسية والحربية التي تثيرها الأحزاب. فكان ينعم أهل الغنى بما عندهم من الأموال دون مزعجات.

وكانت المدينة بالأمس القريب عاصمة الخلافة، وكان على رأس الخلافة عثمان بن عفان الأموي الذي قرّب الأمويين وأغدق عليهم الأموال، وأصبح أكثرهم يمتلك الدور والقصور والبساتين في منطقة المدينة.

وقد يكون السبب في كثرتهم أن معاوية لم يعتمد على الأمويين في إدارة الأمصار وإنما اعتمد على رجال لهم شخصيتهم القوية[١] وقد يكونون من قريش أو من غير قريش وربما كان معاوية يتخوف من الأمويين حتى لا ينافسوه في الحكم أو يطمعوا في الخلافة من بعده، وكان يريد الخلافة حكراً على ولده فقط.

وربما يكون السبب أن معاوية أبقاهم في المدينة خاصة، والحجاز عامة، ليكون لهم الثقل في حياة الحجاز، حيث يعتبر الحجاز مركز الزعامة القرشية التي تتطلع إلى الخلافة، وبهذا يُعتبرون عيناً للخلافة في الحجاز لرصد الحركات المناوئة ولذلك كانت إمارة المدينة المنورة في عهد معاوية من حظٍّ الأمويين ولا يتولاها إلا أموي. وفي مدة عشرين سنة قضاها معاوية في الخلافة (٤١ - ٦٠ هـ) تناوب على المدينة ثلاثةُ أمراء أمويين وهم: مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عتبة.

وكانت سياسة معاوية أن يثير البغضاء بين الأمويين، ويدخل القطيعة بينهم، حتى لا يوجد بينهم الوّد، أو لا يتمكنون من وقت صفاء يفكرون في أمر الخلافة.

ذكر الطبري[٢] أن معاوية كتب إلى أمير المدينة سعيد بن العاص يأمره

---

(١) طه حسين: علي وبنوه ص ١٩٢، سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٩١.
(٢) الطبري جـ ٦ ص ٢٢١. والكامل لابن الأثير سنة ٥٤. ويرى ابن الأثير أن سبب عزل سعيد عن المدينة سنة ٥٤ لأنه رفض أن ينفذ أمر معاوية بالقبض على أموال مروان.

بقبض أموال مروان كلها، فراجعه سعيد في ذلك وقال: قرابته قريبة، فكتب إليه ثانيةً يأمره باصطفاء أموال مروان، فأبى سعيد، وأخذ سعيد بن العاص الكتابين فوضعهما عند جارية، فلما عُزل سعيد عن المدينة ووليها مروان، كتب معاوية إلى مروان يأمره بقبض أموال سعيد بالحجاز، وأرسل إليه الكتاب مع ابنه عبد الملك، وخبّر مروانُ سعيداً أنه لو كان شيئاً غير كتاب أمير المؤمنين لتجافيت، فدعا سعيدُ بن العاص بالكتابين اللذين كتب بهما معاوية إليه في أموال مروان يأمره فيها بقبض أمواله، فذهب بهما إلى مروان، فكفَّ مروان عن قبض أموال سعيد، وكتب سعيد بن العاص إلى معاوية: العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا، أن يضغن بعضُنا على بعض ونحن أبناء أب واحد، جمعتنا أهدافٌ واحدة. فكتب إليه معاويةُ يتنصل من ذلك، وأنه عائد إلى أحسن ما يعهده».

وليس غريباً أن يفعل معاوية هذا مع بني أمية، فكما كانت زعامة قريش طامعةً في الخلافة، كان رجال من بني أُمية يحسدون معاوية وفيهم مَنْ يطاوله في النسب والمكانة بين قومه. وقد حصلت المنافسة بالفعل فيما يرويه المؤرخون.

روى المسعودي[1] قال: كتب معاويةُ إلى مروان بن الحكم، وكان عامله على المدينة يعلمه باختياره يزيد، ولياً للعهد، ومبايعته إياه، ويأمر مروان بمبايعته وأخذ البيعة له على من قِبَله، فلما قرأ مروانُ ذلك، خرج مغضباً في أهل بيته وأخواله من بني كنانة حتى أتى دمشق، فنزلها، ودخل على معاوية، حتى إذا كان منه بقدر ما يُسمعه صوته، سلّم، وتكلم بكلام كثير يوبخ به معاوية. منه: أقم الأمور يا ابن أبي سفيان، واعدل عن تأميرك الصبيان، واعلمْ أنَّ بك من قومك نظراء. فقال له معاوية: أنت نظير أمير المؤمنين، وعدته في كل شديدة، وعضده والثاني بعد وليّ عهده، وجعله وليَّ عهد يزيد، وردَّه إلى المدينة، ثم إنه عزله عنها، وولاها الوليد بن عتبة ولم

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ٩.

يف لمروان بما جعل له من ولاية العهد بعد يزيد»[1].

٤ ـ الصنف الرابع من سكان المدينة في عهد معاوية، عدد كبير من علماء الصحابة يضاف إليهم عددٌ من التابعين ممن تتلمذ على الصحابة العلماء، وساروا بسيرتهم ونهجوا نهجهم. وهؤلاء كانوا خليطاً من المهاجرين والأنصار، ومن غير المهاجرين والأنصار ممن سكن المدينة. ومثل هؤلاء كانت نظرتهم إلى الحياة تختلف عن كثير من أهل عصرهم. فقد جعلوا همهم العبادة وتعليم الناس ورواية ما حفظوه من أحاديث رسول الله. وكان مطلب هؤلاء من الناحية السياسية أن تبقى أمةُ محمد يداً واحدةً لا تفرقها الأهواء، وأن يجنّبوا أُمتهم الفتن، وكانوا دائماً يعارضون كلَّ بوادر الفتن، ويحاولون إخماد نار المعارضةَ المسلحة ويكتفون بالإنكار اللساني أو القلبي، مهما كان نوع الأمير أو الخليفة مادامت الأُمةُ موحدةً[2]، فكانوا يدخلون فيما دخلت فيه الأمة ولا ينزعون يداً من جماعة. من هؤلاء عبدالله بن عمر، وعبدالله بن العباس، وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبدالله.. وبسبب هؤلاء كانت تتأخر الفتن لما هم من المركز في قلوب الناس.

٥ ـ وكان هناك بعض الرجال، من أبناء الصحابة، ممن لهم أطماع

---

(١) ولكنها كانت مقدرة له، ولو صبر لنالها دون نزاع، كما قال الشاعر:

جاء الخلافة أو كانت له قدراً ... كما أتى ربه موسى على قدر

(٢) للحسن البصري في هذا المعنى رأى سديد، فقد اعتزل السياسة عملاً ولم يعتزلها فكراً وكان رأيه في بني أمية سيئاً ما عدا عمر بن عبد العزيز، ولكنه لم ير الخروج عليهم. لأسباب:
أ ـ لأن الخروج يعطل الحدود ويهدم عمود الإسلام، ولذلك قال: هم يلون من أمورنا خمساً: الجمعة، والفيء، والثغور، والحدود. والله لا يستقيم الدين إلا بهم والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون. ب ـ ولأنه رأى الدماء تهرق في الخروج من غير حقّ يقام ومظلمة تدفع. جـ ـ ولأن كثرة الخروج تحل الدولة الإسلامية وتجعل بأس المسلمين بينهم شديداً فيجرؤ عليهم عدوهم (كتاب «مالك» للشيخ أبو زهرة ص ٦٢). وانظر «منهاج السنة لابن تيمية» جـ ١٤٦/١.

سياسية ولكنهم لم يعلنوا عنها لوجود رجال في الميدان يفوقونهم في المكانة السياسية، فكانوا يتحرقون في داخلهم إلى السلطة، ولكنهم في العهد الأول من خلافة معاوية لم يصلوا إلى تكوين جماعات مناوئة. ومن هؤلاء عبدالله بن الزبير الذي يعد نفسه للزعامة، والذي سيكون رئيس حزب في الحجاز فيما بعد. ويمكن أن نعد من هؤلاء فئة كانت لهم صحبة أو كان لآبائهم صحبة وجهاد ولكنهم ليس لهم الزعامة في قريش ومن هذه الفئة، الذين أثاروا معركة الحرة، وعندما فشلوا انضموا إلى حركة ابن الزبير.

* * * *
* * *
*

٤ ـ موقف المدينة من بيعة يزيد بن معاوية بولاية العهد

أ ـ مراحل أخذ البيعة ليزيد بولاية العهد:

لقد تم الصلح بين الحسن بن علي، ومعاوية، وتنازل الحسن عن الخلافة على شروط أملاها على معاوية[1]، ويذكر المؤرخون أن من شروط الصلح: ترك الأمر شورى بين المسلمين بعد موت معاوية.

وبقي معاوية حوالي ثلاث عشرة سنة من خلافته وهو ملتزم بما شرط على نفسه فلما توفي الحسن بن علي حوالي سنة ٥٠ هـ، بدأت روايات المؤرخين تتحدث عن محاولات معاوية اختيار وليّ عهد له.

ويقول الرواة[2]: إن المغيرة بن شعبة كان أول من تكلم في هذا الموضوع ليكسب ودّ معاوية. وكان معاوية أراد عزله عن الكوفة وتولية سعيد ابن العاص فذهب المغيرة إلى يزيد بن معاوية، وعرض عليه أن يطلب من أبيه ولاية العهد. فلما عرض يزيد الأمر على أبيه، استحسنه، وأرجع المغيرة إلى ولاية الكوفة مكافأة له على مشورته، وطلب منه أن يأخذ البيعة من الناس. أما زياد بن أبيه فطلب من معاوية التريث حتى يستقيم من أمر يزيد ما يكره الناس منه.

---

(١) انظر حديث الصلح بين الحسن ومعاوية في «صحيح البخاري» جـ ٤٢٦/٤ من شرح القسطلاني.

(٢) الطبري سنة ٥٣ هـ.

ولما توفي زياد بن أبيه أعلن معاوية أمر البيعة ـ فلم يزل يرّوض الناس لبيعة يزيد سبع سنوات، كان خلالها يشاور، ويعطي الأقارب ويدني الأباعد حتى استوثق له من أكثر الناس[1].

ولكن هل كان معاوية غافلاً عن أمر الخلافة من بعده، وهل كان ينوي ترك الأمر شورى بين المسلمين، لو لم يشر عليه المغيرة بما أشار.

أقول: إن معاوية ليس بغافل عن هذا الأمر، وإن اختيار خليفة يخلفه كان من الأمور التي تشغله، وما كان ستيرك الأمر فوضى.

أما مشورة المغيرة فقد نبهته إلى الاتجاه الذي سار فيه فيما بعد، وهو اختيار ابنه خليفة من بعده.

ولا شك أنه كان يوازن بين «الشورى» وبين «ولاية العهد».. ولكن معاوية كان يعلم بينه وبين نفسه أن فتح باب الشورى في انتخاب من يخلفه سيحدث في الأمة مجزرة لا ترقأ فيها الدماء إلا بفناء كل ذي أهلية من قريش لولاية شيء من أمور هذه الأمة.

وشباب قريش المعاصرون ليزيد ممن يحدثون أنفسهم بولاية الأمر كثيرون جداً، وكل واحد له مزيته التي يتفوق فيها على الآخر..

وربما رأى معاوية أن ابنه يزيد يمتاز عليهم بأعظم ما تحتاج إليه الدولة وهي القوة العسكرية[2] التي تؤيده إذا وقعت الفتنة، يُضاف إلى هذا أن يزيد كانت تؤيده أخواله من قضاعة وأحلافهم من قبائل اليمن.

وقد مرت بيعة يزيد بولاية العهد في المدينة المنورة بمراحل:

المرحلة الأولى: عندما كتب معاوية إلى مروان بن الحكم أمير المدينة «إني قد كبرتْ سني وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أتخير

(١) العقد الفريد جـ ٥.

(٢) «العواصم من القواصم» تحقيق الشيخ محب الدين الخطيب ص ٢١٥.

لهم من يقوم بالأمر بعدي، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة مَنْ عندك فاعرض عليهم ذلك، وأعلمني بالذي يردّون عليك» فقام مروان في الناس فأخبرهم بما أراد معاوية، فقال الناس: أصاب معاوية، ووفق، وقد أحببنا أن يتخيّر لنا فلا يألو[1].

وكانت هذه الرسالة مقدمةً لإعلان بيعة من يريده، وهو يبيت في نفسه البيعة لابنه يزيد، وكان يريد أن يعرف رأي الناس في استبدال الاختيار بالشورى.

المرحلة الثانية: بعد أن استوثق معاوية لبيعة يزيد من الأمصار الإسلامية، كتب إلى والي المدينة، مروان بن الحكم، أن يذكر يزيد بن معاوية عندهم، وأن معاوية ينوي تعيينه ولياً للعهد.

فلما قرأ مروان الرسالة على الناس في المدينة، عارض عددٌ من زعماء المدينة وعلى رأسهم: عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، والحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر.

المرحلة الثالثة: كانت سنة ٥٦ هـ، حيث ركب معاوية إلى مكة معتمراً، فلما رجع من مكة اجتاز بالمدينة، وأخذ البيعة من الناس، وبايع من الناس عبدالله بن عمر[2] وابن عباس. وبقي عبدالله بن الزبير، والحسين بن علي، لم يبايعا، ولم يعارضا. ومنذ رفض بعض زعماء المدينة البيعة ليزيد، تبدلت سياسة معاوية في المدينة وبدأت شقة الخلاف تتسع، وبدأ يتكون النفور ويكبر في قلوب الطرفين حتى أدى إلى الأحداث التالية، وكانت بداية الفتن في العصر الأموي من هذا الأمر.

ب ـ رأي في ولاية العهد:

لقد كانت مسألة ولاية العهد من أسباب الفتنة بين المسلمين في العهد

(١) الكامل لابن الأثير سنة ٥٤ هـ.
(٢) صحيح البخاري، الكتاب ٦٤ باب ٢٩.

الأموي وفي المدينة المنورة خاصة.. فهل كان معاوية مخطئاً فيما فعل، وهل كان الأولى خلاف ما رآه.

الجواب عن هذا التساؤل، يظهر لنا من خلال مناقشة الأمور التالية:

١ - إن طريقة الاختيار والتعيين، أمرٌ ضروري تحتمه ظروف تلك الفترة، وكان من أوجب الواجبات على الخليفة معاوية أن يعيّن مَنْ يخلفه. وقد صدق معاوية عندما قال، معللاً سبب اختيار مَنْ يخلفه «إني خفت أن أذر الرعية من بعدي، كالغنم ليس لها راعٍ». وكان ابن عمر بعيدَ النظر عندما قال لمعاوية: «إذا بايعه الناس - يعني يزيد - بايعتُه ولو كان عبداً مجدع الأطراف»[١].

فالقبائل والأحزاب كانت متحفزةً ومتطلعةً إلى الخلافة، ولن ينتهي أمر الشورى حتى تتنافر القلوب من جديد، وتقع فتن قد تكون أشد من الفتن التي أعقبْت بيعة علي رضي الله عنه، وأشد مما حصل بعد ولاية يزيد بن معاوية.

فقد كانت الفتن بين الإمام عليّ وخصومه في وقت كان الناس يستهجنون قتل المسلم أخاه المسلم، أما إذا حصلت الفتن في النصف الثاني من القرن الأول فإن قتل المسلم سيكون هيناً على النفس، لأن الحوادث السابقة جرأت الناس على القتل، ولأن جريمة (قابيل وهابيل) الأولى قد حصلت، بقتل عثمان والحرب في معركتي الجمل وصفين[٢] وكان قوّاد المعارك في الفتن الأولى من الصحابة وكانوا يتحرقون أسىً إذا رأوا المسلم مقتولاً، ولو كان من خصومهم، لأنهم ما كانوا يهدفون إلى

---

(١) البداية والنهاية سنة ٥٦ هـ.

(٢) روى ابن كثير عن الإمام أحمد، عن محمد بن سيرين أنه قال: هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله عشرات الألوف فلم يحضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين «وروى أنه لم يشهد صفين غير ثلاثة من أهل بدر». ونقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية «أما أن رجالاً من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد مقتل عثمان، فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم». (البداية والنهاية جـ ٢٥٣/٧).

قتل إخوانهم. . . أما الفتنُ التاليةُ فسوف يكون القُوّاد ممن لا صحبةَ لهم وستكون عامة الجيش من المرتزقة الذين يريدون أن يكسبوا يداً عند زعمائهم. وهناك أمر آخر سيكون من دواعي اتساع الفتنة، وهو كثرةُ المطالبين بالخلافة، ومع كثرة أصحاب الحقوق تتسع دائـرة الاختلاف وبهذا نرى أن معاوية كان موفقاً حين اختار الخليفة من بعده ولم يترك الرعية كالغنم بلا راع.

٢ ـ وقالوا: إن جعل الأمر وراثة في أبناء معاوية هو سبب الفتنة. ولكننا نقول: إن فكرة الوراثة في الحكم، لم يكن هناك اعتراضٌ كبير عليها وإن الناس أصبحوا يتقبلون هذه الفكرة. .

فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان يرجو الخلافة، وكان يرجوها له قومه لأنه ابن عم النبي وزوج ابنته ـ وليس لأنه أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان. وعندما بايع الناس الحسن بن علي بعد أبيه، لم يعترض أحدٌ على خلافته والحسين عندما قام على يزيد ورفض بيعته، لأنه يعتقد أنه أحق مكانةً ووراثة، لأن أباه وأخاه خليفتان، وهو حفيد الرسول عليه الصلاة والسلام. وعبدالله بن الزبير كان أبوه من أصحاب الشورى، وخالته عائشة زوج الرسول وجده أبا بكر رضي الله عنه.

فلم نجد من رجال المعارضة من لم يكن أبوه خليفة، أو كان له حق في الخلافة بسبب الوراثة. وكان في قريش الكثير من الرجال ولكن معارضتهم كانت قليلة لأنهم لم يتصلوا بسبب إلى من كان من أصحاب الحكم.

ولذلك يرى ابن خلدون في «المقدمة»[1] أن ما صنعه معاوية كان أمراً طبيعياً: اقتضاه التغيير الاجتماعي بين العرب، فقال: «ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد، واستئثار الواحد به، ولم يكن لمعاوية أن

---

(١) مقدمة ابن خلدون: فصل انقلاب الخلافة إلى ملك.

يدفع ذلك عن نفسه وقومه، فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها، واستشعرته بنو أمية، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفه. وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: «إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر ـ لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة، ولو أراد أن يعهد بها إليه لفعل، ولكنه كان يخشى من بني أمية ـ أهل الحل والعقد، لما ذكرناه، فلا يقدر أن يحوّل الأمر عنهم لئلا تقع الفُرقة». ثم بين أن النظام الوراثي والحكم الملكي ليس ممنوعاً، البتة، فقال: والملك إذا حصل، وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق، لم يكن في ذلك نكير عليه، ولقد انفرد سليمان وأبوه داود بملك بني إسرائيل، وكانوا ما علمت من النبوة والحق»، وبين ابن خلدون أن الملك ليس مذموماً بذاته في الشرع، فقال: اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية، وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور، فلابد فيه من العصبية. . وفي الحديث الصحيح: «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه»[1]. .

وقال في مكان آخر: والملك لما ذمّه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح، ولو كان الملك مخلصاً في غلبة الناس، أنه لله، ولحملهم على عبادة الله، وجهاد عدوّه، لم يكن ذلك مذموماً، وقد قال سليمان صلوات الله عليه «ربِّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي» لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل. ولما لقي معاويةَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عند قدومه إلى الشام، في أُبهة الملك وزيه، من العديد والعدة، استنكر عمر ذلك وقال:

أكسروية يا معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّا في ثغر تجاه العدو

(١) وفي مسند الإمام أحمد «ما بعث الله نبياً إلا وقد أمّه بعض قومه».

وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة، فسكت عمر، ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين، فلو كان القصد رفض الملك من أصله؛ لم يقنعه هذا الجواب في تلك الكسروية وانتحالها.

٣ ـ وقالوا: إن السبب في الفتنة، شخصية يزيد، وأنه لا يستحق الخلافة وسوف نرى في بداية الباب الثاني تحليلاً عن شخصية يزيد وما قاله المؤرخون في ترجمته.

* * * *
* * *
*

الباب الثاني

الأحداث السياسية في المدينة
في عهد يزيد بن معاوية، وبني مروان

١ ـ موقف المدينة من خلافة يزيد بن معاوية.
٢ ـ موقف المدينة من حركة الحسين بن علي.
٣ ـ موقف المدينة من حركة عبدالله بن الزبير.
٤ ـ أبو حمزة الخارجي في المدينة.



١ ـ موقف المدينة من خلافة يزيد بن معاوية

أ ـ شخصية يزيد في ميزان التاريخ:

توفي معاوية رضي الله عنه سنة ٦٠ هـ، وكان وليّ العهد بعده ابنه يزيد بن معاوية. وقد ثار جدل طويل، حول شخصية يزيد، وثارت في أيامه فتن، ادّعى أصحابها أنها من أجل شخصية يزيد الذي لا يستحق الخلافة، ولا يصلح أن يكون خليفة.

ولأن شخصية يزيد بن معاوية، لها صلة بأحداث هامة وقعت في المدينة المنورة، أحببت أن أتتبع صفات يزيد، وأخلاقه ومكوناته الشخصية لنحكم لها أو عليها، ثم نربط بينها وبين الأحداث في زمانه. ونعرف مدى تأثير شخصية يزيد على وجود الأحداث، أو أن هناك دافعاً آخر..

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[1]. ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير على الشام زمن عثمان. وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية[2]، طلقها معاوية وهي حامل به، أو وهو طفل صغير، لأنه سمعها تتشوق إلى حياة البادية وتفضلها على حياة القصور.. وأمضى يزيد فترة من طفولته وشبابه في البادية، فشب

(١) انظر ترجمته في: «تهذيب التهذيب» لابن حجر. والمعارف لابن قتيبة. والبداية والنهاية لابن كثير. قال ابن حجر: وأخباره مستوفاة في تاريخ دمشق لابن عساكر، وليست له رواية تعتمد.

(٢) ميسون بنت بحدل، شاعرة، كانت بدوية ثقلت عليها الغربة عن قومها لما تزوجت معاوية في الشام، فطلقها. توفيت سنة ٨٠ هـ «الأعلام للزركلي».

فصيحاً. وقد اعتبر الأدباء يزيد من فصحاء العرب وخطبائهم. روى صاحب «البيان والتبيين»، أن الخطباء تكلموا عند معاوية فأحسنوا ـ فقال: والله لأرمينّهم بالخطيب الأشدق، قم يا يزيد فتكلم. وعده الجاحظ من الخطباء الإسلاميين وروى عن سعيد بن المسيب أنه سئل: من أبلغ الناس؟ قال: رسول الله فقيل: ليس عن هذا نسألك قال: معاوية وابنه، وسعيد بن العاص، وابنه(١).

وكذلك أثبت له صاحب العقد الفريد خطباً مع الخطباء الإسلاميين، وعده من أصحاب التوقيعات البليغة(٢).

وأما عدالته: فقد رُويت عنه أقوال، وأثبت العلماء شهاداتٍ تدل على أنه كان على جانب من العدالة، وليس كما وصفه أصحاب الأهواء(٣).

روى ابن كثير: قال معاوية: كيف أنت فاعلٌ بعدي يا يزيد؟ قال: أفعل كما فِعْلَ عمر بن الخطاب. قال معاوية: سبحان الله يا بُني، والله لقد جهدتُ على سيرة عثمان بن عفان، فما أطقتها، فكيف بك وسيرة عمر(٤)؟ وعندما امتنع الحسين، وابن الزبير، وعبدالله بن عمر على بيعته. لم يذكروا عنه صفاتٍ مذمومة وإنما اعترضوا على طريقة اختيار الخليفة الجديد.

وشهد له محمد بن الحنفية، حيث قال لزعماء المدينة يوم الحَرّةَ: ما رأيت فيه ما تذكرون وقد حضرتُه وأقمتُ عنده فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة(٥).

---

(١) البيان والتبيين جـ ٨٦/١.
(٢) العقد الفريد ص ٨٩، ٢٠٧ جـ ٤.
(٣) للمؤرخ شمس الدين بن طولون مخطوط بعنوان (قيد الشريد من أخبار يزيد) يدافع فيه عن يزيد بن معاوية. متوفى سنة ٩٥٣ هـ (الأعلام للزركلي).
(٤) البداية والنهاية جـ ٢٢٩/٨ ترجمة يزيد.
(٥) المصدر السابق جـ ٢٣٣/٨.

وقال ابن العربي[1]: بل شهد العدلُ بعدالته ـ قال الليث[2]: توفي أمير المؤمنين يزيد فسماه الليثُ أمير المؤمنين بعد ذهاب ملكهم وانقراضِ دولتهم، ولولا كونه عنده كذلك ما قال إلا «توفي يزيد».

وأدخله الإمام أحمد بن حنبل في الزهاد ـ وروى عنه أنه قال في إحدى خطبه: «إذا مرض أحدكم مرضاً فأشفي، ثم تماثل، فلينظر إلى أفضل عملٍ عنده فليلزمه، ولينظر إلى أسوأ عمل عنده فليدعه[3].

وقال ابن كثير: وقد أورد ابن عساكر أحاديث في ذم يزيد بن معاوية كلها موضوعة لا يصحُّ شيء منها[4]. وقال الملا علي القاري: لا تصح الأحاديث في ذم يزيد بن معاوية»[5].

وقال ابن كثير: ولما خرج أهل المدينة عن طاعته وخلعوه وولوا عليهم ابن مطيع وابن حنظلة، لم يذكروا عنه ـ وهم أشد الناس عداوةً له ـ إلا ما ذكروه عنه: من شرب الخمر وإتيانه بعض الذنوب، ولم يتهموه بزندقة كما يقذفه بذلك بعض الروافض. بل قد كان فاسقاً والفاسقُ لا يجوز خلعه، لأجل ما يثور بسبب ذلك من الفتنة ووقوع الهرج كما وقع في زمن الحرة. وقال: وكان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال حسن المعاشرة، وكان فيه أيضاً إقبالٌ على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات.

وقال ابن كثير: يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه في عمله شرب

---

(١) «العواصم من القواصم» وابن العربي هو محمد بن عبدالله الإشبيلي، قاضي من حفاظ الحديث، بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. وصنف في الحديث والفقه والتفسير (وهو غير محيي الدين ابن عربي الصوفي) توفي سنة ٥٤٣ هـ.

(٢) والليث: هو الليث بن سعد، إمام أهل مصر في عصره في الحديث والفقه، وقيل عنه: أفقه من مالك توفي سنة ١٧٥ هـ. «تهذيب التهذيب جـ ٨/٤٦٣».

(٣) «العواصم من القواصم» ص ٢٣٣.

(٤) البداية والنهاية ٨/٣٣١. وانظر «تهذيب التهذيب» ترجمة يزيد.

(٥) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة. توفي المؤلف سنة ١٠١٤ هـ.

الخمر[1] وإتيان بعض الفواحش، فأما قتلُ الحسين، فإنه لم يأمر به وقد قال يزيد: لو كنتُ أنا لم أفعل معه ما فعله ابن مُرجانة يعني - عبيد الله بن زياد، وقال للرسل الذين جاؤوا برأسه: «قد كان يكفيكم من الطاعة دون هذا، ولم يعطهم شيئاً، وأكرم آل البيت، وردّ عليهم ما فُقد لهم وأضعافه، وردّهم إلى المدينة في محامل وأهبة عظيمة»[2].

وقد ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم[3] وكان يزيد أول من غزا مدينة القسطنطينية في سنة ٤٠ أو - سنة ٥٠ هـ. وحج بالناس في تلك السنة بعد مرجعة من هذه الغزوة. وحج بالناس في سنة إحدى وخمسين، وثنتين وخمسين وثلاث وخمسين.

أما السياسة والدهاء، فتُروى عنه الأخبارُ التي تدل على ذكائه وحنكته. . رُوي أن عبدالله بن عباس وَفَد إلى معاوية، فأمر معاوية ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه في الحسن بن علي، فلما دخل على ابن عباس، رحَّب به وأكرمه، وجلس عنده بين يديه، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه فأبى وقال: إنما أجلس مجلس المعزّي لا المهني فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس[4].

وشهد له ابن كثير فقال: بويع له بالخلافة بعد أبيه. . فأقر نواب أبيه على الأقاليم ولم يعزل أحداً منهم وهذا من ذكائه[5] لأن عزل الولاة في بداية الخلافة قد يُوجد الفتن في البلاد، وهذا ما أخذه المؤرخون على عليّ بن أبي طالب لأنه عزل ولاة عثمان.

---

(١) انظر «العواصم من القواصم» وقال في رد الاتهام بشرب الخمر: لا يحل إلا بشاهدين فمن شهد عليه بذلك. وقال الشيخ محب الدين في حاشية العواصم: «فلما خلا الجوّ لابن الزبير، بموت معاوية، صار دعاته يذيعون في الحجاز الأكاذيب على يزيد».

(٢) البداية والنهاية جـ٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، وأثبته ابن تيمية في «منهاج السنة» جـ ٢٥٢/٢.

(٤، ٥) البداية والنهاية جـ ٨. ترجمة يزيد.

ومن المواقف التي تدل على ذكائه في الأزمات العارضة، عندما غزا يزيد مدينة القيصر ـ القسطنطينية ـ وكان في الجيش عددٌ من الصحابة منهم أبو أيوب[1] ومرض أبو أيوب بعد وقائع كثيرة مع الروم. فجاءه يزيد عائداً، فقال ما حاجتك؟ فقال: أما دنياكم فلا حاجة لي منها، ولكن قدمني ما استطعتَ في بلاد العدوّ فإني سمعت رسول الله يقول: «يُدفن عند سور القسطنطينية رجلٌ صالح» أرجو أن أكون هو فلما مات، أمر يزيدُ بتكفينه وحُمل على سريره ثم أُخرج الكتائب، فجعل قيصر يرى سريراً يُحمل والناس يقتتلون فأرسل إلى يزيد: ما هذا الذي أرى؟ قال: صاحب نبينا وقد سألنا أن نقدمه في بلادك، ونحن منفذون وصيتَه أو تلحق أرواحنا بالله. فأرسل إليه: العجب كل العجب، كيف يدهي[2] الناس أباك وهو يرسلك فتعمد إلى صاحب نبيك فتدفنه في بلادنا، فإذا ولّيت أخرجناه إلى الكلاب. فقال يزيد: إني والله ما أردتُ أن أودعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم، فإنك كافر بالذي أكرمت هذا له: لئن بلغني أنه نبش من قبره أو مُثِّل به، لا تركتُ بأرض العرب نصرانياً إلا قتلتُه ولا كنيسة إلا هدمتُها. فبعث إليه قيصر: أبوك كان أعلم بك (فوحق المسيح)، لأحفظنّه بيدي سنةً قال صاحب العقد الفريد: فلقد بلغني أنه بني على قبره قبة يسرج فيها إلى اليوم[3].

ورغم قصر المدة التي قضاها في الخلافة، وكثرة الفتن في أيامه، فإن المؤرخين سجلوا له أعمالاً في مجال السلم والحرب.

قال عمر فروخ[4] كان يزيد خليفة عمرانياً وملكاً إدارياً، أتمَّ نظام الريّ في الغوطة وحفر فيها القناة التي تدعى «نهر يزيد» فسُمي من أجل ذلك

---

(١) أبو أيوب الأنصاري: خالد بن زيد، من بني النجار، كان محباً للغزو والجهاد رافق يزيد بن معاوية في غزو القسطنطينية. توفي سنة ٥٢ هـ وانظر موجز الخبر في «الإصابة» لابن حجر رقم ٢١٦٣. و«الاستيعاب» لابن عبد البر. على حاشية الإصابة جـ ٤٠٤/١.

(٢) يقال: دهاه: إذا نسبه إلى الدهاء. ويريد أن اختيار أبيه له لم يكن عن جودة رأي ولا أدب.

(٣) العقد الفريد جـ ٣٦٨/٤. «وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ص ٦٠٦».

(٤) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ص ١٣٧.

مهندس بني أمية. وهو الذي زاد في المقاطعات الإدارية العسكريـة جند قنسرين[1] حينما اتسعت الفتوح في شمال سورية، فأصبحت الأجناد خمسةً بعد أن كانت أربعةً إلا أن قصر خلافته، والفتن التي حدثتْ في عهده شلت يده في جميع الأعمال الجليلة.

وقال محمد كرد علي في «خطط الشام»[2] وقد سار الرجل على خطة أبيه في جهاد الروم وكان جلداً صبوراً. وكانت جيوشُ المسلمين في زمانه تحاربُ في جميع الجهات في المغرب والمشرق، وفي جبهة الروم..

وبعد: ربما قد أطلت في ذكر محامد يزيد بن معاوية، ولكنني لم أذكر إلا نبذاً صغيرةً مما أورده المؤرخون في محامده، وإنما أردت من سرد هذه الأخبار أن أقول: لقد شُوّهت شخصية يزيد بن معاوية، وطمستْ كتب الشيعة كثيراً من صفاته الحميدة وجعلته مذموماً في أعين الناس. وإن ما ذكروه من صفاته الذميمة، لها ما يقابلها من الصفات الحميدة، وبقي أن نوازن بين ما ذكره الطرفان، لنحكم ليزيد، أو عليه. وليس مجال بحثي أن أتوسع في الكلام عن يزيد بن معاوية، ولكنني أستطيع أن أقول: إن كثيراً من الأخبار التي رُويت عن يزيد، وإن كثيراً مما وُصف به، إنما هو مبالغ فيه ومحمول عليه وتدخلت فيه الأهواء. ودليلنا على ذلك: أن أكثر ما عيب على يزيد، بسبب مقتل الحسين بن علي، ولم يُستهجنْ موقفه من أهل المدينة يوم الحرة، وموقفه من ابن الزبير، بالدرجة نفسها التي استهجُن بها مقتلُ الحسين. مع أن ما فعله مسلم بن عقبة في المدينة من القتل، يفوق ما فعله عُبيد الله بن زياد في كربلاء يوم قتل الحسين. فإذا نحن سلخنا عن الحسين نسبه إلى الرسول باعتبار أن الأنساب لا ترفع قدر المسلم عند الله ـ فإن الحسين يتساوى مع ابن الزبير، ومع الصحابة الذين قُتلوا يوم الحرة. فلماذا يشنع على يزيد مقتل

---

(١) قنسرين كانت مدينة في شمال سورية، وكانت إحدى الولايات العسكرية التي قسمت إليها البلاد (معجم البلدان) لياقوت الحموي.

(٢) كرد علي: خطط الشام جـ ١ ص ٢١٨.

الحسين، ولم يشنع على عبد الملك بن مروان مقتل ابن الزبير، ولم يشنع على يزيد مقتل آلاف من أهل المدينة؟ الجواب عن هذا السؤال: لأن الذين ضخموا جريمة مقتل الحسين هم الشيعة، لأن لهم هوى في الحسين، أما أهل المدينة وابن الزبير فكان جماعتهم من أهل السنة المعتدلين[1].

وقد حان الوقت الذي نساوي فيه بين الأشخاص أمام الإسلام، ونساوي بين الحوادث وأن نجعل الذنب واحداً إذا تشابهت الأحوال، وعلينا أن نعرض الأفعال على الشرع، ونجعل الذنب يتوازى مع مقدار مخالفته للشرع ونبعد الهوى عن الحكم.

إننا لا ننزه يزيد عن الخطأ والذنب، ولا نرفعه إلى مراتب الصحابة والصالحين ولكننا لا ننزله إلى درجة المجرمين المخلدين في نار جهنم.

وإذا نسبنا إلى يزيد الخطأ والذنب، فإننا يجب أن ننظر في أعمال خصوم يزيد ونرى هل يتحملون شيئاً من الوزر؟ وهذا ما سنراه في الصفحات التالية.

ب ـ خلافة يزيد:

عندما حضرت معاوية الوفاة سنة ٦٠ هـ، كان ابنه يزيد غائباً، فكتب إليه معاوية وصية جاء فيها: انظر أهل الحجاز، فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب.. وإني لست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة: حسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير[2].

---

(١) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» جـ ٤: ويزيد ممن لا نسبه ولا نحبه، وله نظراء من خلفاء الدولتين، بل منهم من هو شرّ منه». وانظر منهاج السنة جـ ٢٥١/٢: ولم يجوز ابن تيمية لعنه، لأنه لا يجوز لعن الفاسق المعين.. وليس عندنا دليل قاطع على فسقه، وليس عندنا دليل على أنه لم يتب من ذنوبه.. وقال: إذا فتحنا باب اللعن ساغ أن يلعن أكثر موتى المسلمين، لأن أكثر المسلمين لابد لهم من ظلم وفي الحديث «لا تسبوا الأموات».

(٢) أما عبد الرحمن بن أبي بكر: وهو أحد المعارضين فكان قد توفي سنة ٥٨ هـ.

فأما عبدالله بن عمر فرجل قد وقذه الدين[1]، فليس ملتمساً شيئاً قبلك، وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً، وقرابةً من محمد رسول الله، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإذا قدرت عليه، فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوتُ عنه.

وأما ابن الزبير، فإنه خب، ضبّ[2] فإذا شخص، فقطّعه إرْباً إرْباً، إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإنْ فَعَلَ، فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت[3].

وبعد أن أخذ البيعة في دمشق، كان أكبر همه أخذ البيعة ممن ذكرهم أبوه في الوصية خاصة، وأهل المدينة عامة. فكتب إلى والي المدينة الوليد بن عتبة يخبره بوفاة معاوية، وكتب إليه في صحيفة كأنها أذن فأرة[4]: أما بعد فخذ حسيناً، وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير، بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصةٌ حتى يبايعوا والسلام».

فلما أتى إلى الوليد بن عتبة نعي معاوية، فظع به، وكبر عليه، فبعث إلى مروان بن الحكم فقرأ عليه الكتاب، واستشاره في أمر هؤلاء النفر، فقال مروان: أرى أن تدعوهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، إلى البيعة، فإن أبوا، ضربتَ أعناقهم. فأرسل الوليد إلى الحسين وابن الزبير، وهما في المسجد، فقال لهما الرسول: أجيبا الأمير، فتوقعا موت معاوية، وأنهما دُعيا إلى البيعة. ثم نهض الحسين، فأخذ معه مواليه، وجاء باب الأمير، ودخل وحده، وطلب من مواليه إذا سمعوا أمراً يريبهم أن يدخلوا. فسلم وجلس، ومروان عند الأمير فناوله الوليدُ الكتاب، ونعى إليه معاوية، ودعاه الأمير إلى البيعة. فقال

---

(١) وقذه الدين: أي أسكنه، ومنعه من انتهاك ما لا يحل ولا يجمل.

(٢) الخب: ضد الغر، وهو الخداع. المراوغ.

(٣) الطبري جـ ٦ ص ٢٠١.

(٤) الطبري جـ ٦ ص ٢٠٢ والبداية والنهاية جـ ٨/ ٦٠ هـ.

الحسين: إن مثلي لا يبايع سرّاً، وما أراك تجتزىء مني بهذا، ولكن إذا اجتمع الناس دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً. فقال له الوليد - وكان يحب العافية - فانصرف على اسم الله حتى تأتينا في جماعة الناس. فقال مروان للوليد: والله لئن فارقك ولم يبايع الساعة، ليكثُرَنّ القتل بينكم وبينه، فاحبسه ولا تخرجه حتى يبايع، وإلا ضربتَ عنقه. فنهض الحسين وقال: يا ابن الزرقاء، أنت تقتلني؟ كذبتَ والله وأثمت. ثم انصرف إلى داره. فقال مروان للوليد والله لا تراه بعدها أبداً. فقال الوليد: والله يا مروان ما أحبُّ أن لي الدنيا وما فيها وأني قتلت الحسين. سبحان الله، أقتل حسيناً إن قال: لا أبايع؟ والله إني لأظن أن مَنْ يقتل الحسين يكون خفيفَ الميزان يوم القيامة. وبعث الوليد إلى عبدالله بن الزبير فامتنع عليه وماطله يوماً وليلةً، ثم إن ابن الزبير ركب في مواليه واستصحب أخاه جعفراً وسار إلى مكة. وبعث الوليد خلف ابن الزبير الرجال والفرسان فلم يقدروا على رده[1].

وأما الحسين بن علي فإن الوليد تشاغل عنه بابن الزبير، ثم جمع أهله وبنيه، وركب إلى مكة، ولم يتخلف عنه أحد من أهله سوى محمد بن الحنفية[2].

ومنذ وصل الحسين وابن الزبير إلى مكة، تبدأ قصة الحركات الثلاث التي حدثت في عهد يزيد بن معاوية. وهي خروج الحسين إلى العراق - ثم خلع المدينة المنورة بيعة يزيد، ثم اعتصام عبدالله بن الزبير بالحرم المكي.

وسوف أتحدث عن هذه الحركات حسب ترتيبها التاريخي.

* * * *
* * *
*

---

(١) «العواصم من القواصم» وعنده أن أمثل ما روي وأصحه هذا الخبر.

(٢) الطبري جـ ٦ ص ٢٠١ والبداية والنهاية جـ ٨ سنة ٦٠ هـ والعقد الفريد جـ ٣٧٦/٤.

٢ ـ موقف المدينة من حركة الحسين بن علي

أ ـ حركة الحسين بن علي:

عندما آلت الخلافة إلى الحسن بن علي، وأراد أن يصالح معاوية، شق ذلك على الحسين، ولم يسدد رأي أخيه في ذلك، بل حثّه على قتال أهل الشام. فقال له أخوه الحسن: «والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطبق عليك بابه حتى أفرغ من هذا الشأن ثم أخرجك» فلما رأى الحسين ذلك سكت وسلّم. فلما استقرت الخلافة لمعاوية، كان الحسين يتردد إليه مع أخيه الحسن فيكرمهما معاوية إكراماً زائداً، ويقول لهما: مرحباً وأهلاً، ويعطيهما عطاءً جزيلاً[١]. .

وعندما تُوفي الحسن، انتقلت رياسة الهاشميين إلى الحسين، وتوجهتْ آمال الشيعة في العراق إليه. وعندما بايع الناس معاوية ليزيد بولاية العهد، كان الحسين ممن لم يبايع له. وأخذ أهلُ الكوفة يكتبون إليه، يدعونه إلى الخروج إليهم في خلافة معاوية، فكان يأبى عليهم ذلك[٢].

وكان معاوية وهو في دمشق يتلقّف أخبار المدينة، ويبثّ عيونه على المعارضين ويطلب من والي المدينة تزويده بأخبارهم.

فكتب مروان بن الحكم، أمير المدينة، إلى معاوية: «إني لست آمنُ أن

(١) ابن كثير البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٤٩.
(٢) الدينوري: الأخبار الطـوال ٣٤٢.

يكون حسينٌ مُرصداً للفتنة ـ وأظن يومكم من حسين طويلاً». فكتب معاوية إلى الحسين: إن مَنْ أعطى الله صفقةَ يمينه وعهده لجدير بالوفاء، وقد أُنبئت أنَّ قوماً من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق. وأهل العراق من قد جرّبت، قد أفسدوا على أبيك وأخيك، فاتق الله واذكر الميثاق، فإنك متى تكدني أكِدْك». فكتب الحسين إليه: «أتاني كتابك، وأنا بغير الذي بلغك جديرٌ والحسناتُ لا يهدي لها إلا الله، وما أردتُ منك محاربةً ولا عليك خلافاً»[1].

وكان معاوية دائماً يُظهر الود للحسين، لعله يتألفه ويصرفه عمّا في نفسه ولأن معاوية ـ رغم أنه قادر على قمع أعدائه ـ كان يعمل على حقن دماء العرب ما استطاع ويُخمد النقمة في نفوس أصحابها. ولذلك كان يقرّب الحسين ويكرمه كلما وفد عليه[2]، ولكن الحسين انقطع عن معاوية بعد أن رفض البيعة ليزيد بولاية العهد، فلحقه دين، فلما علم معاوية بذلك، أرسل له مائتي ألف دينار يشتري بها ضيعة أبي نيزر[3] فأبى الحسينُ أن يبيع لأنها صدقةٌ من صدقاتِ علي بن أبي طالب[4]. وحاول معاوية مرة أخرى التقرب من بني هاشم، ومن الحسين خاصة عن طريق المصاهرة. فكتب إلى مروان ابن الحكم وهو والي المدينة: إن أمير المؤمنين قد أحب أن يرد الألفة ويسلّ السخيمة ويصل الرحم، فإذا وصل إليك كتابي، فاخطبْ إلى عبدالله بن جعفر ابنته أمّ كلثوم، على يزيد بن أمير المؤمنين، وأرغبْ في الصداق[5]. ولكن خالها الحسين يرفضُ الخطبة وزوّجها من ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥٠.

(٢) الطبري جـ ٦ ص ١٩٤، ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٩.

(٣) عين أبي نيزر: أرض كانت لعلي بن أبي طالب، في ينبع من منطقة المدينة وكان قد جعلها عليٌّ صدقةً إلا أن يحتاج إليها الحسن والحسين. وأبو نيزر التى تُسمى العين باسمه: مولى كان لعلي، وكان ابناً للنجاشي الذي هاجر إليه المسلمون في الحبشة اشتراه عليٌّ واعتقه مكافأة لأبيه.

(٤) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ص ١٢٧٢.

(٥) المغانم المطابة فى معالم طابة، للفيروز آبادي/ ٥٩.

وفشلت محاولات معاوية في تقريب الحسين إليه، ولذلك بقي متخوفاً منه.

وكان الحسين ينتظر موت معاوية ليكون في حِلّ من البيعة، حيث كان أهل الكوفة يُلحّون عليه في الخروج على معاوية.. ويموت معاوية، ويرفض الحسين بيعة يزيد بالخلافة، وخرج إلى مكة، مع مواليه وأولاده وأهله. وبني أخيه[1]. وكان خروج الحسين من المدينة في شهر رجب سنة ستين، ووصل مكة في أوائل شهر شعبان. وأقام بمكة إلى يوم التروية من شهر ذي الحجة سنة ستين من الهجرة[2]. وعندما علم أهلُ العراق برفض الحسين البيعة إلى يزيد وخروجه إلى مكة، تواترت على الحسين الرسل والكتب، يدعونه للخروج إليهم، فأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب، إلى الكوفة، ليعرف أخبار الناس، ويأخذ البيعة منهم، ويكتب إليه بما يرى. فلما وصل مسلم إلى الكوفة كان أميرها النعمان بن بشير الأنصاري، وكان متهاوناً مع أنصار الحسين، فاجتمع الناس على مسلم بن عقيل، وبايعوه للحسين، فأرسل مسلم إلى الحسين يشجّعه على الخروج إلى الكوفة، فقرر الحسين الخروج، فبعث إلى المدينة، يقدم عليه من خفّ من بني عبد المطلب. قال ابن كثير[3] وهم تسعة عشر رجلاً، ونساء وصبيان من إخوته وبناته ونسائه». وتبعهم محمد بن الحنفية، فأدرك حسيناً في مكة. فأعلمه أن الخروج ليس له برأي، فأبى الحسين أن يقبل، فحبس محمد بن الحنفية أولاده، فلم يبعث أحداً منهم، حتى وجد الحسين في نفسه على محمدٍ، وقال: ترغب بولدك عن موضع أُصابُ فيه، فقال: وما حاجتي أن تصاب ويصابون معك؟ وإنْ كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم».

وخرج الحسين من مكة متوجهاً إلى العراق، ومعه أهل بيته وستون شخصاً من أهل الكوفة...

---

(١) الطبري جـ ٥ سنة ٦٠ هـ.

(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥٠.

(٣) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥١.

وبينما كان في الطريق، وصله خبر مقتل مسلم بن عقيل، ولكن آل عقيل رفضوا الرجوع إلا أن يأخذوا بالثأر، فنزل الحسين عند رأيهم، وتابع طريقه إلى الكوفة.

وهناك التقى بجيش عبيد الله بن زياد[1]، يقوده عمر بن سعد بن أبي وقاص[2] وكانت نتيجة اللقاء مقتل الحسين مع أكثر أهل بيته..

وفي ذلك اليوم، العاشر من محرم سنة ٦١ هـ، كُتبت ملحمةُ شيعة بني هاشم، أو شيعة الحسين، وزاد عليها المؤرخون فيما بعد، حتى أصبحت من أقوى الملاحم المأساوية، ولم أبسط القول في معركة الحسين، أو معركة كربلاء، لأنها ليست في حدود موضوعي، ولأن الكتابة فيها تحتاج إلى رسالة خاصة، لتحقيق أخبارها، ووزنها بميزان الشرع، والعقل، وتاريخ تلك الفترة، فقد كثر الوضع في هذه القصة، وكانت مسرحاً للأهواء، ولهذا تحتاج إلى تحقيق دقيق.

ب ـ رأي أهل المدينة في حركة الحسين:

لم يشهد التاريخ الإسلامي حركة لها قلة من الأنصار، وكثرة من المعارضين والناصحين المشفقين. مثلما لاقتْ حركة الحسين بن علي.

كان أول من عارض ونصح أقرباؤه من بني هاشم، وكانت نصيحتهم تقوم على العقل والمنطق والحقائق الواقعة، وكانت حجةُ الناصحين واضحة وقوية وليس مع الحسين دليل يشجع على الإقدام..

(١) عبيد الله بن زياد بن أبيه (بن أبي سفيان) ولاه معاوية البصرة بعد موت أبيه، وأقره يزيد، وولاه الكوفة بعد ظهور أنصار الحسين، فكان مقتل الحسين في أيامه وعلى يده، وبعد موت يزيد، لحق به إبراهيم بن الأشتر في جيش يطلب ثأر الحسين فقتل عبيد الله سنة ٦٧ هـ. (البداية والنهاية) جـ ٨/٢٨٣.

(٢) عمر بن سعد بن أبي وقاص، ولاه عبيد الله بن زياد قتال الحسين، فاستعفاه فهدده فأطاع، وتوجه إلى لقاء حسين، فكانت الفاجعة، وعاش عمر حتى خرج المختار الثقفي يتتبع قتلة الحسين، فبعث إليه من قتله بالكوفة سنة ٦٦ هـ «تهذيب التهذيب» جـ ٧/٤٥١.

فقد قال له ابن عباس: أخبرني رحمك الله. أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونَفَوْا عدوهم؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسرْ إليهم. وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهرٌ لهم وعُمّاله تجبي بلادهم فإنما دعوك إلى الفتنة والقتال، ولا- آمن عليك أن يغروك ويكذبـوك ويخالفـوك ويخذلوك وأن يكونوا أشدَّ الناس عليك[1]. وقال له ابن عباس مرة أخرى: إن أهل العراق قوم غُدُور- فلا تقربهم، ابق بهذا البلد فإنك سيدُ الحجاز، فإن أبيت إلا الخروج، فسر إلى اليمن، فإن فيها حصوناً وشعاباً ولأبيك بها شيعةٌ..

ثم نصحه قائلاً: «فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه»[2].

كما رفض الحسين نصيحة عبدالله بن جعفر، الذي بعث معه ولديه. وظن عبدالله بن جعفر أن الحسين يصر على الخروج خوفاً على حياته من والي الحجاز فطلب عبدالله من أمير الحجاز، عمرو بن سعيد، أن يكتب إلى الحسين كتاباً يجعل له فيه الأمان، ويمنّيه بالبر والصلة، ويسأله الرجوع لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع. فقال عمرو بن سعيد لعبدالله بن جعفر[3] اكتب ما شئت وائتني به أختمه، فكتب عبدالله الكتاب، وأرسله الأمير مع أخيه يحيى بن سعيد فلحقه يحيى بن سعيد، وعبدالله بن جعفر. فاعتذر الحسين إليهما قائلاً: إني رأيت رؤيا فيها رسول الله، وأُمرت فيها بأمرٍ أنا ماضٍ فيه، عليَّ كان أوْ لي، فقالا: فما تلك الرؤيا؟ قال: «ما حدثت أحداً بها وما أنا محدّثٌ بها حتى ألقى ربي»..

ولقي الحسين الفرزدق في طريقه، فقال له الحسين: بين لنا نبأ الناس خلفك، فقال الفرزدق: قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية[4].

(١) الطبري جـ ٦ ص ١٩٥ والبداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥٢.
(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥٢.
(٣) الطبري جـ ٦ ص ١٩٦، ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ١١.
(٤) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٦٠، ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٢٠.

ولو أردنا أن نتبين موقف أهل المدينة خاصة وأهل الحجاز عامة من حركة الحسين، لوجدنا معارضة شديدة من جميع عناصر الناس. فإذا بدأنا بأقرب الناس إليه، وهم بنو هاشم. فإنهم كانوا أول المعارضين، بل كانت المعارضة من أقرب الناس إليه، فأخوه محمد بن الحنفية نصحه بالعدول عن خروجه، وحبس أولاده عنه، وابن عمه عبدالله بن عباس نصحه غير مرة، وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب أرسل معه ولديه ولم يكن راضياً عن خروجه ورأينا أنه لم يخرج إلا بعددٍ قليل دون العشرين من بني هاشم بما فيهم الصبيان، وأما الأنصار، وهم قلب المدينة، فلم يخرج منهم أحد معه. وكان كل رجاله من أهل العراق، ومن الأعراب الذين انضموا إليه وهو في طريقه إلى العراق[1].

أما أهل الرأي والفقه من الصحابة، والتابعين فإنهم كانوا ناصحين مشفقين ألحوا على الحسين بأن لا يخرج..

روي عن ابن عمر أنه كان بمكة، فبلغه أن الحسين بن عليّ قد توجه إلى العراق فلحقه على مسيرة ثلاث ليال، فقال: أين تريد؟ قال: العراق، وإذا معه طوامير وكتب، فقال: هذه كتبهم وبيعتُهم، فقال ابن عمر: لا تأتهم، فأبى، فقال ابن عمر: إني محدثك حديثاً، إن جبريل أتى النبي ﷺ، فخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، ولم يرد الدنيا، وإنك بضعةٌ من رسول الله، والله ما يليها أحدٌ منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خيركم، فأبى الحسين أن يرجع[2].

وكان ابن عمر يقول: لقد رأى الحسين في أبيه وأخيه عبرة، فرأى من الفتنة وخذلان الناس لهما، ما كان ينبغي له أن يتحرك ما عاش. وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٣ ص ١٠، ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٢١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٦٩، البيهقي: المحاسن والمساوى جـ ١ ص ٤٣.

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: عجّل حسين قدره. والله لو أدركته ما تركته يخرج إلا أن يغلبني، ببني هاشم فُتح هذا الأمر، وببني هاشم يُختم[1]. وقال جابر بن عبدالله: كلمت حسيناً فقلت: اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض.

وقال أبو سعيد الخدري: قلت للحسين: اتق الله والزم بيتك ولا تخرج على إمامك..

وقال سعيد بن المسيب، وهو من التابعين: لو أن حسيناً لم يخرج لكان خيراً له...

جـ - رأي المؤرخين في حركة الحسين:

وأما المؤرخون، من القدماء، والمحدثين، فإنهم لاموا الحسين على خروجه ونسبوه إلى الخطأ فيما فعل، لأن الحسين خرج على خليفة مبايع من الأمة كلها وفي خروجه إثارة للفتن التي تُودي بحياة المسلمين، ولأن الحسين خرج إلى القتال ولم يتخذ للأمر أُهبته، فكأنه قد ذهب ليقتل نفسه لا ليقاتل عدوه..

قال الذهبي[2] «اغتر الحسين، وسار في أهل بيته، فقُتل». وقال ابن العربي[3]: لكنه رضي الله عنه، أي: الحسين، لم يقبل نصيحة أعلم أهل زمانه ابن عباس وعدل عن رأي ابن عمر شيخ الصحابة.. وطلب الاستقامة في الاعوجاج وما خرج إليه أحد إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جدّه المهيمن على الرسل المخبر بفساد الحال، المحذّر من الدخول في الفتن،

(١) البداية والنهاية جـ ١٦١/٨. وقال عبدالله بن عمرو: فإذا رأيت الهاشمي قد ملك فقد ذهب الزمان. قال ابن كثير: وهذا مع حديث ابن عمر السابق يدل على أن الفاطميين أدعياء كذبة لم يكونوا من سلالة فاطمة كما نص عليه غير واحد من الأئمة).

(٢) العبر في خبر من عبر، وهو محمد بن أحمد بن عثمان، مؤرخ علامة محقق، تصانيفه تقارب المائة توفي سنة ٧٤٨.

(٣) العواصم من القواصم ص ٢٣٢.

وأقواله في ذلك كثيرة، منها قوله ﷺ: إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً مَنْ كان[1].

وقال الخضري: وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيماً في خروجه هذا الذي جرَّ على الأمة وبال الفرقة والاختلاف، وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا، وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة، لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب، فيشتد تباعدها. غاية الأمر: أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له، ولم يعدّ له عدته، فحيل بينه وبين ما يشتهي وقُتل دونه.. والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة، وهي أنه لا ينبغي لمن يريد عظائم الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية، فلا يرفع سيفاً إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح، أو يقرب من ذلك، كما أنه لابد أن تكون هناك أسباب حقيقيةٌ لمصلحة الأمة، بأن يكون هنا جَوْر ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله.

وأما الحسين: فإنه خالف على يزيد، وقد بايعه الناس، ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف.

وقد أوجز ابن تيمية قصة مقتل الحسين فقال: إن يزيد لم يأمر بقتل الحسين، باتفاق أهل النقل. ولكن كَتب إلى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق، والحسين كان يظن أن أهل العراق ينصرونه ويوفون له بما كتبوا إليه، فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل، فلما قتلوا مسلماً وغدروا به، وبايعوا

---

(1) قال ابن خلدون في مقدمته: فصل ولاية العهد: وقد غلط القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي في هذا فقال: في كتابه الذي سماه: بالعواصم من القواصم «ما معناه: إن الحسين قتل بشرع جده. وهذا غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل. ومن أعدلُ من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الأراء». والحديث في صحيح مسلم «كتاب الإمارة» وأوضح ابن تيمية في «منهاج السنة» رأي أهل السنة، بأن الحسين قُتل مظلوماً شهيداً، ولم يكن مولياً أمر الأمة، والحديث المذكور لا يتناوله، فإنه لما بلغه ما فعل بابن عمه ترك طلب الأمر وطلب أن يذهب إلى يزيد، فلم يمكنوه وطلبوا منه أن يستأسر لهم وهذا لم يكن واجباً عليه. جـ ٢/٢٤٧.

ابن زياد، أراد الرجوع فأدركته السرية الظالمة، فطلب أن يذهب إلى يزيد أو يذهب إلى الثغر فلم يمكنوه حتى يستأسر لهم، فامتنع فقاتلوه حتى قُتل شهيداً مظلوماً. . ولما بلغ يزيد أظهر التوجع وأظهر البكاء في داره ولم يسب له حريماً بل أكرم أهل بيته حتى ردّهم إلى بلدهم «المنهاج» ص **٢٢٦**. جـ **٢**. وقال في موضع آخر: «وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء. بل زاد الشر بخروجه، ونقص الخير بذلك، وصار سبباً لشرّ عظيم. .» جـ **٢/٢٤٢**.

* * * *
* * *
*

٣ ـ موقف المدينة من حركة عبد الله بن الزبير

أ ـ حركة عبدالله بن الزبير:

لم يكن من رأي يزيد بن معاوية قتل الحسين، ويروى أنه عندما بلغه مقتل الحسين دمعت عيناه، وقال: لقد كنت أقنع من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية، أما والله لو كنت صاحبه لتركته، رحم الله أبا عبدالله وغفر له[١].

وكان لمقتل الحسين بن علي أثر في شحن نفوس الناس بالبغضاء لبني أمية عامة ويزيد بن معاوية خاصة، واتخذ مقتل الحسين وسيلة لتشويه صورة يزيد وخلق الأقاويل عليه، وإثارة الناس ضده، واستغله أصحاب الأهواء السياسية في الوصول إلى غاياتهم. قال الأستاذ محمد كرد علي: كانت غلطة ابن زياد في قتل الحسين وسبي آله، فتقولوا على يزيد. وحطّوا من كرامته، مع أنه سار بسيرة أبيه في الملك من التوسع والفتوح[٢].

وكان من الآثار المباشرة لمقتل الحسين، معركة الحرة، وحركة ابن الزبير. والحركتان متداخلتان: بدأت حركة ابن الزبير منذ تولى يزيد الخلافة،

---

(١) العقد الفريد جـ ٤/٣٨١.

(٢) خطط الشام جـ١/١٤٥. ومحمد كرد علي: من كبار الكتاب في العصر الحديث مؤسس المجمع العلمي العربي في دمشق، وهو عالم بحاثة، له عشرات الأبحاث والكتب. من بينها خطط الشام في ستة مجلدات. استخرجه من نحو أربعمائة كتاب توفي سنة ١٩٥٣ م (الأعلام للزركلي).

ولكنها كانت أثناء خلافة يزيد في حالة إعداد وتهيئة، وعندما تُوفي يزيد أعلن ابن الزبير حركته، وفي خلال فترة الإعداد حدثْت حركة أهل المدينة التي انتهت بيوم الحرة. والحركتان كانتا موجهتين ضد يزيد بن معاوية أو ضد بني أمية، ويبدو أن هناك خيوطاً تربط بين الحركتين. ومن أجل الحفاظ على التسلسل التاريخي للأحداث، أحببت أن أبدأ أولاً بالحديث عن حركة ابن الزبير في مرحلة الإعداد قبل الإعلان، ثم أعقب بالحديث عن حركة أهل المدينة، ثم أعود للحديث عن حركة ابن الزبير عندما أعلن نفسه أميراً للمؤمنين وأخذ البيعة من الأقاليم.

كان عبدالله بن الزبير[1] قد تطلعت نفسه إلى الرياسة منذ حصار عثمان، حيث ولاه عثمان أميراً على الدار، فاعتبر ابن الزبير هذا العمل تنويهاً بمكانته كما نوه الرسول عليه السلام بمكانة أبي بكر عندما أمره أن يُصلي بالناس في مرضه. وكان من المدافعين عن عثمان، وولاه عثمان توزيع الودائع بعد موته. وعندما قُتل عثمان وتولى عليّ الخلافة كان من المناوئين لعليّ، وكان له دور في إثارة حرب الجمل وخروج[2] عائشة. وكان يدعو أباه لمخالفة عليّ بن أبي طالب حتى قال الإمام علي: مازال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى أدركه ابنه عبدالله فلفته عنا[3] وربما كان عبدالله متأثراً في هذا بسياسة خالته عائشة رضي الله عنها حيث كان عبد الله ربيباً للسيدة عائشة وكانت تكنّى به، وكانت ترفع قدره وتقدمه على أبيه الزبير وعلى طلحة. روى ابن الأثير قال: خرجت عائشة ومن معها من مكة، فلما خرجوا أذّن مروانُ بن

---

(١) أول مولود في المدينة بعد الهجرة... شهد فتح أفريقية زمن عثمان. كان من الخطباء المعدودين. أعلن خلافته سنة ٦٤ هـ بعد موت يزيد، وقتل سنة ٧٣ هـ وترجمته مع الصحابة في «الإصابة» لابن حجر.

(٢) روى ابن عبد البر في «الاستيعاب» عن عائشة أنها قالت: إذا مرّ ابن عمر، فأرونيه فلما مرّ ابن عمر، قالوا: هذا ابن عمر، فقالت: يا أبا عبد الرحمن، ما منعك أن ـ تنهاني عن مسيري؟ قال: رأيت رجلاً قد غلب عليك، وظننت أنك لا تخالفينه (يعني ابن الزبير)، قالت: أما إنك لو نهيتني، ما خرجتُ «ترجمة ابن الزبير جـ ٢ هامش الإصابة».

(٣) انظر «الاستيعاب» ترجمة ابن الزبير.

الحكم ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير، فقال: على أيكما أسلم بالإمرة فأؤذن بالصلاة؟ فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت: أتريد أن تفرق أمرنا، ليصلّ بالناس ابن أختي، تعني عبدالله بن الزبير. ومع أن ابن الزبير كان في حرب الجمل مطالباً بدم عثمان - شيخ بني أمية - إلا أنه لم يكن أمويّ الهوى، فلما انتهتْ معركة الجمل بالفشل، وانتصر معاوية بعد معركة صفين، وخلصت الخلافة لمعاوية، اعتزل ابن الزبير في المدينة المنورة يجمع حوله الأعوان ويعدّ نفسه للمعركة القادمة[1] وكان معاوية يعرف ما في نفس ابن الزبير - من تطلع إلى الإمارة - فكان دائماً يكرمه ويُجله وكان إذا لقي معاوية ابن الزبير يقول له: مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حواريّ رسول الله، ثم يأمر له بمنحة..

ومع هذا الإكرام - لسل ما في نفس ابن الزبير من الحسد لبني أمية - كان معاوية يحاول أن يوقع بينه وبين الحسين بن علي، وهما زعيما حزب أهل المدينة.

فقد دخل الحسين بن علي قصر معاوية، وكان في حضرته عبدالله بن الزبير فرحب معاوية بالحسين وأجلسه معه على سريره، ثم أشار له على ابن الزبير وقال: ترى هذا القاعد؟ فإنه ليدركه الحسد لبني عبد مناف، فقال ابن الزبير لمعاوية قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله، ولكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك[2].

وظهرت معارضة ابن الزبير الشديدة، عند أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد بن معاوية، وكان الحسين وابن الزبير يتزعمان موقف المعارضة من هذه البيعة.

---

(١) الطبري ج ٥/ ١٨٠. «والعواصم من القواصم/ ١٥٤».

(٢) تاريخ ابن عساكر جـ ١١٧/٧، وقد أراد معاوية من هذا أن يجعل من الهاشميين والأمويين حزباً واحداً ضد الأحزاب الأخرى، حيث جمع بين بني أمية وبني هاشم في جد واحد، وهو (عبد مناف).

وكان ابن الزبير، المتكلم باسم المعارضة عندما حضر معاوية إلى الحجاز لأخذ البيعة لابنه يزيد، وعرض على معاوية ثلاثة حلول في أمر ولاية العهد ولكن معاوية رفض الحلول التي اقترحها ابن الزبير، ونفّذ ما كان يريده بالترغيب والترهيب. وأخذ البيعة لابنه يزيد. ومن الناس من رضي مختاراً محباً لهذا الأمر. ومنهم من رضي اتقاء للفتنة[1] ومنهم من أُجبر على السكوت. . وقد سكت ابن الزبير اتقاء للأذى[2] ولأن في عنق ابن الزبير بيعة لمعاوية، ثم إن ابن الزبير ليس كفؤاً لمعاوية في السياسة والحرب. ومنذ أُخذت البيعة ليزيد، أخذ ابن الزبير يعد نفسه، وعرف أن الوقت المناسب للتحرك، سيكون في عهد يزيد، حيث يجد ابن الزبير نفسه كفؤاً، ومنافساً ليزيد، إن لم يكن ينافسه في النسب، فهو يطاوله ويزيد عليه في أنه صحابي، وابن صحابي، وجدّه لأمه صحابي وخليفة، وخالته زوجة رسول الله. . ولا شك أن شروط الخلافة عند ابن الزبير تتوفر أكثر مما تتوفر في يزيد بن معاوية، بل هو أفضل ممن جاء بعد يزيد من المروانيين. ولذلك قال ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ومناقب عبدالله كثيرة جداً، وخلافته صحيحة، خرج عليه مروان بعد أن بويع له في الآفاق» فليس في شخصية ابن الزبير مغمز ولكن الجدل يدور حول السياسة التي اتبعها في الوصول إلى الخلافة، وفي سياسة الرعية. وكان معاوية قد ترك وصية لابنه يزيد، كان نصيب ابن الزبير فيها التحذير منه، والقسوة عليه، فقال: «وأما ابن الزبير فإنه خُبّ ضبّ، فإن ظفرت به فقطعه إرْباً إرْباً»[3]. وعندما وصل الخبر بوفاة معاوية،

(١) نقل ابن العربي في «العواصم» عن البخاري أن عبدالله بن عمر، كان من المبايعين ليزيد بولاية العهد، وأنه لم يتخلف، كما تخلف الحسين، وابن الزبير ونقل عن ابن عمر أنه قال حين بويع يزيد: «إن كان خيراً رضينا، وإن كان شراً صبرنا».

(٢) روي أن ابن الزبير، عرض على معاوية أن يفعل كما فعل رسول الله، فلا يستخلف ويترك الأمر شورى. أو كما فعل أبو بكر، فيعهد إلى رجل ليس من بني أبيه، أو كما فعل عمر، جعل الأمر شورى في ستة من قريش، ليس أحد منهم من ولد أبيه ـ «العواصم من القواصم» ص ٢٢٠.

(٣) الطبري جـ ١٧١/٦. وابن الأثير: الكامل: جـ ٢١٧/٣.

ودعي عبدالله بن الزبير، إلى البيعة، ترك المدينة واتجه نحو مكة، وفي مكة أخذ ابن الزبير يجمع حوله الأعوان، ويحرض الناس على يزيد، ولكن ابن الزبير كان يعلم أنه لن يستقطب أنظار الناس والحسين موجود في مكة، فأخذ يشجع الحسين على الخروج إلى الكوفة حتى يخلو لـه الجو فيصبح زعيم الحجاز[1]، في الوقت الذي كان الناس يدعون الحسين إلى العدول عن خروجه إلى الكوفة.

قال ابن الأثير: وأتى ابنُ الزبير الحسينَ فحدثه ساعة، ثم قال: ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم وكفّنا عنهم ونحن أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم، خبرني ما تريد أن تصنع، فقال الحسين: لقد حدثتني نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتب إليّ شيعتي بها وأشراف الناس، وأستخير الله، فقال له ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها، ثم خشي أن يتهمه فقال له: أما أنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ههنا، لما خالفنا عليك، وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك، فقال له الحسين: إن أبي حدثني أن لها كبشاً تستحل به حرمتها - يريد مكة - فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش. قال: فأقم إن شئت وتوليني أنا الأمر فتطاع ولا تُعصى قال الحسين: ولا أريد هذا أيضاً. وقال الحسين: إن هذا - يعني ابن الزبير - ليس شيء من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز، وقد علم أن الناس لا يعدلونـه بي، فودّ أني خرجت حتى يخلو له»[2].

وكان الناس يرون أن ابن الزبير لا يرغب في بقاء الحسين في مكة وصرح ابن عباس بهذا عندما مرَّ بابن الزبير، وقد أصرّ الحسين على الخروج: فقال ابن عباس: قرت عينك يا ابن الزبير. . ثم أنشد قائلاً:

---

(١) انظر «البداية والنهاية» جـ ١٥٩/٨، وما بعدها. وأكثر الروايات أن ابن الزبير كان يحث الحسين على الخروج إلى الكوفة، حيث أنصاره. ولكنه لم يصرح عن مقصده من دعوة الحسين إلى الخروج، والظاهر أنه كان يدعوه للوقوف في وجه من أخذوا الخلافة بغير حق. . . وأما الباطن، فالله أعلم به وانظر «العواصم من القواصم» ٢٣١.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٧.

يـــا لـــك مـن قُبّــرة بَـمـعْـمــر   خلا لك الجـوُّ فبيضي واصفُري
ونقّــري مـــا شئت أن تـنقّــري   صيـادك اليـوم قتيــلٌ فـابشــري

ثم قال ابن عباس: هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز[١].
وكان يزيد بن معاوية قد عزل الوليد بن عتبة عن إمرة المدينة لتفريطه وعجزه عن الإحاطة بابن الزبير والحسين، وولّى عليها عمرو بن سعيد الأشدق الذي كان نائباً على مكة[٢]، فقدم عمرو بن سعيد إلى المدينة، وولّى شرطة المدينة عمرو بن الزبير، لما كان بينه وبين أخيه عبدالله من البغضاء[٣].

وتتبع عمرو بن الزبير أصحاب أخيه ومن يهوى هواه في المدينة فضربهم ضرباً شديداً، حتى ضرب من جملة من ضرب أخاه المنذر بن الزبير وابنه محمد بن المنذر وفر جماعة من أهل المدينة إلى مكة[٤].

فكان ابن الزبير يزداد قوة ومنعة يوماً بعد يوم، حتى منع الحارث بن خالد المخزومي من الصلاة بأهل مكة، وكان نائب عمرو بن سعيد على مكة. عندئذ جاء العزم من يزيد إلى عمرو بن سعيد في تطلّب ابن الزبير. وأقسم الخليفة أن لا يقبل منه إن بايع، حتى يُؤتى به إلى الخليفة في جامعة من ذهب أو من فضة تحت برنسه فلا تُرى إلا أنه يُسمع صوتها[٥].

وأرسل يزيد إلى عمرو بن سعيد أمير المدينة، أن ابعث جيشاً إلى ابن الزبير فقال عمرو بن سعيد، لعمرو بن الزبير: من رجلٌ نوجّه إلى أخيك؟ قال: لا توجه إليه رجلاً أنكأ له مني[٦]. فضرب على أهل الديوان البعث إلى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٦٠/٨.
(٢) كانت الحجاز ولاية واحدة في كثير من الأوقات، ومركز الوالي في المدينة ويولي أمير المدينة نواباً عنه على مدن الحجاز.
(٣) انظر ترجمة عمرو بن سعيد في باب «أمراء المدينة» من هذا الكتاب.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٤٨/٨.
(٥) المصدر السابق جـ ١٤٩/٨ والجامعة: الغل - بضم الغين - وهو ما يوضع في اليد أو العنق.
(٦) الطبري جـ ٧. ص ١٥.

مكة وهم كارهون للخروج[1] فتوجه عمرو بن الزبير إلى مكة في سبعمائة رجل أكثرهم من موالي أهل المدينة[2]. . وأرسل عمرو إلى أخيه يقول له: برّ بيمين الخليفة وأته وفي عنقك جامعةٌ من ذهب أو فضة، ولا تدع الناسَ يضربُ بعضُهم بعضاً. واتق الله فإنك في بلد حرام، فأرسل عبدالله يقول لأخيه: موعدك المسجد، وبعث عبدالله بن الزبير عبدالله بن صفوان بن أمية[3] في سرية فاقتتلوا مع سرية عمرو بن الزبير، وهزم جيش المدينة، وتفرق عن عمرو أصحابه، وهرب عمرو. فأجاره أخوه عُبيدة بن الزبير، فلامه أخوه عبدالله وقال: تجير مَنْ في عنقه حقوقُ الناس؟ ثم ضربه بكل مَنْ ضربه بالمدينة، إلا المنذر بن الزبير، وابنه فإنهما أبيا أن يستقيدا من عمرو، وقيل: إن عمرو بن الزبير مات تحت السياط[4].

وبعد أن خرج الحسين من مكة، وجاء خبرُ مقتله، اطمأن ابن الزبير إلى زوال ـ المنافس من طريقه، وليس أحد في الحجاز مَنْ يطمع في الخلافة أو يدعو إلى نفسه غير ابن الزبير. . . وكان مقتل الحسين خطوةً إلى الأمام في طريق ابن الزبير. . حيث وجد ابن الزبير مادةً إعلامية يشنّع بها على يزيد بن معاوية، وزيادة التفاف الناس حوله. فوقف بعد مقتل الحسين، وخطب الناس، وعظّم مقتلَ الحسين، وعاب على أهل الكوفة خاصة، ولام أهل العراق عامة، ومما قاله في خدمة غرضه السياسي: فرحم الله حُسيناً، وأخزى قاتل حسين. أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدّق قولهم، ونقبل لهم عهداً؟ لا، ولا نراهم لذلك أهلاً أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل سجوده ـ كثيراً في النهار صيامه. . أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغناء ـ يعرض بيزيد ـ ولا بالبكاء من خشية الله الحُداء ولا بالصيام شرب الحرام،

---

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٤/٣٧٧.

(2) الطبري: جـ ٧ ص ١٦.

(3) عبدالله بن صفوان بن أمية بن خلف الجمحي، من أصحاب عبدالله بن الزبير، ولد في حياة النبي، وقتل بمكة يوم مقتل ابن الزبير سنة ٧٣ هـ. (تهذيب التهذيب) جـ ٥/٢٦٤.

(4) «نسب قريش» للزبيري ١٧٨. وفيه أن عمرو بن الزبير مات في سجن أخيه.

ولا بالجلوس في حَلَقِ الذكر، الركض في تطلاب الصيد، فسوف يلقون غياً[1].

فثار إليه أصحابه فقالوا: أيها الرجل، أظهرْ بيعتك، فإنه لم يبق أحد إذْ هلك حسين ينازعك هذا الأمر، فقال لهم: لا تعجلوا. وكان يبايع الناس سراً، ويُظهر أنه عائذ بالبيت. وكاتبه أهل المدينة وغيرهم ـ وقال الناس: أما إذا قتل الحسين فليس ينازع أحدٌ ابن الزبير[2]. فلما بلغ ذلك يزيدَ شقَّ ذلك عليه وقيل له: إن عمرو بن سعيد لو شاء لبعث إليك برأس ابن الزبير، أو يحاصره حتى يُخرجه من الحرم، فعزل يزيدُ عمروَ بن سعيدٍ، وولَّى مكانه الوليدَ بن عتبة، ولكن عمرو بن سعيد لم يكن مقصراً في عمله، ولم يدخر جهداً أو حيلةً للقضاء على ابن الزبير، ولكن الأحوال السائدة كانت تساعد ابن الزبير، حيث كانت قسوة الأمويين تزداد في الحجاز فكره الناس سياستهم[3] ولا يوجد أحد يتصدى للأمويين غير ابن الزبير. فكان المستضعفون من الناس يرون في دعوته خلاصاً مما هم فيه، فمالوا إليه ودعا بعضُهم بعضاً سِراً وعلانيةً في مكة والمدينة. ومما ساعده أيضاً ضعف جيش الولاية في الحجاز، ورأينا سابقاً كيف أنه لم يستطع تجنيد أكثر من سبعمائة عندما أرسل عمرو بن الزبير، ومن خرج منهم خرج مقهوراً. ولذلك كان الوالي عمرو بن سعيد يرفق به ويداريه حتى يستطيع التمكن منه. وقد صوّر هذه الحال عمرو بن سعيد، عندما عاتبه يزيد في تقصيره في شأن ابن الزبير، فقال معتذراً له: يا أمير المؤمنين الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وإن جلَّ أهل مكة والحجاز مالؤوه علينا، وأحبوه ـ ولم يكن لي جندٌ أقوى بهم عليه لو ناهضتُه وقد كان يَحْذَرني ويحترس مني، وكنت أُرفق به كثيراً وأُداريه لأستمكن منه، فأثب عليه، مع أني قد ضيقت عليه ومنعته من أشياء كثيرة، وجعلتُ

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ١٦ وابن كثير: البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢١٢.

(٢) البداية والنهاية: جـ ٨ ص ٢١٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٧٠.

على مكة وطرقها وشعابها رجالاً لا يدعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا اسمه واسم أبيه، ومن أي بلاد هو، وما جاء له، وماذا يريد، فإن كـان من أصحابه، أو ممن عُرف أنه يريده رددتُه صاغراً[1]. ولكن يزيد بن معاوية، يعزل عمرو بن سعيد.

وجاء الوليد بن عتبة إلى الحجاز، وهمَّ مراراً أن يبطش بابن الزبير، فيجده متحذّراً ممتنعاً، قد أعد للأمور عُدتها. وشاءت الأقدار أن يقع الوليد ابن عتبة بين نارين: عبدالله بن الزبير في مكة، ونجدة بن عامر[2] الذي ثار في اليمامة وخالف يزيد بن معاوية، ولم يخالف ابن الزبير. فكتب نجدة إلى يزيد: إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق لا يتجه لأمر رَشَد، ولا يرعوي لعظة، فلو بعثت إلينا رجلاً سَهْل الخلق ليّن الكَنف رجـوت أن يَسْهلَ بـه مِنَ الأمورِ[3] ما استوعرَ منها.

وعُزل الوليد بن عتبة وولي مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان. وقد وصفه ابن الأثير، وابن كثير[4] بأنه: فتى غِرّ حدث غَمْر لم يجرب الأمور، ولم يحنكه السنّ لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه.. فطمعوا فيه».

وفي عهد عثمان بن محمد تنتهي مرحلة، وتبدأ مرحلة جديدة في حياة المدينة المنورة، وتحدث معركة الحرة[5].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢١٥.

(٢) نجدة بن عامر من بني حنيفة، رأس الفرقة النجدية من الخوارج الحرورية، ويعرف أصحابها بالنجدات، اتسع سلطانه فيها بعد وتولى على البحرين، قتله أصحابه سنة ٦٩ هـ (الأعلام للزركلي) وفي «منهاج السنة» كان عبدالله بن عمرو والصحابة يصلون خلفه».

(٣) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢١٦. وفي غيره من المصادر أن الذي كتب بهذا عبدالله بـن الزبير. وما في البداية والنهاية أولى بالصدق، لأن عبدالله بـن الزبير يعرف الوليد. وقد بدأ ابن الزبير حركته في عهد ولايته الأولى.

(٤) الكامل جـ ٤ ص٤٤. والبداية والنهاية جـ٨ ص ١١٦.

(٥) الطبري جـ ٧ ص ١٥، ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٧٠، الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٩٨.

ب ـ أسباب موقعة الحرة:

حدثت معركة الحرة[1] سنة ٦٣ هـ بين أهل المدينة، وجيش مسلم بن عقبة[2] الذي أرسله يزيد بن معاوية من الشام. . .

والأسباب التي أدت إلى إرسال هذا الجيش كثيرة، وواضحة، ولكن الأسباب لثورة أهل المدينة غامضة.

ومن أهم الأسباب لإرسال الجيش إلى المدينة، ما ذكره أكثر المؤرخين وهو أن عثمان بن محمد ولي المدينة سنة ٦٢ هـ، فبعث إلى يزيد وفداً من رجال المدينة فيهم: عبدالله بن حنظلة غسيل الملاكة ومعه ثمانية بنين له، فأعطاه مائة ألف، وأعطى بنيه كل رجل منهم عشرة آلاف، فلما رجع الوفد إلى المدينة، أظهروا شتم يزيد، وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويلعب بالكلاب، وإنّا نُشهدكم أنا خلعناه. . . ثم بايعوا لعبدالله بن حنظلة على الموت. . فكتب عثمان بن محمد إلى يزيد بما أجمع عليه أهل المدينة المنورة من الخلاف.

ومن الأسباب، ما ذكره السمهودي قال: روى الطبراني في خبر طويل عن عروة بن الزبير قال: لما مات معاوية رضي الله عنه، تثاقل عبدالله بن الزبير عن طاعة ابنه يزيد، وأظهر شتمه، فبلغ ذلك يزيد، فأقسم لا يؤتى به إلا مغلولاً. . فقيل لابن الزبير: ألا نصنع لك أغلالاً من فضة تلبس عليها الثوب وتبرّ قسمه، فالصلح أجمل بك قال: فلا أبر الله قسمه ثم قال:

---

(١) في المدينة حرتان: الحرة الغربية، والحرة الشرقية، وتسمى حرة واقم وفيها حدثت المعركة بين أهل المدينة وأهل الشام سنة ٦٣ هـ. وقيل في سبب تسميتها بواقم أنها سميت برجل من العماليق اسمه واقم، وكان قد نزلها في الدهر الأول. وقيل: واقم اسم اطم (حصن) من آطام المدينة، إليه تضاف الحرة، وهوَ من قولهم: وقمت الرجل عن حاجته إذا رددته، فأنت واقم. (المغانم المطابة في معالم طابة ص ١١٢).

(٢) مسلم بن عقبة بن رباح المري، قائد من الدهاة القساة في العصر الأموي. أدرك ـ النبي وشهد صفين مع معاوية، وقلعت بها عينه. وسماه أهل الحجاز «مسرف» (الإصابة في تمييز الصحابة ٨٤١٤).

ولا ألين لغيـر الـحقِّ أسـألـه   حتى يلينَ لضرس الماضغ الحجرُ

ثم دعا إلى نفسه، فوجه إليه يزيد بن معاوية، مسلم بن عقبة المري في جيش أهل الشام، وأمرهم بقتال أهل المدينة، فإذا فرغ من ذلك صار إلى مكة».

وتفيدنا هذه الرواية أن يزيد بن معاوية كان مقرراً إرسال الجيش منذ رفض ابن الزبير البيعة، وقبل أن يخلعه أهل المدينة، وأن الأصل في إرسال الجيش لمحاربة ابن الزبير وليس لمحاربة أهل المدينة...

أو أن يزيد بن معاوية كان يعتقد أن حركة أهل المدينة كانت بتحريض من ابن الزبير، ولتأييده.

ومما يؤيد هذه الرواية أن يزيد بن معاوية، لما جهز مسلم بن عقبة الجيش استعرضه يزيد، وجعل يقول:

أبلغ أبـا بكر إذا الجيش سـرى   وأشرف الجيش على وادي القُرى
أجمـع سكـرانٍ من القـوم تـرى   يا عجباً من ملحد في أم القرى
مخادع للدين يقضي بالفرى

.. وأبو بكر، هو عبدالله بن الزبير. ومعنى هذا أن يزيد بن معاوية كان يخص ابن الزبير بهذا الجيش[1].

وذكر السمهودي سبباً آخر لهياج أهل المدينة وخلع يزيد، نقلاً عن كتاب الحرة للواقدي، قال: إن أول ما هاج أمر الحرة أن ابن مينا[2] كان عاملاً على صوافي[3] المدينة، وبها يومئذ صوافٍ كثيرة ـ حتى كان معاوية يجدّ بالمدينة

---

(١) انظر «طبقات ابن سعد جـ ١٤٥/٥». ترجمة ابن مطيع. وفيه أن الجيش كان ذاهباً إلى ابن الزبير ماراً بالمدينة.

(٢) ابن ميناء: هناك جماعة من موالي الأنصار، كل واحد منهم يكنى «ابن ميناء» انظر «تهذيب التهذيب» جـ ١٢، باب: الكنى.

(٣) الصوافي: الأموال والأراضي التي تصطفى.

وأعراضها مائة ألف وسق وخمسين ألف وسق.. ويحصد مائة ألف وسق حنطة.. وأن ابن مينا أقبل بشرج[1] له من الحرة يريد الأموال التي كانت لمعاوية ـ فلم يزل يسوقه، ولا يصدّه عنه أحد حتى انتهى إلى بلحارث بن الخزرج، فنقب النقيب فيهم فقالوا: ليس ذلك لك، هذا حدث وضرر علينا، فأعلم الأمير عثمان بن محمد بذلك، فأرسل إلى ثلاثة من بلحارث، فأجابوه إلى أن يمرّ به فأعلم ابن ميناء فغدا بأصحابه، فذبّوهم، فرجع إلى الأمير فقال: اجمع لهم من قدرت، وبعث معه بعض الجند، وقال: مرّ به ولو على بطونهم. فغدا ابن ميناء متطاولاً عليهم، وغدا مَنْ يذبهم من الأنصار، ورفدتهم قريش، فذبوهم حتى تفاقم الأمر.. فكتب عثمان بن محمد إلى يزيد يخبره بذلك.. ويحرّضه على أهل المدينة جميعاً. فاستشاط غضباً، وقال: والله لأبعثنَّ إليهم الجيوش، ولأوطئنها بالخيل.

ولكننا نستطيع أن نجمع الأسباب كلها في سبب واحد، وهو أن أمر ابن الزبير، كان يتسع ويتسع خطره، وكان على يزيد أن يرسل جيشاً للقضاء على ابن الزبير، ولكن العوامل الأخرى ملأت قلب يزيد بالغضب والغيظ، وجعلته يرسل جيشه محملاً بوصايا القسوة والشدة على كل من خرج عليه وساعد ابن الزبير في تماديه على الخروج، وجرأته على يزيد.

أما عن الأسباب التي جعلت أهل المدينة يخلعون يزيد، فإنها أيضاً متعددة لا يمكن أن تكون بـدايتها رجـوع الوفـد، وإذاعتهم ما رأوه من المنكرات عند يزيد، فما ذكروه عن يزيد من المنكرات إن صحّ وجودها. ليست جديدةً عند يزيد، فما الذي جعلهم يسكتون سنتين على خلافته؟ والروايات عن فسق يزيد كانت شائعة قبل ولايته. ولا يصح أن الوفد قد رأى يزيد يفعل المنكرات التى ذكروها، لأن يزيد بن معاوية ليس بالرجل الأهوج حتى يجهر بالمنكرات أمام وفد من رجالات المدينة المنورة[2].

---

(١) الشرج: مسيل الماء في الحرة.

(٢) كان يزيد في حداثته يجهر بالشراب، فوعظه أبوه، ونهاه، وطلب منه الاستتار «انظر البداية =

والذي أراه، أن ذِكْر هذه المنكرات في هذه المناسبة، كان هدفه إثارة الناس على يزيد ولإيجاد المبررات لخلعه والخروج عليه، ويمكن أن نذكر عدداً من الأسباب قد سبقت إعلان الخلع، ومن هذه الأسباب: مقتل الحسين بن علي، والتشنيع على يزيد بسبب مقتله ونسبة ذلك إلى يزيد. ومنها: ضعف ولاة المدينة المنورة، حيث تتابع عدد من الولاة في عهد يزيد، لم يكن عندهم الجرأة على الشدة والقمع، ولم يكن عندهم الحنكة السياسية التي تمتص غضب الناس. ومنها: قلة الجند الذي يستطيع به الوالي تنفيذ أوامره، لأن بيت مال المدينة لم يكن فيه من الأموال للإنفاق على الجند، والمصدر الوحيد له، كان من الصدقات.

ومن هذه الأسباب: الضيق[1] الاقتصادي الذي يعاني منه أهل المدينة فالبيئة الحجازية فقيرة، وأي نقص في سياسة الأمويين الاقتصادية نحو الحجاز سيؤدي حتماً إلى زيادة بؤس أهله. كما أن معاوية قد تعمد إضعاف الحجاز اقتصادياً، فلم يبذل لأهل المدينة في العطاء مما اضطرهم إلى بيع ممتلكاتهم فاشتراها منهم بأبخس الأثمان. فلما ظهرت حركة ابن الزبير رأى أهل المدينة أنها تخلصهم من هذا الضيق. وقد قال بعض أهل المدينة معبراً عن هذه الحال: إن هذه الأموال كلها لنا، ونالتنا المجاعة، فاشتراها معاوية بجزء من مئة من ثمنها.

وعندما أرسل يزيد إلى عبدالله بن عباس بعض المال، مكافأة له على امتناعه عن البيعة لابن الزبير كتب إليه يقول: فلعمري ما تؤتينا مما في يدك من حقنا إلا القليل وقد أدرك يزيد هذا السبب، فكتب إلى أهل المدينة عندما علم بخروجهم، ووعدهم بتحسين الأحوال الاقتصادية: فقال: «فإن أقروا بالطاعة ونزعوا عن غيهم وضلالهم، فلهم عليّ عهد الله وميثاقه أن لهم

= والنهاية» جـ ٢٢٨/٨.. وقال ابن العربي لمن اتهم يزيد: لا يحل إلا بشاهدين. ولم يشهد أحد أنه رآه يفعل المنكر.

(١) عبدالله بن الزبير للدكتور علي حسني الخربوطلي ص ٩٧.

عطاءين في كلّ عام، ما لا أفعلُه بأحد من الناس طول حياتي عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف، ولهم عليَّ عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا، والعطاء الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية، فهو عليّ لهم وافياً كاملاً».

ومن أهم الأسباب: وجود حركة ابن الزبير في مكة، ووجود المحرضين من أنصار ابن الزبير، فكان عبدالله بن مطيع، رئيس القرشيين يوم الحرة من أنصار ابن الزبير، حيث هرب بعد الموقعة إلى مكة وشارك مع ابن الزبير. ومن العوامل المساعدة: أن هذه الأسباب، حركتها الأهواء السياسية، التي لم يكن لها قيادة حكيمة ولم يكن عندهم التخطيط المسبق، ولذلك جاءت حركتهم عاطفية هوجاء.

جـ ـ مراحل معركة الحرة:

منذ بدأت خلافة يزيد بن معاوية، والأحوال في الحجاز تزداد اضطراباً يوماً بعد يوم، وعجز الولاة عن الإحاطة بابن الزبير، وتضييق دائرة نفوذه، إما لقلة خبرتهم في الأحداث، وإما لقلة ثقتهم بالخليفة وانعدام الاستقرار في نفوسهم، ولوجود الضغائن بين وال سابق ووالٍ لاحقٍ.

فالوليد بن عتبة عُزل في المرة الأولى لاتهامه بالتقصير، وجاء عمرو بن سعيد بعده، فدس له الوليد عند الخليفة واتهمه بالتقصير، فعزله، وولي الوليدُ مرةً أخرى، ولكن الوليد يسير سيرة غاشمةً، ويتسع الخرق أيامه بخروج نجدة بن عامر الحروري في اليمامة، ويشتكي منه الناس فيعزله يزيد ويولّي مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكأن يزيد يريد سياسة اللين مكان القسوة في المدينة والحجاز، ولكن الخليفة كان مخطئاً عندما اختار الوالي الجديد، لتطبيق سياسة اللين، ويبدو أن يزيد بن معاوية قد اضطرب تفكيره في تلك الفترة فلم يعد يعرف ماذا يفعل، وماذا يترك، ولم يستخدم الشورى في سياسته تجاه الحجاز، فقد استفحل أمر ابن الزبير بسبب السياسة العاجزة،

وليس بسبب القسوة، وابن الزبير بدأ حركته، ولن يتراجع عنها، ولن يقلل من أنصاره إلا السياسة الجادة التي تفصل بين الجدّ، وبين الهوادة. يضاف إلى هذا أن واليه الجديد عثمان بن محمد، يتفق المؤرخون على أنه فتى لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن، فازدادت جرأةُ الناس على الخلافة، وازداد دعاة ابن الزبير في المجتمع المدني يبثون الأخبار السيئة عن الخليفة، ويؤلبون الناس عليه.

وكان أول عمل للوالي الجديد أن أرسل وفداً من أشراف أهل المدينة إلى يزيد، لينالوا من عطائه الكثير، لعلَّ هذا العطاء يصرفهم عن تأييد ابن الزبير. ولكن هذا العلاج جاء متأخراً، بعد أن بث المناوئون في المجتمع المدني بذور الكراهية من مصادر متعددة ولم يعد العلاج المالي كافياً[١].

ولذلك نجد الوفد يرجع من عند الخليفة وقد نال الكثير من العطايا والإحسان والإكرام، وعندما يصل المدينة، بدأ رجاله يشتمون يزيد، ويتهمونه بعمل الموبقات وقالوا: إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، وإنّا نشهدكم أنا خلعناه فتابعهم الناس[٢].

ولم يكن يزيد بن معاوية بالرجل الذي يصفه الناس بالقسوة والظلم والكراهية لأهل المدينة، وإنما كان الرجل المحب لأهله وعشيرته، ويعرف لأهل المدينة منزلتهم، فنجده يبدأ معهم بسياسة اللين، والتفاوض وجعل من هيبة الخلافة وسلطانها نداً لجماعة قليلة في مدينة واحدة من مدن المملكة الإسلامية. ولو خرج عليه غير أهل المدينة، لما فعل معهم مثلما فعل مع أهل المدينة، بل لو كان معاوية موجوداً، لما شفع فيهم إلا السيف من أول وهلة.

وها هو يزيد، عندما يأتيه الخبر يرسل إلى أهل المدينة رسولاً منهم، وهو النعمان بن بشير الأنصاري، وقال له: أئت الناس، وقومك فافثأهم[٣]

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٤٢.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ١٠٦.

(٣) فثأه عن الشيء: كفه وحبسه.

عما يريدون، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر، لم يجترىء الناس على خلافي، وبها من عشيرتي مَنْ لا أحب أن ينهض في هذه الفتنة فيهلك[1].

فأتى النعمان المدينة، ودعا الناس إليه، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة وخوفهم الفتنة، وقال لهم: إنه لا طاقة لكم بأهل الشام. فقال له عبدالله ابن مطيع العدوي، وكان من دعاة ابن الزبير، ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا وإفساد ما صلح من أمرنا، فقال له النعمان: أما والله لكأني بك، لو قد نزلتْ تلك التي تدعو إليها ـ الحرب ـ وقامت الرجال على الركب، تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارتْ رحى الموت بين الفريقين، قد هربت على بغلتك إلى مكة، وقد خلفت هؤلاء المساكين ـ يعني الأنصار ـ يُقتلون في سككهم ومساجدهم. فعصاه الناس، ولم يسمعوا قوله، فانصرف النعمان راجعاً إلى الشام[2] ورأى يزيد أن يعيد الكرة، فينذر أهل المدينة، ويحذرهم، وينصحهم، فكتب رسالة إلى أهل المدينة، وأمر واليه عثمان بن محمد أن يقرأها عليهم، وجاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: «فإن ﴿الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له، وما لهم من دونه من وال﴾[3] وإني قد لبستكم فأخلقتكم، ورفعتكم على رأسي، ثم على عيني، ثم على فمي، ثم على بطني، والله لئن وضعتكم تحت قدميّ، لأطأنكم وطأة أقلّ بها عددكم، وأترككم بها أحاديث تنتسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود»[4].

وعندما سمع القوم كتاب يزيد بن معاوية، انهالوا على الوالي والخليفة

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٣ ص ٩٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢١٦ قال ابن كثير: وكان الأمر والله كما قال سواء فقد هرب عبدالله بن مطيع، ثم لحق بمكة.

(٣) سورة الرعد آية ١١.

(٤) العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٨٨.

سباً وشتماً. واتفقوا على خلع يزيد بن معاوية، وولّت الأنصار عبدالله بن حنظلة عليها وولت قريش عبدالله بن مطيع. قال ابن كثير: وفي بداية سنة ٦٣ هـ اجتمعوا عند المنبر فجعل الرجل منهم يقول: قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتي هذه، ويلقيها عن رأسه. ويقول الآخر: قد خلعته كما خلعت نعلي هذه حتى اجتمع شيء كثير من العمائم والنعال هناك[١].

واتفق الناس على إخراج عامل يزيد من بين أظهرهم، وعلى إجلاء بني أمية، فاجتمعت بنو أمية في دار مروان بن الحكم، وأحاط بهم أهل المدينة يحاصرونهم[٢] ولكن مروان استطاع أن يُرسل رسولاً إلى يزيد برسالة جاء فيها: «أما بعد، فإنه قد حُصرنا في دار مروان، ومُنعنا العذْب، فيا غوثاه» فلما بلغت الرسالة يزيد، تمثل بقول الشاعر:

لقد بدّلوا الحِلْم الذي في سجيتي ... فبدّلت قومي غلظةً بليان

ثم قال للرسول: ويلك. أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة.

قال الرسول: بلى والله، وأكثر. قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار؟ قال الرسول: يا أمير المؤمنين أجمع الناس كلهم عليهم، فلم يكن لهم بجمع الناس طاقة ثم بعث يزيد إلى عمرو بن سعيد بن العاص، فقرأ عليه الكتاب، واستشاره فيمن يبعثه إليهم، وعرض عليه أن يبعثه إليهم فأبى عليه ذلك، وقال: إن أمير المؤمنين عزلني عنها وهي مضبوطة وأمورها محكمة، فأما الآن فإنما دماء قريش تراق بالصعيد، فلا أحبّ أن أتولى ذلك منهم، ليتولّ ذلك من هو أبعد منهم مني.

.. فبعث إلى مسلم بن عقبة، وهو شيخ كبير ضعيف، وكلفه بتكوين

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢١٨.

(٢) وكان لمروان داران: واحدة في جوف المدينة قرب المسجد، وواحدة في العقيق، وهي التي حبس فيها الأمويون. يقول الأستاذ العياشي: ولها بئر كبيرة ومزرعة تعرف اليوم بالحبس إشارة إلى حبس الأمويين فيها (المدينة بين الماضي والحاضر لإبراهيم العياشي).

جيش لغزو المدينة، وأطمع الناس في الخروج. ونادى المنادي: أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كَمَلاً[1]، ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته، فانتُدب لذلك إثنا عشر ألف رجل وعشرة آلاف فارس[2]. وأوصى مسلم بن عقبة: إذا حدث بك حدث فاستخلْف على الجيش حصين بن نمير السكوني[3]. وقال له: ادع القوم ثلاثاً، فإن رجعوا إلى الطاعة، فاقبل منهم، وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرتَ عليهم فأبح المدينة ثلاثة أيام ثم اكفف عن الناس، وانظر إلى عليّ بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً وأدن مجلسه، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه وقد أتاني كتابُه[4]. وقد قرن يزيد الترهيب بالترغيب في وصيته لمسلم بن عقبة، وأعطى أهل المدينة عهداً، بأن يكون لهم في السنة عطاءان وأن يرخص سعر الحنطة عندهم وأن يرد لهم العطاء الذي حبسه معاوية عنهم.

وأمر يزيد مسلم بن عقبة إذا فرغ من المدينة ـ أن يذهب إلى مكة لحصار ابن الزبير[5] وسار مسلم بالجيش إلى المدينة. فلما بلغ أهل المدينة إقبال جيش الشام، وثبوا على من كان محصوراً من بني أمية، وقالوا: لا نكف عنكم حتى نضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه أن لا تدلوا علينا أحداً من هؤلاء الشاميين ولا تمالئوهم علينا فنكف عنكم، ونخرجكم عنا.

---

(١) كملا: الكمل: الكامل: يقال: أعطيته المال كملاً، أي: تاماً كاملاً، وهو سواء في الجمع والوحدان، وليس بمصدر ولا نعت، وإنما هو كقولك: أعطيته المال كله.

(٢) الطبري: جـ ١٠٢/٧. والبداية والنهاية: جـ ٢١٨/٨.

(٣) الحصين بن نمير، الكندي من قواد العصر الأموي من أهل حمص.. كان مع ابن زياد في حربه مع إبراهيم بن الأشتر، وقتل مع ابن زياد على مقربة من الموصل سنة ٦٧ هـ. «تهذيب التهذيب» جـ ٣٩٢/٢.

(٤) الطبري: جـ ٧٣/٧.

(٥) وكان يزيد قد كتب إلى عبدالله بن زياد أن يسير إلى ابن الزبير فيحاصره في مكة فأبى عليه وقال: والله لا أجمعها للفاسق ـ أقتل الحسين، وأغزو البيت الحرام وكانت أمه مرجانة عنفته تعنيفاً شديداً عندما قتل الحسين.

فأعطوهم عهد الله ميثاقه، لا نبغيكم غائلةً، ولا ندل لكم على عورة[1]. فأخرجوهم من المدينة، فخرجت بنو أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى[2]. فطلب مسلم من رجالهم أن يخبروه عما وراءهم وأن يشيروا عليه ـ فرفضوا ـ إلا عبد الملك بن مروان فإنه أشار عليه أن يأتي المدينة من جهة المشرق، حتى إذا التقى بهم، كانت وجوه جنده إلى الغرب فلا تؤذيهم الشمس، ويرى القومُ بريق سيوفهم ودروعهم فتصيبهم الرجفة[3] فأعجب مسلم بمشورته وسار على رأيه. ونزل مسلم شرقي المدينة، ودعا أهل المدينة وقال: يا أهل المدينة إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل وأني أكره إراقة دمائكم، وإني أؤجلكم ثلاثاً، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه. وانصرفتُ عنكم وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكة، وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم.. ولما مضت الأيام الثلاثة قال: يا أهل المدينة، قد مضت الأيام الثلاثة، فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا: بل نحارب، فقال لهم: لا تفعلوا، بل ادخلوا في الطاعة، ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع إليه المراق والفُساق من كل أوب فقال أهل المدينة: يا أعداء الله والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ما تركناكم حتى نقاتلكم، ثم تهيؤوا للقتال.

وكان أهل المدينة قد اتخذوا خندقاً، بينهم وبين ابن عقبة، وقسموا أنفسهم حوله. فكان لقريش قسم، وللأنصار قسم، وللموالي قسم... فأحدق جند الشام بالمدينة من كل جانب، فلم يجدوا مدخلاً، والناس متلببون بالسلاح قد قاموا على أفواه الخنادق يرمون بالنبل والحجارة، وجلس مسلم بن عقبة في حرة واقم أو الحرة الشرقية. فرأى أمراً هائلاً، فاستعان

(١) وفاء الوفاء ص ١٢٩.

(٢) وادي القرى: واد كبير من أعمال المدينة كثير القرى بين المدينة والشام، ومنه قرية العلا، وما جاورها «المغانم المطابة في معالم طابة».

(٣) الطبري جـ ٥ ص ٦٣.

(٤) الطبري جـ ٦ ص ١٠٦، ابن الأثير: الكامل جـ ٣ ص ٩٤.

بمروان بن الحكم، فخرج مروان حتى جاء بني حارثة، فكلم رجلاً منهم، ورغّبه في الصنيعة، وقال له: تفتح لنا طريقاً فأكتب بذلك إلى يزيد، فيصل أرحامكم، ففتح لهم طريقاً حتى أدخل الرجال من بني حارثة إلى داخل المدينة[1]. فلما علم الناس دخول الجند إلى المدينة ترك كثير منهم أماكنهم ودخلوا المدينة خوفاً على أهلهم. وتجمع الباقون في المكان الذي يدخل منه جند الشام، ودارت معركة بين الفريقين كانت شديدة قتل فيها خلق كثير من أهل المدينة[2].

وانتهت المعركة بهزيمة أهل المدينة، ونفذ مسلم وصية يزيد، فأباح المدينة ثلاثة أيام، ولم يكتف مسلم بما قتل وقت المعركة، بل زاد وأسرف في القتل بعد المعركة حتى سماه الناس «مسرفاً». ودعا الناس إلى بيعة يزيد بن معاوية على أنهم خَوَلٌ وعبيد له.

واختلفت الروايات في عدد القتلى، ولكن الذي لا شك فيه، أن الرواة قد بالغوا في ذكر عددهم وليس هناك نقل موثق في عدد القتلى. وتقول رواية عن الزهري أن القتلى يوم الحرة: سبعمائة من وجوه الناس المهاجرين والأنصار ووجوه الموالي، وممن لا يعرف من حر وعبيد وغيرهم عشرة آلاف[3].

د ـ كلمة في معركة الحرة:

لم تجد معركة الحرة عناية من المؤرخين، كما لاقى غيرها من الحوادث التي حصلت أيام يزيد بن معاوية. ولم يفرد المؤرخون المحدثون عنها أبحاثاً، كما أفردوا عن الحركات الأخرى. ولو قارنا بينها وبين حركة الحسين لوجدنا

---

(١) وفاء الوفا/ ١٣٠.

(٢) اليعقوبي جـ ٣ ص ٤، الدينوري: الأخبار الطوال ص ٣٠١.

(٣) الطبري جـ ٧ ص ١٠٧، ابن الأثير: الكامل جـ ٣ ص ٩٦، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٢١.

فرقاً كبيراً في النتائج. فمجموع ما قتل في معركة الحرة أضعاف ما قتل مع الحسين وما حصل في أعقاب معركة الحرة لم يحصل مثله بعد معركة الحسين، أو بعد أي معركة من الحركات الأهلية، وقتل في معركة الحرة رجال مشاهير لهم منزلة ولهم صحبة وجهاد. من هؤلاء عبدالله بن زيد حاكي وضوء رسول الله[1] ومعقل بن سنان[2] وفيه يقول الشاعر:

وأصبحت الأنصارُ تبكي سراتَها   وأشجعُ تبكي معقلَ بن سنانِ

وعبدالله بن حنظلة الغسيل مع ثمانية من بنيه. وقد رُوي أن مروان ابن الحكم مرَّ على القتلى يوم الحرة، فرأى عبدالله بن حنظلة مُشيراً بإصبعه وقد يبستْ، فقال: لئن أشرت بها ميتاً، لطالما دعوتَ، وتضرعتَ بها إلى الله تعالى. فقال رجل من أهل الشام: إن كان هو كما تقول: فما دعوتنا إلا لقتل أهل الجنة، فقال مروان خالفوا ونكثوا..

وهؤلاء الرجال لا يقلون في ميزان الإسلام عن الحسين بن علي، لا يفوقهم الحسين إلا في نسبه الذي يقربه من رسول الله، إن كان النسب يرفع درجة الإنسان يوم القيامة[3].

ومما يجعل معركة الحرة تتفوق على معركة كربلاء في هول فاجعتها، أنها حصلت في حرم رسول الله. وإذا كان الرسول قد أوذي في قتل الحسين ابن

---

(١) عبدالله بن زيد بن عاصم بن كعب النجاري الأنصاري، صحابي شهد بدراً، وقتل مسليمة الكذاب يوم اليمامة، وله ثمانية وأربعون حديثاً. قتل يوم الحرة سنة ٦٣ هـ (الإصابة ٤٦٨٨).

(٢) معقل بن سنان، صحابي من القادة الشجعان. كانت معه راية قومه يوم حنين، وفتح مكة. كان موصوفاً بالجمال، فسمع عمر بن الخطاب امرأة تنشد:

أعوذ بربّ الناس من شرّ معقل   إذا معقلٌ راح البقيع مرجلاً

فنفاه عمر إلى البصرة، ثم رجع إلى المدينة، وشارك في معركة الحرة، فقتله مسلم بن عقبة سنة ٦٣ هـ. (الإصابة في تمييز الصحابة ٨١٣٦).

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٤٤.

بنته فإنه قد أوذي في معركة الحرة، لأنها حصلت في بيته وحرمه. وقتل فيها ضيوفه وجيرانه.

وأعرض الآن بعض الملاحظات حول حركة أهل المدينة يوم الحرة:

أولاً : لقد كان محكوماً على حركة أهل المدينة بالفشل، لأنهم لم يوحّدوا صفوفهم ولم يكن لهم قائد واحد. لأن تعدّد القواد في المعركة من دواعي الهزيمة.

وهذا ما تنبأ به عبدالله بن عباس، عندما سأل عن حالهم: فقيل: استعملوا عبدالله بن مطيع على قريش، وعبدالله بن حنظلة على الأنصار، فقال ابن عباس: أميران؟ هلك القوم[1] ولو حصل الانتصار، لاشتعلت الفتنة من جديد حول: ممن يكون الخليفة؟ هل يتولاها رجلٌ من قريش أو من الأنصار؟ فهم لم يعلنوا أنهم تبع لابن الزبير.

ومن دواعي الفشل: قلة ما تحت أيديهم من الأرزاق، ولو استمر الحصار مدة طويلة لهلك الناس من الجوع، لأن ما بها من الميرة لا يكفيها لسد حاجتها أياماً وجل طعامها يأتيها من التجارة، أو من بساتين خارج حدود المدينة.

فكيف يغامر هؤلاء في حرب ليس عندهم مؤونة لها، ويقفون أمام جند الشام المدعمين بالسلاح والمال؟[2].

ومن دواعي فشلهم: عدم بروز هدف يريدون تحقيقه بعد خلع يزيد والنصر: وإذا كان هدفهم خلع يزيد: هل كانوا يريدون أن تكون إمارة مستقلة؟ وهذا غير ممكن. وإذا كان هدفهم تولية ابن الزبير، لماذا لم يرفعوا رايةً واحدة باسم ابن الزبير ولماذا لم يطلبوا

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٤/٣٨٨.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ١٠٥، ابن الأثير: الكامل جـ ٣ ص ٩١.

المدد منه؟ ولو ضم ابن الزبير جنده إلى جند المدينة، لتكونت قوة تستطيع أن تقف أمام جيش مسلم بن عقبة، ولكنهم عندما وزعوا قواتهم وعددوا معاركهم استطاع الأمويون أن ينتصروا عليهم وهم متفرقون.

ثانياً : لم تكن زعامة المدينة المنورة، راضيةً عن هذه الثورة. فهناك أسرتان كبيرتان من المهاجرين عارضتا أهل المدينة، وهما آل الخطاب، وآل هاشم. وعلى رأس آل الخطاب: شيخ الصحابة في زمانه، وفقيههم: عبدالله بن عمر، ومن آل هاشم عبدالله بن العباس، وعلي بن الحسين، ومحمد بن الحنفية.

فأما عبدالله بن عمر، فإنه جمع بنيه وأهله ثم قال: أما بعد: فإنا بايعنا هذا الرجل - يزيد - على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال ألا هذه غدرة فلان بن فلان»[1] إن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجلٌ رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته. فلا يخلعنّ أحد منكم يزيد، ولا يُسرفنَّ أحد منكم في هذا الأمر - فيكون الفيصل بيني وبينه».

وأما محمد بن الحنفية - فقد دافع عن بيعة يزيد، وأبى أن يخلع، وأبطل حجج الثائرين في خلع يزيد. قال ابن كثير[2] ولما رجع أهل المدينة من عند يزيد مشى عبدالله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن

(١) رواه السيوطي في الجامع الصغير، وقال: حديث صحيح عن ابن عمر وروى ابن العربي في «العواصم» عن البخاري «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة» وهو في كتاب الفتن من صحيح البخاي. وبقية كلام ابن عمر في «العواصم من القواصم». وفي صحيح مسلم «كتاب الإمارة» عن ابن عمر: قال رسول الله ﷺ «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له..».

(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٢٣.

الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد، فأبى عليهم ـ فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنة. قالوا: كان ذلك منه تصنعاً لك قال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إليّ الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإنْ لم يكن أطلعكم، فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحقٌ، وإنْ لم نكن رأيناه، فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال: ﴿إلا من شَهد بالحق وهم يعلمون﴾[1] ولست من أمركم في شيء. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نولّيك أمرنا قال: ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً».

وأما عليٌّ بن الحسين، فإنه راسل يزيد بن معاوية أنه على طاعته. واعتزلهم كذلك ابن عباس وكان وقتها في الطائف.

واعتزلهم كذلك بنو حارثة من الأنصار، وساعدوا أهل الشام في دخول المدينة.

ثالثاً : لم يكن الثوار يعتمدون على قاعدة شرعية في محاربة يزيد، لأن الأحاديث النبوية تمنع نقض العهد والغدر في البيعة، وتدعو إلى ملازمة الجماعة. جاء في الحديث «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان»[2].

و في حديث آخر: «من نزع يداً من طاعة فإنه يأتي يوم

---

(١) سورة الزخرف: آية ٨٦.

(٢) رواه ابن كثير في «البداية والنهاية» وقال: حديث صحيح. وقريب من لفظه في صحيح مسلم «كتاب الإمارة» باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع. ورواه ـ ابن العربي «العواصم». وفي «منهاج السنة» جـ ٢ ٢٤٧ لابن تيمية.

القيامة ولا حُجةَ له. ومن مات مفارق الجماعة، فإنه يموت ميتةً جاهليةً»[1].

ونقل ابن كثير عن الفقهاء قولهم: إنه - يعني يزيد - كان مع ذلك إماماً فاسقاً والإمام إذا فسق لا يُعزِل بمجرد فسقه، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة ووقوع الهرج، وسفك الدماء الحرام ونهب الأموال وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه»[2].

رابعاً : لم يكن يزيد بن معاوية مبيتاً هذه المذبحة لأهل المدينة، وليس في نفسه حقد على أهل المدينة رغم معرفته بمعارضتهم له. ولو كان الأمر مبيتاً لما أعطاهم مهلةً للتفكير والرجوع عن ثورتهم. فقد خاطبهم مسلم بن عقبة أول وصوله بالأسلوب اللين لعلهم يرجعون، وأمهلهم ثلاثة أيام ولكنهم أصرّوا على ما هم فيه - وفي مدة ثلاثة أيام مهلة للعاقل حتى يرجع عن غيه. وكان يزيد قد أنذرهم ورغبهم في الجماعة على لسان النعمان بن بشير.

وروي أن مسلم بن عقبة بعث روح بن زنباع[3] إلى يزيد ببشارة الحرة، فلما أخبره بما وقع قال: واقوماه. ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري[4] فقال له: ترى ما لقي أهل المدينة، فما الذي يجبرهم؟.

قال: الطعام والأعطية، فأمر يزيد بحمل الطعام إليهم، وأفاض عليهم أعطيته. قال ابن كثير: وهذا خلاف ما ذكره كذبة الروافض عنه أنه شمت

---

(١) عن «العواصم من القواصم» عن صحيح مسلم في كتاب «الإمارة».

(٢) البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٢٤. وانظر: «منهاج السنة جـ ٢/٢٤٢».

(٣) روح بن زنباع الجذامي، أمير فلسطين، وسيد اليمانية في الشام. كان على جند فلسطين يوم الحرة. توفي سنة ٨٤ هـ.

(٤) الضحاك بن قيس الفهري القرشي شهد فتح دمشق وسكنها، وتولى الكوفة بعد موت زياد بن أبيه دعا إلى ابن الزبير بعد تنازل معاوية بن يزيد، وامتنع على مروان بن الحكم فقتل في مرج راهط سنة ٦٥ هـ.

بهم واشتفى بقتلهم[1].

وبعد: لقد أخطأ أهل المدينة، وليس لهم عذر فيما فعلوا وذكرت تعليل هذا الحكم فيما سبق.

وأخطأ يزيد في أنه أباح المدينة، أو أوصى بإباحتها. قال ابن كثير: وقد كان في قتال أهل الحرة كفاية، ولكن تجاوز الحد بإباحة المدينة ثلاثة أيام فوقع بسبب ذلك شر عظيم[2]. فجزء من عمله لا يشنع عليه وهو حرب أهل الحرة لخروجهم على الإمام، ولكن الذي يُشنع عليه إباحة المدينة وفيها من الناس الآمنين من لم يرفع سلاحاً. وقوانين الحرب مع الأعداء تمنع فعل ذلك فكيف إذا كان مع الأهل والإخوان؟ ولكن الإسراف في إباحة المدينة والقتل الحاصل بعد المعركة كان وزره على مسلم بن عقبة.

وأخيراً أذكر بعض آراء المؤرخين المُحْدثين حول معركة الحرة: قال محمد كرد علي: أما أهل المدينة، فإنهم استطالوا على يزيد، وحاسنهم فخاشنوه، وأحرجوه حتى أخرجوه[3].

وقال الشيخ محمد الخضري: إن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في إمكانه أن يجرّد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه، ولا يُدرى ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد، أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية، لهم خليفتهم يلي أمرهم، أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم، وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية؟.

إنهم فتقوا فتقاً وارتكبوا جرماً فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٢٤.
(٢) البداية والنهاية جـ ٨/٢٣٢.
(٣) خطط الشام جـ ١/١٤٥.

فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار فإن المدينة لا تحتمل الحصار لأنه ليس فيها ما يمون أهلها[1].

ومن أحسن ما يقال في هذا المقام، رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة»: «فإذا تولى خليفة من الخلفاء، كيزيد، وعبد الملك والمنصور وغيرهم، فإما أن يقال يجب منعه من الولاية بالسيف، وهذا رأي فاسدٌ، فإن مفسدته أعظم من مصلحته وَقَلّ مَنْ خرج على إمام ذي سلطان إلا وكان ما تولد على فعله من الشرّ أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة.. فإنهم هزموا وهزم أصحابهم، فلا أقاموا ديناً، ولا أبقوا دنيا، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين ولا صلاح الدنيا... وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة، كما كان عبدالله بن عمر، وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وغيرهم، ينهون عام الحرة عن الخروج على يزيد... وقد قيل للشعبي في فتنة ابن الأشعث أين كنت. قال: كنت حيث يقول الشاعر:

عوى الذئبُ فاستأنست بالذئب إذْعوى   وصوّت إنسان فكدتُ أطير[2]

هـ - نهاية نفوذ عبد الله بن الزبير في المدينة:

بدأت دولة بني مروان وحركة ابن الزبير قائمة في مكة. وقد بدأت حركة ابن الزبير أيام يزيد ولكنها كانت مقصورة على مكة، أو الحجاز. ولم يعلن ابن الزبير نفسه خليفة إلا بعد موت يزيد، حيث بايعته الأمصار الإسلامية، في غيبة الخليفة الأموي بعد يزيد[3]. فاتسعت دولته وأصبح خَطراً يهدد دولة بني مروان في بدايتها[4]. وقد قسمت الحديث عن حركة ابن

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١٣٢/٢.

(٢) منهاج السنة جـ ٢٤١/٢. والبيت للشاعر الأُحيمر السّعدي، من لصوص العرب. ترجم له ابن قتيبة في «الشعر والشعراء».

(٣) اليعقوبي: جـ ٣ ص ٢، الطبري جـ ٧ ص ٩١.

(٤) الخربوطلي: عبدالله بن الزبير ص ١١٧.

الزبير إلى قسمين حسب ظهورها التاريخي. فتحدثت عن بدايتها أيام يزيد. وسوف أتحدث عن قمتها ونهايتها في الفصل التالي. وتعتبر حركة ابن الزبير أكبر حركة يواجهها المروانيون في الحجاز، وبعدها يستسلم الحجازيون للأمر الواقع، ولم تقم حركات سياسية داخلية تخيف بني مروان. ولكنهم مع ذلك بقوا يتخوفون من المدينة المنورة فحكموها بالحديد والنار وكمموا الأفواه، وبقيت المراقبة الشديدة.

وأهل المدينة وإن لم يقوموا بحركات سياسية، فإنهم كانوا يؤيدون بقلوبهم الحركات السياسية في الأمصار الإسلامية، وينكرون ما يسمعون من ظلم يقع على إخوانهم من ولاة المروانيين. وظهر تعاطفهم مع أهل العراق، فكانوا يؤون الفارين من ظلم الحجاج حتى ضج الحجاج من ذلك، وشكا الأمر إلى الوليد بن عبد الملك، وكانت سبباً في عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة، لأنه لانَ لأهل المدينة في سياسته. ومن أمثلة المراقبة الشديدة، وخاصة لبني هاشم... ما ورد أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة: أن الحسن بن الحسن بن علي، كاتب أهل العراق، فإذا جاءك كتابي فاجلده مائة ضربة ووقّفه للناس، ولا تراني إلا قاتله[1] وهكذا بقيت المدينة مصدر قلق دائم لجميع الخلفاء من بني مروان ـ عدا عمر بن عبد العزيز، فكانوا لا يولونها إلا الوالي الشديد[2] ولذلك لم تقم حركات سياسية داخلية تستحق الدراسة المطولة. وسأكتفي في هذا الفصل بالكلام عن إمارة عبدالله بن الزبير، في عهد عبد الملك بن مروان ثم دخول الخوارج إلى المدينة في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان.

بعد أن نفذ مسلم بن عقبة وصية يزيد في أهل المدينة، تركها متوجهاً إلى مكة لمحاربة عبدالله بن الزبير، وخلّف على المدينة روح بن زنباع

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٠.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢١٥.

الجذامي، ولما كان بالأبواء[1] حضره أجلُه. في آخر المحرم سنة ٦٤ هـ. فاستخلف على الجيش حصين بن نمير السكوني، وأوصاه قائلاً: إن هذا الحي من قريش، لم يمكنهم أحد من أذنه إلا غلبوه على رأيه، فسرْ بهذا الجيش، فإذا لقيت القوم فإياك أن تمكنهم من أذنك، لا يكن إلا على الوِقاف ثم الثِّقاف ثم الانصراف»[2] فتابع حصين مسيره إلى مكة، فوصلها، وقد بايع الناس ابن الزبير، وانضم إليه عدد من رجالات المدينة الذين هربوا بعد موقعة الحرة. وانضم إليه نجدة بن عامر الحنفي من أهل اليمامة، في طائفة من أهلها ليمنعوا البيت من أهل الشام.

فلم يزل الحصين محاصراً أهل مكة حتى مات يزيد بن معاوية في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين. ولما وصل خبر موت يزيد إلى مكة، قال الحصين لابن الزبير: إن هذا الرجل قد هلك، فأنت أحق الناس بهذا الأمر بعده، فهلم فارحل معي إلى الشام، فوالله لا يختلف عليك اثنان[3]. فرفض ابن الزبير الخروج من مكة ولم يثق بابن نمير، وطلب منه أن يأخذ له البيعة في الشام، ويبقى ابن الزبير في مكة، فقال ابن الزبير: أما الشام فلستُ آتيه، ولكن خذ البيعة على مَنْ هناك، فإني أؤمنكم وأعدل فيكم. فردّ عليه الحصين: إن من يبتغيها من أهل هذا البيت بالشام لكثير. ورجع الحصين بجنده، فاجتاز بالمدينة المنورة، فاجترأ أهل المدينة على جند الشام، وأهانوهم إهانةً بالغة، فكانوا يجتمعون في معسكرهم فلا يفترقون. ولكن عليٌّ بن الحسين أكرمهم، وأهدى الحصين قتاً وعلفاً[4].

وقالت بنو أمية لجند الشام: لا تبرحوا حتى تحملونا معكم، فرحل جميع

---

(١) الأبواء: قرية على مسافة خمسة أيام من المدينة المنورة، في الطريق إلى مكة. وفيها قبر آمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ.

(٢) العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٩١. والوقاف ـ بكسر الواو ـ أن تقف معه ويقف معك في حرب أو خصومة. والثقاف: بكسر الثاء ـ الجلاد.

(٣) الطبري جـ ٧ ص ١٥٠.

(٤) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٢٦.

بني أمية إلى الشام، وقيل: إنما أجلاهم ابن الزبير بعد رحيل جند الشام.

فلما رجع جيش الشام عن مكة استفحل أمر ابن الزبير بالحجاز وما والاها وبايعه الناس بعد يزيد بيعة جديدة[١]. واستناب عبدالله بن الزبير أخاه عبيدة[٢] بن الزبير على أهل المدينة، وأمره بإجلاء من تبقّى من بني أمية عن المدينة.

وبعث أهل البصرة إلى ابن الزبير وهو بمكة، يخطبونه لأنفسهم، بعد حروب جرتْ بينهم. فكتب إلى أنس بن مالك ليصلي بهم. وبعث نائباً على الكوفة ثم أرسل إلى مصر فبايعوه، واستناب عليها عبد الرحمن بن جحدر. وأطاعت له الجزيرة، وبعث إلى اليمن فبايعوه..

ولم يبق إلا دمشق والأردن فقد خلصت للأمويين حيث اتفقوا على تولية مروان بن الحكم بعد معاوية بن يزيد[٣].

ومـا أن استقر الأمر للأمويين، وزالت الخلافات بينهم، حتى أخذ مروان يناجز ابن الزبير، ويقلص نفوذه عن البلاد التي بايعته. فقضى على أنصاره في بلاد الشام كلها، وتوجه إلى مصر، واستطاع أن يحسر نفوذ ابن الزبير عنها وولى عليها ابنه عبد العزيز بن مروان سنة ٦٥ هـ. وقرر أن يسترجع المدينة والعراق من نواب ابن الزبير ولكن المنية وافته قبل أن يتم ذلك فتوفي مروان بن الحكم في شهر رمضان سنة ٦٥ هـ وكانت مدة خلافته

---

(١) كان وليّ العهد بعد يزيد، ابنه معاوية بن يزيد، فبايعه الناس بعد موت أبيه وكان رجلاً صالحاً ناسكاً، ومات بعد أبيه بأربعين يوماً، وكان مريضاً طول ولايته. فلما حضرته الوفاة: قيل له لو عهدت إلى رجل من أهل بيتك؟ قال: لم أنتفع بها حياً فلا أقلدها ميتاً، لا يذهب بنو أمية بحلاوتها وأتجرع مرارتها. وبقي بنو أمية بعد وفاته يبحثون عن خليفة جديد، وبقيت البلاد دون إمام حتى كاد مروان أن يبايع ابن الزبير، فصرفه أناس عن مقصده، واتفق الناس على بيعة مروان بن الحكم بالخلافة فقامت دولة بني مروان سنة ٦٤ هـ.

الطبري جـ ٧ ص ١٥، ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٤١.

(٢) انظر «أمراء المدينة» من هذا الكتاب.

(٣) الطبري جـ ٧ ص ٢٣، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٧.

عشرة أشهر[1]. وتولى الخلافة عبد الملك بن مروان، وأخذ يعد العدة لمحاربة ابن الزبير وكان مروان قبل وفاته قد بعث بعثين، أحدهما إلى العراق لينتزعها من نواب ابن الزبير. ولم يتم الأمر له في حياته.

والبعث الثاني مع حبيش بن دلجة[2] إلى المدينة ليرتجعها من نائب ابن الزبير. فلما انتهى إليها هرب نائبها جابر بن الأسود بن عوف. فجهز نائب البصرة من قبل ابن الزبير جيشاً من البصرة لمحاربة ابن دلجه ولما سمع بهم حبيش سار إليهم وبعث ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد نائباً على المدينة وأمره أن يسير في طلب جيش ابن دلجة، فسار في طلبهم حتى التقى بهم في الربذة. فرمى يزيد بن سياه حبيشاً بسهم فقتله، وقتل بعض أصحابه وتحصن منهم خمسمائة في المدينة. ثم نزلوا على حكم عباس بن سهل، فقتلهم صبراً[3]، ورجع فلّهم إلى الشام. ولما دخل يزيد بن سياه الأسواري قاتل حبيش إلى المدينة، دان عليه ثياب بياض وهو راكب برذوناً أشهب فما لبث أن اسودتْ ثيابه ودابته مما يتمسح به الناس ومن كثرة ما صبّوا عليه من الطيب والمسك.

وفي سنة ٦٦ هـ بعث عبد الملك بن مروان، ابن عمه عبد الملك بن الحارث بن الحكم في جيش إلى وادي القرى، ليأخذوا المدينة من نواب ابن الزبير، ولكن الجيش لم يتقدم نحو المدينة. ويبدو أن الهدف منه كان استطلاعياً، ولإدخال الفزع إلى منطقة ابن الزبير.

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٨٠.

(٢) حبيش بن دلجة القيني، من قادة الجيوش في العصر الأموي، شامي من أهل الأردن ولاه مروان قيادة جيش لفتح المدينة، وقتل في هذه المعركة سنة ٦٥ هـ. وفي العقد الفريد أن الذي أرسل الجيش عبد الملك بن مروان. وفيه أن حُبيشاً دخل المدينة وجلس على منبر رسول الله ودعا بخبز ولحم فأكل، ثم دعا بماء فتوضأ على المنبر. وروى ابن عساكر أن حبيشاً كان يأكل التمر وهو على المنبر ويطرح نواه في وجوه القوم وكان يقول: إني لأعلم أنه ليس بموضع أكل، ولكنني أحببت أن أذلكم لخذلانكم أمير المؤمنين «تهذيب تاريخ دمشق» جـ ٤/٤٤.

(٣) العقد الفريد جـ ٢/٤٠٣، وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر جـ ٤/٤٤. وذكر أن ابن الزبير أرسل مصعباً فضرب أعناقهم جميعاً.

فلما كانت سنة إحدى وسبعين ـ سار عبد الملك في جنود هائلة من الشام قاصداً العراق، وكان عليها مصعب بن الزبير، واستطاع عبد الملك أن يهزم مصعب بن الزبير وقتله، ودخل عبد الملك العراق وأخذ البيعة منها(١). فلم يبق لابن الزبير إلا الحجاز. أما المدينة المنورة فوجه إليها عبد الملك، طارق بن عمرو فأخرج منها عامل ابن الزبير، طلحة بن عبدالله الذي يعرف بطلحة الندى سنة ٧٢ هـ وهو آخر وال زبيري على المدينة(٢).

ووجه عبد الملك، الحجاج بن يوسف الثقفي إلى ابن الزبير، وبعث معه، أماناً لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا. فتوجه الحجاج أولاً إلى الطائف، وبقي يناوش ابن الزبير من هناك، ثم استأذن عبد الملك في دخول الحرم وحصر ابن الزبير، فاتجه الحجاج إلى مكة، وحصرها، وحبس عن أهلها الميرة والماء، فأصاب أهل مكة ضيق شديد، فخرج أهل مكة إلى الحجاج بالأمان، حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف، فأمنهم الحجاج وخرج إلى الحجاج حمزة، وخبيب ابنا عبدالله، وأخذا لأنفسهما الأمان فأمنهما(٣).

فشكا عبدالله حاله إلى أمه أسماء بنت أبي بكر، فحثته على الجهاد حتى الاستشهاد، وأن لا يمكن بني أمية من رقبته، فبقي يصارع القوم وحده حتى استشهد يرحمه الله. وحُزَّ رأسه وأسل إلى الشام، أما جسمه فصلب ثم دفن سنة ٧٣ هـ(٤).

وبموته يقضى على آخر فتنة في الحجاز، في العصر الأموي، بل أطول فتنة دامت مدتها حوالي عشر سنوات، وكانت المدينة تحت ولايته في هذه الفترة.

---

(١) قتل مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ في معركة عند دير الجاثليق على شاطىء دجيل من أرض مسكن، بالعراق.

(٢) الطبري جـ ٧ ص ١٨٥، ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ١٢٧.

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص ٣١٦، تاريخ اليعقوبي جـ ٣ ص ٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ١٣١.

وبموت عبدالله بن الزبير، تموت حركته، ويموت حزبه إن كان له حزب لأننا لم نسمع فيها بعد، أن جماعةً قامت باسم ابن الزبير، ولم تظهر حركة تؤيده على مر التاريخ. وحتى أولاده، ومن جاء من عقبة فقد انخرطوا في الحياة العامة، دون أن يحملوا في نفوسهم عزة الملك، ودون أن يضمروا في نفوسهم نية للسعي بتجديد المطالبة بما كان لهم من سلطان[1].

بينما نجد غيرهم، ممن ورثوا في نفوسهم حق الخلافة، يبقون على مر التاريخ في تأهب دائم وحركات مستمرة. ومن أمثلة هؤلاء: أبناء علي بن أبي طالب الذين بقيت حركاتهم مستمرة عبر التاريخ حتى تمكنوا من تكوين دول باسمهم. رغم الحروب الشديدة التي كانوا يواجهون بها ورغم الفشل المتكرر الذي كانوا يمنون به.

والسبب في كل هذا: أن ذرية ابن الزبير، لم يكونوا مقتنعين بحقهم في الخلافة، ولم يكن لآل الزبير صنائع يبكون على ذهابهم.

و ـ حركة عبدالله بن الزبير في الميزان.

امتدت حركة ابن الزبير حوالي عشر سنوات من سنة ٦٤ ـ ٧٣ هـ. وفي فترة من الفترات دانت له بلاد العرب كلها، والبلاد المفتوحة، ما عدا بلاد الشام. وقد اعتبر بعض المؤرخين حركته، فتنة من الفتن[2] وبعضهم اعتبره خليفة وأميراً للمؤمنين ومن هؤلاء: ابن كثير. حيث قال: وهذه ترجمة

---

(١) انظر «نسب قريش» للمصعب الزبيري، المتوفى سنة ٢٣٦، ولم نجد فيمن ترجم لهم من آل الزبير، من دعا إلى نفسه أو حاول مطاولة الأمويين أو. . . العباسيين. فمنهم من اتجه نحو العلم، مثل عروة، وابنه هشام، وخبيب ابن عبدالله. ومؤلف «نسب قريش» والزبير بن بكار، مؤلف جمهرة نسب قريش وقد اطمئن إليهم العباسيون، واستعملوهم على الإمارة والقضاء.

ومن الزبيريين من اتجه إلى العمل واستصلاح الأرض، واستنباط المياه ومع ذلك فقد بقي آل الزبير موضع المراقبة طيلة العهد الأموي.

(٢) العقد الفريد جـ ٤ ص ٨٧.

أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير. ونقل عن ابن حزم أنه أمير المؤمنين آنذاك[1] وفي «المعارف» لابن قتيبة قوله: وطلب الخلافة فظفر بالحجاز والعراق واليمن ومصر، فمكث كذلك تسع سنين[2] ولكنه لم يترجم له في باب الخلفاء.

ولكن هل كان ابن الزبير رجلاً سياسياً فريداً من رجالات عصره؟ وهل دانت له البلاد بفضل حنكته وتدبيره؟.

لا شك أن ابن الزبير من بيت تأصلت فيه الحكمة والفصاحة والشجاعة والسياسة فأبوه الزبير بن العوام حواري رسول الله، وأول رجل شهر سيفاً في سبيل الله[3] وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وجده لأمه أبو بكر الصديق، وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه السلام، وخالته عائشة زوج الرسول، نشأ في حجرها وكأنه ولدها. فليس بعد هذا النسب من نسب، وليس بعد هذه البيئة من بيئة يمكن أن يغترف الإنسان منها. وقد تأثر عبدالله بهذه النشأة وهذا النسب فنشأ ميالاً إلى الزعامة[4] متطلعاً إلى القيادة، يطاول من الرجال من هو فوقه ومن هو في مستواه. فكان يوم الدار، يوم حصار عثمان زعيماً بارزاً كلفه عثمان بمهمات، فتطلع من وراء ذلك إلى الخلافة. عن هشام بن عروة قال: كان عثمان استخلف عبدالله بن الزبير على الدار يوم الدار، فبذلك ادّعى ابن الزبير الخلافة[5]. وكان في حرب الجمل له دور كبير في التأثير على قواد الحركة، ولا سيما أبوه وخالته. وتصدى لمعاوية يوم أخذ البيعة لابنه يزيد.

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨.

(٢) المعارف/ ٢٢٥.

(٣) الأوائل لأبي هلال العسكري/ ١٧١.

(٤) روى الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٣/٣٦٦. أن عبدالله بن الزبير أتى رسول الله وهو يحتجم، فلما فرغ قال: يا عبدالله، اذهب بهذا الدم، فأهرقه حيث لا يراك أحد فلما برز عن رسول الله، عمد إلى الدم فشربه، فلما رجع قال رسول الله: ما صنعت بالدم؟ قال: عمدت إلى أخفى موضع علمت فجعلته فيه، قال: لعلك شربته؟ قال: نعم: قال رسول الله: «ولم شربت الدم؟ ويل للناس منك، وويل لك من الناس».

(٥) العقد الفريد جـ ٤/٤١٨.

وأثرت هذه البيئة في ابن الزبير، فنشأ رجلاً تقياً محافظاً على فروض الله وسنته، يكابد نفسه على ما لم يستطيع الناس من العبادة. حتى روي أنه عندما جاءت سيول إلى الحرم المكي، وامتلأ الحرم بالمياه، فلم يستطع الناس الطواف فكان ابن الزبير يطوف عوماً[1].

ولكن هذه الصفات الشخصية لم تستطع أن تجعل منه، الرجل السياسي الذي يستطيع قيادة الأمة في مجتمع تكثر فيه الأهواء[2] وتصطرع الآراء.

لقد كان علماً في التقوى والفصاحة والشجاعة، ولكنه لم يكن ناجحاً في سياسته ودامت خلافته عشر سنوات بفضل شجاعة أخيه مصعب الذي حكم العراق ولأن مركز خلافته في الحرمين، وللحرمين حرمة تجعل المنافسين يترددون في حربه. ويذكر المؤرخون شواهد تعطي دلالات على سياسته: منها:

١ ـ انتشر نفوذ ابن الزبير في جميع الأمصار الإسلامية ماعدا بلاد الشام، ولكن هذا الانتشار لم يكن بسعي واجتهاد من ابن الزبير. لقد جاءته بيعة الكوفة والبصرة وخراسان ومصر دون أن يسعى إليها ولكنها سعت إليه. وكانت الظروف السياسية هي التي جعلتْ هذه الأقطار تبايع عبدالله بن الزبير فقد جاء وقت (بعد موت يزيد بن معاوية، وتخلى معاوية بن يزيد عن الخلافة) كان البيت الأموي فيه مضطرباً مختلفاً، لم يقر قرارهم على خليفة منهم يولونه، فأصبحت البلاد بلا إمام، وكان ابن الزبير معلناً إمامته، فرأى الناس في تلك البلاد أن يرسلوا لابن الزبير بالبيعة حتى يتخلصوا من الفتن

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» ترجمة ابن الزبير رقم ٤٦٨٢.

(٢) روى ابن عبد البر في الاستيعاب قال: «كان عبدالله بن الزبير كثير الصلاة كثير الصيام شديد البأس، إلا أنه كانت فيه خلال لا تصلح معها الخلافة، لأنه كان ضيق العطاء كثير الخلاف جـ ٢ على حاشية الإصابة».

الدائرة في بلادهم وليكون لهم إمام يسود باسمه الأمن في البلاد[1].

وهكذا نلاحظ أن هذه الأمصار انضمت إلى ابن الزبير دون أن يسعى إليها ولذلك سهل بعد ذلك سلخها عنه دون عناء، لأنه لم يحاول بناء جبهة داخلية في كل مصر تكون مؤيدة له. وما أن بويع مروان بالخلافة حتى استطاع بقليل من الجهد أن يستولي على مصر ويضمها إلى بني أمية ولم يكلف ابن الزبير نفسه عناء الدفاع عنها أو بذل شيء من السياسة والدهاء لرد الأمويين. لقد أخذها دون حرب، فهان عليه تسليمها. ثم استطاع عبد الملك فيما بعد أن يستولي على العراق ويقضي على ساعده القوي أخيه مصعب. وكذلك استولى على المدينة.

٢ ـ كان ابن الزبير يريد أن يستمر في منصب الخلافة من غير أن يواجه خصومه وبقي مدة إمارته في مكة لا يغادرها. ويبدو أنه اختار مكة لتكون مقراً له، ليحتمي بما لها من حرمة. ولاعتقاده أن أعداءه لن يتمكنوا من الهجوم على مكة وهي بلد الله الحرام[2].

ولذلك رفض الانتقال إلى الشام لأخذ البيعة هناك بعد موت يزيد وقد دعاه الحصين بن نمير إلى ذلك. وبقي عائذاً بالبيت، ولقب نفسه «عائذ الله».

ولو كان ابن الزبير طالباً المجد المحفوف بالمخاطر، أو يبغي خلاص الأمة من شرّ داهم لسار مع الحصين إلى الشام وانتزع الخلافة من بني أمية قبل أن يتفقوا على رجل منهم وأخذ البيعة من الأمويين أنفسهم، لأن مروان ابن الحكم كان ينوي مبايعة ابن الزبير قبل أن يتفق الأمويون عليه، ومعاوية ابن يزيد كان ينوي مبايعة ابن الزبير قبل موته.

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٧٢، ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٥٢.
(٢) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» جـ ٣٧٧/٣ «ليته لا التجأ إلى البيت، ولا أحوج أولئك الظلمة، والحجاج، إلى انتهاك حرمة بيت الله وأمنه، فنعوذ بالله من الفتنة الصماء».

وقد يقول قائل: إنه لم يخرج إلى الشام، لقلة أنصاره هناك، ولكننا نقول: في الوقت الذي دُعي فيه إلى الخلافة في دمشق، لم يكن لأحد من الأمويين أنصار، وكان زعماء المروانيين مبتعدين عن الخلافة، ولم يفكروا فيها، ولم يتقدموا لها، وكانوا يهمون ببيعة ابن الزبير. قال ابن كثير: وقد كان معاوية بن يزيد قد عزم على أن يبايع لابن الزبير بدمشق. وقد بايع أهلها الضحاك بن قيس على أن يصلح بينهم ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس على إمام، والضحاك يريد أن يبايع لابن الزبير. وقد بايع لابن الزبير النعمان ابن بشير بحمص، وبايع له زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين[1] وبايع له ناتل بن قيس بفلسطين[2]، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامي، فلم يزل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير بمروان بن الحكم يحسنون له أن يتولى حتى ثنوه عن رأيه، وحذروه من دخول سلطان ابن الزبير وملكه إلى الشام[3].

ولو أن ابن الزبير قوّى مركزه في المناطق التي بايعته وولى الولاة الأقوياء وألف القلوب، لتمكن من غزو بلاد الشام وضمها إلى خلافته، وفي ذلك الوقت تسير الجيوش كلها لنصرته، لأنه الخليفة المبايع وهو الأسبق[4] من مروان بن الحكم وقد اجتمعت عليه كلمة الأمصار، فلو حارب الأمويين

---

(١) زفر بن الحارث بن عبد عمرو.. من التابعين، كان كبير قيس في زمانه، من أهل الجزيرة، شهد صفين مع معاوية أميراً على أهل قنسرين، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس، ثم هرب إلى قرقيسيا ـ عند مصب نهر الخابور في الفرات، ولم يزل متحصناً حتى مات سنة ٧٥ هـ. (الأعلام للزركلي).

(وقنسرين): كورة بالشام منها حلب، وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من ناحية حمص، ومازالت عامرة إلى سنة ٣٥٥ هـ عندما خربها الروم وأحرقوا مساجدها فلم تعمر بعد ذلك (معجم البلدان).

(٢) ناتل ـ بالتاء ـ بن قيس الجذامي، من التابعين، كان سيد جذام بالشام، دعا إلى ابن الزبير فجاءه تقليد ابن الزبير بولايتها ـ واستمر إلى أن ولي عبد الملك وقيل: قتل في أيام مروان سنة ٦٦. (تهذيب التهذيب) ـ ١٠/٣٩٨.

(٣) البداية والنهاية جـ ٨/٢٣٩.

(٤) انظر «تهذيب التهذيب» لابن حجر جـ ٥/٢١٤. قال: وخلافة ابن الزبير صحيحة خرج عليه مروان بعد أن بويع له في الآفاق كلها إلا بعض قرى الشام.

لحاربهم باسم الإمامة والخلافة، واعتبر الأمويين خارجين على خلافته.. ولكن ابن الزبير بقي قابعاً في مكة حتى قصوا أجنحته، وقويت أجنحتهم، واعتبر الناس مروان هو الإمام وابن الزبير الخارج عليه، لأنه أصبح في الموقف الأضعف والمكان الأضيق ومروان في الموقف الأقوى والمكان الأوسع.

ومما يعاب على ابن الزبير، اعتصامه بحرم مكة ومسجدها لا يغادره ولم يقابل جيشاً خارج حدود الحرم المكي. وهذا جرأ الأعداء على ضرب الحرم وهدم الكعبة ولو لاقى أعداءه خارج حدود الحرم لحفظ للحرم قداسته، ولما سجل التاريخ أن المسلمين هدموا كعبتهم...

ولا يعدم أحد الفريقين أن يجد دليلاً من الشرع يتأوله يجوّز له فعله. ورد في الصحيحين أن أبا شريح الخزاعي[1] قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة لمحاربة ابن الزبير: سمعت رسول الله يقول: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس وإنه لم يحلّ القتال فيها لأحد كان قبلي، ولم تحل لأحدٍ بعدي» فقال عمرو بن سعيد: نحن أعلم بذلك منك، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم.

وخطب الحجاج بعد مقتل ابن الزبير فقال: أيها الناس إن عبدالله ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها وألحد[2] في الحرم فأذاقه الله من عذابه الأليم، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة وهي أشرف من مكة فلما خالف أمْرَ الله وأكل من الشجرة التي نهي عنها أخرجه الله من الجنة.

٣ - ومما يؤخذ عليه أنه كان قليل العطاء[3]، مع كثرة المال الذي كان بين يديه. فكان الأمويون يتفوقون عليه في العطاء لاستمالة القلوب، فيكثر

---

(١) أبو شريح الخزاعي، قيل اسمه: خويلد بن عمرو. صحابي توفي سنة ٦٨ هـ، بالمدينة وذكر ابن حجر في الإصابة الخبر في ترجمة أبي شريح (الإصابة جـ ٤/٦١٣).

(٢) ألحد في الحرم: ترك القصد فيما أمر به، أو ظلم، أو استحلّ حرمته.

(٣) انظر ما نقله ابن عبد البر في «الاستيعاب» ترجمة ابن الزبير.

أنصارهم ويتقلص أنصاره. مما يروي في ذلك: عندما حج مصعب سنة إحدى وسبعين قدم على أخيه عبدالله، ومعه وجوه أهل العراق وطلب من أخيه أن يعطيهم من بيت المال، لتأليف قلوبهم، فقال لهم: «وددت أن لي بكل رجلين منكم رجلاً من أهل الشام»[1] ولم يعطهم شيئاً. فلما انصرف مصعب ومعه الوفد من أهل العراق، وقد حرمهم ما عنده، فسدت قلوبهم، فراسلوا... عبد الملك بن مروان حتى خرج إلى مصعب فقتله.

وابن الزبير رفض أن يعطيهم المال، لأنهم لم يكونوا مخلصين في ولائهم ويريدهم أن يكونوا كأهل الشام في طاعتهم لأميرهم، وبلائهم في سبيله. قال ابن قتيبة في المعارف: وكان عبدالله بن الزبير بخيلاً فقال فيه الشاعر:

رأيت أبـا بكـر وربّـك غـالبٌ ... على أمره يبغي الخلافـة بالتمـر

وكان مع هذا يأكل كلَّ أسبوع أكلة ويقول في خطبته: إنما بطني شبر في شبر وعندي ما عسى يكفيني. فقال فيه الشاعر:

لو كان بطنك شبراً قد شبعت وقد ... أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين[2]

٤ ـ يرى ابن خلدون أن ابن الزبير أخطأ في تقديره للمركز السياسي الذي كان يمكن أن يحتله لمركز أسرته إذا قيس بمركز أسرة بني أمية فقال ابن خلدون: وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه ما رآه الحسين وغلطه في أمر الشوكة أعظم، لأن بني أسد لا يقاوون بني أمية في جاهلية ولا إسلام[3]. ولذلك لم يستطع ابن الزبير أن يحظى بتأييد شيوخ الحجاز وأهل الرأي في المدينة، رغم اعتقادهم بأنه أعلى مرتبة في الإسلام من بني أمية أو من يزيد ابن معاوية.

فإذا أخذنا رأي أهل المدينة، فإنهم لم يكونوا متحمسين لخلافته، ولم

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣١٨/٨.

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون: فصل ولاية العهد.

تكن نفوسهم منشرحةً لتوليته عليهم. ويظهر هذا الموقف عندما ثار أهل المدينة يوم الحرة، وخلعوا يزيد بن معاوية، فإنهم لم يعلنوا بيعة ابن الزبير وإنما بايعوا لرجلين منهم، ولو كانوا راضين عن خلافته لبايعوه عند خلع يزيد.

أما علاقته بأقطاب الحجاز في أيامه فكانت غير مرضية: فهذا عبدالله ابن عمر رغم أنه لم يبايع لمروان، وعبد الملك، بعد وفاة يزيد، فقد رفض أن يبايع ابن الزبير، وكان ينتظر من تجتمع عليه الأمة بعد يزيد، ثم يبايعه. وكان يرى أن ابن الزبير إنما دعا إلى نفسه طلباً للدنيا. رُوي أن ابن الزبير طلب من صفية بنت أبي عبيد الثقفي زوجة ابن عمر أن تسأل زوجها البيعة له، فتحدثتْ صفية لزوجها فقال: أما رأيت بغلاتِ معاوية التي كان يحج عليهن؟ فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن. يريد أنه يريد الدنيا فقط. وكان معاوية قد حج فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء عليها رحائل الأرجوان فيها الجواري عليهن الجلاليب والمعصفرات ففتن الناس[1].

ورآه ابن عمر مصلوباً فقال: يرحمك الله أبا خُبيب، مازلت أتخوف عليك هذا المركب وما صرت إليه منذ كنت أراك ترمق بغلاتٍ شهباً كنّ لابن حرب، فيعجبنك، إلا أنه أسوس لدنياه منك.

أما علاقته ببني هاشم، فيصورها ما رواه المؤرخون[2] أن ابن الزبير لما توطد له الأمر وملك الحرمين والعراقين، أظهر بعض بني هاشم الطعن عليه وذلك بعد موت الحسن والحسين. فدعا عبدَ الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وجماعةً من بني هاشم إلى بيعته فأبوا، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر.

وذكر ابن حجر في «الإصابة» الخلاف بين عبدالله بن الزبير، وبين بني هاشم، في ترجمة المختار بن أبي عبيد، فقال: ثم وقع بين ابن الزبير وابن الحنفية، وابن العباس ما وقع لكونهما امتنعا عن المبايعة فحصرهما ومن كان

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ١١٩.

(٢) الطبري جـ ٧ ص ١٨٠ والعقد الفريد جـ ٤ ص ١٢٠.

من جهتهما في الشّعب.. وقال غيره: فحبس محمد بن الحنفية في خمسة عشر من بني هاشم في السجن، وكان السجن الذي حبسهم فيه يقال له سجن عارم فقال في ذلك كثير عزّة، وكان متشيعاً[1].

تخبّـرُ من لاقيتَ أنـك عـائـذٌ بل العائذُ المظلومُ في سجن عارم
سميّ النبي المصطفى وابنُ عمه وفكّـاك أغـلالٍ وقـاضي مغـارم

ثم إن المختار بن أبي عبيد وجه رجالاً يثق بهم من الشيعة، يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى كسروا سجن عارم واستخرجوا منه بني هاشم ثم ساروا بهم إلى مأمنهم[2].

ويُروى أنه كان بينه وبين ابن عباس جفوة. فخطب ابن الزبير يوماً وقال: (أيها الناس إن فيكم رجلاً قد أُعمي بصره - وكان ابن عباس قد عمي في آخر عمره - قاتلَ أمَّ المؤمنين عائشة، وحواري رسول الله الزبير، وعبدالله بـن عباس في المسجد، فقام وقال لمولاه عكرمة: أقم وجهي نحوه يا عكرمة ثم قال هذا البيت:

إن يـأخذ الله من عينيّ نـورهما ففي فؤادي وعقلي منهمـا نـور

وأما قولك يا ابن الزبير: إني قاتلت أم المؤمنين: فأنت أخرجتها وأبوك وبنا سميتْ أم المؤمنين فكنا لها خيرَ بنين، فتجاوز الله عنها. وقاتلت أنت وأبوك علياً، فإن كان عليٌّ مؤمناً فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين، وإن كان كافراً فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم يوم الزحف[3].

---

(١) في «الاستيعاب» لابن عبد البر: أن ابن الزبير أخرج محمد بن الحنفية ونفى عبدالله بن عباس إلى الطائف.

(٢) العقد الفريد جـ ٤ ص ٤١٣ «والإصابة» ترجمة المختار. ٨٥٤٥. و«معجم البلدان» قال ياقوت: وسجن عارم حبس فيه محمد بن الحنفية، ولا أعرف موضعه، وأظنه بالطائف.

(٣) قد تقع مثل هذه المناظرة بين الصالحين، وقول الخصم في خصمه لا يوجب القدح في واحد منهما. قال ابن تيمية في «منهاج السنة» وقد تبين أن الرجل المؤمن قد يعتقد كفر الرجل المؤمن، ويكون مخطئاً في هذا الاعتقاد، ولا يقدح هذا في إيمان واحد منهما. جـ ١٩٢/٣.

ومما زاد في إضعاف شوكته تخلّي أهله عنه. فقد تركه حمزة وخبيب ولداه وهو محاصر والتحقا بالحجاج وطلبا منه الأمان. وحاربه قبل ذلك أخوه عمرو ابن الزبير، وكان عدواً له. وذهب عروة إلى عبد الملك وبايعه وهو الذي أخبر عبد الملك بمقتل أخيه(١).

٥ ـ لم تكن إدارة البلاد في عهد ابن الزبير خيراً مما كانت في عهد بني أمية، وقد قام ولاته بتجاوزات شرعية، تعاب عليه وعلى غيره، بل تعاب عليه أكثر من غيره، لأنه قام باسم العدل، لتصحيح انحرافات بني أمية، فإذا به يقع في أكثر منها. ومن أمثلة ذلك: أنه ولّى ابنه حمزة على البصرة، فظهرت منه خفة وطيش في عقله، فبعث الأحنف إلى عبدالله بن الزبير فعزله، فخرج حمزةُ من البصرة بمال كثير من بيت مالها، وأودعه في المدينة المنورة(٢). فلم يحاسبه أبوه على ما فعل.

وتزّوج أخوه مصعب من عائشة بنت طلحة وكان صداقُها عليه مائة ألف دينار. وتغضّبت مرة على مصعب فترضّاها بأربعمائة ألف درهم، فأطلقتها للمرأة التي أصلحتْ بينهما. وقيل: أُهديت له نخلة من ذهب ثمارها من صنوف الجواهر المثمنة فقوّمت بألفي دينار، فأعطاها لعائشة بنت طلحة(٣). ولا شك أن كل هذه الأموال، من بيت مال المسلمين، فماذا فعل أمير المؤمنين مع أخيه مصعب؟.

وقيل إن مصعباً لما قدم مكة أتى عبدالله بن عمر، فقال: أي عم إني أسألك عن قوم خلعوا الطاعة وقاتلوا حتى غُلبوا، وسألوا الأمان فأعطوه ثم قُتلوا بعد ذلك فقال: وكم هم؟ فقال: خمسة آلاف، فسبّح ابن عمر واسترجع، وقال: لو أن رجلاً أتى ماشية الزبير فذبح منها خمسة آلاف في غداة واحدة ألست تعده مسرفاً؟ قال: نعم قال: أفتراه إسرافاً في البهائم ولا

---

(١) الكامل «لابن الأثير جـ ٤/١٣٦».

(٢) العقد الفريد جـ ٤/٤٣٤.

(٣) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٣١٩، الأصفهاني: الأغاني جـ ٤ ص ٣١٦.

تراه إسرافاً فيمن ترجو توبته؟ سبحان الله.. أيعاب هذا الفعل على يزيد بن معاوية أن فعل ما فعل مع المسلمين من أهل المدينة، ولا يعاب على ابن الزبير أن فعل ما فعل مع المسلمين في العراق[1]؟.

وبعد: فقد كان ابن الزبير مضطرباً في سياسته، مال الناس إليه ليجدوا الخلاص، فلم يغير شيئاً من الواقع. قال ابن الزبير لزعماء العراق: والله لوددت أن لي بكل رجلين منكم رجلاً من أهل الشام. فقال أحدهم: إن لنا ولكم مثلاً قد مضى يا أمير المؤمنين وهو ما قال الأعشى:

عُلّقتها عرضاً وعلقتْ رجلاً غيري وعُلّق أخرى غيرها الرجلُ

أو كما قيل أيضاً:

جُننا بليلى وهي جُنتْ بغيرنا وأُخرى بنا مجنونةٌ لا نريدها

علقناك يا أمير المؤمنين، وعلقت أهل الشام، وعلق أهل الشام إلى مروان فما عسينا أن نصنع. قال الشعبي: ما سمعتُ جواباً أحسن منه.

* * * *
* * *
*

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٣٣، و«البداية والنهاية» جـ ٨ ترجمة مصعب.

٤ - نهاية الأحداث السياسية
أبو حمزة الخارجي في المدينة

روى ابن جرير الطبري في أحداث سنة ١٢٩ هـ، أن أبا حمزة الخارجي[١]، جاء إلى موسم الحج فأظهر التحكم والمخالفة لمروان بن محمد، وتبرأ منه فراسلهم عبد الواحد بن سليمان وهو أمير مكة والمدينة، وإليه أمر الحجيج في هذه السنة، ثم صالحهم على الأمان إلى يوم النَّفر، فلما كان يوم النفر[٢] تعجل عبد الواحد، وترك مكة، فدخلها أبو حمزة الخارجي بغير قتال.

ولما رجع عبد الواحد إلى المدينة، شرع في تجهيز السرايا إلى قتال الخوارج وبذل النفقات وزاد في أعطية الأجناد. وكان أبو حمزة بعد أن استولى على مكة، قصد المدينة المنورة، ولم يكن أبو حمزة يريد قتال أهل المدينة وإنما كان يريد أن يخلص إلى واليها الأموي عبد الواحد بن سليمان. فلما ضرب عبد الواحد على أهل المدينة البعث، وأخرجهم لقتال أبي حمزة، خرجوا مُكرهين، غير مستعدين لحرب الخوارج، ولا لهمْ بهم طاقة، فقد بَعُد العهد بين شباب المدينة وبين الحرب فأصبحوا غير قادرين على خوض المعارك. وقد

---

(١) اسمه: المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الأزدي، ولد بالبصرة، وأخذ بمذهب الإباضية (فرقة من الخوارج). وكان في كل سنة يوافي مكة يدعو الناس إلى الخروج على مروان بن محمد، وكان يدعو باسم عبدالله بن يحيى الملقب بطالب الحق الذي أعلن الخلافة في حضرموت. قتل أبو حمزة في وادي القرى سنة ١٣٠ هـ. (الأعلام للزركلي).

(٢) يوم النَّفر: يوم الوقوف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة.

وصف الطبري جيش المدينة فقال: «وهم قوم مغترون ليسوا بأصحاب حرب»[1].

وقال ابن الأثير: «وكانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب».

والتقى جيش المدينة بأبي حمزة الخارجي في (قُدَيْد)[2] فلم يثبت جيش المدينة أمام جيش الخوارج، وقتل من أهل المدينة نحو سبعمائة أكثرهم من قريش، وكان جيش الخوارج أربعمائة رجل. وممن قتل من أهل المدينة حمزة ابن مصعب بن الزبير، وابنه عمارة، وابن أخيه مصعب حتى قالت إحدى النوائح:

ما للزمان وماليه أفنى قُدَيد رجاليه

ثم دخل أبو حمزة المدينة وهرب نائبها عبد الواحد بن سليمان. وكان أبو حمزة قد أعذر إليهم، وقال لأهل المدينة، ما لنا بقتالكم حاجة دعونا نمضي إلى عدوّنا، فأبى أهل المدينة، ولم يحاربهم أبو حمزة إلا بعد أن جادلهم وسمع رأيهم بذم ولاة المدينة. ونقل إلينا أبو حمزة ما دار بينه وبين أهل المدينة في خطبة ألقاها بعد دخول المدينة فقال[3]: يا أهل المدينة، سألتكم عن ولاتكم هؤلاء، فأسأتم لعمر الله فيهم القول: وسألناكم: هل يقتلون بالظن فقلتم لنا: نعم، وسألناكم: هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام فقلتم لنا: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم نناشدهم الله إلا تنحوا عنا وعنكم، فقلتم: لا تفعلون، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم، فإنْ نظهرْ نحن وأنتم، نأت بمن يقيم فينا كتاب الله وسنة نبيه، فقلتم لا نقوى. فقلنا لكم:

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ١٨٠، ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ١٣٥.

(٢) قديد: على وزن زبير. موضع بين الحرمين. وكان بها الصنم (مناة) في الجاهلية وكانت قرية جامعة كثيرة المياه والبساتين. ولا تزال القرية معروفة ولكنها ضعيفة وتقع بين خليص وعسفان بقرب مكة (معالم طابة للفيروز آبادي).

(٣) الطبري جـ ٧ ص ٣٩٤.

«فخلوا بيننا وبينهم، فإن نظفر نعدلْ في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم فيئكم بينكم، فأبيتم وقاتلتمـونا دونهم، فقـاتلناكم، فـأبعدكم الله وأسحقكم».

وقد بين أبو حمزة سياسته في خطبة أخرى فقال[1]: تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من بلادنا بطراً ولا أشراً ولا لدولةٍ نريد أن نخوض فيها النار، وإنما أخرجنا من ديارنا أنا رأينا مصابيح الحقّ طُمست وضَعُفَ القائل بالحق وقتل القائم بالقسط، فلما رأينا ذلك ضاقتْ علينا الأرض بما رَحُبتْ، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله» ثم ذكر لقاء جيشه بجيش المدينة في قديد فقال: ثم لقينا رجالكم بقُديد، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم بني مروان، فشتان لعمر الله بين الغَيّ والرَّشَد، ثم أقبلوا نحونا يُهرعـون قد ضـرب الشيطان فيهم بجِرانه وغلتْ بدمائهم مراجلُه - وصدق عليهم ظنه فاتبعوه، وأقبل أنصارُ الله عضائبَ وكتائب، بكل مهندّ ذي رونق، فدارت رحانا واستدارتْ رحاهم، بضرب يرتاب منه المبطلون. وأنتم يا أهل المدينة إنْ تنصروا مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده.. يا أهل المدينة أولكـم خير أول وآخركم شر آخر.. يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القويّ والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد فأخذها لنفسه مكابراً محارباً لربه[2]. يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم شباب أحداث، وأعراب جفاة.. فهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً..

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٤ ص ٢٢٣.

(٢) يشير إلى مصارف الزكاة الثمانية. أما الغنائم فقد بين الله تعالى أصحاب الأسهم فيها فقال في سورة الأنفال: ﴿واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾. فكان الرسول يأخذ الخمس ويوزعه على من ذكر الله، فقال عليه السلام: ليس لي من مغنمكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم. وأما الفيء، وهو ما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فبينه الله في سورة الحشر فقال: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾.

وأقام أبو حمزة في المدينة ثلاثة أشهر، وكان قد أحسن السيرة في أهل المدينة، فمالوا إليه، حتى سمعوه يقول: برح الخفاء، أين عن بابك نذهب ثم قال: من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر. فعند ذلك أبغضوه ورجعوا عن محبته[1].

ثم توجه أبو حمزة لمحاربة مروان في الشام، فالتقى بجيش مروان في وادي القرى بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، فاقتتل الجمعان، وهزم الخوارج، وقُتل أبو حمزة، ورجع فلُّهم إلى المدينة، فنهض إليهم أهل المدينة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ودخل ابن عطية المدينة وقد انهزم جيش أبي حمزة عنها. ثم سار إلى اليمن وحارب عبدالله بن يحيى نائب صنعاء، وقتله وبعث برأسه إلى مروان.

* * * *
* * *
*

(١) السبب في بغضهم أبا حمزة. لأن ما قال به، خالف مذهب أهل السنة فالخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة، وأحياناً الصغيرة، ويخرجون على أئمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبونها، أما أهل السنة، فهم يرون أن الذنوب والمعاصي تمحى بالحدّ أو التوبة ولا يكفر مرتكبها. وقد رجم ماعز الأسلمي، في حدّ الزنى، وقال الرسول فيه «لقد تاب توبة لو تابها طائفة من أمتى لأجزأت عنهم» (انظر ترجمة ماعز في الإصابة ٧٥٨٧).



الباب الثالث

الإدارة الأموية في المدينة

١ ـ سياسة الخلفاء الإدارية.
٢ ـ ولاية عمر بن عبد العزيز المدينة.
٣ ـ أمراء المدينة في العهد الأموي.
٤ ـ قضاة المدينة في العهد الأموي.

١ ـ سياسة الخلفاء الإدارية

ندرس في هذا الباب حياة أهل المدينة في ظل الإدارة الأموية. ويدخل فيها المدينة في ظل إدارة ابن الزبير. وسوف أوضح من خلال الدراسة. نوع العلاقات التي سادت بين أهل المدينة والإدارة الأموية.

كيف كان الخلفاء يعاملون أهل المدينة، وما نوع الإدارة التي يفرضونها عليهم؟ وما نوع الولاة الذين يتولون الإمارة في المدينة وسياسة هؤلاء الولاة الإدارية ومدى التوافق، أو التنافر بين سياسة الخليفة وسياسة الوالي. وما نوع الرأي العام الذي ساد المدينة، وكيف كان الخلفاء والولاة، يناهضون الرأي العام؟ هل ألقت المدينة سلاح المقاومة؟ وما الأسلوب الذي اتبعه أهل المدينة بعد أن كلت سيوفهم؟.

ولابد أن أعرض لفترة ذهبية في تاريخ إدارة المدينة، وهي ولاية عمر ابن عبد العزيز وخلافته. وسوف أدرس هذه الفترة من خلال دراسة تاريخية تحليلية للولاة الذين تولوا إدارة المدينة في العهد الأموي.

ومنذ بداية العهد الأموي ـ يمكننا أن نؤرخ لوجود الامتزاج الفكري والسياسي بين عناصر السكان في المدينة المنورة.. ويمكننا أن نقول بوجود رأي عام يمثل المدينة.

فقد كان للأنصار ـ الأوس والخزرج[1] ـ الانتماء الذي يجمعهم وتجعل

(١) الأوس والخزرج قبيلتان يمنيتان نزحتا إلى (يثرب) في العصر الجاهلي وسمحت القبائل اليهودية =

أحدهم يقول: إنني مدني ـ أي من أهل المدينة ـ أما الوافدون[1] على المدينة، فقد بدأ لديهم الانتماء في بداية العهد الأموي، عندما فقدت المدينة مركزها السياسي، ولم تعد عاصمةً ومركزاً للخلافة. فرحل عنها من رحل، واستقر بها من استقر. وخرج جيل آخر من أبناء المهاجرين ممن ولد بالمدينة فالتصقت حياتهم بها، واستقر به المقام في المدينة المنورة.

واندمجتْ المشاعر، وتوحدت بين سكان المدينة الأصليين، والمهاجرين نتيجة عدد من العوامل:

منها: وجود بعض القضايا السياسية التي اتفق الناس على إنكارها لمخالفتها ما ألفه الناس، أو لمخالفتها ما كان مألوفاً في العهد الراشدي ثم وجود بعض الأحداث الدامية التي ينفطر لها قلوب الناس جميعاً.

ومن الأمور التي وحّدت بين عناصر السكان: أن موقف الحكومة أصبح لا يفرق بين مهاجرين وأنصار، فإذا صب الخليفة نقمته على الناس أصاب المهاجرين والأنصار جميعاً، وجمع في الحرمان بين سكان المدينة ولا ينجو من هذه السياسة إلا الأمويون، أو من يلوذ بكنف الخليفة.

ونتيجة لهذه الوحدة الفكرية، أصبحنا نجد اصطلاح «أهل المدينة» يحل محل المهاجرين والأنصار، وجرى هذا الاصطلاح «أهل المدينة» على ألسنة الخلفاء والأمراء في خطبهم. وأصبح لأهل المدينة موقف موحد تجاه القضايا العامة وبالتالي أصبح للخليفة موقف واحد تجاه أهل المدينة.

= للقبيلتين بالإقامة في يثرب ليتخذوا من أبنائها أيدي عاملة رخيصة في إقطاعيات اليهود الزراعية، ولكن الأوس والخزرج نجحتا في التحرر من سيطرة اليهود الاقتصادية، وانتصرتا عليهم عسكرياً بمساعدة غساسنة الشام. (سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٥٠).

(١) قلت: «الوافدون» ولم أقل «المهاجرون» لأنه ليس كل من سكن المدينة من غير أهلها، مهاجراً. ولأن الهجرة انتهت بفتح مكة، وقد وفد على المدينة وسكنها أناس من أماكن متفرقة من الأمصار الإسلامية، وخاصة في عهد الخلفاء الراشدين.

أ ـ سياسة معاوية ويزيد الإدارية:

كان معاوية يعرف أن أهل المدينة لن يكونوا راضين كل الرضا عن خلافته. فهم أهل السنة، وحفظة الحديث، ومؤرخو الدعوة الإسلامية. يعرفون مقدار الرجال. متأثرون بما سمعوا أو حفظوا من الأحاديث في مقامات الصحابة ولهذا فهم يعتبرون علياً خيراً من معاوية. ورأى أهل المدينة كيف خص الأمويون أنفسهم بالخيرات منذ عهد عثمان، وبالتالي فإن معاوية سوف يخص أهله بالكثير ويعطي غيرهم القليل.

وبناء على هذه المقدمات فإن نفوس أهل المدينة قد انقبضت لولاية معاوية الأمر، وبالتالي فإن معاوية لم يستطع أن ينزع ما في نفوس أهل المدينة، لأن ما في نفوسهم أصبح بمنزلة الاعتقاد الراسخ، وكان يزداد يوماً بعد يوم، لأن تصرفات الخليفة تجاه أهل المدينة لم تكن مرضيةً، وخاصة بعد أن طلب منهم مبايعة ابنه يزيد، ورفضهم البيعة تبعاً لزعماء المدينة، فجاء معاوية إلى المدينة وأخذ البيعة عنوةً، ومنذ هذا التاريخ أخذ يضيق على الناس في أرزاقهم، ويحرمهم عطاءاتهم، فاضطر كثير من أهل المدينة إلى بيع أملاكهم بأثمان زهيدة وكان لمعاوية وكلاء يشترون ما باع أهل المدينة ـ حتى أصبح له في المدينة ضياع كثيرة. قال السمهودي: حتى كان معاوية يجدّ بالمدينة وأعراضها مائة ألف وسق وخمسين ألف وسق، ويحصد مائة ألف وسق حنطة[1] ومما يدلنا على ما حل بالمدينة من الضيق أيام معاوية، أن يزيد بن معاوية عندما أراد ـ أن يهدىء فتنة أهل المدينة، وعدهم أن يكون لهم في كل عام عطاءان، ووعدهم أن يرد لهم أعطياتهم التي حرمهم منها معاوية، وأن يجعل سعر الحنطة عندهم كسعرها في الشام. وروى المصعب الزبيري في كتابه نسب قريش[2] أن ـ عبدالله بن صفوان[3]، دخل على معاوية، فقال:

(١) وفاء الوفا ص ١٢٧. وأعراض المدينة: قراها التي في أوديتها، حيث الزرع والنخل وأعراض: جمع عرض: بكسر العين وسكون الراء، الوادي.

(٢) ص ٣٨٩.

(٣) عبدالله بن صفوان بن أمية بن خلف، من أصحاب ابن الزبير، وحارب معه الحجاج بن =

حـوائجك يـا أبا وهب؟ فقـال ابن صفـوان: «تُخـرج العـطاء، وتفـرض للمنقطعين، فإنه حدث في قومك نابتة لا ديوان لهم، وقواعد قريش لا تغفل عنهم، فإنهنَّ قد جلسن على ذيولهن ينتظرن ما يأتيهن منك».

وبقي معاوية متخوفاً من أهل المدينة، ولا سيما آل هاشم وعلى رأسهم الحسين وآل الزبير وعلى رأسهم عبدالله بن الزبير، فكان كلما ازداد منهم قرباً ازدادوا منه بعداً، فبقي يراقبهم ويبث العيون حولهم، وتكتب له التقارير عنهم. وكانوا يفدون على معاوية، فيكرمهم، ويغدق عليهم العطاء لعله يتألفهم. في الوقت الذي قلل العطاء على عامة أهل المدينة، أو نقّصه عن كثير منهم. ولم يكن معاوية موفقاً في هذه السياسة، لأن الزعماء مهما أعطيتهم يبقون حاسدين ولا يقنعون إلا بزوال النعمة كلها عن محسودهم، وإن ابن الزبير، والحسين، لم يكونا طامعين في مال، وإنما كانا يطالبان بحقهما في الخلافة.

ولو أغدق معاوية العطاء على عامة الناس، لكسب ودهم، ولما وجد الزعماء آذاناً صاغيةً، لما يروجون من عيوب معاوية وابنه يزيد. لأن أكبر العيوب التي كان ينشرها المناوئون، انغماس الأمويين في الترف، وتوزيع الأموال على الأعوان والخاصة وحرمان أهل الحقوق حقوقهم من أهل المدينة.

ولعل معاوية كان يغدق العطاء على الزعماء ليتألف عن طريقهم قلوب العامة فهؤلاء الزعماء كان عطاؤهم موسماً لأهل المدينة، حيث يعيش من ورائهم مئات الأُسر، ولا شك أن هذه الأسر تدين بالولاء والطاعة لمن ينفق عليها، فكان معاوية يضاعف العطاء للزعماء، ليكون عطاء لأهل المدينة.

وكان من سياسة معاوية الإدارية، أن لا يطيل مدة الولاية لأمير المدينة

= يوسف، وقتل بمكة يوم مقتل عبدالله بن الزبير سنة ٧٣ هـ وفي كتاب نسب قريش: عبدالله المتكبر، وفي جمهرة الأنساب لابن حزم: . . . عبدالله الأكبر وكان عبدالله بن صفوان زعيم مكة ومن سكانها، ولكن السياسة الأموية كانت تشمل المدينة ومكة (تهذيب التهذيب) جـ ٢٦٥/٥.

حتى لا يطمئن به المقام، ويبقى حريصاً على تنفيذ أوامر معاوية، وعيناً ساهرةً له طمعاً في إطالة مدة ولايته، ومع ذلك فلم يكن يطمئن إلى الولاة، فكان يرسل العيون إلى المدينة، ليرصدوا تحركات أهل المدينة وزعمائها، وكان يطلب من الولاة أن يكتبوا له عن تحركات زعماء المدينة، وخاصة الحسين وابن الزبير، فإذا جاءه عنهم تحركات مريبة أرسل إليهم معاتباً حيناً، ومهدداً حيناً آخر.

وهكذا استطاع معاوية بالترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى أن يمر عهده على المدينة دون فتن أو حركات عنف، ولكنه كان يعلم أنه لن يستطيع أن يقتلع من النفوس ما فيها، وإنما استطاع أن يؤجل الثورة لعلها تخمد نارها، أو يخف أوارها فيقل أثرها عندما تندلع. ولذلك حظيت المدينة من وصيته ليزيد بحظ وافر، وتوقع حدوث فتن في المدينة فقال لابنه يزيد: «إن لك من أهل المدينة يوماً فإن فعلوا فارمهم بمسلم بـن عقبة»[1].

أما يزيد بن معاوية. فلم يعطه أهل المدينة فرصة للتفكير في نوع الإدارة التي يطبقها في المدينة خاصة، والحجاز عامة. فمنذ لحظة توليه الخلافة حتى وفاته، والأوضاع السياسية في اضطراب وقلق[2].

ولو أعطته المدينة السلام والأمان، لأعطاها من إصلاحاته الإدارية ما أعطاه لغيرها من الأمصار. فقد كان يزيد خليفة عمرانياً، وملكاً إدارياً، أتمَّ نظام الري في غوطه دمشق، وحفر فيها القناة التي تدعى نهر يزيد وسمي من أجل ذلك، مهندس بني أمية، وزاد رواتب المرابطين، وزاد الخراج في أيامه زيادة عظيمة، إلا أن قصر خلافته والفتن التي حدثت في عهده شلت يده في جميع الأعمال الجليلة.

وقد أقر له المؤرخون بحسن السياسة والذكاء في الإدارة، فقال ابن كثير

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨.

(٢)البداية والنهاية جـ ٨/٢٣٦ ترجمة يزيد.

«أقرّ يزيد نواب أبيه على الأقاليم، ولم يعزل أحداً منهم وهذا من ذكائه»[1].

أما سياسة يزيد الإدارية مع أهل المدينة، فكانت موفقة لو وجدت القلوب التي تنفتح لها. وإزاء كل حركة من حركات التمرد التي حصلت في عهده، كان يتبع الأسلوب الإداري الذي يتبعه أهل العقل والروية وما كان يلجأ إلى الشدة والقوة إلا مضطراً عندما يعجز النصح عن الإصلاح.

ونبدأ بحركة الحسين، لنعرف كيف واجه يزيد هذه الحركة منذ بدايتها ونعرف نوع السياسة التي استخدمها في معالجة الموقف، ونعرف أيضاً صدق نيته في جمع الشمل، ورأب الصدع، وإرادة الخير للأمة.

كان الحسين قد رفض البيعة ليزيد، وترك المدينة، واتجه نحو مكة وكان في قدرة يزيد أن يأمر واليه على المدينة ومكة، ليمسك بالحسين وأن يحبسه أو يبايع ولكن يزيد لم يفعل، وأرسل إلى كبير بني هاشم عبدالله بن عباس ليتوسط عند الحسين، ويكفه عن الخروج إلى العراق.

قال ابن كثير: وكتب يزيد بن معاوية إلى ابن عباس يخبره بخروج الحسين إلى مكة وأحسبه قد جاءه رجال من أهل المشرق[2]، فمنوه الخلافة. وعندك منهم خبر وتجربة، فإن كان قد فعل، فقد قطع راسخ القرابة، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه فاكففه عن السعي في الفرقة، وكتب بهذه الأبيات إليه وإلى من بمكة والمدينة من قريش:

يا أيها الراكبُ العادي مطيته	على عُذافرة في سَيْرها قَحَم[3]
أبلغ قريشاً على نأي المزار بها	بيني وبين الحسين الله والرحم
وموقف بفناءِ البيت أنشده	عهد الإآله وما تُوفي به الذمم
عنّيتم قومكم فخراً بأمكم	أمٌّ لعمري حصانٌ برة كرم

(١) البداية والنهاية جـ ٨ سنة ٦٠ هـ.

(٢) يريد أهل العراق.

(٣) العذافرة: بالعين المهملة ـ والذال المعجمة: الشديد من الإبل، والقحم: السرعة الجريئة.

هي التي لا يداني فضلها أحدٌ　　بنت الرسول وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضلٌ وغيركم　　من قومكم لهم في فضلها قسم
يا قومنا لا تشبوا الحرب إذْ مسكت　　وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا
قد جَرّب الحرب من قد كان قبلكم　　من القرون وقد بادتْ بها الأمم

فكتب إليه ابن عباس: إني لأرجو أن لا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه، ولست أدع النصيحة له في كل ما تجتمع به الإلفة[1].

ومن مواقفه الإدارية الناجحة، عندما ثار أهل المدينة وخلعوا بيعة يزيد أرسل إليهم أولاً رجلاً من الأنصار هو النعمان بن بشير، وطلب منه أن يكفهم عن الفرقة، ومنّاهم ووعدهم بالعطاء والرخاء، ولكنهم لم يستجيبوا، ثم أرسل لهم جيشاً لردهم إلى الجماعة، وطلب من قائد الجيش أن يمهلهم ثلاثة أيام، وأن يحثهم على الرجوع عن الفتنة، فأصروا على خروجهم[2]. وبعد ذلك ليس على السلطان من لوم إذا حارب الخارجين على وحدة الأمة. وأيّ خليفة كان يترك الحسين، وأهل المدينة، يقسمون الأمة إلى أحزاب ودول، بعد أن منّ الله عليها بالوحدة.

نعم، لقد أخطأ يزيد في إباحة المدينة، ولكنه أصاب عندما أمهلهم مدة كافية للرجوع عن خلافهم..

وكذلك كان صنع يزيد مع ابن الزبير، حيث بدأ معه بسياسة اللين ولم يلجأ إلى تسيير الجيش إليه إلا عندما أصر على الفتنة، وجرت فتنته إلى فتن أخرى في بلاد العرب.

أما سياسة الولاة الإدارية في عهد معاوية، وابنه يزيد، فلم تكن مصدر شكوى ولم تكن سياسة ظالمة إذا قيست بسياسة ولاة العراق، فكان الولاة

---

(1) البداية والنهاية جـ ١٦٤/٧.
(2) الطبري جـ ٦ ص ٢٥١، المسعودي: مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩.

غالباً ينفذون سياسة الخليفة، إن استطاعوا باللين، وإذا لم ينفع اللين، لجؤوا إلى شيء من العنف المشوب بالحذر.

ونبدأ بمروان بن الحكم الذي تولى الإمارة مرتين لمعاوية، فقد عجز أن يأخذ البيعة من الناس ليزيد بولاية العهد، حتى اضطر معاوية أن يحضر بنفسه إلى المدينة لأخذ البيعة، ولم يسجل التاريخ في عهد ولاية مروان شيئاً يعاب عليه، ولكن الذي سجله المؤرخون إدخال بعض الإصلاحات في المدينة، منها إيصال المياه إلى المدينة، حتى سُمي المشروع باسمه، فقيل: العين الزرقاء، نسبة إلى مروان الذي كان يقال له: ابن الزرقاء، إما لزرقة عيني أمه، أو لزرقة في عينيه.

وقيل: إنه كان يشاور أهل الرأي في المدينة كلما حزبه أمر، ووحد الصاع في المدينة، فقيل «صاع مروان» وكان موثوقاً معدلاً من علماء الصحابة يصلون خلفه ولا يرون في ذلك بأساً[1].

ولا يؤخذ عليه إلا أنه كان يسب علياً على المنبر، وقيل: إنه رجع عنها بعد أن لامه الحسن بن علي في ذلك.

وكذلك لم يرو عن سعيد بن العاص، أو الوليد بن عتبة ما يدل على ظلم أو قهر. والوليد بن عتبة توفي معاوية في زمانه، وجاءه الأمر من يزيد بأخذ البيعة من الحسين وابن الزبير، فلما دعاهما، أمهلاه حتى يجتمع الناس، فقبل منهما التأجيل وهو يعرف نيتهما في المخالفة الشديدة، وعندما لامه مروان في تركهما قبل البيعة. قال: ما كنت لأسفك دماءهما ولا أقطع أرحامهما.

وجاء بعده عمرو بن سعيد بن العاص، ولم يأل جهداً في رأب الصدع وجمع الكلمة وقطع دابر الفتنة قبل أن تطل برأسها. وفي أيامه خرج الحسين إلى العراق ـ وكان عمرو نائب الحرمين ـ فكتب إلى الحسين يؤمنه ويصرفه عن قصده، ومما كتب له: إني أسأل الله أن يلهمك رشدك، وأن يصرفك عما

---

(1) «الإصابة في تمييز الصحابة» ٨٣١٨. و«تهذيب التهذيب» و«العواصم من القواصم» وانظر ترجمته في باب «أمراء المدينة» من هذا الكتاب.

يرديك، بلغني أنك قد عزمت على الشخوص إلى العراق، وإني أُعيذك بالله من الشقاق فإنك إن كنت خائفاً، فأقبل إليَّ، فلك عندي الأمان والبر والصلة. وقد روي عنه أنه اشتد على أهل المدينة بعد أن عاذ ابن الزبير بالحرم المكي وولّى على شرطة المدينة عمرو بن الزبير، فأساء إلى كثير من مؤيدي ابن الزبير. وقد كان هذا الإجراء ضرورياً عندما رأى أن الفتنة تزداد اشتعالاً لعله يخفف من لهيبها.

وأما عثمان بن محمد آخر الولاة في عهد يزيد، فقد طُرد مع الأمويين من المدينة دون ذنب جناه، ولم يكن متسبباً في معركة الحرة التي بدأت بوادرها في إمارته. وقد اتهمه المؤرخون أنه غِرّ حدث لم يجرب الأمور، ولم ينسبوا إليه ما يبرر هذه التهمة، إلا أنه أرسل وفداً من أشراف المدينة إلى يزيد، ليكرمهم، لعلهم يرجعون إلى قومهم ويبثون بينهم الأمن والسلام ولكن هؤلاء أخذوا الأموال وتقووا بها على الفتنة. فأيّ خطأ في سياسة عثمان؟ أيكون مجرباً حكيماً إذا سفك الدماء وهدم البيوت؟.

وهكذا نجد أن أمراء المدينة في عهد معاوية وابنه يزيد لم يكونوا مصدر شكوى الناس، ولم تحدث الفتن في الحجاز نتيجة لسوء إدارة الولاة وظلمهم كما يحصل في الأقاليم الأخرى. ولم تكن هذه الحركات داعيةً لرفع ظلمٍ أو دفعِ جورٍ حلَّ بالناس، وإنما كانت الحركات الثلاث ـ الحسين، والحرة، وابن الزبير ـ مبنية على فكرة واحدة: هي رفض خلافة يزيد بن معاوية، لا لأنه ظالم سيء الإدارة، ولكن لأن زعماء الثورة يعتقدون أن في الأمة من هو أولى منه بالخلافة، وتحقيقاً لهذا الهدف ألصقوا بيزيد الصفات التي تنفر الناس منه، وهي صفات شخصية، يعود ضررها على يزيد نفسه إنْ كانت صحيحة، ولم يرفعوا شعاراً واحداً فيه قدح في السياسة الإدارية، أو قدح في العقيدة.

ب ـ المدينة في ظل إدارة ابن الزبير:

انتقلت المدينة إلى إدارة ابن الزبير بعد موت يزيد، حيث انصرف

الجيش الأموي الذي كان يحاصر مكة، فخلت الحجاز من سلطان الأمويين وأعلن ابن الزبير سلطانه، في فترة لم يكن هناك خليفة مبايع من الأمويين، فبايعته مكة، وبالتالي أعلن أهل المدينة دخولهم في سلطان ابن الزبير بحكم الواقع والجوار. فأرسل ابن الزبير أخاه عبيدة بن الزبير[١] والياً على المدينة، وأمره بإجلاء بني أمية عن المدينة.

وقد توالى على المدينة ستة ولاة في مدة عشر سنوات من حكم ابن الزبير ولكن هل كانت المدينة في عهد ابن الزبير، أحسن حظاً منها في عهد معاوية وابنه يزيد؟.

يمكننا أن نجيب عن هذا السؤال بالقول: إن إدارة ابن الزبير، لم تحقق لأهل المدينة، ما كانوا يتمنونه عندما خلعوا يزيد بن معاوية.. والناس في المدينة كانوا يتطلعون إلى شيئين: الرخاء الاقتصادي، وتوزيع المال بالعدل. وأن يسود الحق جميع ولايات الدولة الإسلامية.

أما الرخاء الاقتصادي الذي كانوا يتطلعون إليه، ويرجونه من إدارة ابن الزبير فلابد أنه كان أقل مما كان في أيام الأمويين، وذلك لأسباب كثيرة منها: أن عبدالله بن الزبير كان مقتراً في عطائه[٢]، حتى قال عبد الملك بن مروان: إن عبدالله بن الزبير كان يعطي مال الله كأنه يعطي ميراث أبيه. ولن يكون أهل المدينة أكثر حظاً من أصحابه في مكة حيث أصابهم بلاء عظيم من تقتيره، حتى قال ابن الأثير: فغلت الأسعار عند ابن الزبير، وأصاب الناس مجاعة شديدة وإن بيوت ابن الزبير لمملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً، وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه إلا ما يمسك الرمق[٣].

---

(١) في «البداية والنهاية» واستناب على أهل المدينة أخاه (عبيد الله بن الزبير) وقد ورد ـ ذكره في أكثر من موضع. وفي «أمراء المدينة وحكامها» لأحمد ياسين الخياري: ذكر اسم عبيد الله ولكن كتاب نسب قريش، لم يذكر للزبير ولداً اسمه عبيد الله. وذكر (عبيدة) وكذلك كتاب «المعارف لابن قتيبة» ذكر من أولاد الزبير (عبيدة) ولم يذكر عبيد الله (وانظر «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم).

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٢، البلاذري: أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٠٨.

(٣) الكامل جـ ٤ ص ٧٥.

وإذا كان معاوية، ويزيد بن معاوية قد ضيقوا على عامة الناس في العطاء. فإنهم وسّعوا العطاء على زعماء المدينة وأتباع الأمويين فيها وكان الواحد من هؤلاء يسع المئات من المحتاجين. أما ابن الزبير فقد بخل على العامة والخاصة.

يضاف إلى هذا أن سنوات ابن الزبير، كانت سنوات حروب أعقبت معركة الحرة، وانعدام الاستقرار السياسي يؤدي إلى تدهور الحال الاقتصادية، ومما يدل على انعدام الاستقرار، كثرة الولاة في عهد ابن الزبير، وتعدد الولاة، وسرعة تغييرهم، دلالة على عدم ثقة ابن الزبير بولاته أولاً وانعدام الثقة في أهل المدينة ثانياً.

وورد أن أحد ولاة ابن الزبير: ضرب سعيد بن المسيب ستين سوطاً، لأنه امتنع عن مبايعة ابن الزبير[1].

أما سياسة ولاة ابن الزبير في الأمصار الإسلامية فلم تكن مرضية، فابنه حمزة ولاه البصرة، فاستولى على أموالها، وأودعها عند أناس من أهل المدينة وبعضهم اعترف بها، وبعضهم أنكرها عليه. ومصعب بن الزبر، أنفق الآلاف المؤلفة من الدنانير على عائشة بنت طلحة زوجته، وقتل الآلاف المؤلفة من أهل العراق من جماعة المختار بن أبي عبيد الثقفي[2] حتى قال له عبدالله بن عمر: أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة؟

والله لو قتلت عدْلَهم غنماً من مال أبيك لكان ذلك سرفاً.

ويروى أن مصعباً استدعى زوجة المختار بعد قتله، وهي عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية، فقال لها: ما تقولين فيه؟ فقالت رحمه الله لقد كان عبداً من عباد الله الصالحين، فسجنها وكتب إلى أخيه أنها تقول: إنه نبي، فكتب إليه أن أخرجها فاقتلها فأخرجها إلى ظاهر البلد، فضربت

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨/ ٢٩٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٧٦.

ضرباتٍ حتى ماتت. فقال في ذلك الشاعر: عمر بن أبي ربيعة:

إن من أعجب العجائب عندي قتلَ بيضاءَ حرةٍ عطبول[١]
قُتلتْ هكذا على غير جرمٍ إن لله درها من قتيل
كُتب القتل والقتالُ علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

وقد أنكر الناس على مصعب هذا الفعل وأعظموه، لأنه أتى بما نهى رسول الله عنه في نساء المشركين[٢].

ولا شك أن أهل المدينة كانوا أكثر الناس إنكاراً لتصرفات مصعب بن الزبير وحمزة بن عبدالله. لأنهما صنعا ما أنكره الناس على الأمويين، وأعمال مصعب ينكرها الشرع[٣].

لقد تجمعت العوامل السابقة لتجعل أهل المدينة محرومين من الأمن والرخاء في عهد ابن الزبير، وبالتالي جعلتهم لا يتحمسون للدفاع عن خلافة ابن الزبير. وانضاف إلى هذه العوامل حالة من اليأس أحاطت بأهل المدينة في النصف الثاني من ولاية ابن الزبير. وذلك أنهم وجدوا دولة ابن الزبير في انحسار مستمرٍ، ونفوذ الأمويين في ازدياد، فيئسوا من عودة السلطان إلى المدينة أو الحجاز، فرأوا التزام الحياد والركون إلى الاستقرار[٤] وكان من الخير للإسلام والمسلمين أن يلجأ أهل الحجاز إلى الهدوء حتى يتفرغوا لرواية التراث الإسلامي، ودراسته ونقله إلى العالم وسوف نرى حقاً كيف أنتجت فترة الهدوء عصر التشريع الذهبي في العصر الأموي.

---

(١) العطبول: الظبية الطويلة العنق.
(٢) العقد الفريد جـ ٦: ١١٨ ـ كتاب المرجانة في النساء وصفاتهن، (والأعلام للزركلي).
(٣) الطبري جـ ٧ ص ١٤٤، البلاذري: أنساب الأشراف جـ ٥ ٢١٨ وانظر «موطأ الإمام مالك» النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو جـ ٢٩٧/١.
(٤) ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ٩٥.

جـ - المدينة في ظلّ إدارة الخلفاء المروانيين:

اتفق الأمويون - بعد موت يزيد - وتنازل ابنه معاوية - على مبايعة مروان بن الحكم خليفة، واستطاع مروان في مدة خلافته القصيرة أن يوطد لنفسه الأمر في بلاد الشام ومصر. وقبل وفاته أرسل بعثاً إلى المدينة المنورة، ولكنه لم يصلها إلا في عهد عبد الملك بن مروان، وكان البعث بقيادة حبيش ابن دلجة، فدخل المدينة، وأساء إلى أهلها. قال صاحب العقد الفريد: وجلس حبيش على منبر رسول الله، فدعا بخبز ولحم فأكل ثم دعا بماء فتوضأ على المنبر، ثم دعا جابر بن عبدالله صاحب رسول الله ودعاه إلى البيعة. ولكن ابن الزبير طلب من عامله على البصرة أن يرسل جيشاً لطرد الأمويين من المدينة، ودارت بين الفريقين معركة قرب الربذة، قتل فيها حبيش بن دلجة، وقضي على جيشه.

وبعد أن تخلص عبد الملك من مصعب بن الزبير، ودانت له العراق، لم يبق أمامه إلا الحجاز، فأرسل جيشاً بقيادة طارق بن عمرو إلى المدينة فدخلها وأخرج عامل ابن الزبير منها - ثم لحق بالحجاج بن يوسف لحصار ابن الزبير في مكة، وولى على المدينة رجلاً من أهل الشام اسمه ثعلبة، قالوا: فكان ثعلبة يخرج المخَّ وهو على منبر النبي ثم يأكله، ويأكل عليه التمر، ليغيظ أهل المدينة[1].

وعندما انتهى الحجاج من ابن الزبير، سار إلى المدينة، وكان عبد الملك قد استعمله على مكة والمدينة، فلما قدم المدينة أقام بها شهرين، فأساء إلى أهلها واستخفّ بهم، وقال: أنتم قتلة أمير المؤمنين عثمان، وختم على أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم كما يُفعل بأهل الذمة[2]. ويمكننا أن نعتبر الإدارة في هذه الفترة - قبل القضاء على ابن الزبير - فترة انتقالية تشبه ما يسمى في العصر الحاضر - فترة قانون الطوارىء، أو الأحكام

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٤/٣٥٠.

(٢) المصدر السابق.

العرفية، لأنها فترة تحرير البلاد من حكم ابن الزبير، والإدارة بيد القائد الحربي، وفي هذه الحال يتصرف كما يشاء، أو بما يراه مناسباً لإقرار الأمن. ويمكننا أن نؤرخ لسياسة الاستقرار الإدارية منذ جلا الحجاج عن الحجاز، وأصبح يتولى الإدارة أمراء ليس لهم مهمة الحرب.

ومنذ أن استقر الأمر لعبد الملك بن مروان، بعد القضاء على فتنة ابن الزبير نستطيع أن نقول: إن المدينة خاصة والحجاز عامة: مالت إلى الهدوء وتركت العنف السياسي، والتفت أهل الفكر منهم إلى العلوم الشرعية، وظهر جيلٌ من الناس يرون أن قبول الواقع خير من محاربته، لأن الحرب تُفسد ولا تصلح، وحكم الشورى الذي يتطلعون إليه، يئس الناس من عودته فرضوا بالحكم الأموي، على أنه قبول بأهون الضررين، ومنذ هذا التاريخ أصبحت المدينة مأوى العلماء، ومقصد طلاب العلم، وملجأ لمن يطلب الهدوء والراحة بعيداً عن الاضطرابات السياسية. وينعمون بجوار حرم رسول الله ﷺ.

ولكن مع هذا، فإن أهل المدينة، لم يحيدوا عن سنة نبيهم في التزام مراحل تغيير المنكر. فقد رأوا أنهم لا يستطيعون تغيير المنكر بيدهم فبقي عندهم، سلاح اللسان والقلب[1] فكانوا يراوحون بين هاتين الأداتين في تغيير المنكر ولكن لسان أهل المدينة، كان أشد من وقع السيف على الخلفاء، لما لهم من المنزلة في قلوب العالم الإسلامي ولذلك، عمل خلفاء بني مروان، وولاتهم على تكميم الأفواه، وكبت حرية الرأي، دون اللجوء إلى الشدة القاتلة، إلا إذا اقتضى الأمر ذلك. وكانوا يميلون في سياستهم الإدارية إلى استخدام أسلوب التهديد والوعيد والحرمان، الذي ينتهي بالتعزيز[2]. وربما كان هذه الأسلوب خاصاً بأهل المدينة دون غيرها من الأمصار. لأن التعبير عن الرأي في العراق كان معناه القتل. وكان الإعلان عن الرأي في المدينة معناه الجلد أو التعزير.

(١) قال عليه الصلاة والسلام: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، رواه السيوطي، وقال: حديث صحيح.

(٢) التعزير: معاقبة المذنب أمام الناس.

ولذلك نجد عبد الملك بن مروان يشدّد في التهديد والوعيد، لمن يعلن عن رأيه، وقد اعتبر أبو هلال العسكري في كتابه «الأوائل» عبد الملك بن مروان أول من نهى عن الأمر بالمعروف، وحدّد عبد الملك هذه السياسة في خطبته التي ألقاها في المدينة في العام الذي حج فيه بعد مقتل ابن الزبير فقال: «فلست بالخليفة المستضعف (عثمان) ولا الخليفة المُداهن (معاوية) ولا الخليفة المأفون (يزيد) ألا وأن الخلفاء قبلي كان يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي، فكأنكم تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم، ألا وإنا نحتمل لكم كلَّ شيء، إلا وثوباً على منبر، أو نصب رأيه، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربتُ عنقه»[1].

ورغم هذا الإعلان عن سياسة الشدة، فإن الخلفاء الكبار من بني مروان، كانوا يحاولون إرضاء أهل المدينة واتباع سياسة اللين في إدارتهم ويطلبون من الولاة الابتعاد عن سياسة التعذيب الجماعي. وقد ظهرت هذه السياسة على لسان الحجاج بن يوسف، عند مغادرته المدينة، حيث قال: «أهلها ـ يعني المدينة ـ أخبث بلد وأغشه لأمير المؤمنين وأحسدهم له على نعمة الله، والله لولا ما كانت تأتيني كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتُها مثل جوف الحمار»[2].

وولَّى عبد الملك على المدينة بعد الحجاج، أبان بن عثمان بن عفان، مدة ست سنوات، وكان أبان من الفقهاء العلماء»[3] ولم يرو لنا التاريخ أنه آذى أهل المدينة أو اشتد عليهم، ولكن الذي يبدو أن سياسة اللين، كان يستغلها أهل الآراء السياسية، فيكثرون من الكلام والنقد فيضطر الخليفة إلى العودة إلى سياسة الشدة. وقد حصل أن عزل أبان بن عثمان، وتولى هشام

(١) الأوائل: لأبي هلال العسكري ص ٢٠٢.
(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٩٦.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٧١.

ابن إسماعيل المخزومي، فاشتد على أهل المدينة وآذاهم، وخاصة آل هاشم، وآل الزبير، ويبدو أن هاتين الأسرتين بقيتا تذكران أمجادها السياسية السابقة، ويتطاول أفرادها في الكلام على الخلافة الأموية، فأراد عبد الملك أن يكبت نوازع الفخر في نفوس هاتين الأسرتين حتى لا تؤدي إلى حركات وفتن في مستقبل الأيام.

فقد رُوي أن عبد الملك بن مروان غضب غضبة، فكتب إلى هشام ابن إسماعيل المخزومي، وهو عامله على المدينة.. أن أقم آل عليّ يشتمون عليَّ بن أبي طالب، وأقم آل عبدالله بن الزبير يشتمون عبدالله بن الزبير، فقدم كتابه على هشام، فأبي آل عليّ وآل عبدالله بن الزبير ذلك وكتبوا وصاياهم[1] فركبتْ أخت لهشام، وكانت جزلة عاقلة وقالت: يا هشام: أتراك الذي تهلك عشيرته على يديه؟ راجع أمير المؤمنين قال: ما أنا بفاعل قالت: فإن كان لابُدَّ من أمرٍ فمر آل علي يشتمون آل الزبير، ومر آل الزبير يشتمون آل علي. قال: هذه أفعلها. فاستبشر الناس بذلك، وكانت أهون عليهم.. فكان أول من أقيم، الحسن بن الحسن بن علي، فطلب منه هشام أن يسب آل الزبير فرفض، فضرب حتى سال دمه[2]. وممن أوذي سعيد بن المسيب، لأنه رفض البيعة لولدي عبد الملك في حياة أبيهما..

وعندما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة، ورأى ما لاقاه أهل المدينة من الأذى على يد هشام بن إسماعيل، عزله. وولى مكانه عمر بن عبد العزيز، ترضية لأهل المدينة»[1] وتخفيفاً عنهم، فيعود أهل المدينة إلى سيرتهم في الإنكار على الخلفاء، وولاتهم في الأمصار الإسلامية، وتجرؤوا في إعلان إنكارهم ورووا الأحاديث النبوية في مساوىء بني مروان. فروى خبيب بن

---

(١) يريد أنهم استعدوا للموت.

(٢) نسب قريش ـ المصعب الزبيري ص ٤٩.

(١) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٤ ابن الجوزي: مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٤٦.

عبدالله بن الزبير قول رسول الله ﷺ[٢]: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلًا، جعلوا عباد الله خولًا ومال الله دولًا» فجاء الأمر إلى عمر أن يضرب خبيب بن عبدالله فضربه عمر، فمات من ضربه[٣].

وفتح أهل المدينة بيوتهم وقلوبهم لأهل العراق الفارين من سيف الحجاج فشكا الحجاج إلى الوليد، فعزل الوليد عمر وعاد الظلم إلى أهل المدينة وجاء وال قاس هو عثمان بن حيان المري، وأعلن عن سياسته في أول خطبة حيث قال: أيها الناس، إنا والله ما رأينا شعاراً[٤] قطُّ مثل الأمن، ولا رأينا حلساً[٥] قط شراً من الخوف، فالزموا الطاعة فإن عندي يا أهل المدينة خبرةً من الخلافُ، والله ما أنتم بأصحاب قتال فكونوا من أحلاس بيوتكم، وعضّوا عليها بالنواجز، فإني قد بعثتُ في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم، إنكم في فضول كلام، غيره ألزمُ لكم فدعوا عيبَ الولاةِ، فإن الأمر إنما ينقض شيئاً فشيئاً حتى تكون الفتنة، وإن الفتنة من البلاء، والفتن تذهب بالدين والمال والولد»[٦].

فهو يحذرهم من الفتن، ويذكرهم بهزائمهم في المعارك التي خاضوها، لأنهم ليسوا أصحاب قتال. ويطلب منهم الكف عن الأحاديث التي فيها عيب على الولاة، لأن الفتن أصلها كلام، وهدّدهم بأن أخبارهم تصل إليه وأن العيون مبثوثة في مجالسهم..

وهكذا نلاحظ أن المطلوب من أهل المدينة، أن لا يخوضوا في

---

(٢) رواه ابن كثير في «البداية والنهاية» ترجمة مروان من طرق متعددة وقال: وهذه الطرق كلها ضعيفة.

(٣) «نسب قريش» تأليف المصعب الزبيري ص ٢٤٠.

(٤) الشعار: بكسر الشين المثلثة: ما تحت الدثار من اللباس وهو ما يلي شعر الجسد والشعار أيضاً: نداء مخصوص يعرف به القوم بعضهم في الحرب. ويسمى في العصر الحاضر «سر الليل» ويصح أنه يريد المعنى الأول على سبيل الاستعارة ويصح المعنى الثاني.

(٥) الحلس: بكسر الحاء المهملة: كل ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرجل أو ما يبسط في البيت على الأرض. والحلس: الملازم الذي لا يبرح.

(٦) الطبري جـ ٤٨٦/٦.

الأحاديث السياسية، وأن لا يتكلموا إلا بما يعود عليهم بالنفع. وهدف الوالي الجديد منعهم من الكلام، ومنعهم من احتضان الفارين من أهل العراق، ولذلك عمد الوالي الجديد إلى إخراج العراقيين من المدينة وهدَّد كل من يؤوي عراقياً بالعقاب، فكان يمسك بهم ويرسلهم إلى العراق. ولم يترك بالمدينة أحداً من أهل العراق، سواء كان تاجراً أو غير تاجر[1] وكان الهدف من إجلاء العراقيين عن المدينة، منع اتصالهم ببني هاشم، والمدينة مركز لبني هاشم، والعراقيون من دعاتهم، ولذلك نرى عثمان بن حيان يبين مساوىء العراقيين وكذبهم حيث يقول: والله ما جربت عراقياً قط إلا وجدتُ أفضلهم عند نفسه الذي يقول في آل هاشم ما يقول. وما هم بشيعة، وإنهم لأعداء لهم ولغيرهم. ولذلك يشدد في عقاب الذين يؤون العراقيين وجعل عقوبة كل من يؤوى عراقياً هدم بيته[2].

ورغم هذا التهديد فإن بعض أهل المدينة كانوا يضحون من أجل جيرانهم العراقيين حتى لا يسلموهم إلى الحَجَّاج لقتلهم.

روى الطبري عن سعيد بن عمرو الأنصاري قال: رأيت منادي عثمان ابن حيان ينادي عندنا: يا بني أمية بن زيد، برئت ذمةٌ ممن آوى عراقياً، وكان عندنا رجل من أهل البصرة، له فضل، يقال له: أبو سوادة، من العُبَّاد، فقال: والله ما أحبّ أن أُدخل عليكم مكروهاً، بلّغوني مأمني. قلت: لا خير لك في الخروج إن الله يدفع عنا وعنك. قال: فأدخلته بيتي، وبلغ عثمان بن حيان فبعث أحراساً فأخرجته إلى بيت أخي، فما قدروا على شيء، فقلت للأمير: أصلح الله الأمير، يؤتى بالباطل، فلا تعاقب عليه؟ قال: فضرب الذي سعى بي عشرين سوطاً، وأخرجنا العراقي، فكان يصلي ما يغيب يوماً واحداً، وحدب عليه أهل دارنا، فقالوا: نموت دونك.

وقال الطبري: إنما بعث الوليدُ عثمانَ بن حيان إلى المدينة، لإخراج

---

(١) الطبري جـ ٦/٤٨٥.
(٢) المصدر السابق.

العراقيين وتفريق أهل الأهواء ومن ظهر عليهم أو علا بأمرهم، فلم يبعثه والياً فكان لا يصعد المنبر ولا يخطب عليه، فلما فعل في أهل العراق ما فعل أثبته على المدينة. فكان يصعد على المنبر.

ويبدو أن الولاة الظالمين الذين كانوا يؤذون أهل المدينة، كانوا يتصرفون غالباً حسب هواهم، ولذلك نجد الخلفاء يعزلونهم ويوقفونهم للناس للقصاص منهم وقد حصل هذا لهشام بن إسماعيل، عندما عزله الوليد رغم أنه كان يفعل ما يفعل من أجل الخلافة.

وحصل هذا مع عثمان بن حيان المري عندما عزله سليمان بن عبد الملك، وجلده. وقد عاشتْ المدينة فترة رخاء ونعيم، منذ تولى سليمان بن عبد الملك ومن بعده عمر بن عبد العزيز، فكان يلي المدينة زمن الخليفتين، أحد فقهاء المدينة، أبو بكر بن حزم الأنصاري..

ومنذ بداية القرن الثاني، حتى نهاية العصر الأموي سنة ١٣٢ هـ عادت الحياة في المدينة إلى أشد مما كانت أيام هشام بن إسماعيل، وعثمان بن حيان، حيث توالى على المدينة في ثلث قرن أكثر من أحد عشر والياً، كما توالى على الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز عددٌ من الخلفاء، يساوي أو يزيد على عدد الخلفاء الذين تولوا في القرن الأول[1]. وتعدُّد الخلفاء، يؤدي إلى تعدد الولاة وتبدل السياسة، ويمكننا أن نقول: إن حياة أهل المدينة، في بداية القرن الثاني، كان فيها شيء من البؤس، إن لم نقل إنها بائسة، وكان ظلم الولاة عاماً، وأصاب الناس ضيق، حتى هاجر كثير من سكان المدينة.

روى المصعب الزبيري[2] قال: حدثني حماد بن عطيل بن فضالة بن

---

(١) خلفاء بني أمية: معاوية، ويزيد بن معاوية، معاوية الثاني، مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد الناقص، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد وهو آخرهم.

(٢) نسب قريش ٢٤٦.

ردّاد الليثي قال: رأيت عبدالله بن عروة بن الزبير، في سُنيّات خالد بن عبد الملك بـن الحارث، وكان خالد والياً لهشام بن عبد الملك على المدينة سبع سنين ـ فقحط المطر في تلك السبع ـ وكان يقال لها: سنيات خالد ـ جمع سنة ـ فجلا الناس من بادية الحجاز، فلحقوا بالشام. قال حماد: فحضرت عبدالله ابن عروة في أمواله بالفرع[3] يدخل الناس في مربد تمره طَرَفي النهار، غدوةً فيتغدون، وعشية فيتعشون، فمازال كذلك حتى أحيا الناس.

وعبدالله بن عروة الذي يقول لهشام بن عبد الملك عام قدم المدينة (وكان عبدالله بن عروة يتظلم من إبراهيم بن هشام المخزومي، أحد ولاة المدينة أيام هشام) أخذ إبراهيم بن هشام ما بين منابت الزيتون إلى منابت القَرْظ[1] فلم يغنه كُثر ما بيديه عن قليل ما في أيدينا، وإنا والله ما طبنا أنفساً عن فراق الأحبة إلا بما تُرك لنا من معايشنا[2].

وفي خطبة أبي حمزة الخارجي عندما دخل المدينة إشارة إلى الجنايات التي كان يقترفها ولاة المدينة، ووافقه عليها أهل المدينة، فهم يستحلون المال الحرام، والفرج الحرام[3].

وعلى الأعم الأغلب، كان الوالي، يتصرف حسب رأيه في إدارة شؤون الإمارة، إن جاءه أمر من الخليفة نفذه، وإن لم يأته شيء فهو يتصـرف باجتهاده دون إبلاغ الخليفة بما ينفذ من القرارات. فإن كان تصرفاً ظالماً وشكا الناس إلى الخليفة، ينظر الخليفة في الأمر، وقد يأمـر بإزاحـة هذا الظلم. ومن الأمثلة على ذلك، ما رواه المصعب الزبيري عندما أوقف هشام ابن إسماعيل آل عليّ يسبون آل الزبير وآل الزبير، آل علي. قال: وكان ثابت

---

(٣) الفرع: بضم الفاء، قرية بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة وهي قرية غنّاء كبيرة.

(١) منابت الزيتون بالشام. ومنابت القرظ باليمن. والقرظ بفتح القاف والراء: الواحدة قرظة، ورق السلم يدبغ به.

(٢) نسب قريش ٢٤٦.

(٣) انظر الطبري جـ ٧/٣٩٤ سنة ١٣٠ هـ.

ابن عبدالله بن الزبير غائباً، فقدم، وكان ابن خالة الحسن بن الحسن بن علي فأتى هشام بن إسماعيل، وقال: كنت غائباً، ولم أحضر هذا المجمع فأجمع لي الناس آخذ بنصيبي، فقال له هشام: وما تريد من ذلك؟ فلودّ من حضر أنه لم يحضرْ، فقال: لتفعلن أو لأكتبن إلى أمير المؤمنين، فلأخبرنه أني عرضت عليك نفسي فلم تفعل. فجمع له الناس، فقام فيهم، فشتم عمرو بن سعيد الأشدق، ولعن محمد بن أبي حذيفة، الذي حرض على أمير المؤمنين عثمان، وعرّض بأم هشام بن إسماعيل، فأمر به هشام إلى الحبس، وقال: ما أراك تشتم إلا رحم أمير المؤمنين[1].

فقال ثابت: إنهم عصاة مخالفون، فدعني حتى أشفي أمير المؤمنين منهم. قال: فلم يزل ثابت في السجن حتى بلغ خبره عبد الملك بن مروان فكتب أن أطلقوه، فإنه إنما شتم أهل الخلاف.

وعندما أراد عبد الملك البيعة لولديه من بعده، امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع في حياة عبد الملك لأحدٍ، فأمر به هشام بن إسماعيل نائب المدينة فضربه ستين سوطاً، وألبسه ثياباً من شعر، وأركبه جملاً وطاف به في المدينة، ثم ردوه وأودعوه السجن. ثم كتب هشام بن إسماعيل إلى عبد الملك يعلمه بمخالفة سعيد في ذلك، فكتب إليه يعنّفه في ذلك، ويأمره بإخراجه، ويقول: إن سعيداً كان أحق منك بصلة الرحم مما فعلت به، وإنا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاق ولا خلاف[2].

وفي بعض الأحيان كان الوالي يرسل إلى الخليفة مستفهماً في أمر ما، كما حدث في أيام هشام بن إسماعيل، حيث كتب إلى عبد الملك أن ابناً لمصعب

---

(١) نسب قريش ص ٤٩. وكانت أم هشام بن إسماعيل، تزوجها بعد إسماعيل عبيد الله بن عبد الرحمن الأعور، وكان هذا قد خرج على الحجاج أيام ابن الأشعث. وقد لعن ثابت أم هشام، لأنها زوجة عبد الله الأعور، وأراد بهذا أن يغيظ هشام بن إسماعيل بطريقة يرضى عنها عبد الملك بن مروان.

(٢) البداية والنهاية جـ ٩/٦٠ سنة ٨٥ هـ.

ابن الزبير من أم ولد[1] مات، فأرادت أُمه أن تأخذ ميراثاً منه فمنعها عروة ابن الزبير- وزعم أنه لا ميراثَ لها[2].

فكتب إليه عبد الملك بن مروان، بالجواب، بعد أن سأل الفقهاء[3].

* * * *
* * *
*

(١) أم الولد: الأمة التي أنجبت عند سيدها.

(٢) البداية والنهاية جـ ٣٤٦/٩ ترجمة ابن شهاب الزهري.

(٣) أعتقد عروة أن أم الولد لا ترث، وأنها لازالت أمة بعد موت زوجها. وكان عمر بن الخطاب قد أمر بأمهات الأولاد أن يقومن في أموال أبنائهن بقيمة عدل ثم يعتقن، وفعل ذلك صدراً من خلافته، ثم غير رأيه، فقال: فأيما امرىء كانت عنده أم ولد فملكها بيمينه ما عاش، فإذا مات فهي حرة لا سبيل له عليها.. وعلى هذا، فإن أم الولد ترث ابنها في مثل هذه المسألة، لأن ـ مصعباً كان ميتاً حين حدوث هذه المسألة. «انظر الموطأ، كتاب العتاقة والولاء» و«تاريخ المدينة لابن شبة» جـ ٧٢٢/٢، وفيه أن عروة أراد أن ـ يبيع أم الولد بعد موت ابنها».

٢ ـ ولاية عمر بن عبد العزيز المدينة

أ ـ نبعة عمر بن عبد العزيز وموطنه:

ينتمي عمر بن عبد العزيز، إلى الفرع المرواني من جهة أبيه، وإلى آل الخطاب من ناحية أمه.

فهو: عمر بن عبد العزيز، بن مروان، بن الحكم..
وهو: عمر ابن أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب[1].

وعندما ندرس حياة المروانيين بدءاً بمروان بن الحكم، فإننا نجد حياتهم تتصل بالمدينة المنورة، تربى كبارهم فيها، ونهلوا من معينها.

مروان: عاش شبابه، وكهولته، وشيخوخته في المدينة المنورة ـ منذ ولاية عثمان بن عفان حتى ولاية ابن الزبير، عاش بين صحابة الرسول وسمع منهم وروى الحديث، وصاحب عثمان بن عفان، وكان كاتبه ووزيره، ولابد أنه تأثر به، وولي المدينة لمعاوية مرتين، ولم ينتقل من المدينة، إلا عندما طرد ابن الزبير الأمويين حوالي سنة ٦٤ هـ[2].

وابنه عبد الملك من مواليد المدينة المنورة، عاش طفولته وشبابه فيها، وأخذ عن علمائها، وروى الحديث النبوي، وكان يعد قبل خلافته من

---

(١) العارف لابن قتيبة ص ٢١٩.
(٢) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن العزيز ٧١.

الفقهاء. وكان معاوية ولاه مكان زيد بن ثابت على ديوان المدينة وهو ابن ست عشرة سنة وولد عبد العزيز بـن مروان بالمدينة. أما الوليد، فقد ولد سنة ٤٨ هـ وسليمان ولد سنة ٥٤ هـ. . . ومازال أبوهما وجدهما يقطنان المدينة في عهد معاوية فيمكننا أن نقول: إن مسقط رأسيهما في المدينة. .

وصاحبنا عمر بن عبد العزيز، ولد في المدينـة، وتربى في المـدينة، وأخواله من المدينة وولي إمارة المدينة[1].

وقد أردت من هذه السيرة الموجزة عن حياة المروانيين أن أقول: إن ما تنطوي عليه نفوس بني مروان، يختلف عما تنطوي عليه نفوس آل معاوية بن أبي سفيان. فمعاويـة مكي، وشامي، لأنـه أسلم وهو شـاب، وصاحب الرسول بعد الفتح، ولم تطل حياته في المدينة، وعاش الفترة الطويلة من حياته بعد إسلامه في الشام، وتربى أولاده في الشام. وآل معاوية لم يتأثروا بالمناخ الروحي الذي تعبق به أجواء المدينة المنورة، وليس لهم حنين الموطن إلى المدينة. .

أما بنو مروان، فإن نفوسهم تنطوي على التقوى والدين، بسبب تأثرهم بحياة المدينة التي عاشوها، وتنطوي نفوسهم على شيء مـن رقة الطبع الذي يتميز به سكان المدينة عن غيرهم من سكان مدن الحجاز. وإذا وجدنـا انحرافاً من بني مروان عن جادة الدين، ووجدنا غلظة وقسوةً فإن ذلك ليس من طبعهم، ولكن نظام السياسة الذي انفصل عن الدين، غطّى على طبعهم الأصيل فاختلفت حياتهم بعد الخلافة عما كانت عليه قبل الخلافة.

عندما جاء الناس إلى مروان ليبايعوه بالخلافة، وجدوه قد أضاء سراجاً وهو منكبّ على قراءة القرآن. وعمل بعد الخلافة ما يراه صحيحاً، وقد يراه الآخرون غير ذلك. وكان عبد الملك، ينكر أيـام يزيـد، ضرب الكعبـة بالمنجنيق، فلما تولى الخلافة ضربها الحجاج، فلم ينكر ذلك عليه، فقال

---

(١) ابن الجوزي: مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٤٢.

الناس: خُذل عبد الملك في دينه. والوليد بن عبد الملك، ولى عمر بن عبد العزيز، إمارة المدينة، وهو يعرف صدقه وميله إلى الحق، ولما وجد أن سياسة عمر سوف تفسد عليه أهل المدينة، خلعه وولى عثمان بن حيان المري، ليعدل انحراف السياسة عن بني مروان..

وقد سار المثل باثنين من بني مروان: فقيل: الأشج والناقص أعدلا بني مروان والأشجّ عمر بن عبد العزيز، والناقص: يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان عادلاً ديناً محباً للخير، مبغضاً للشر قاصداً للحق[1].

ورغم أن حجاب السياسة قد غطّى على قلوب كثير من خلفاء بني مروان وأمرائهم، فإن نوازع الخير كانت تظهر في تصرفاتهم. وأكثر ما ظهرت طبيعة الخير، عند عبد العزيز بن مروان، وزال الحجاب المكتسب من سياسة الحكم عند عقبه من بعده[2].

كان عبد العزيز بن مروان، أميراً من أمراء بني مروان، وكان وليّ العهد بعد أخيه عبد الملك. وعندما أراد أن يتـزوج طلب من خازن ماله أن يتخير من أطيب ماله ليكون مهراً لزوجه. ولم يشترط في الزوجة ما يشترطه الأمراء الأثرياء، من الجمال أو المنزلة السياسية، وإنما طلب العرق الطيب في المنبت الطيب، فأصهر إلى آل الخطاب واختار أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب. ولابد أن عبد العزيز يعرف قصة والدة أم عـاصم زوجة عاصم، تلك الفتاة التي سمعها عمر بن الخطاب، وهو يعس بالليل - وهي تجادل أمها - وترفض أن تمزج اللبن بالماء، لأن الله يراها وإن كان الخليفة عمر لا يراها[3]. فاختارها عمر زوجة لابنه عاصم فكـان من بناتهـا أم

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٠/١٦ سنة ١٢٦ هـ. والمعارف/ ٣٦٧. وسمي الناقص لأنه نقص الجند من أرزاقهم التي زادهم إياها الوليد بن يزيد.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢١٧.

(٣) كان عمر بن الخطاب قد أرسل مناديه يمنع الناس من مزج اللبن بالماء قبل بيعه فسمع امرأة تطلب من بنتها أن تمزج اللبن، فتذكّر البنت أمها أن عمر بن الخطاب منع ذلك، فتقول لها الأم: إن عمر لا يرانا، فترد البنت: إذا كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا. فأعجب عمر=

عاصم، والدة عمر بن عبد العزيز، وكانت محسنة كريمة صالحةً، ورثت التقوى من أبيها وأمها.

ومن يصهر إلى آل الخطاب، فإنه لا يتقرب منهم لمنزلتهم السياسية، فآل الخطاب ليست لهم مطامع سياسية، ولم يسعوا وراء الحكم بعد أبيهم عمر لأنه منعهم من ذلك، فاتجهت الأسرة إلى العلم والزهد، ومن يصهر إليهم فإنما يرجو لأولاده حياة كحياة آل الخطاب، لأن الاعتقاد السائد أن الولد ينزع نحو أخواله.

وعندما تولى عمر الخلافة، وردّ أموال بني أمية إلى بيت المال راجعوه في ذلك وأرسلوا له عمته فاطمة بنت مروان لتكلمه، فلم ينجع فيه شيء، ورجعت من عنده مذعورة، وقال عمر، لا والله العظيم لا أعطيكم درهماً إلا أن يأخذ جميع المسلمين فقالت فاطمة بنت مروان: أنتم فعلتم بأنفسكم هذا. تزوجتم إلى عمر بن الخطاب بنت عاصم ابنه، فجئتم بمثل عمر بن عبد العزيز[1].

ولكن عبد العزيز، عندما أصهر إلى آل الخطاب، يبدو أنه كان يقصد إلى ما أنكره الأمويون، لأنه أصهر إليهم مرة أخرى عندما توفيت أم عاصم فتزوج أختها حفصة بنت عاصم[2].

ولد لعبد العزيز أولادٌ من أم عاصم، كان منهم عمر بن عبد العزيز. وكان أشبه أخوته بأخواله آل الخطاب. ولد في المدينة المنورة[3]. ورحل مع

= بجواب الفتاة. وعرف البيت وعرض على ابنه عاصم أن يزوجه بها. واسمها: أم عمارة بنت سفيان بن عبدالله بن ربيعة الثقفي (نسب قريش ٣٦١) وأنجبت بنتين هما أم عاصم وحفصة.

(١) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩١ و«الخليفة الزاهد» لعبد العزيز سيد الأهل.

(٢) نسب قريش/ ٣٦١.

(٣) في تاريخ ومكان ولادته خلاف: فقيل ولد في سنة ٦١ هـ بمصر. وقيل سنة ٦٣، وقيل سنة ٥٩ هـ. وفي وفيات الأعيان ٢: ١٢٨. في الكلام على حلوان، بقرب القاهرة وبها ولد عمر=

أهله طفلاً عندما رحّلهم ابن الزبير إلى الشام، ثم تولى أبوه على مصر ورافقه فترة معينة، ثم طلب من أبيه أن يبقى في المدينة في كنف أخواله آل الخطاب، وليقعد إلى فقهائها ويتأدب آدابهم، فوافق أبوه على طلبه. قالوا فقعد عمر مع مشايخ قريش وتجنّب شبابهم، وحفظ القرآن وروى الحديث، وأخذ العلم عن أهله. فلما مات أبوه، أخذه عمه عبد الملك فخلطه بولده وقدمه على كثير منهم، وزوجه بابنته فاطمة. وكان سبب اهتمام عمه به أنه معجب به، لذكائه وسرعة بديهته في الجواب، ولأن الناس كانوا يتوقعون أن يكون عمر، هو الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً، والذي رآه عمر بن الخطاب في منامه. وكان عمر دخل إلى اصطبل أبيه فضربه فرس فشجه في جبينه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشجَّ بني مروان فإنك إذن لسعيد[1].

وقد سعدت المدينة بولايته، ووزارته، وخلافته من سنة ٨٦ هـ حتى سنة ١٠١ هـ في عهد إمارته، لأنه شملها بالعدل، ثم كان وزيراً لسليمان بن عبد الملك فنال المدينة خير على يديه، ثم كان خليفةً فتم العدل.

وسوف أتكلم عن عهود الإمارة، والوزارة والخلافة، فيما يلي من الصفحات.

ب ـ المدينة المنورة في عهد إمارة عمر بن عبد العزيز، وخلافته:

عندما توفي عبد الملك، وانتقلت الخلافة إلى ابنه الوليد، بقي الوليد متأثراً، باحترام أبيه لعمر، فعامله بما كان أبوه يعامله به، وهو صهره زوج

= ابن عبد العزيز. أما ابن عبد الحكم، وفوات الوفيات، فقالوا: إن مولده في المدينة. والأقوى أنه ولد في المدينة لأنها مسكن أهله، وإنما رحل عنها الأمويون أيام ابن الزبير، وسكن عبد العزيز مصر بعد استرجاعها من ابن الزبير حيث أصبح والياً عليها. ومن غير المعقول أن يكون مولده في مصر بعد ولاية أبيه عليها حوالي سنة ٦٥ هـ، لأنه توفي سنة ١٠١ هـ وهو قد تجاوز الأربعين من عمره.

(١) البداية والنهاية جـ ٩٢/٩. و«تهذيب التهذيب» جـ ٤٧٦/٧.

أخته، وابن عمه وعندما تولى الوليد الخلافة كان على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي وكان قد أرهق الناس بعسفه وظلمه، وكان يكثر الإساءة إلى علي بن الحسين وآل البيت، ولم يكن الوليد راضياً عنه، فأراد أن يخفّف عن أهل المدينة، ويكسب رضاهم فيولي على المدينة واحداً من أهلها، قد تربى بينهم ولأخواله آل الخطاب مكانة فيهم. فاختار عمر بن عبد العزيز ليكون والياً على المدينة.

ولكن عمر شرط على الوليد، أن لا يطالبه بتطبيق سياسة أهل الظلم والعدوان من الولاة السابقين، فقبل الوليد هذا الشرط: وقال لعمر: اعمل بالحق وإن لم ترفع إليّ درهماً واحداً.

وقد اختط عمر لنفسه سياسة جديدة في ولاية المدينة، كسب بها رضى الناس، فكان في مدة ولايته[١] من أحسن الناس معاشرة وأعدلهم سيرة. وكان إذا وقع له أمر مشكل جمع فقهاء المدينة، وقد عين عشرة منهم، وكان لا يقطع أمراً بدونهم أو من حضر منهم.

قال الطبري[٢]: لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة ونزل دار مروان[٣] ـ دخل عليه الناس فسلموا ـ فلما صلى الظهر ـ دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم ابن محمد، وسالم بن عبدالله بن عمر، وعبد الله بن عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد[٤]، وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيب[٥] فدخلوا عليه، فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو

---

(١) تولى المدينة ومكة والطائف من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين.

(٢) جـ ٦ سنة ٨٧ هـ.

(٣) دار مروان بن الحكم، وقد أصبحت فيها بعد مقراً للوالي، في العصر الأموي.

(٤) من هؤلاء سبعة، يسمون الفقهاء السبعة، وسوف أترجم لهم في فصل «الحياة الثقافية».

(٥) لم يكن سعيد من مجلس الشورى، لأنه كان بين الوليد، وسعيد بن المسيب جفوه ومع ذلك كانوا يرجعون إليه في الفتوى.

أهله ثم قال: إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق. ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدّى، أو بلغكم عن عامل ظُلامة فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا بلّغني. فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا».

وكتب الوليد إلى عمر أن يوقف هشام بن إسماعيل، الوالي السابق، للناس ليقتصوا منه، وكان أكثر من لاقى منه سعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين وعندما وقف هشام للناس عند دار الإمارة قال سعيدٌ لابنه ومواليه: إن هذا الرجل يوقف للناس، فلا يتعرضْ له أحدٌ، ولا يؤذه أحدٌ بكلمة، فإننا سنترك ذلك لله والرحم.

وكان علي بن الحسين قد تقدم إلى خاصته أن لا يعرض له أحد بكلمة[1]، واستطاع الوليد عن طريق عمر، أن يحقق توسعة الحرم النبوي الشريف، وكان عبد الملك حاول أن يهدم بيوت زوجات الرسول، ولكن الناس كانوا يثورون، فلم يستطع ذلك، وعندما تولى عمر، بعث إليه الوليد بإدخال حُجر أزواج الرسول في المسجد، لتوسعة المسجد النبوي، وتقديم القبلة، وقال له: أنت تقدر، لمكان أخوالك، فإنهم لا يخالفونك، فاستعان عمر بالعلماء العشرة الذين جعلهم مجلس شوراه، وهم وجوه الناس في زمنه، فاستطاع امتصاص غضب الناس وحقق ما أراد.

وفي عهد ولايته - أُصلحت الطرقات - وسُهّلت الثنايا، وعملت فوارة مياه يستقي منها الناس...

وكان عهد عمر بن عبد العزيز من أحسن العهود التي مرت على المدينة في العهد الأموي، وشعر الناس بالأمان، حتى أصبحت المدينة ملجأ لكل هارب من ظلم.

قال ابن الأثير في الكامل: «وكانوا أيام عمر بن عبد العزيز، كل من

(١) الطبري جـ ٨ ص ١٤٤، ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن العزيز ص ٩٥.

خاف الحجاج لجأ إلى مكة والمدينة».

لأن عمر لم يكن يريد الأمان لأهل ولايته فقط، وإنما كان يدافع عن المظلومين في جميع الأمصار الإسلامية. ولذلك نجده يكتب إلى الوليد يخبره بعسف الحجاج واعتدائه على أهل العراق وظلمه لهم بغير حق[1].

وعندما بلغ الحجاج قول عمر، كتب الحجاج إلى الوليد: إن مَنْ عندي من المُرّاق وأهل الشقاق قد جَلَوْا عن العراق ولحقوا بالمدينة ومكة وإن ذلك وهنٌ. فكتب إليه الوليد يستشيره فيمن يوليه المدينة ومكة، فأشار عليه الحجاج بخالد بن عبدالله القسري[2] على مكة، وعثمان بن حيّان على المدينة.

وامتزج كره عمر لظلم الحجاج، مع كره أهل المدينة له، حتى بلغ من كره أهل المدينة للحجاج، أنهم ضجّوا عندما علموا أن الحجاج سوف يمر بالمدينة في طريقه إلى الحج، فكتب عمر إلى الوليد أن لا يمر الحجاج بالمدينة، فكانت من أسباب زيادة القطيعة بين عمر والحجاج، وكان الوليد قد زار المدينة سنة ٩١ هـ لينظر توسعة الحرم الجديدة، وأُخلي المسجد من الناس، إلا سعيد بن المسيب، فإنه كان لا يبرح المسجد، وكانت بينه وبين الوليد جفوه، لأنه رفض البيعة له بولاية العهد في حياة أبيه ورفض تزويجه ابنته، عندما خطبها أبوه عبد الملك.. فجاءه الوليد حيث يجلس عند القبلة، وسلّم عليه، وسأله عن حاله، وانصرف وهو يقول: هذا بقية الناس[3].

وقسّم الوليد بالمدينة رقيقاً كثيراً بين الناس، وآنية من ذهب وفضة وأموالاً، ولكنها عطايا خصَّ بها أناساً دون آخرين، فرضي أناس وسخط آخرون. وزاد غضب أهل المدينة عندما رأوا الوليد يخطبُ على المنبر جالساً،

---

(١) الطبري جـ ٨ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ١ ص ١٤٠.
(٣) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٥.

فاعتبروها استخفافاً بهم. روى الطبري[1] قال: قال إسحق: فلقيت رجاء بن حيوه[2] وهو معه، فقلت: هكذا يصنعون - يعني الخطبة لصلاة الجمعة وهم جالسون - قال: نعم، وهكذا صنع معاوية، فهلم جرا. قلت: ألا تكلمه؟ قال: أخبرني قبيصه بن ذؤيب[3] أنه كلم عبد الملك بن مروان، فأبى أن يفعل، وقال: هكذا خطب عثمان[4]، فقلت: والله ما خطب هكذا، ما خطب عثمان إلا قائماً. قال رجاء: رُوي لهم هذا فأخذوا به.

وأحس الوليد بغضبة أهل المدينة، فأراد أن يكمّم أفواههم، ويمتحن إخلاص عمر للخليفة، فأرسل إلى عمر أن يجلد خُبيب بن عبد الله بن الزبير، وكان خبيب يروي الحديث: «إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً، اتخذوا دين الله دخلاً، وعباد الله خولاً، ومال الله دولاً»[5] وهذا لا يرضي الخليفة، لأنه يجعل المروانيين، ظلمةً معتدين.

فحقق عمر رغبة الوليد، وجلد خُبيباً، ولكن عمر كان قاسياً، فصب على خبيب الماء في يوم باردٍ، فأصيب بالحُمّى ومات بسببها. وكان السبب في قسوة عمر على خبيب أنه كان يتزعم المعارضة في هدم بيوت أزواج الرسول، وكان خبيب قال لعمر: إن شئت فانسخ آية «الحجرات» من كتاب الله ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾. فاعتبر عمر هذا تهكماً من خُبيب، فاحتبسها في نفسه، فلما جاءه جلد خبيب، وجدها فرصة مناسبة لينتقم لنفسه من خبيب[6].

---

(١) الطبري جـ ٨ ص ٧٢.

(٢) رجاء بن حيوة بن جرول الكندي، شيخ أهل الشام في عصره، من الوعاظ العظماء العلماء، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك بتولية عمر (تهذيب التهذيب جـ ٣).

(٣) قبيصه بن ذؤيب، الخزاعي، صحابي من الفقهاء، ولد في حياة النبي، ثم كان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام، توفي بدمشق سنة ٨٦ هـ (الإصابة ٧٢٧١).

(٤) قال أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل «أول من خطب جالساً معاوية حين كثر شحمه وعظمت بطنه، فعد الناس خطبته جالساً من البدع».

(٥) قال ابن كثير: وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة موضوعة، فلهذا أضربنا صفحاً عن إيرادها لعدم صحتها.

(٦) الطبري جـ ٨ ص ٩٠.

ولكن عمر لم ينتفع عندما جلد خُبيباً، ولم يتغير رأي الخليفة فيه، فقد عزله عن ولاية المدينة بعد موت خبيب بأشهر قليلة، وبقي خبيب أمام عمر ينغّص عليه عيشه كلما تذكره. قال المصعب الزبيري في نسب قريش: فأما خبيب، فلا ولد له، وكان خبيب يعلم علماً كثيراً مع فضل له وصلاح وهو الذي ضربه عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك فمات من ضربه. وكان يقال لعمر «أبشر فقد صنعت خيراً»، فيقول: فكيف بخبيب؟[1].

فكان موت خبيب من أسباب توبته وتمسكه الشديد بحبل الله ورجوعه إلى ربه لعل الله يغفر له ما اقترف..

وتبدلت حياة الأمن التي كان يحياها أهل المدينة في ولاية عمر وحلّ محلها حياة القسوة والقهر على يد عثمان بن حيان المُري والذي أرسله الوليد لإجلاء العراقيين عن المدينة، فقسا على الناس وأوقع بهم أشد العقاب حتى لا يتجرأ أحد على إيواء العراقيين.

ولكن اليأس يزول عن أهل المدينة بوفاة الوليد، وتولى سليمان وكان قد اتخذ من عمر مشيراً ووزيراً له، فأشار عليه بعزل عثمان بن حيان وتولية أبي بكر بن حزم الأنصاري سنة ٩٦ هـ ونال ابن حيان جزاءه على ما فعله بأهل المدينة سوءاً، فقد أمر سليمان بعزله وحدّه[2]. وكان عمر يُوصي بأهل المدينة ويحض الخليفة على إكرامهم، وكان عند سليمان نزعة إلى التدين، فحارب الفُسَّاق والشعراء الماجنين ممن يسكن المدينة المنورة. وبموت سليمان وتولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، ينال المدينة الخير، كما نالته الأمصار الأخرى. ولكن المدينة نالت من اهتمامه الكثير، فكان دائماً يسأل عن أهلها

---

(١) نسب قريش ص ٢٤٠.

(٢) وردت أحاديث كثيرة فيمن أراد بأهل المدينة سوءاً، ومنها قوله عليه السلام: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله» رواه السيوطي وقال حديث حسن. وقال ﷺ: «من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبي» جامع السيوطي وقال حديث حسن.

وعلمائها. كلما قدم عليه قادم منها. جاءه رجل مرة فسأله عمر قائلاً: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ فقال الرجل: قد قاموا يا أمير المؤمنين وأغناهم الله. وكان من أولئك المساكين من يبيع الخبط[1] للمسافرين، فالتُمس ذلك منهم بَعْدُ، فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر[2].

وخرج يوماً، فركب هو ومزاحم مولاه يتجسس أخبار القرى، فلقيهما راكب من أهل المدينة، وسألاه عن الناس فقال: تركتُ أهل المدينة والظالم فيها مقهور، والمظلوم منصور، والغنيّ موفور، والعائل مجبور، فَسُرَّ عمرُ وقال: والله لئن تكن البلدان كلها على هذه الصفة أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس.

وقال رباح بن حيان: ما قدم علينا بريد لعمر، إلا بإحياء سُنة أو قسم مال أو أمرٍ فيه خير، وقد صارت الأنصار وقريش تدعو لعمر بالبقاء حتى يرد عنهم المكاره[3].

وكان يطلب من واليه على المدينة أن لا ينفق أموالاً إلا فيما ينفع الناس وأن يتبعوا سياسة التقشف في إجراءاتهم المختلفة. كتب مرة إلى أبي بكر بن حزم واليه على المدينة ـ وكان هذا قد كتب إلى الخليفة السابق سليمان يطلب أوراقاً يكتب عليها في أموره الإدارية ـ «أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر أنه كان يجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا، فابتليت بجوابك فيه، فإذا جاءك كتابي هذا: فأرقّ القلم، وأجمع الخطّ، وأجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة[4]. فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضرّ بيت مالِهم، والسلام عليك». وكان يحث

---

(1) الخبط: بفتح الخاء والباء: ورق الشجر ينفض بالمخابط، ويبدو أنهم يجمعونه ويبيعونه للمسافرين لإطعامه للإبل. والخمط، بالميم. كل شجر لا شوك له.

(2) ابن الجوزي: مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٤٢.

(3) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤١.

(4) المصدر السابق ص ٦٥.

العمال على سرعة تنفيذ ما يصدر إليهم بأسرع وقت مستطاع.

فقد كتب مرة إلى عامله على المدينة أن يقسم مبلغاً من المال في ولد علي رضي الله عنه، فرد عليه الوالي: إن ولد علي قد تفرقوا في عدة قبائل من قريش ففي أيهم يكون العطاء؟.

فكتب إليه عمر: لو كتبت إليك في شاة تذبحها لكتبت إليّ أسوداء أم بيضاء. إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد عليّ من فاطمة فطالما تخطيتم حقوقهم[1].

وبموت عمر سنة ١٠١ هـ ينتهي عهد الرخاء، حيث عزل يزيد بن عبد الملك أبا بكر بن حزم، وولاها عبد الرحمن بن الضحاك الفهري، وكان من أكثر الولاة قسوة وظلماً[2].

* * * *
* * *
*

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ١٨٤/٣.
ابن الجوزي: مناقب عمر بن عبد العزيز ٥٧.
(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ١٢٦.

٣ ـ أمراء المدينة المنورة في العصر الأموي

تشتمل هذه الفقرة على تاريخ لأمراء المدينة في العصر الأموي، لنتعرف على هؤلاء الأمراء مرتبين حسب تاريخ توليتهم، وسوف أُتبع التاريخ بدراسة موجزة نستنتجها من هوية الأمراء، ونعرف منها شيئاً من السياسة الإدارية التي كانت متبعة في إدارة المدينة المنورة.

وأبدأ بالتعريف بهؤلاء الأمراء حسب تاريخ توليتهم.

وقد قصرت هذه الدراسة على المدة التي تلت خلافة معاوية، حتى نهاية العهد الأموي، وهو عهد الخلافة الأموية، وفي وسطها إمارة ابن الزبير، وقد أسقطت من التعريف، واليين، ولاهما الإمام علي بعد رحيله إلى العراق، وهما سهل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصاري، لأنهما وإن كانا في عهد النفوذ الأموي، الذي دخل في دراستنا ـ إلا أنهما لم يعينا بقرار من خليفة أموي، وليس في ذكرهما دلالة على السياسة التي نريد أن نستنتجها من وراء هذه الدراسة.

١ ـ أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر: ٢١ ق هـ ـ ٥٩ هـ[١].

صحابي، من قبيلة باليمن يقال لها: دوس[٢]. نشأ في الجاهلية يتيماً

---

(١) التاريخ الموضوع أمام الاسم، للولادة والوفاة. أما تاريخ التولية، فيتضمنه الكلام عن الوالي.

(٢) انظر ترجمته في: «الإصابة» لابن حجر ١١٩٠. و«تهذيب التهذيب» جـ ١٢، الكنبي و«جمهرة =

مسكيناً وقدم المدينة ورسول الله بخيبر فأسلم سنة ٧ هـ. ولما صارت الخلافة إلى عمر استعمله على البحرين؛ ثم رآه لين العريكة مشغولاً بالعبادة، فعزله. ذكر صاحب الأعلام خير الدين الزركلي، أن أبا هريرة ولي إمرة المدينة مدةً، ولم يحدد فترة الولاية.

وذكر ابن كثير في ترجمة أبي هريرة: كان معاوية يبعث أبا هريرة على المدينة فإذا غضب عليه عزله وولّى مروان بن الحكم. ثم قال: والمعروف أن مروان هو الذي كان يستنيب أبا هريرة في إمرة المدينة، ولكن كان يكون عن إذن معاوية. ولم يحدد متى ولى أبو هريرة إمارة المدينة.

وفي المعارف لابن قتيبة[1] كان مروان ربما استخلف أبا هريرة على المدينة فيركب حماراً قد شد عليه برذعة.. فيسير فيلقى الرجل فيقول: الطريق الطريق قد جاء الأمير. وربما أتى الصبيان وهم يلعبون بالليل لعبة الغُراب، فلا يشعرون بشيء حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجليه - فيفزع الصبيان فيفرون عنه وهم يتضاحكون.. وكان له دارٌ بذي الحُليفة، وكانت وفاته بداره بالعقيق، وصلى عليه الوليد بن عتبة أمير المدينة وحمل إلى المدينة، ودفن بالبقيع.

٢ - مروان بن الحكم: ٢ - ٦٥ هـ.

ولد بمكة، ونشأ بالطائف، وسكن المدينة، فلما كانت أيام عثمان جعله من خاصته[2] وعندما ولي معاوية الخلافة، ولّاه المدينة مرتين من سنة ٤٢ - ٤٩ هـ ثم تولاها مرة أخرى سنة ٥٦ - ٥٧ هـ. وتخلل الولايتين، إمارة سعيد بن العاص.

= أنساب العرب» لابن حزم ص ٣٨١. والمعارف لابن قتيبة ص ٢٧٧.

(١) ابن قتيبة: المعارف ص ٢٧٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٨٧.

(٢) كان كاتب عثمان، ومن تحت رأسه جرت قضية الدار وبسببه حصر عثمان في داره وقد ألح عليه الخوارج أن يسلم مروان فامتنع من ذلك. وقاتل مروان يوم الدار قتالاً شديداً.

ولم يرجع إلى الولاية مرة أخرى، وقد أبعده معاوية عن الولاية، بعد أخذ البيعة ليزيد بولاية العهد، لأن مروان كان يحسد بني حرب بن أمية أنهم اختصوا بالخلافة[1].

روى المصعب الزبيري قال[2]: اشتكى عمرو بن عثمان بن عفان، فكان العُوّادُ يدخلون عليه، فيخرجون، ويتخلف عنده مروان، فيطيل، فأنكرت ذلك رملة بنت معاوية، زوجة عمرو، فخرقت كُوة فاستمعت إلى مروان فإذا هو يقول لعمرو: ما أخذ هؤلاء - يعني بني حرب بن أمية، الخلافة إلا باسم أبيك، فما يمنعك أن تنهض بحقك؟ فلنحن أكثر رجالاً، منا فلانٌ ومنهم فلانٌ. حتى عدد رجالاً، ثم قال: ومنا فلان وهو فضل، وفلان فضل، فعدد فضول رجال أبي العاص على رجال بني حرب فلما برأ عمرو تجّهز للحج، وتجهزت رملةٌ، فلما خرج عمرو إلى الحج، خرجت رملة إلى أبيها، فقدمت عليه الشام فأخبرته، وقالت: مازال يعد فضل رجال أبي العاص على بني حرب حتى عد ابنيَّ عثمان وخالداً ابني عمرو.. فكتب معاوية إلى مروان:

أواضع رجلٍ فوق أخرى يعدّنا عديد الحصى ما أن تزال تكاثر
وأمكم تزجي تؤاماً لبعلها وأم أخيكم نزرة الولد عاقر

أشهد يا مروان أني سمعت رسول الله يقول[3]: «إذا بلغ ولد الحكم ثلاثين رجلًا، اتخذوا مال الله دولاً ودين الله دخلًا، وعباد الله خولاً»، والسلام. فكتب إليه مروان: أما بعد: «يا معاوية، فإني أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة، والسلام».

قالوا: ولما كان نائباً بالمدينة، كان إذا وقعت معضلة جمع مَنْ عنده من

---

(1) انظر ترجمه في «الإصابة» رقم ٨٣١٨. و«نسب قريش» لمصعب الزبيري ص ١٠٩ و«تهذيب التهذيب». و«البداية والنهاية» جـ ٨ وطبقات ابن سعد جـ ٣٥/٥.
(2) نسب قريش ص ١٠٩.
(3) انظر تخريج الحديث في البداية والنهاية لابن كثير.

الصحابة فاستشارهم فيها. وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها فنسب إليه الصاع، فقيل: صاع مروان.. ولم يرد في زمن ولايته عسف وظلم، إلا أنه كان يسب علياً، كل جمعة على المنبر[1] وكان متهماً في طريقة جمع المال..

عن أبي سعيد الخدري قال: خرج أبو هريرة من عند مروان، فلقيه قوم قد خرجوا من عنده فقالوا له: يا أبا هريرة، إنا أشهدنا الآن على مائة رقبة أعتقها الساعة مروان، قال: فغمز أبو هريرة يدي وقال: يا أبا سعيد، بَكٌّ من كَسْب طيب خير من مائة رقبة[2]. وكان مع ذلك معدلاً من علية القوم، فكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان، ولا يعيدانها، ويعتدّان بها[3]. وهو موثوق عند أهل الحديث. ومروياته في الكتب الصحيحة. ويعدونه من فقهاء المدينة.

وفي أيامه أجرى العين الزرقاء في المدينة بأمر معاوية، وهي منسوبة إليه لأن مروان كان أزرق العينين[4] وكان يلقب بـ: (خيط باطل) لأنه كان طويلاً مضطرباً. وخيط باطل: لعاب الشمس، وقيل: خيط العنكبوت.

٣ ـ سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية[*]: ٣ ق هـ ـ ٥٩ هـ.

أموي قرشي قتل أبوه يوم بدر، وهو غلام، فكساه الرسول عليه السلام جبةً، وبها سميت الثياب السعيدية. رُوي أن سعيداً مرَّ بعمر بن الخطاب وهو خليفة، فقال له عمر: إني والله ما قتلت أباك يوم بدر، وما بي أن أعتذر إليك من قتل مشرك، ولقد رأيته يبحث في التراب كأنه ثورٌ، فصددت عنه، فصمد له عليّ فقتله، فقال له سعيد، وهو يومئذ حديث السن: لو قتلته، لعلمت أنك على حق، وهو على باطل، فجعل عمر

---

(١) البداية والنهاية ترجمة مروان جـ ٨.

(٢) البك: الواحد.

(٣) البداية والنهاية جـ ٨/٢٥٨.

(٤) المغانم المطابة في معالم طابة/٢٩٥.

(*) طبقات ابن سعد جـ ٥/٣٠. والإصابة رقم ٣٢٦٢ وسير الأعلام للذهبي جـ ٣/٤٤٨.

يتعجب له ويلوي يده، ويقول: أحلام قريش، أحلام قريش[1]. قال الذهبي: إن عربية القرآن أُقيمت عل لسان سعيد بن العاص لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله. وكان أحد من ندبهم عثمان لكتابة المصحف.

استعمله عثمان على الكوفة، ثم عزله. واستعمله معاوية على المدينة المنورة من سنة ٤٩ ـ ٥٦ هـ. وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان وكان سخياً كريماً فصيحاً. وله يقول الفرزدق:

ترى الغرّ الجحاجحَ من قريشٍ إذا ما الأمر في الحدثان عالاً[2]
قياماً ينظرون إلى سعيدٍ كأنهم يَرَوْن به هلالاً

ومات سعيد بن العاص في قصره بالعقيق على ثلاثة أميال من المدينة، ودفن بالبقيع وأوصى إلى ابنه عمرو، وأمره إذا دفنه أن يركب إلى معاوية وأن ينعاه ويبيعه منزله بالعقيق، لسداد ديونه، وكان قد اتخذ سعيد منزلاً بالعقيق وغرس فيه النخل وزرع فيه، وبنى قصراً معجباً، مازالت آثاره شاخصة إلى اليوم[3].

٤ ـ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بن حرب[*]: توفي سنة ٦٤ هـ.

ولي المدينة مرتين: المرة الأولى سنة ٥٧ هـ بعد ولاية مروان الثانية وتوفي معاوية أثناء ولايته، فكتب إليه يزيد أن يأخذ البيعة من الحسين وابن الزبير فلم يتمكن منهما، وفرا إلى مكة، ورفض أن يقسو عليهما. فعزله يزيد ابن معاوية سنة ٦٠ هـ وولّى عمرو بن سعيد، ثم أعاده مرة أخرى سنة ٦١ هـ في وقت تفاقم فيه أمر ابن الزبير فلم ينجح في تقليص حركته فعزله يزيد، وولّى مكانه عثمان بن محمد. قال المصعب الزبيري: وكان الوليد بن

(١) نسب قريش ١٧٦ ـ وطبقات ابن سعد جـ ٣١/٥. والمعارف لابن قتيبة.
(٢) نسب قريش ص ١٧٦. وعال: أي ثقل وغلب عليهم.
(٣) آثار المدينة المنورة، لعبد القدوس الأنصاري.
(*) الأعلام للزركلي. ونسب قريش ص ١٣٣.

عتبة رجل بني عتبة، ولاه معاوية المدينة وكان حليماً كريماً(١).

٥ ـ عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق(*): ٧٠ هـ.

لقب الأشدق: لفصاحته. ولي إمارة المدينة سنة ٦٠، بعد الوليد بن عتبة قال المصعب الزبيري: ولّاه معاوية المدينة، وأقره يزيد بن معاوية. والصحيح أنه تولى أيام يزيد، لأن معاوية مات، والوليد على المدينة وأرسل إلى الوليد لأخذ البيعة.. وكانت تولية عمرو بن سعيد، لأمر أراده يزيد، وهو أن يتمكن من ابن الزبير وقد عجز عنه الوليد.. وكان على شرطة المدينة مصعب بن عبد الرحمن بن عوف(٢) فأمره عمرو بن سعيد بهدم دور بني هاشم، ومن كان في حيزهم والشدة عليهم ويهدم دور بني أسد والشدة عليهم، حين خرج الحسين، وعبدالله بن الزبير فقال له مصعب: أيها الأمير، إنه لا ذنب لهؤلاء، ولست أفعل، فقال عمرو: انتفخ سحرك(٣)؟ إليّ سيفنا فرمى بالسيف، وخرج عنه ولحق بابن الزبير، وولى مكانه عمرو بن الزبير، وكان مخالفاً أخاه عبدالله فاشتد عمرو بن الزبير على أهل المدينة، وجلد كثيراً منهم ممن يناصر أخاه ثم أرسله عمرو بن سعيد إلى أخيه في جيش إلى مكة فهزم جيشه وأسر عمرو بن الزبير، ثم مات في سجن أخيه عبدالله.

وعجز عمرو بن سعيد عن أخذ البيعة من ابن الزبير أو تضييق دائرة

---

(١) نسب قريش ١٣٣ هـ.

(٢) مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، ولي الشرطة لمروان بن الحكم، وكان أهل المدينة قبله قد هرجوا بقتل بعضهم بعضاً، فلما ولي شدّ بهم وجلدهم، وهدم الدور، ففزع الناس من ذلك فشكوه إلى مروان، فكاد يعزله، فتدخل المسور ابن مخرمة ـ ابن عمة مصعب ـ وأقنعه أن عمله لمصلحة المدينة، فلم يزل على الشرطة حتى مات معاوية، وتولى عمرو بن سعيد. وفيه يقول ابن قيس الرقيات:

حال دون الهوى ودو ... ن سُرى الليل مصعب

وسياط على أكف ... ـم ـ الرجال تقلب

(٣) السحر: بالفتح: الرئة. وهذه الجملة كناية عن أنه عدا طوره وجاوز قدره.

(*) تهذيب التهذيب جـ ٨. ونسب قريش. والإصابة (٦٨٥٠). وطبقات ابن سعد جـ ٥/٢٣٧.

نفوذه فعزله يزيد، وولى الوليد بن عتبة مرة أخرى.

وكان عمرو بن سعيد، يدّعي أن مروان بن الحكم جعل إليه ولاية العهد من بعد عبد الملك، فلمّا شخص عبد الملك إلى حرب مصعب بن الزبير استولى عمرو على دمشق وبايعه أهلها، وأغلق باب دمشق، فرجع إليه عبد الملك، واحتال عليه حتى دخل دمشق، وأعطاه عبد الملك الأمان، ثم غدر به، فقتله فقال يحيى بن الحكم بن أبي العاص:

أعينيّ جُودا بالدموع على عمرو عشيةَ تُبتز الخلافة بالغَدْرْ
كأنَّ بني مروان إذ يقتلونه بغاثٌ من الطير اجتمعن على صقر
غدرتم بعمرو يا بني خيطِ باطلٍ وأنتم ذوو قربى به وذوو صهر[1]

وروى ابن سعد: أن يزيد بن معاوية، أرسل برأس الحسين إلى عمرو بن سعيد فكفنه ودفنه بالبقيع إلى جنب قبر أمه فاطمة.

٦ ـ عثمان بن محمد بن أبي سفيان[2]:

تولى إمارة المدينة سنة ٦٢ هـ. وقال المؤرخون عنه: وكان فتى غراً لم تصقله التجارب. وقد أرسل وفداً إلى يزيد من أشراف المدينة، فأكرمهم يزيد، فرجع الوفد يشتمون يزيد، وخلعوا بيعته، وكانت ولاية عثمان، بداية لاستعداد أهل المدينة، للخروج على يزيد وخلع بيعته، وانتهى الأمر بمعركة الحرة بين أهل الشام وأهل المدينة.

---

(١) يا بني خيط باطل: مجاز من أبدع أنواع المجاز. ففي الأساس: من المجاز: وهو أدق من خيط باطل، وهو الهباء المنبث في الشمس، وقيل لعاب الشمس وقيل: الخيط الخارج من فم العنكبوت الذي يقال له: مخاط الشيطان. وفي لسان العرب: وكان مروان بن الحكم يلقب بذلك (يعني خيط باطل) لأنه كان طويلاً مضطرباً قال الشاعر:

لحى الله قوماً ملّكوا خيطَ باطلٍ على الناس يعطي مَنْ يشاء ويمنع

(٢) لم أجد له سنة ولادة أو وفاة، ولا يذكره المؤرخون إلا في خلال الأنساب، ولا يذكر في كتب التاريخ إلا من خلال الحديث عن معركة الحرة، وانظر «نسب قريش/١٣٤». والجمهرة/١١١. و«المعارف» لابن قتيبة/٣٤٥.

قال ابن قتيبة في المعارف: وكان عثمان عاملاً بالمدينة ليزيد بن معاوية فنُحس به أهلها، ففي سببه كانت وقعة الحرة.

٧ ـ عُبيدة بن الزبير[١]:

جعله أخوه نائباً على المدينة، بعد أن أعلن خلافته في الحجاز، وأمره بطرد بني أمية من المدينة. ثم عزله وولّاها مصعب بن الزبير، وذلك لأنه خطب الناس فقال: وقد رأيتم ما صنع الله بقوم صالحٍ في ناقة قيمتها خمسمائة درهم فسماه الناس مقوّم الناقة. فلما بلغت أخاه عبدالله قال: إن هذا لهو التكلف، وعزله. ويبدو أنه تولّى المدينة أكثر من مرة فتراتٍ قصيرةً. لأن أول ولاية له سنة ٦٤ هـ. وفي سنة ٦٥ نجد جابر بن الأسود على المدينة يفرّ من جيش ابن دلجة. وفي السنة نفسها يعزل عبيدة لأنه قوّم الناقة[٢]. وقبل أن يتولى عبيدة، كان على المدينة روح بن زنباع، خلّفه مسلم بن عقبة بعد معركة الحرة، ولكننا لا نعتبره أميراً، لأنه لم يعينه خليفة.

٨ ـ جابر بن الأسود بن عوف[*]:

وهو ابن أخي عبد الرحمن بن عوف، كان نائباً لابن الزبير على المدينة سنة ٦٥، وفي أثناء نيابته، يأتي جيش من الشام بقيادة حُبيش بن دلجة، فهرب جابر، ودخلها الجيش الشامي، ثم يرسل والي البصرة لابن الزبير

---

(١) في البداية والنهاية لابن كثير: ذكر (عبيد الله) بن الزبير والياً على المدينة سنة ٦٤ وذكره مرة أخرى جـ ٢٦٢/٨، وقال: عزل ابن الزبير أخاه (عبيد الله) لأنه قوم ناقة صالح، وللزبير بن العوام عشرة أولاد ليس فيهم من يسمى «عبيد الله» انظر «نسب قريش» و«جمهرة الأنساب» و«المعارف» وطبقات ابن سعد. وبناء على هذا أثبت «عبيدة» وهو أول أمير على المدينة في عهد ابن الزبير، والملاحظ في هذه الفترة أن المؤرخين يذكرون لقب «نائب» بدَلاً من الوالي أو الأمير.

(٢) انظر «البداية والنهاية» سنة ٦٤، وسنة ٦٥ هـ جـ ٨.

(*) المعارف ٤٣٧، والجمهرة ١٣١، ونسب قريش ٢٧٣، ولم أجد له تاريخ ولادة أو وفاة.

جيشاً إلى المدينة لتخليصها من أهل الشام، ويرسل ابن الزبير العباس ابن سهل والياً على المدينة وأمره بمطاردة جيش ابن دلجة.. ويتولى ابن الأسود المدينة مرةً أخرى سنة ٦٨، بعد مصعب بن الزبير.

وفي أيام ولايته ضرب سعيد بن المسيب لأنه رفض بيعة ابن الزبير. قال ابن حزم في جمهرة أنساب العرب: وجابر هذا هو الذي ضرب رأس سعيد بن المسيب في بيعة ابن الزبير[١]. وقال ابن قتيبة في المعارف: وكان جابر بن الأسود على المدينة، فدعاه ـ يعني سعيد بن المسيب ـ إلى البيعة لابن الزبير فأبى فضربه ستين سوطاً[٢].

٩ ـ العباس بن سهل بن سعد بن مالك[*]:

من بني الخزرج، من الأنصار[٣].

أرسله عبدالله بن الزبير سنة ٦٥ هـ لمطاردة جيش ابن دلجة، فاستطاع مطاردة الجيش الغازي، وقتل قائده، ولكن مدة ولايته لم تطل، لأننا نجد في السنة نفسها عبيدة بن الزبير والياً مرة أخرى، ثم نجد مصعب بن الزبير أميراً على المدينة.

ويبدو أن مهمة العباس كانت حربيةً، لمطاردة الجيش الشامي. وكانت المدينة خاليةً من الوالي ـ لأن جابر بن الأسود قد هرب ـ فاعتبر العباسُ والياً فترة وجوده في المدينة[٤].

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ١٣١.

(٢) المعارف/٤٣٧.

(٣) جمهرة أنساب العرب/٣٦٦.

(٤) واستخدمه ابن الزبير سنة ٦٦ هـ حيث أرسله إلى وادي القرى لاختبار نوايا جيش المختار الذي أرسله من العراق لمحاربة جيش شامي كان ينوي غزو المدينة المنورة وعندما عرف العباس مكر جماعة المختار، وأن قصدهم احتلال المدينة، وسلخها عن ابن الزبير، حاربهم وقتل أميرهم، وعدداً كبيراً منهم.

(*) طبقات ابن سعد ص ٢٧١، وتهذيب التهذيب جـ ١١٨/٥، وكان عمره حين قتل عثمان خمس عشرة سنة، وتوفي في خلافة الوليد بن عبد الملك، وهو تابعي ثقة في الحديث.

١٠ ـ مصعب بن الزبير: (٢٦ ـ ٧٢ هـ)

كان عَضُدَ أخيه عبدالله، وهو الذي وطّد الحكم الزبيري في العراق. ثم عزله فترةً وولّى مكانه حمزة بن عبدالله بن الزبير، ثم أعاد مصعباً مرة أخرى. وتجرد عبد الملك لقتاله، فلما دخل عبد الملك العراق خذل مصعباً قوادُ جيشه، فثبت بمن معه، فعرض عليه عبد الملك الأمان، وولاية العراق أبداً، فرفض مصعب فشد عليه جيش عبد الملك، فقتل مصعب. وانتقل العراق إلى حكم عبد الملك.

تولى مصعب إمارة المدينة سنة ٦٥ هـ، في الفترة التي عزل فيها عن العراق. . . وكان مصعب جواداً كريماً شجاعاً، تزوج أشهر نساء عصره، عائشة بنت طلحة. وسكينة بنت الحسين، وتُوفي وهما عنده وله معهما أخبار كثيرة في كتب التاريخ والأدب، منها الصحيح ومنها السقيم. وأصح أخباره في طبقات ابن سعد وفي «سير أعلام النبلاء للذهبي».

١١ ـ طلحة بن عبدالله بن عوف: (٢٥ ـ ٩٧ هـ)(*)

يُلَقَّب بطلحة الندى، لجوده. وكانت عادته إذا أصاب مالاً أن يفتح بابه فيغشاه أصحابُه والناس، فيطعم، ويُجيز، ويحمل حتى ينفد ما عنده، فيغلق الباب فلا يقصده أحد. قال المصعب الزبيري: كان طلحة من سروات قريش وكان يقال له: طلحة الندى. وقد رُوي عنه الحديث، وكان طلحة بن عبدالله وخارجة بن زيد بن ثابت، في زمانهما يُستفتيان، وينتهي الناس إلى قولهما ويقسمان المواريث بين أهلها من الدور والنخل والأموال، ويكتبان الوثائق للناس وذلك بغير جُعْل.

وقال ابن حزم: وكان طلحة من فقهاء المدينة، رُوي عنه الحديث،

(*) تهذيب التهذيب جـ ١٨/٥، وطبقات ابن سعد جـ ١٦٠/٥، وسير أعلام النبلاء جـ ١٧٤/٤. و«أخبار القضاة» لوكيع جـ ١٢٠/١. وجمهرة أنساب العرب ص ١٣١.

وولي أيضاً المدينة لابن الزبير بعد ابن عمه جابر بن الأسود. وذلك بعد المرة الثانية التي تولى فيها جابر سنة ٧١ هـ.

وهو آخر أمراء ابن الزبير على المدينة، وبقي أميراً عليها حتى قدم طارق بـن عمرو من جهة عبد الملك سنة ٧٢ هـ. وهو أحد قضاة المدينة في العهد الأموي، استعمله عثمان بن محمد، في خلافة يزيد بن معاوية.

١٢ ـ طارق بن عمرو (. . ـ بعد ٧٣ هـ)(*)

مولى عثمان بن عفان، جهّزه عبد الملك بن مروان في ستة آلاف لقتال مَنْ في المدينة من أنصار ابن الزبير، فدخلها، فولّاه إياها سنة ٧٢ هـ. ثم لحق طارق بالحجاج في مكة لحصار ابن الزبير. . ثم عزله عبد الملك بعد القضاء على ابن الزبير وضم المدينة إلى الحجاج بن يوسف سنة ٧٣ أو سنة ٧٤ هـ. ونقل ابن حجر، أنه كان يقضي أثناء ولايته على المدينة، ووثّقه بعضهم، واعتبره بعضهم من ولاة الجور. وليس له تاريخ يذكر قبل هذه الأيام، أو بعدها.

١٣ ـ الحجاج بن يوسف الثقفي (٩٥ هـ)(**)

ولاه عبد الملك الحجاز بعد أن قضى على ابن الزبير سنة ٧٤ هـ، فقدم الحجاج المدينة، وأقام بها شهراً، ثم خرج معتمراً، ثم عاد إلى المدينة فأقام فيها ثلاثة أشهر.

وفي مدة إقامته آذى أهل المدينة، وخاصة صحابة رسول الله، وشتم جابر بـن عبدالله وسَهْل بن سعد الساعدي، وهما صحابيان، وقرعهما لأنهما لم

(*) «تهذيب التهذيب» جـ ٦/٥، والأعلام للزركلي.

(**) «سير أعلام النبلاء» وقال الذهبي: وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه وأمره إلى الله حـ ٣٤٣/٤. و«تهذيب التهذيب» جـ ٢١٠/٢، قال: وكان فصيحاً بليغاً فقيهاً، وكان يزعم أن طاعة الخليفة فرض على الناس في كل ما يرومه، ويجادل على ذلك، «والبداية والنهاية» جـ ١٣٣/٩. قال: وكان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد، وكان يُعطي على القرآن كثيراً».

ينصرا عثمان ثم صرفه الله عن أهل المدينة، حيث ولّاه عبد الملك على العراق سنة ٧٥ هـ.

١٤ ـ يحيى بن الحكم بن أبي العاص

ذكر ابن كثير أن عبد الملك حج سنة ٧٥ هـ وأقر عمه يحيى بن الحكم على نيابة المدينة. قال ابن سعد، وكان يحيى بن الحكم فيه حمق، فوفد على عبد الملك بغير إذنه، وأناب أبان بن عثمان، فقال له عبد الملك: لا جرم لا ترجع إليها، وأقر أباناً على المدينة (الطبقات جـ ١٥٢/٥)، ويرد ذكره عرضاً في كتب التاريخ والأنساب، كما في «نسب قريش/١٥٩، والجمهرة/٨٧».

١٥ ـ أبان بن عثمان بن عفان: (٠٠ ـ ١٠٥)(*)

مولده ووفاته بالمدينة المنورة، وهو من فقهاء المدينة، وأهل الفتوى فيها وأول من كتب صحفاً في السيرة النبوية، وسلمها إلى سليمان بن عبد الملك فأتلفها. تولى إمارة المدينة من سنة ٧٦ ـ ٨٣ هـ في عهد عبد الملك بن مروان. وأصيب قبل موته بالفالج، فكان يؤتى به إلى المسجد محمولاً في محفة، وتوفي في خلافة يزيد بن عبد الملك.

١٦ ـ هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي (٠٠ ـ ٨٧ هـ)(**)

كانت ابنته زوجة الخليفة عبد الملك، فولاه المدينة بعد أبان بن عثمان من ٨٣ ـ ٨٦ هـ. وكان من الولاة المتجبرين. ضرب سعيد بن المسيب لأنه

(*) طبقات ابن سعد جـ ١٥١/٥، وتهذيب التهذيب جـ ٩٧/١، والأعلام للزركلي، وسير أعلام النبلاء جـ ٣٥١/٤.

(**) طبقات ابن سعد جـ ٢٤٤/٥، ونسب قريش/٣٢٨، والمعارف/٤٣٧.

رفض البيعة لولدي عبد الملك في حياته، وكان يسيء معاملة علي بن الحسين زين العابدين.

ويقول المصعب الزبيري كان هشام بن إسماعيل من وجوه قريش، ولاه عبد الملك بن مروان المدينة، وكان مسدداً في ولايته. ووقّت أهل المدينة بصاع هشام يعنون هشام بن إسماعيل[1] وعزل الوليد بن عبد الملك هشام ابن إسماعيل عن المدينة، واستعمل عمر بن عبد العزيز. فتعرض لهشام رجل من قريش فشتمه فقال هشام لعمر: أمرك أمير المؤمنين أن تهدر لسفهاء قريش عرضي؟ قال عمر: لا والله. ولكن أوصاني بك خيراً. وهذا ابن عمك فإن شئت فاستقد وإن شئت فاعف. وفي «البداية والنهاية» أن الوليد أمر عمر بوقف هشام إلى الناس ليقتصوا منه. قال ابن سعد: وكان هشام بن إسماعيل من أهل العلم والرواية.

١٧ ـ عمر بن عبد العزيز بن مروان: (٦١ ـ ١٠١ هـ)

تولى إمارة المدينة في عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦.. وقد مرت بنا دراسة وافية عن المدينة في زمانه، وترجمته.

١٨ ـ عثمان بن حيان بن معبد المري: (٠٠٠ ـ ١٥٠ هـ)(*)

من أهل دمشق، استعمله الوليد بن عبد الملك، بعد عزل عمر بمشورة الحجاج بن يوسف سنة ٩٣ هـ. وكان في سيرته عنف، فاشتد على أهل المدينة لإخراج العراقيين من بيوتهم. وذكر ابن قتيبة في «المعارف» أن عثمان بن حيان قطع يدي ورجلي أبي بيهس، رئيس فرقة البيهسية من الخوارج وقال

---

(١) قال الإمام مالك في الموطأ ـ في صدقة الفطر ـ: والكفارات كلها وزكاة الفطر وزكاة العشور، كل ذلك بالمد الأصغر، مد النبي ﷺ إلا.. الظهار فإن الكفارة فيه بمد هشام وهو المد الأعظم. (جـ١/ ٢١٠).

(*) «تهذيب التهذيب» جـ ١١٢/٧، نسب قريش/٢٨٦، والأعلام، للزركلي.

المصعب الزبيري كان عثمان بن حيان يؤذي مَنْ كان من عمر بن عبد العزيز بسبيل. ومن أخباره، أنه بعث إلى محمد بن المنكدر وأصحابه فضربهم لما كان من كلامهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. قال عمر بن عبد العزيز: الوليد بالشام، والحجاج بالعراق.. وعثمان ابن حيان بالمدينة.. امتلأت والله الأرض جوراً. وروى ابن حجر عمن قال: كان رجلاً من أهل الخير.

وعزله سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ. وولي الصائفة سنة ١٠٣ هـ. وغزا قيصرة من أرض الروم سنة ١٠٤. وذكره ابن حبّان في الثقات. وروى له مسلم وابن ماجه حديثاً واحداً في الصوم في السفر».

١٩ ـ أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: (٠٠٠ ـ ١٢٠ هـ)(*)

من الأنصار، وكنيته اسمه. كان من الفقهاء القضاة في المدينة، ولاه عمر القضاء في إمارته على المدينة. وعندما تولّى سليمان بن عبد الملك، ولاه إمارة المدينة، وبقي كذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز.. وكان أبو بكر، حازماً شديداً ضابطاً، قاسياً على أهل الفسق. وهو الذي طارد الشاعر الأحوص، حتى أمر سليمان بن عبد الملك بنفيه عن المدينة. وله مع الأحوص أخبار كثيرة في كتاب «الأغاني» وقد هجاه الأحوص بشعر كثير. عزله يزيد بن عبد الملك، وضربه الوالي الجديدَ حدّين، بأمر من يزيد بن عبد الملك، انتقاماً لعثمان بن حيان المري الذي جلده أبو بكر بن حزم. ولم يكن بالمدينة أنصاري أمير غير أبي بكر بن حزم، في العهد الأموي. وهو ثقة كثير الحديث.

٢٠ ـ عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري القرشي(*):

ولاه يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ، وضرب أبا بكر بن حزم حدين

(١) انظر الأغاني جـ ٤، و«تهذيب التهذيب» جـ ٣٨/١٢. وشعر الأحوص الأنصاري. جمع وتحقيق عادل سليمان جمال من ٤٣ ـ ٤٧، وأخبار القضاة «لوكيع».

(*) المعارف ص ٤١٢، ونسب قريش/٤٤٧. والبداية والنهاية جـ ٢٢٩/٩ سنة ١٠٤ هـ=

إرضاءً لعثمان بن حيان، وعادى الأنصار جميعهم. عزله يزيد لأنه ضيق على فاطمة بنت الحسين، حيث خطبها فلم تقبل الزواج منه. قال ابن كثير: وفي ربيع الأول سنة ١٠٤ هـ عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين، فامتنعت من قبول ذلك، فألح عليها وتوعدها، فأرسلت إلى يزيد بن عبد الملك تشكوه إليه، فبعث إلى عبد الواحد بن عبدالله النصري، نائب الطائف، فولاه المدينة وأن يضرب عبد الرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكيء على فراشه بدمشق، وأن ـ يأخذ منه أربعين ألف دينار، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق واستجار بمسلمة بن عبد الملك، فدخل مسلمة على أخيه يزيد، فقال: إنَّ لي إليك حاجةً، فقال: كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك، فقال: هو والله حاجتي، فقال: والله لا أقبلها ولا أعفو عنه، فردّه إلى المدينة، فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله، حتى تركه في جبة صوف، فسأل الناس بالمدينة. وكان الزهري قد أشار عليه برأي سديد، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ولم يفعل، فأبغضه الناس وذمه الشعراء، ثم كان هذا آخر أمره. وقد روى من رآه بعد عزله قال: رأيته في المدينة عليه جبة من صوف يسأل الناس وقد عُذّب ولقي شراً.

٢١ ـ عبد الواحد بن عبدالله بن كعب النصري (٠٠ ـ بعد ١٠٦ هـ)(*)

والٍ تابعي من رجال الحديث الثقات، ولي المدينة ومكة والطائف سنة ١٠٤ هـ واستمر سنةً وثمانية أشهر، وعزله هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ هـ وكان يذهب مذاهب الخير، ولا يقطع أمراً إلا استشار فيه القاسم، وسالم ابن عبدالله. قالوا: ولم يقدم على المدينة وال أحب إليهم منه، وكان يتعفف في حالاته كلها.

= والطبري جـ ٧ أحداث سنة ١٠٤.

(*) انظر: جمهرة أنساب العرب جـ ٢٧٠ لابن حزم، وتهذيب التهذيب جـ ٦/٤٣٦.

٢٢ - إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي(**):

ولاه هشام بن عبد الملك، وهو ابن خاله، هشام بن إسماعيل. اشتهر بشدته. ولي المدينة سنة ١٠٦ هـ، وكثرتْ شكاوى الناس منه، فعزله هشام سنة ١١٤ هـ. قال ابن قتيبة: في الكلام عن يحيى بن عروة بن الزبير: كان له علم بالنسب وأيام الناس، فذكر إبراهيم بن هشام، عامل هشام بن عبد الملك على المدينة، فأمر به هشامٌ فضُرب، فمات يحيى بعد الضرب.

وكان يحيى بن عروة، قال شعراً يعرّض فيه بإبراهيم بن هشام: ومنه قوله[١]:

لبستم ثياب الخزّ لما أمنتم وبالأمس لا تدرون من فتح القرى
وقوفاً بأطراف الفجاج وخيلنا تساقى كؤوس الموت تدعس بالقنا[٢]
فلما أكلتم فيئنا برماحنا تكلم مكفيٌّ بعيب الذي كَفَى

وكان عبدالله بن عروة، قد تظلم من إبراهيم بن هشام، إلى هشام بن عبد الملك بأنه يستولي على أموال الناس، فقال: أخذ إبراهيم بن هشام ما بين منابت الزيتون إلى منابت القرظ[٣]، فلم يغنه كُثر ما بين يديه عن قليل ما بأيدينا. وكان عبدالله بن عمر بن عبدالله بن عمرو بن عثمان، العرجي، الشاعر، يهجو إبراهيم بن هشام، فأخذه فحبسه، فهلك في السجن، وهو القائل في السجن:

كأني لم أكن منهم وسيطاً ولم تك نسبتي في آل عمرو[٤]

---

(١) الأبيات في جمهرة أنساب العرب ١٢٤. ونسب قريش ٢٤٧.

(٢) الدعس: الطعن. والمدعس: الرمح يطعن به.

(٣) منابت الزيتون: في الشام. ومنابت القرظ في اليمن. والقرظ: ورق السلم.

(٤) المعارف لابن قتيبة ص ٢٠٠. وآل عمرو: عمرو بن عثمان بن عفان. وسمي الشاعر بالعرجي، لأنه كان ينزل (العرج) موضع قرب الطائف.

وفي نسب قريش (١١٨) إن الذي حبس العرجي، محمد بن هشام.

(**) «المعارف» ٢٢٣، ونسب قريش/٣٢٩، وجمهرة أنساب العرب/٢٤.

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسِدادِ ثَغْر

٢٣ ـ خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم[١][*]:

وقع اضطراب في كتب التاريخ، في مدة تولية خالد، ووقت توليته. فقد ورد في «البداية والنهاية»[٢] أن هشام بن عبد الملك عزل إبراهيم بن هشام عن المدينة، وولى عليها محمد بن هشام المخزومي، ثم نسب إلى الواقدي أن الذي حج بالناس خالد بن عبد الملك. ثم ذكر سنة ١١٥ هـ أن الذي حج بالناس محمد بن هشام، وهو نائب الحرمين. وفي سنة ١١٨ هـ قال: وحج بالناس محمد بن هشام أمير المدينة وقيل: إن إمرة المدينة كانت مع خالد بن عبد الملك ثم قال: والصحيح أنه كان قد عزل، وولي مكانه محمد بن هشام ابن إسماعيل[٣]. وتكون مدة ولاية خالد أربع سنوات.

وفي كتاب نسب قريش أن خالداً تولى المدينة لهشام بن عبد الملك سبع سنوات، فأقحطوا، فكان يقال: سنيات خالد، وكان أهل البادية قد رحلوا إلى الشام. وكان يقال لسنيه: (السنيات البيض) وكان كاتبه أبو الزناد[٤]. وفي مكان آخر، يروى عن عبدالله بن عروة في سنيات خالد، وذكر أنه ولي لهشام سبع سنين، ولكنه لم يحدد وقت الولاية بالسنوات.

وذكر في مكان آخر سبب عزله عن ولاية المدينة[٥] أن عبد الرحمن بن

---

(١) ورد اسم (خالد) هذا في البداية والنهاية، أنه ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم وهذا خطأ. لأن عبد الملك بن مروان ليس له ولد اسمه خالد، انظر (جمهرة الأنساب)، (ونسب قريش).

(٢) جـ ٣٠٦/٩، و٣٢٠ سنة ١١٤ هـ.

(٣) وقد وافق ابن كثير ما في الطبري، أن خالداً تولى سنة ١١٤، وعزل سنة ١١٨ هـ (الطبري جـ ٧) وفيه أن أبا بكر بن عمرو بن حزم صلى بالناس ستة أيام حتى قدم محمد بن هشام. وكان محمد نائباً على مكة والطائف.

(٤) عبدالله بن ذكوان المدني، إمام حجة ثقة في السنة مات سنة ١٣١ هـ. وكان يسمى «أمير المؤمنين في الحديث». تهذيب التهذيب جـ ٢٠٢/٥.

(٥) نسب قريش ٢٧٩.

(*) الطبري سنة ١١٤، ونسب قريش ص ١٧٠، ٢٧٩.

القاسم بن محمد بن أبي بكر، كان خرج يتظلّم من خالد بن عبد الملك إلى هشام، وكان خالد والياً على المدينة، فلما فقده خالد ظن أنه خرج إلى المشرق (وكان له قدر عند أهل المشرق) فكتب إلى هشام يذكر له أن عبد الرحمن بن القاسم خرج قبل المشرق. وكثَّر عليه، فلم يدر هشام إلا بعبد الرحمن قادماً عليه يتظلم من خالد، فغضب هشام على خالد وقال: لا تعمل لي على عمل أبداً، وعزله.

وفي جمهرة أنساب العرب[1] يذكر أن خالد بن عبد الملك بن الحارث ولي المدينة لهشام. وفي مكان آخر يذكر أن أحمد بن صفوان بن عبيد الله بن عبدالله بن أبي بن خلف، ولي قضاء المدينة لخالد بن عبد الملك بن الحارث[2].

والصحيح من كل ما سبق: أن خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، يكون قد تولى المدينة وحدها مدة أربع السنوات. وأن محمد بن هشام بن إسماعيل الذي تداخل اسمه مع اسم خالد في التولية، يكون والياً على مكة، وكان يقيم الحج للناس أو أن خالداً بدأ والياً على الحرمين، ثم اقتصر على المدينة.

٢٤ ـ محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي: (٠٠٠ ـ ١٢٥ هـ)[*]

ولي المدينة ابتداء من سنة ١١٨ هـ إذا تحقق أن خالد بن عبد الملك، تولى مدة أربع سنوات من ١١٤ ـ ١١٧ هـ. وهو خال هشام بن عبد الملك.

---

(١) ص ١٠٩ و١٦١.

(٢) ويذكر في ص ١٦٩ (جمهرة أنساب العرب) أن أبا بكر بن عبد الرحمن بن أبي سفيان بن حويطب، ولي قضاء المدينة لخالد بن عبد الملك بن مروان، أيام هشام بن عبد الملك، فإذا رجعنا إلى أولاد عبد الملك بن مروان ص ٨٩ من الجمهرة، لا نجد من أولاده من يسمى خالداً.

(*) الطبري، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية ـ أحداث سنة ١١٤، وسنة ١٢٥ والأعلام للزركلي «قال: وفي الكامل للمبرد أبيات قيلت في محمد، وأخيه إبراهيم، تشير إلى أنهما كانا خاملي الذكر، وخرجا من حد السوقة إلى حد الملوك، لأن ـ هشام بن عبد الملك ابن أختهما».

وتولى هو، وأخوه إبراهيم، وأبوهما هشام. وذكر المصعب الزبيري في نسب قريش[1] أن محمد بن هشام كان والياً على مكة زمان هشام بن عبد الملك وبهذا يصح ما قلناه سابقاً، أنه اجتمع مع خالد بن عبد الملك على ولاية الحرمين، لخالد المدينة، ولمحمد مكة. ويذكر أنه سجن عبدالله بن عمر (العرجي) الشاعر في تهمة دم مولى لعبدالله بن عمر، ادعى على عبدالله دمه، فلم يزل محبوساً في السجن حتى مات. وقد مر سابقاً أن الذي حبسه إبراهيم ابن هشام. كما ورد في (المعارف) لابن قتيبة.

وبقي محمد بن هشام والياً على المدينة حتى سنة ١٢٥ هـ، حيث مات هشام بن عبد الملك وتولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

٢٥ ـ يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي: (٠٠٠ ـ بعد ١٢٦ هـ)

ولاه الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ. وهو ابن أخي الحجاج بن يوسف، وخال الوليد بن يزيد[2] وأمره الوليد أن يقيم إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومي بالمدينة مهانين، لكونهما خالي هشام ابن عبد الملك ثم يبعث بهما إلى يوسف بن عمر في العراق. فبعثهما إليه، فمازال يعذبهما حتى ماتا وأخذ منهما أموالاً كثيرة.

ودامت ولاية يوسف بن محمد مدة خلافة الوليد سنة ١٢٦ هـ. حيث قتل الوليد بن يزيد لفسقه (والله أعلم).

٢٦ ـ عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: (٠٠٠ ـ بعد ١٤٧)[*]

من سكان المدينة، ولّاه يزيد بن الوليد بن عبد الملك (الناقص) سنة ١٢٦ هـ وأمّره مروان بن محمد على المدينة ومكة، ثم عزله في سنة ١٢٩ هـ،

(١) ص ١١٨.
(٢) البداية والنهاية جـ ١٠/٤ سنة ١٢٦ هـ.
(*) «تهذيب التهذيب» جـ ٣٤٩/٦، والجمهرة/١٠٦، والأعلام للزركلي.

وعين بعده عبد الواحد بن سليمان. قال ابن حزم في الجمهرة. وكان عبد العزيز بن عمر في صحابة أبي جعفر المنصور، يلبس السواد والسيف. وروى عنه وكيع وغيره[1]، وذكره ابن حبان في الثقات.

٢٧ - عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك: (٠٠٠ - ١٣٢ هـ)[**]

ولي المدينة ومكة سنة **١٢٩** هـ. وكان هذا العام أمير الحج، وفي يوم عرفه جاء إليه الخوارج، من جبال عرفة من طريق الطائف. فوجه إليهم رجالاً من قريش فكلموهم، وسألوهم أن يكفوا حتى يفرغ الناس من حجهم، ففعلوا فلما كان يوم النفر الأول، خرج عبد الواحد كأنه يفيض، فمضى على وجهه إلى المدينة، وترك ثقله وفساطيطه بمنى.

فقال شاعر يعيّره:

زار الحجيجَ عصابةٌ قد خالفوا دينَ الرسول وفرَّ عبدُ الواحد
ترك الإمارةَ والحلائلَ هارباً ومضى يخبّطَ كالبعير الشارد
ترك القتال وما به من علةٍ إلا الوهون وعرقه من خالد[2]

ولما رجع عبد الواحد إلى المدينة، جهّز السرايا لقتال الخوارج، وبذل النفقات وزاد في أعطية الأجناد وسيرهم سريعاً، والتقوا بالخوارج في «قُدَيد» في طريق مكة، فانهزم جيش المدينة وقتل من القرشيين عدد كثير. ولما ظفر العباسيون بالأمويين كان عبد الواحد في جملة من قتلهم صالح بن علي العباسي.

---

(١) وكيع بن الجراح. كان محدث العراق في زمانه. أراد الرشيد توليته القضاء فرفض تورعاً. توفي سنة ١٩٧ هـ. (تهذيب التهذيب جـ ١١).

(٢) وعرقه من خالد: يشير إلى أم عبد الواحد بن سليمان، وهي أم عمر بنت عبدالله بن خالد ابن أسيد بن أبي العيص. وخالد بن أسيد، أسلم يوم فتح مكة، وكان فيه تيه شديد فقال النبي ﷺ: اللهم زده تيهاً فكان ذلكم في ولده (المعارف لابن قتيبة ٢٨٣). والأبيات السابقة في نسب قريش ص ١٦٦.

(**) نسب قريش/ ١٦٦، والطبري سنة ١٢٩ هـ. والأعلام للزركلي.

٢٨ ـ محمد بن عبد الملك بن مروان: (٠٠٠ ـ ١٣٢ هـ)

ذكره ابن كثير فقال: قال أبو معشر: وحج بالناس في هذه السنة (سنة ١٣٠ هـ) محمد بن عبد الملك بن مروان، وقد جُعلت إليه إمرة المدينة ومكة والطائف. والخبر يوافق ما جاء في الطبري سنة ١٣٠ هـ.

وذكر ابن حزم في الجمهرة من أولاد عبد الملك بن مروان، محمداً وسعيداً وقال: وكانا ناسكين، قُتلا يوم أبي فطرس[١]. ونقل الزركلي أن محمداً بن عبد الملك تولى الديار المصرية لأخيه هشام، وأقام فيها شهراً ـ ثم ترك العمل، وانصرف إلى الأردن، وقتل يوم نهر أبي فطرس. والراجح أنه لم يتول إمارة المدينة، لأن ـ عبد الواحد بقي في المدينة حتى بداية سنة ١٣٠ هـ، ثم دخلها الخوارج، ولعل محمد بن عبد الملك حج بالناس سنة ١٣٠ هـ ولم يكن أميراً.

٢٩ ـ الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعدي:

ذكره السيد أحمد ياسين الخياري، في رسالته التي ذكر فيها أسماء أمراء المدينة وأرخ إمارته سنة ١٣١ هـ.

وفي الطبري: وفي هذه السنة (١٣١ هـ) حج بالناس الوليد بن عروة ابن محمد بن عطية السعدي، وهو ابن أخي عبد الملك[٢] بن محمد بن عطية الذي قتل أبا حمزة الخارجي. وكان الوليد والي المدينة من قبل عمه. وكان

---

(١) نهر أبي فطرس: قرب الرملة من أرض فلسطين، ومخرجه من أعين في الجبل المتصل بنابلس، ويصب في البحر عند يافا. وكانت به وقعة عبدالله بن علي مع بني أمية فقتلهم سنة ١٣٢ هـ. (معجم البلدان).

(٢) أمير من القادة الشجعان في عصر بني مروان، سيره مروان بن محمد لقتال أبي حمزة وطالب الحق، فالتقى بأبي حمزة بوادي القرى، فقتله وهزم أصحابه وقصد اليمن وقاتل طالب الحق وبعث برأسه إلى الشام. فكتب إليه مروان بإمارة الحج فأبقى جيشه في صنعاء وسار في عدد قليل، فلقيه جمع من بني مراد فقتلوه سنة ١٣٠ هـ.

مروان قد كتب إلى عمه عبد الملك بن محمد بن عطية يأمره أن يحج بالناس وهو باليمن فلما سار إلى مكة قتله أنـاس في طريقـه وكان معـه قلة من الصحاب. فلما أبطأ عليه عمه عبد الملك افتعل كتاباً من عمّه يأمره بالحج بالناس، فحج بهم.

وذُكر أن الوليد بلغه قتل عمه عبد الملك فمضى إلى الذين قتلوه فقتل منهم مقتلة عظيمة وبقر بطون نسائهم وقتل الصبيان وحرق بالنـار من قدر عليه منهم.

٣٠ ـ يوسف بن عروة بن محمد بن عطية السعدي:

وهو أخو الوليد بن عروة، الوالي السابق. قال الطبري[١]: وفي سنة ١٣٢ عزل مروان بـن محمد، الوليد بن عروة، وولاها أخاه يـوسف بن عروة. ونقل عن الواقدي: أن يوسف قدم المدينة لأربع خلون من شهر ربيع الأول. وربما لم تدم إمارته إلا أياماً، لأن الطبري يذكر أنه بويع لأبي العباس بالمدينة بالخلافة في شهر ربيع الأول وحج بالناس في هذه السنة داود بن علي عمّ السفاح، وهو أول والٍ على المدينة من بني العباس. وأول من أقام الحج بالناس في ولاية العباسيين سنة ١٣٢ هـ. وهو الذي قضى على بقايا الأمويين في مكة والمدينة.

ملاحظات حول أمراء المدينة في العهد الأموي

١ ـ استمر العهد الأموي على الأمصار الإسلامية، حوال تسعين سنة. نقتطع منها حوالي عشر سنوات خضعت فيها الحجاز لحكم ابن الزبير[٢]

(١) الطبري جـ ٤٥٨/٧ سنة ١٣٢ هـ.

(٢) في سنة إحدى وأربعين، سلم الحسن بن علي الأمر لمعاوية بن أبي سفيان، كما روى ابن جرير الطبري سنة ٤١ هـ. وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ أخذت البيعة لأبي العباس السفاح.

وأما ابن الزبير: فقد قال ابن قتيبة في المعارف (كانت فتنته منذ مات يزيد بن معاوية إلى أن قتل، تسع سنين وثلاثة أشهر وأياماً).

ولكن مدة سيطرة ابن الزبير على المدينة، أقل من مدة سيطرته على مكة، لأن طارق بن عمرو استولى على المدينة سنة ٧٢ هـ قبل القضاء على ابن الزبير في مكة.

وفي فترة العهد الأموي والزبيري، توالى على المدينة ثلاثون والياً، إذا حذفنا إعادة التولية، واعتبرنا من تولّى مرتين، أميراً واحداً[١].

وكان بعض الأمراء يختص بالمدينة وحدها، وبعضهم تضاف إليه مكة والطائف ويعين من قبله نواباً. فيكون أمير المدينة أميراً على الحجاز. واتساع رقعة الإمارة لكي تشمل الحجاز، أو اقتصارها على المدينة، يكون حسب قوة الوالي ومكانته من الخليفة، وحسب الحاجة. وتكون المدينة دائماً عاصمة الإمارة، ومنزل الأمير، إذا كانت الإمارة تشمل مكة والطائف.

٢ ـ كان عدد الأمراء كبيراً إذا قيس إلى مدة العهد الأموي والزبيري، وإذا قارناه بعدد الخلفاء. فإذا وزعنا الولاة على مدة العهد الأموي فإننا نجد لكل ثلاث سنين والياً. وإذا قسمنا الولاة على الخلفاء، فإننا نجد لكل خليفة واليين أو أكثر، فعدد خلفاء العهد الأموي أربعة عشر خليفة وفيهم ابن الزبير[٢].

ولكن عهود الخلفاء لم تكن متساويةً في كثرة تبدل الولاة: ففي عهد معاوية أربعة ولاة، وهنا نحتسب ولاية مروان مرتين، أميرين، لأن عزل الوالي وإعادة توليته، له دلالته على السياسة الإدارية السائدة.

وفي عهد يزيد بن معاوية القصير، أربعة ولاة، لأن الوليد بن عتبة تولى مرتين. وفي عهد ابن الزبير ستة ولاة، لأن جابر بن الأسود تولى مرتين.

---

(١) مروان بن الحكم، تولى مرتين، والوليد بن عتبة تولى مرتين، وجابر بن الأسود في عهد بن الزبير تولى مرتين.

(٢) معاوية، يزيد بن معاوية، مروان بن الحكم، عبد الملك، الوليد، سليمان، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام، الوليد بن يزيد، يزيد الناقص، إبراهيم، مروان الحمار، وعبدالله بن الزبير، عاصر عبد الملك بن مروان).

وفي عهد عبد الملك خمسة ولاة، وفي عهد الوليد واليان. وفي عهد هشام ثلاثة ولاة، وفي عهد مروان بن محمد أربعة ولاة.

ولا شك أن هذا التغيير له أسبابه، وله دلالاته.

فما الأسباب والدلالات الكامنة وراء هذا التغيير؟ فما سبب عزل والٍ وتولية جديد؟ وما المعاني التي نستخلصها من وراء ذلك؟.

إننا لا نستطيع أن نعطي حكماً موحداً على العهد الأموي كله فقد تتغير الأسباب لتغير الخلفاء، وتتغير الدلالات تبعاً للخلفاء.

ونبدأ بعهد معاوية، فنجده يولي مروان مرتين، ويولي سعيد بن العاص، والوليد بن عتبة. ويمكننا أن نعلل التغيرات عند معاوية بما يأتي:

كان معاوية يخشى أن تطول مدة الوالي فيثبت أقدامه في الولاية ويجمع حوله الأنصار، وخصوصاً إذا كان الوالي أموياً قرشياً. ومعاوية نفسه صاحب تجربة في هذا المجال، فإن طول ولايته على الشام كانت من أسباب تدعيم حكمه.

ولذلك نجد معاوية يوهن الصلات بين زعماء بني يأمية، ويستولي على أموالهم بعد عزلهم حتى لا تكون الأموال سبباً في جمع الأعوان. ورأينا سابقاً كيف أن معاوية طلب من سعيد بن العاص أن يهدم بيت مروان، ويقبض أمواله فطوى سعيد الأمر ولم ينفذه، فلما تولى مروان بعده، جاءه ما جاء سعيداً، فأراد مروان أن ينفذ أمر معاوية، فأطلع سعيدُ مروان أنه جاءه مثل هذا الأمر ولم ينفذ. فكف مروان عن التنفيذ. وعاتب سعيد معاوية في هذا الفعل، فوعده أن لا يعود إلى بذر العداوة بين بني أمية.

وربما كان السبب في تغيير الولاة: أن بني أمية كانوا يطمعون في الخلافة وليس فقط في الولاية، وإن أسراً كثيرة كانت تنافس أبناء أبي سفيان. وقد روى لنا المسعودي سابقاً أن مروان غضب عندما أخبره معاوية بأنه قرر أن يسمي ابنه يزيد ولياً للعهد، فخرج مروان من المدينة أثناء ولايته عليها وأتى

الشام، وجرى بينه وبين معاوية كلام، منه قوله لمعاوية: «واعلم أن لك من قومك نظراء» ولم يرض مروان حتى قال له معاوية: أنت نظير أمير المؤمنين وعُدته في كل شديدة وعضده، ووعده أن يكون وليَّ العهد بعد يزيد، ورده إلى المدينة. ثم عزله وولاها الوليد بن عتبة. وروى المصعب الزبيري في نسب قريش[1] قال: اشتكى عمرو بن عثمان بن عفان فكان العواد يدخلون عليه فيخرجون، ويتخلف عنده مروان، وكان مروان يحرّض عمرو بن عثمان، على معاوية، فبلغ الخبر معاوية بن أبي سفيان فكتب معاوية إلى مروان، أشهد أني سمعت رسول الله يقول: إذا بلغ ولد الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً ودين الله دخلاً، وعباد الله خولاً[2]. فكتب مروان إلى معاوية «أما بعد يا معاوية، فإني أبو عشرة، وأخو عشرة وعم عشرة» يريد أن يقول: إن وقت تحقيق نبوءة الرسول عن بني الحكم قد حلَّ وأنهم بلغوا ثلاثين رجلاً.

وربما كان معاوية يقصد من هذا التغيير إلى إرضاء زعماء بني أمية فينال كلٌّ نصيبه من الإمارة، وكانت السياسة تقضي أن يكون والي الحجاز من الأمويين أو من القرشيين، لأن الوالي الأموي يحاول أن يحافظ على ملك أهله، وفي الحجاز قريش، ولابد أن يكون واليها منها حتى تخضع له.

أما في عهد يزيد بن معاوية، فقد كانت الأوضاع السياسية مضطربة، وفي مدة ثلاث سنوات، تَحْدُثُ حركة الحسين ومعركة الحرة، وفتنة ابن الزبير وفي هذه المدة القصيرة توالى على المدينة أربعة أمراء، لأن الوليد بن عتبة تولى في عهد يزيد مرتين. وكان سبب هذا التغيير السريع، أن الولاة كانوا يعجزون عن الوقوف في وجه الحركات المعارضة. فقد عجز الوليد بن عتبة عن أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير، وخرجا من المدينة، وكان خروجهما تشجيعاً لهما على تنفيذ ما يريدان، فعُزل الوليد لعجزه، ثم جاء عمرو بن

---

(١) نسب قريش ص ١٠٩.
(٢) قال ابن كثير: حديث ضعيف.

سعيد، فقسا على أهل المدينة ولكنه عجز عن محاصرة ابن الزبير، فعاد الوليد مرة أخرى لعله يتمكن مما عجز عنه عمرو بن سعيد، ولكنه يفشل فيعزل، ويجيء عثمان بن محمد ويعجز أيضاً عن إخماد الفتنة، ولم يتمكن يزيد من القضاء على ثورة أهل المدينة إلا بجيش من خارج الحجاز، وقواده بعيدون عن أهل المدينة، وبعيدون عن قريش(١).

وهكذا نرى أن هدف يزيد من وراء هذا التغيير، هو البحث عن الرجل الكفء الذي يستطيع أن يقضي على الفتن، وكان يسرع في العزل والتعيين، لأن الحوادث كانت تتوالى مسرعةً، وتتسع الحركات بصورة تهدد الخلافة.

أما في عهد عبدالله بن الزبير، فإن السبب في سرعة التبديل يرجع إلى ضعف الولاة وعجزهم عن الدفاع عن المدينة المنورة، ولم يكن لابن الزبير رجال أقوياء، من أهله أو من أنصاره سوى مصعب بن الزبير، وقد ادخره للعراق، أما أخوه عبيدة فقد كان ضعيفاً غير مهابٍ وعزله عن المدينة لأن الناس لقبوه: مقوم ناقة صالح. ومع كثرة أخوة عبدالله بن الزبير فإنه لم يكن يعتمد عليهم في مهمات الأمور. وجرب ابنه حمزة، فولاه البصرة فأساء في إدارته، وحاز أموالها، فعزله.

وقد تولى جابر بن الأسود بن عوف مرتين، هرب في المرة الأولى أمام جيش ابن دلجة وترك المدينة دون والٍ، ولم يحاول الدفاع عنها فجاء المدد من البصرة وأرسل ابن الزبير قائداً من لدنه هو العباس بن سهل. وتولى مصعب ابن الزبير فترة عندما عزله أخوه عن العراق، ثم أعاده، وولى جابر بن الأسود مرة أخرى، وفي هذه المرة يعزل لأنه جلد سعيد بن المسيب، ثم يتولى ابن عمه طلحة بـن عبدالله بن عوف، ولم يبد مقاومة أمام جيش طارق بن عمرو الذي أرسله عبد الملك بن مروان. ونلاحظ من خلال إدارة ابن الزبـير

---

(١) كان على الجيش قائدان: مسلم بن عقبة من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ثم الحصين بن نمير بن ناتل، السكوني من كندة.

للمدينة، أن بني عوف كانوا يؤيدون ابن الزبير، وكان ابن الزبير يثق بهم. ولذلك وجدنا واليين من بني عوف هما: جابر، وطلحة، ونجد مصعب بن عبد الرحمن يرفض إيذاء مؤيدي ابن الزبير، عندما كان على الشرطة أيام عمرو بن سعيد الأشدق، فيعزل، ويلتحق بابن الزبير(١).

أما في عهد بني مروان، فإن تغيير الولاة، كان إما بسبب مجيء خليفة جديد تختلف سياسته عن سابقه، وإما بسبب تبدل سياسة أهل المدينة وأحياناً يكون بسبب شكوى الناس من الوالي(٢).

بعد أن استقر الأمر لعبد الملك ولى على المدينة أبان بن عثمان، وكان فقيهاً بعيداً عن الشدة، ويبدو أن أهل المدينة إذا شعروا بالأمن، ولان بهم الأمير تبدأ الآراء السياسية في التحرك والإعلان، ولذلك عزل عبد الملك، أبان بن عثمان، وولى مكانه هشام بن إسماعيل لسببين: كان أولاً والداً لإحدى زوجات عبد الملك، التي أنجب منها ابنه هشام بن عبد الملك، وكان شديداً(٣) فاحتاج إليه عبد الملك لتكميم الأفواه وكبت حرية التعبير، فحقق عبد الملك رغبة هشام في الولاية، وحقّق هشام رغبة عبد الملك في ضبط المدينة.

أما الوليد بن عبد الملك فلم يكن راضياً عن سياسة هشام، وكان أهل المدينة قد ضجوا من ظلمه، فأراد الوليد أن يتقرب إلى أهل المدينة، وأن يخفف عنهم فعزل هشاماً وولى عمر بن عبد العزيز، فسار فيهم سيرة حسنةً، فأدت سياسة اللين إلى جرأة الناس على مقام الخلافة، وارتفعت أصوات المعارضة لسياسة الحجاج بن يوسف في العراق، فأصبحت المدينة منطقة

---

(١) بنو عوف: أولاد عوف بن عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة: وهم عبد الرحمن، وعبدالله، والأسود. وممّن عمل مع ابن الزبير: مصعب بن عبد الرحمن، وطلحة ابن عبدالله وجابر بن الأسود.

(٢) انظر سياسة الخلفاء الإدارية من هذا الكتاب.

(٣) انظر ترجمته في فصل أمراء المدينة، من هذا الكتاب.

للاجئين السياسيين الفارين من سيف الحجاج[1]. وكان الحجاج يد الوليد القوية، فأشار الحجاج على الوليد بعزل عمر، وتولية عثمان بن حيان لتحقيق سياسة معينة، وهي العودة إلى كبت حرية التعبير، ومطاردة العراقيين. وجاء سليمان، وجعل عمر بن عبد العزيز وزيره، فأشار عليه بعزل عثمان، ليكف شره عن الناس، وولى مكانه أبا بكر بن حزم الأنصاري، واستمر الأخير حتى نهاية خلافة عمر[2].

فلما جاء يزيد بن عبد الملك، تبدلت سياسته، فجاء بوال جديد هو عبد الرحمن بن الضحاك، فاشتد على أهل المدينة، وكثرت الشكوى منه، وتطاول على فاطمة بنت الحسين عندما رفضت الزواج منـه، وشكته إلى الخليفة فعزله[3].

وعندما يأتي هشام بن عبد الملك، اهتم بتولية خاليه: إبراهيم بن هشام ومحمد بن هشام، وبعد هشام يأتي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان يكره هشام بن عبد الملك، لأنه كان يلومه على فسقه، وكاد أن يعزله عن ولاية العهد، فلما تولى انتقم من أخوال هشام، إبراهيم ومحمد، وولى خاله يوسف بن محمد الثقفي. ثم يأتي يزيد بن الوليد الناقص، وكان ورعاً تقياً فعين واحداً من أولاد عمر بن عبد العزيز، ثم يأتي مروان بن محمد آخر الخلفاء، وتتوالى الأحداث في أيامه، وتتوالى المصائب على رأس بني أمية من الخوارج تارة، ومن بني العباس تارة أخرى ويعيش مروان أيامه في قلق، فيكون الأمر في المدينة قلقاً، ويتوالى على المدينة في عهد مروان القصير أربعة ولاة[4].

٣ ـ من الملاحظ على أمراء المدينة، أيام خلفاء بني أمية، أن غالبيتهم

---

(١) أبو يوسف: الخراج ص ١٥٧.
(٢) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٧٢.
(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٤ ص ٢٣١.
(٤) الطبري جـ ٨ ص ٣٥٢، الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٦٣.

من الأمويين، أو القرشيين. فقد تولاها ستة عشر والياً من القرشيين: منهم إثنا عشر والياً من بني أمية، والباقي من قريش، وثلاثة من القرشيين لهم قرابة بالأمويين وهم هشام، وابناه محمد وإبراهيم. وواحد فقط من الأنصار هو أبو بكر بن حزم. وفي عهد ابن الزبير تولاها أربعة من القرشيين[1]. وهذه الظاهرة لا تلاحظ في ولاة الأمصار الأخرى. والسبب في ذلك أن والي المدينة، سواء اقتصر عليها أم شملت ولايته الحجاز كله يضم في ولايته قبيلة قريش، وهي صاحبة السيادة في الحجاز وفي الجزيرة، وفيها الرئاسة ولها الخلافة والزعامة، وكثير منهم يتطلع إلى الزعامة، فلابد أن يكون الوالي منهم ليخضعوا له.

اختصاصات أمير المدينة

ذكر الماوردي في «الأحكام السلطانية»[2] أنواع الإمارة فقال: إذا قلّد الخليفة أميراً على إقليم أو بلد، كانت إمارته على ضربين: عامة، وخاصة.

أما الإمارة العامة: فعلى ضربين: إمارة استكفاء بعقد اختيار، وإمارة استيلاء[3] بعقد عن اضطرار.

وإمارة الاستكفاء التي تنعقد عن اختيار الخليفة، تشتمل: على عمل محدود، ونظر معهود. والتقليد فيها: «أن يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو إقليم ولايةً على جميع أهله ونظراً في المعهود من سائر أعماله، فيصير عام النظر فيما كان محدوداً، من عمل ومعهوداً من نظر».

أما الإمارة الخاصة: فهو أن يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية، وحماية البيضة والذب عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء، والأحكام والجباية والخراج والصدقات..

(١) انظر كتاب (عبدالله بن الزبير) للدكتور الخربوطلي.
(٢) الباب الثالث في تقليد الإمارة على البلاد.
(٣) إمارة الاستيلاء: أن ينفصل أمير إقليم عن سلطان الخليفة، فيقره الخليفة على إمارته مضطراً.

وحدد الماوردي اختصاصات أمير الولاية العامة بسبعة أمور:

١ ـ النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

٢ ـ النظر في تدبير الجيوش وتقدير أرزاقهم.

٣ ـ جباية الخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمّال فيها، وتفريق ما استحق منها.

٤ ـ حماية الدين والذب عن الحريم، ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل.

٥ ـ إقامة الحدود في حق الله، وحقوق الآدميين.

٦ ـ الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.

٧ ـ تسيير الحجيج.

وعندما نرجع إلى تاريخ أمراء المدينة في العصر الأموي، ونتعرف على أعمالهم، وما روي عن سيرتهم، فإننا نجد ولايتهم كانت إمارة عامةً، بعقد اختيار من الخليفة. وكان يوكل إليه النظر في الأمور السبعة التي حددها الماوردي.

الأمر الأول: النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام[1].

الأمر الثاني: النظر في تدبير الجيوش وتقدير أرزاقهم:

وكان أمير المدينة يقوم بتجنيد الجيوش من أهل المدينة عندما تدعو الحاجة إلى ذلك إذا دهم الولاية أمر.. وقد حدث ذلك في عهود متعددة من العصر الأموي: ومن ذلك عندما أعد عمرو بن سعيد الأشدق سنة ٦٠ هـ، جيشاً للقضاء على حركة ابن الزبير في مكة، بقيادة عمرو بن الزبير أخي عبدالله بن الزبير. وحدث عندما استولى الخوارج على مكة سنة ١٢٩، في إمارة عبد الواحد بن سليمان[2]، أما ضرب البعث للجهاد العام، وحماية

---

(١) انظر «قضاة المدينة في العصر الأموي» من هذا الكتاب.

(٢) انظر ترجمة، «عمرو بن سعيد، وعبد الواحد بن سليمان» في فصل أمراء المدينة من هذا الكتاب.

الثغور، فكان من حق الخليفة عندما تحتاج الثغور إلى ذلك. فقد رُوي أن الوليد بـن عبد الملك ضرب على أهل المدينة بعث ألفين، وأنهم تجاعلوا[1]، فخرج ألف وخمسمائة، فغزوا الصائفة مع مسلمة بن عبد الملك.

وفي زمن هشام بن عبد الملك، يُروى أنه قدم المدينة، فرأى كثـرة الناس فضرب عليهم بعث أربعة آلاف فسمي العام سنة الأربعة آلاف.

الأمر الثالث: جباية الخراج والصدقات:

وكان أمير المدينة يتولى جباية المال المستحق على الناس ويولّي السعاة على هذا الأمر. والأموال التي تجبى في الحجاز زكاة الأموال وعشور الأراضي، وليس في أرض ـ الحجاز خراج[2] وقد أباح عثمان رضي الله عنه، للناس إخراج زكاتهم بأنفسهم، ولذلك يرى أبو حنيفة أنه لا يحق قتال أربـاب الأموال إذا أرادوا إخراج الزكاة بأنفسهم، ويقاتلون إذا رفضوا إخراجهـا مطلقاً. ويبدو أن الأمويين عادوا إلى جمعها من الناس جميعاً، لا يتخلف منهم أحد، وعيّنوا السعاة من أجل ذلك. وكان يحدث من بعض جامعي الزكاة ظلم على الناس، فيأخذون ما زاد عن حقّ الله في المال.

روى ابن خلدون في المقدمة، وأبو هلال العسكري في الأوائل: أن أول مَنْ أحدث المقصورة في المسجد مروان بن الحكم في إمارته على المدينة. وكان قد بعث ساعياً إلى تهامة، فظلم رجلاً، فجاء حتى قام حيث يريد مروان أن يصلي فطعنه، فأخذوه وقالوا: ما حملك على ما صنعت. قال: بعثتَ عاملك فأخذ مالي، فقلت: «أذهب إلى الذي بعثه أقتله فهو أصل الظلم».

وأصحاب الحقوق في هذه الصدقات ذكرهم الله تعالى في القرآن، وهم

---

(١) ضرب البعث: أي فرض عليهم الخروج إلى الحرب، وتجاعلوا: نزلوا عن جعلهم وعطائهم.
(٢) انظر «الأحكام السلطانية»/ ١٦٩.

ثمانية أسهم. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء»[1]، وإذا عدم بعض الأصناف الثمانية قسمت الزكاة على مَنْ يوجد منهم ولو كان صنفاً واحداً.

ولا ينقل سهم مَنْ عدم منهم إلى جيران المال إلا سهم سبيل الله في الغزاة، فإنه ينقل إليهم لأنهم يسكنون الثغور في الأغلب.

ولا يجوز أن تنقل زكاة بلد إلى غيره إلا عند عدم وجود أهل الأسهم في هذا البلد الذي جُمعت منه الصدقات.

ولكن بني أمية لم يكونوا يوزعون الصدقات على مستحقيها، وإنما كانت ترد إلى ديوان الإمارة، ومن ثم إلى بيت مال الخليفة، ثم تعود إلى مَنْ لا يستحقها على هيئة عطاء. وقد ذكر أبو حمزة الخارجي هذا الأمر من عيوب الأمويين عندما دخل المدينة[2] ولذلك نجد بعض مَنْ ولي جباية الصدقات يقسّمها في مستحقيها ولا يصرف إلى الأمراء منها شيئاً[3].

الأمر الرابع: حماية الدين والذبّ عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل:

وكان هذا الواجب يشارك فيه أهل المدينة جميعهم، أمراؤهم، ورؤساء شرطهم، وعلماؤهم. ولم نعرف ظهور بدع، أو تحريفاً في الدين، طيلة العهد الأموي. وكان أهل المدينة يحاربون كلَّ عمل يخالف القرآن، وسنة رسول الله ﷺ. واشتد أهل المدينة في محاربة الخوارج عندما رأوا في فقههم ما يخالف السنة[4].

---

(١) رواه السيوطي في الجامع الصغير عن أبي داود.
(٢) الطبري جـ ٧/سنة ١٣٠ هـ.
(٣) انظر ترجمة القاضي نوفل بن مساحق، في تراجم القضاة من هذا الكتاب.
(٤) انظر «أبو حمزة الخارجي» من هذا الكتاب.

الأمر الخامس: إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين:

والمروي عن أمراء المدينة أنهم كانوا ينفّذون الحدود في حق الله وحقوق الآدميين: فشارب الخمر يُجلد، والسارقُ تقطع يده، والقاتل يُقتل، والقاذُف أعراض الناس، يجلد ويعزر وينفى.

وكُتب التاريخ عامرة بأمثلة من إقامة الحدود في عصر بني أمية: من ذلك ما رُوي أن مروان بن الحكم أخذ رجلاً قطع درهماً من دراهم فارس، فقطع يده ورُوي أن أبان ابن عثمان، عاقب من قطع الدراهم، وضربه ثلاثين سوطاً وطاف به. وعندما عزل الوليد بن عبد الملك، هشام بن إسماعيل المخزومي، أمر بوقفه للناس لأخذهم حقوقهم منه بالضرب أو الشتم، كما كان يفعل بالناس أثناء إمارته.

الأمر السادس: الإمامة في الجمع والجماعات:

وهذا الواجب من أولى واجبات الأمير، لأن اسم إمام الناس، أخذ من هذا الواجب. وكانت الإمامة في الصلاة تعتبر من أولى علامات الرئاسة، وكانوا يتنازعون فيها، ويتسابقون إليها، لأنها من مقدمات الإمامة السياسية.

فقد كانت من أولى الأسباب لاختيار أبي بكر خليفة، كون الرسول عليه الصلاة والسلام اختاره ليكون إماماً، أثناء مرضه ﷺ.

وعندما قتل عمر بن الخطاب ـ وكان قد عيّن مجلس الشورى ـ تدافع علي بن أبي طالب[1] وعثمان بن عفان للصلاة على جنازته، فمُنعا من ذلك لئلا تكون صلاة أحدهما إرهاصاً، لاختياره خليفة، وكان الاثنان من مجلس الشورى.

(١) تاريخ ابن شبة جـ ٩٢٦/٣. قال عبد الرحمن بن عوف لهما: كِلاكُما يحب الإمرة، لستما من هذا في شيء، هذا إلى صهيب. استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على إمام.

ولذلك نرى الأمير في المدينة يقوم بإمامة الناس في صلواتهم، المفروضة والمسنونة ولم نقرأ في التاريخ أن الأمير استخلف عليها، إلا في مرض أو سفر. وكان يصلي خلف الأمير كل مَنْ في المدينة، وكان في الصدر الأول من العصر الأموي، الصحابة وأبناء الصحابة، وكبار التابعين، وفيهم مَنْ هو أكثر فقهاً من الأمير.

فقد روي أن الحسن والحسين كان يصليان خلف مروان بن الحكم ، ولا يعيدانها ويعتدان بها.

ويوم توفي الحسن بن علي، قَدّم الحسين سعيد بن العاص، فصلى على الحسن، وقال: لولا أنها سنة، ما قدمته.

يريد أن السنة أن يكون إمام الناس في الصلوات، من أنابه الخليفة وأمّره على الناس. وقد قال عليه الصلاة والسلام «صلوا خلف كل برّ وفاجر وصلوا على كل برّ وفاجر، وجاهدوا مع كل برّ وفاجر»[1].

الأمر السابع: تسيير الحجيج:

وكان أمير المدينة هو الذي يقيم للناس حجهم في أكثر السنوات، لأن مكة والطائف، كانت تخضع لسلطانه غالباً، فإذا لم يحج الخليفة، أو يرسل من يحج بالناس فقد كان والي المدينة يقود الحجيج في مشاعر الحج.

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي، عن البيهقي من السنن، وفي البخاري ما يؤيده جـ ٢/٥٤ شرح القسطلاني (باب حكم إمامة المفتون، والمبتدع) روى عن الحسن البصري قوله: ضلّ وعليه بدعته. وكان يصلي بالناس في حصار عثمان رئيس الفتنة عبد الرحمن بن عديس، فتحرّج الناس من الصلاة خلفه، وسألوا عثمان فقال: «الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسنْ معهم». وفي جـ ٥/٧٠. باب «الجهاد ماض مع البر والفاجر».

ديوان المدينة المنورة

الديوان[1]: موضع، أو كتاب (سجل) لحفظ ما يتعلق بحقوق الإمارة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجند والعمال.

وكان لكل إمارة ديوان، على غرار ديوان الخليفة في العاصمة.

وهو قسمان: ديوان الجيش، وديوان الاستيفاء والجباية والصرف.

فأما ديوان الجيش، فأول مَنْ وضعه في الإسلام عمر بن الخطاب، عندما أتى أبو هريرة بمال من البحرين، فاستكثروه وتعبوا في قسمه[2] فأشار خالد بن الوليد بالديوان، وقال: رأيت ملوك الشام يدوّنون، فقبل منه عمر. وقيل: بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقيل له: ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم، فإن من تخلف أخلّ بمكانه وإنما يضبط ذلك الكتاب، فأثبت لهم ديواناً.

وأمر عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجُبير بن مطعم ـ وكانوا في كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية، على ترتيب الأنساب، مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ، وما بعدها الأقرب فالأقرب.. وبعد ذلك سجل الناس على سابقتهم في الإسلام، فلما انقرض أهل السوابق فيها بعد رُوعي في التفضيل التقدمُ في الشجاعة والبلاء في الجهاد.

وقدّر عمر لأهل الديوان عطاء سنوياً على قدر المنازل، وكان يقدر للمحارب من العطاء ما يكفي للفرس والسلاح والسفر والنفقة على الأهل حين السفر.

---

(١) في تسمية الديوان روايتان: الأولى: أن كسرى رأى كتاب ديوانه يحسبون مع أنفسهم فقال «ديوانه» ومعناها: مجانين، فسمي المكان بهذا الاسم، وحذفت الهاء تخفيفاً والثاني: أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين، فسمي المكان باسمهم، أو سمي الكتاب باسمهم لسرعة نفوذهم في فهم الأمور، ووقوفهم على الجلي والخفي منها».

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٢.

وكان الديوان في الأصل واحداً ثم تفرع إلى فروع - منها ديوان الجباية، وديوان الرسائل وللديوان رئيس عام، أو كاتب الديوان. وذكر له الماوردي شرطين هما: الكفاية، والعدل.

أما الكفاية: فهي القدرة على تصريف أمور الديوان بحيث تتوفر فيه الشروط اللازمة للعمل، كالكتابة، والحساب.

وأما العدل: فيقصد به، الأمانة والحرص على مصالح الرعية التي بين يديه وكان يعتبر كاتب الديوان في العصر الأول وزير المالية، يعد نفسه حارساً، أميناً على أموال المسلمين يراقب الدخل والخرج، ويعطي كلّ صاحب حق حقه ويسجل كلّ مولود ليأخذ حقه من العطاء..

وأول كاتب للديوان عبدالله بن الأرقم[1]، وكان يكتب للرسول ﷺ ولأبي بكر رضي الله عنه، ثم استعمله عمر بن الخطاب على بيت المال، وبقي فترة من خلافة عثمان ثم استعفى، وأجازه عثمان بثلاثين ألفاً فأبى أن يقبلها وقال: إنما عملت لله. ويروى في سبب استعفائه من العمل، أن عثمان أخذ من بيت المال وأعطاه لمروان بن الحكم فجاء بمفاتيح بيت المال ووضعها بين يدي عثمان رضي الله عنه وقال له: لو أعطيت مروان مائتي درهم كان كثيراً. وترك العمل في بيت المال.

وجاء بعده زيد بن ثابت الأنصاري، وكان إماماً حجةً في الفقه والفرائض والحساب وبقي على ديوان المدينة حتى وفاته حوالي سنة ٤٥ هـ.

ثم تولى الكتابة في ديوان المدينة عبد الملك بن مروان وهو ابن ست عشرة سنة ذكر ذلك ابن قتيبة في «المعارف» وقال: كان معاوية جعل عبد الملك بن مروان مكان زيد بن ثابت على ديوان المدينة. وقد ولد عبد الملك سنة ٢٦ هـ، ويكون قد تولى الديوان سنة ٤٢ هـ. في بداية العصر الأموي بعد أخذ البيعة لمعاوية وكان أمير المدينة والده مروان بن الحكم.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة «ت ٤٥٢٨/».

ومن أشهر كُتّاب الديوان في المدينة أبو الزناد، عبدالله بن ذكوان، الفقيه المحدث، وكان كاتباً على ديوان المدينة أيام هشام بن عبد الملك. قال الذهبي[1] وكان أبو الزناد صاحب كتابة وحساب، وفد على هشام بحساب ديوان المدينة...

ويبدو أن وظيفة الكتابة في الديوان كانت محاطة بالشبهات، ولم يكن يرغب فيها أهلُ العلم، وخاصة بعد عهد الخلافة الراشدة، لأن صاحب الديوان يطلع على دخل المال وخرجه، وكان يحصل فيه غبن بالرعية.

ورد في حاشية «نسب قريش»[2] نقلاً عن الميزان للذهبي، نقلاً عن الإمام مالك: «كان أبو الزناد كاتب هؤلاء، يعني بني أمية، وكان لا يرضاه يعني: مالك». وحجة الإمام مالك أن كاتب الديوان يطلع على غبن الرعية ولا يستطيع أن ينكر على الأمير، أو الخليفة.

وكان كاتب الديوان خاضعاً لمحاسبة الخليفة في دمشق يرفع إليه الدخل والخرج سنوياً، وقد يطلب منه الخليفة رفع الحساب في أي وقت، وأن ينقل الأموال من ديوان المدينة إلى بيت المال في دمشق.

ذكر الطبري في أحداث سنة ١٠٤ قال: وكان على ديوان المدينة ابن هرمز (رجل من أهل الشام) فكتب إليه يزيد بن عبد الملك أن يرفع حسابه ويدفع الديوان.

ولم يبق ديوان المدينة كما وضعه عمر بن الخطاب، ولم يعد التسجيل في ديوان العطاء ملزماً الخليفة بتنفيذ حقوق المسجلين، بل لم يكن التسجيل في الديوان حقاً مفروضاً لكل إنسان. فمن رضي الخليفة أو الأمير عنه سجله ومن سخط عليه حرمه. ورأينا الناس يلجؤون إلى الخليفة يطلبون منه فرض

(١) تذكرة الحفاظ جـ ١٢١/١.

(٢) صفحة ١٧١ حاشية رقم ١.

العطاء لهم، ونقرأ في ترجمة الإمام الزهري أنه هاجر إلى الشام في خلافة عبد الملك بن مروان لضيق الحال وعجزه عن إطعام أهله. فدخل على عبد الملك، وقال له: يا أمير المؤمنين افرض لي فإني منقطع من الديوان فقال عبد الملك: إن بلدك ما فرضنا فيه لأحدٍ منذ كان هذا الأمر[1].

* * * *
* * *
*

(١) «البداية والنهاية» ترجمة الزهري جـ ٩، والسبب في حرمانه من العطاء، أن أباه كان من أنصار ابن الزبير.

٤ ـ قضاة المدينة المنورة في العصر الأموي

أ ـ مقدمة في بداية وظيفة القاضي:

اختلف المؤرخون في بداية وظيفة القاضي في المدينة المنورة. هل كانت موجودة قبل العصر الأموي أو وجدت في عهد معاوية؟ أما في عهد رسول الله ﷺ، فلا شك أن القضاء في المدينة كان مرجعه الأول رسول الله. وعندما تولى أبو بكر الخلافة قال: أعينوني، فقال عمر: أنا أكفيك القضاء، وقال أبو عبيدة: أنا أكفيك بيت المال واعتبر أبو هلال العسكري في كتاب «الأوائل» عمر بن الخطاب أول قاضٍ في الإسلام. وروى وكيع في أخبار القضاة[1]: أن أبا بكر قدم حاجاً إلى مكة، فعُرضت عليه قضية رجل، قاتله رجلٌ، فقطع بعض أذنه فسأل عمر فيها: هل بلغ القصاص؟ فقال عمر: إن هذا قد بلغ القصاص.

وروى الزهري أن أبا بكر وعمر لم يكن لهما قاضٍ ـ في محل إقامتهما ـ حتى قال عمر ليزيد بن سعيد: اكفني بعض الأمور ـ يعني صغارها ـ فكان يقضي في الدرهم ونحوه[2].

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى، أن عمر استعمل زيد بن ثابت

---

(١) أما في الأقاليم، فقد روي أن النبي ﷺ أرسل علياً، ومعاذاً، وأبا موسى الأشعري إلى اليمن لتعليم الناس الشرع. والقضاء بينهم (أخبار القضاة لوكيع من ٨٤ ـ ١٠٢).

(٢) «الإصابة» ت ٩٢٢٤. ويزيد بن سعيد، صحابي، يماني الأصل، و«سير الأعلام» جـ ٤٣٨/٣.

على القضاء وفرض له رزقاً. وروي أن عمر بن الخطاب كان بينه وبين أبيّ ابن كعب خصومة، فأتيا زيد بن ثابت، وقال له عمر: في بيته يُؤتى الحكم.

وأما في عهد عثمان بن عفان، فقد روى البيهقي في السنن في كتاب (آداب القاضي) أن عثمان رضي الله عنه، كان إذا جاءه الخصمان قال لأحدهما: اذهب فادع علياً، وقال للآخر: اذهب فادع طلحة والزبير، ونفراً من أصحاب النبي، ثم يقول للخصمين تكلما، ثم يُقبل على القوم فيقول: ما تقولون؟ فإن قالوا ما يوافق رأيه أمضاه، وإلا نظر، فيقومان وقد سلّما.

وروى نحوه، وكيع في أخبار القضاة، وزاد: ولا يُعلم أن عثمان بن عفان استعمل قاضياً في المدينة إلى أن قتل في ذي الحجة سنة ٣٥ هـ.

ولكن الطبري قال في تاريخه عند الكلام على أعمال عثمان: وكان على قضاء عثمان يومئذ زيد بن ثابت.

وذكر ابن حجر في الإصابة (رقم ٧٤٧٩) أن عثمان أقعد كثير بن الصلت الكندي للنظر بين الناس، ونقل عن محمد بن سلام في طبقات الشعراء: أن الشماخ وزوجته اختصما إلى كثير بن الصلت، وكان عثمان أقعده للنظر بين الناس.

وروى الذهبي[1] أن عثمان بن عفان قال لابن عمر: اذهب فاقض بين الناس فقال: أو تعفيني من ذلك، قال: فما تكره من ذلك، وقد كان أبوك يقضي، قال: إني سمعت رسول الله يقول: «من كان قاضياً: فقضى بالعدل فبالحريّ أن ينقلب كفافاً»[2] فما أرجو بعد ذلك؟.

ويبدو مما نقلنا من الروايات، أن الذين نَفَوْا وجود قضاة في المدينة زمن الخلفاء الراشدين الثلاثة، إنما يريدون نفي وظيفة القاضي المختص الذي

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٣/٢٢٢.

(٢) رواه السيوطي في الجامع الصغير، عن الترمذي وقال: حديث حسن.

ينفرد بالنظر في الخصومات. فمن تولى القضاء، فقد تولاه مساعداً لا وظيفةً، وكان الخلفاء يفصلون في القضايا الكبرى والصغرى مع وجود القاضي المساعد.

والذين أثبتوا وجود القضاة في العهد الراشدي. لم يثبتوا وظيفة القاضي الوحيد. ولم يوجد القاضي بالمعنى الاصطلاحي الذي عُرف في العهد الأموي إلا ابتداء من عهد معاوية. حيث كان من اختصاص أمير المدينة أن يعين قاضياً مختصاً للنظر في الخصومات.

ب ـ قضاة المدينة المنورة في العهد الأموي:

١ ـ أبو هريرة:

ذكره وكيع في أخبار القضاة، وذكر له عدداً من القضايا، وروى عمن قال: شهدت أبا هريرة يقضي، فجاء الحارث بن الحكم، فجلس على وسادته التي يتكيء عليها، فظن أبو هريرة أنه جاء لحاجة غير الحُكم، فجاء رجل فجلس بين يديه فقال له: مالك قال: استأدني على الحارث فقال أبو هريرة: قم يا حارث فاجلس مع خصمك، فإنها سنة أبي القاسم ﷺ.

وروي عن أحدهم قوله: عقلتُ بعيري ودخلتُ المسجد، فجاء رجل فأطلقه فجئت إليه فقلت: يا فاعلا بأمه ـ قذفه ـ فرفعني إلى أبي هريرة فضربني ثمانين ـ حدّ القذف.

ولم تحددْ الروايات متى ولي أبو هريرة القضاء، ولمن تولى القضاء ويبدو أن صنيع أبي هريرة كان أثناء ولايته على المدينة أميراً[1]. أو قبل أن يستقر الأمر لمعاوية ويولي الأمراء على المدينة.

لأن أبا هريرة كان يقول ـ عندما تولى عبدالله بن الحارث القضاء ـ هذا

---

(١) انظر خبر ولايته إمارة المدينة في هذا الكتاب.

أول قاضٍ رأيته. وربما أُوكل إلى أبي هريرة النظر في الخصومات في الفترات الانتقالية عند عزل أمير وتولية آخر أو عند عزل قـاضٍ، وتولية آخر، ولم يرد أنه تسمى قاضياً في العصر الأموي.

٢ ـ عبدالله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب: (٠٠٠ ـ ٨٤ هـ)(*)

اتفق المحققون على أن عبدالله بن نوفل، أول قـاضٍ في المدينة في العصر الأموي يكون مختصاً بالنظر في الخصومات، بل هو أول من تولى وظيفة قـاضٍ في تاريخ المدينة. قال ابن حجر في الإصـابة: كـان يشبه النبي ﷺ وولي قضاء المدينة لمروان بن الحكم في خلافة معاوية، وهو أول من ولي قضاءها. وكذلك ذكره، المصعب الزبيري في نسب قريش، وابن حزم في الجمهرة وفي كتاب «الأوائل» لأبي هلال العسكري: أول قـاضٍ بالمدينة عبدالله بن نوفل، استقضاه مروان بن الحكم، وكان أول ما قضى به حقاً على آل مروان، فزاده ذلك عند مروان خيراً.

وذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى قول أبي هريرة: «هذا أول قـاضٍ رأيته في الإسلام».

وحدد الزركلي في «الأعلام» بداية عمله سنة **٤٢** هـ.

وقد حصل خلط في كتب التاريخ بينه وبين ابن أخيـه عبدالله بن الحارث بن نوفل بـن الحارث..

فذكر الطبري، وابن الأثير، وابن كثير في أحداث سنة **٤٩** هـ أن عبدالله بـن الحارث بن نوفل كان قاضياً لمروان بن الحكم على المدينة.

وشك وكيع في «أخبار القضاة» وقدّم عبدالله بن الحارث ثم قال: ويقال: عبدالله بـن نوفل، ولم يرجح أحدهما.

(*) الإصابة ت ٤٩٩٤.

وقد جاء الوهم من التشابه في الاسم، مما جعل النساخين يخلطون بين الاسمين.

وقد كان عبدالله بن الحارث يسكن العراق، في البصرة، وقد اتفق عليه أهل البصرة بعد موت يزيد بن معاوية، وهو الذي يلقب «ببة» وهو ابن أخي عبدالله بن نوفل القاضي[1].

وبقي عبدالله بن نوفل قاضياً على المدينة حتى عزل مروان بن الحكم في إمارته الأولى سنة ٤٩ هـ. وكان قاضياً عدلاً فهماً وكان مرضياً صحيحاً في الحكم، ورضيه أهل المدينة حتى عزل عنهم. وكان أول ما قضى به أن أنفذ القضاء على عبدالله بن حنطب[2]، وكان زوج أخت مروان بن الحكم. فأرسل إليه مروان: عجلت عليه في القضاء، فأرسل إليه عبدالله بن نوفل: أمضى الله عليه قضاءه قبل قضائي عليه، فأعجب ذلك مروان من قوله وفعله.

٣ ـ أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: (٠٠٠ ـ ٩٤ هـ)[*]

قال ابن سعد: إن اسمه عبدالله. وروى الذهبي عن مالك قال: كان عندنا من رجال أهل العلم من اسم أحدهم كنيته، منهم: أبو سلمة...

وكان معاوية عزل مروان بن الحكم عن إمارة المدينة سنة ٤٩ هـ،

---

(١) نسب قريش للزبيري ص ٣١. والجمهرة لابن حزم. وقال ابن دريد في الاشتقاق ـ: «ببه» لقب لقبته به أمه، وكانت ترقصه وتقول:

لأنكحن بَبّة جارية خدبّه تجبّ أهل مكة.

أي: تغلب نساء قريش بجمالها.

(٢) عبدالله بن حنطب، ذكره بعضهم في عداد الصحابة. الإصابة رقم ٤٦٣٦.

(*) طبقات ابن سعد ١٥٥/٥. وسير الأعلام ٢٨٧/٤، والمعارف لابن قتيبة. وطبقات الفقهاء للشيرازي. وتذكرة الحفاظ ٥٩/١.

واستعمل سعيد بن العاص، فعزل عبدالله بن نوفل، واستقضى أبا سلمة . . .

وقال في الجمهرة: إنه ولي شرطة سعيد بن العاص. ويبدو أنه جمع بين القضاء والشرطة، كما حصل لأخيه مصعب من بعده.

واستمر أبو سلمة على القضاء حتى عزله مروان في ولايته الثانية بعد عزل سعيد وكان أبو سلمة من رواة الحديث، ومن فقهاء التابعين ومن أهل الفتوى.

قال الذهبي: أبو سلمة في زمانه خير من ابن عمر في زمانه. ويقال: إنه أرضعته أم كلثوم بنت أبي بكر، فكان يتولج على عائشة. توفي سنة ٩٤ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك.

٤ ـ مصعب بن عبد الرحمن بن عوف: (٠٠٠ ـ ٦٤)(*)

قال ابن سعد في الطبقات «ولما ولي مروان بن الحكم المدينة في خلافة معاوية في المرة الثانية، استعمل مصعب بن عبد الرحمن على شُرطه، وولاه قضاءه بالمدينة، وكان ولاة المدينة هم الذين يختارون القضاة ويولونهم، وكان مصعب شديداً في ولايته، ولما ولي الشرطة أخذ الناس بالشدة فشكوه إلى مروان فكاد يعزله، فشاور المسور بن مخرمة، فقال المسور:

ليس بهذا من سياقٍ عَتْب تمشي القَطُوف وينام الركب[1]

وكان مصعب قد طلب من مروان أن يأتيه بشُرط من خارج المدينة فجاءه بمائتي رجل من أيلة. وبقي مصعبُ والياً على الشُّرط في إمارة الوليد ابن عتبة وعزل عن القضاء.

(١) السياق: السوق. القطوف: المسرع من الدواب. يريد أن يصف مصعباً بحسن السياسة وأن هذا السّوق مناسب لتصل الرواحل إلى غايتها فينام الركب.

(*) طبقات ابن سعد جـ ١٥٨/٥، و«البداية والنهاية» سنة ٦٢ هـ.

وجاء بعد الوليد بن عتبة، عمرو بن سعيد الأشدق، فطلب من مصعب أن يشتد على بني هاشم، وبني أسد، فرفض مصعب، وترك العمل، والتحق بابن الزبير. وكانت وفاته في مكة سنة ٦٤ هـ حيث أصابه حجر المنجنيق في وجهه، وكان ثقةً قليل الحديث.

٥ ـ عمرو بن عبد بن زمعة بن الأسود(*):

ولي قضاء المدينة في إمارة الوليد بن عتبة سنة ٥٨ هـ.، خلفاً لمصعب ابن عبد الرحمن، وهو ابن أخي سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ. وبقي على قضاء المدينة حتى جاء عثمان بن محمد في أواخر عهد يزيد بن معاوية قُبيل معركة الحرة.

٦ ـ طلحة بن عبدالله بن عوف: (۰۰۰ ـ ٩٧ هـ)(**)

ولي قضاء المدينة سنة ٦٢ هـ، في إمارة عثمان بن محمد. يقال له: طلحة الجود.. ومن أخبار جوده أن الفرزدق قدم المدينة، وكان قد مدحه ومدح غيره من قريش، فبدأ به فأعطاه ألف دينار، ثم أتى غيره فجعلوا يسألون: كم أعطاه طلحة، فقيل: ألف دينار. فكانوا يكرهون أن يقصّروا عن ذلك فيتعرضوا للسان الفرزدق. فجعلوا يتكلفون ما أعطاه طلحة، فكان يقال: أتعب طلحةُ الناسَ...

وبعد طلحة تبقى المدينة مدة عشر سنوات في عهد ابن الزبير، ولم يُوظفْ فيها قاضٍ. قال وكيع في أخبار القضاة، بعد أنْ ذكر أمراء المدينة في عهد ابن الزبير. «ولا نعلمهم استقضوا أحداً إلى هذه الغاية».

(*) أخبار القضاة لوكيع جـ ١. والجمهرة لابن حزم.

(**) طبقات ابن سعد جـ ١٦٠/٥. وسير أعلام النبلاء جـ ١٧٤/٤. وانظر «أمراء المدينة» في هذا الكتاب.

٧ ـ عبدالله بن قيس بنَ مْخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف(*):

ذكره ابن سعد في ترجمة أبان بن عثمان، قال: فعزل أبان بن عثمان عبدالله بن قيس عن القضاء وولى نوفل بن مساحق قضاء المدينة.

وكان قاضياً للحجاج بن يوسف الثقفي، واستخلفه على المدينة عندما استعمله عبد الملك بن مروان على العراق. واستمر على القضاء سنتين حيث عزله أبان سنة ٧٥ هـ..

٨ ـ نوفل بن مساحق: (٠٠٠ ـ ٨٤ هـ)(**)

ولي القضاء، لأبان بن عثمان سنة ٧٥ هـ. وبقي حتى سنة ٨٢ هـ، حيث عزله هشام بن إسماعيل المخزومي. ومن أخباره أنه كانت له ناحية من الوليد ابن عبد الملك، وكان الوليدُ يعجبه الحمام، ويُتَّخذ له، ويطيره، فأدخل نوفل بن مساحق على الوليد وهو عند الحمام، فقال له الوليد: إنني خصصتك بهذا المدخل لأنسي بك. فقال نوفل: إنك والله ما خصصتني ولكن خسستني، إنما هي عَوْرة، وليس مثلي يدخل على مثل هذا، فسيّره إلى المدينة وغضب عليه.

وكان نوفل يلي المساعي ـ جباية الصدقات ـ ولا يصرف إلى الأمراء من المساعي شيئاً ويقسمها ويطعمها الناس.. توفي سنة ٨٤ هـ.

٩ ـ عمر بن خلدة الزرقي الأنصاري(١):

ولي القضاء في إمارة هشام بن إسماعيل المخزومي سنة ٨٣ هـ.. وروى ابن أسعد أن ابن خلدة كان يقضي في المسجد. وكان مهيباً صارماً،

(١) ابن سعد في الطبقات جـ ٥/ وأخبار القضاة لوكيع. وتهذيب التهذيب جـ ٤٤٢/٧.

(*) أخبار القضاة جـ ١٢٤/١، «الجمهرة» ص ٧٣. ونسب قريش ص ٩٢. وطبقات ابن سعد جـ ١٥٢/٥. و«تهذيب التهذيب».

(**) الإصابة/٨٩٠٩، و«أخبار القضاة» «ونسب قريش» ٤٢٧.

رُوي أنه قال لرجل رفع إليه: اذهب فاسجن نفسك، فذهب الرجل وليس معه حرسيّ حتى أتى السجّان فسجن نفسه. وكان عفيفاً لم يرتزق على القضاء فلما عُزل، قيل له. يا أبا حفص، كيف رأيت ما كنت فيه؟ قال: كان لنا إخوان فقطعناهم، وكانت لنا أُريضة نعيش منها فبعناها وأنفقنا ثمنها. وقيل له: ما استفدت من القضاء؟ قال: داراً لي كنت أموّن فيها عيالي، بعتها فوقيتُ بها عرضي.

وروى ابن سعد: أن الناس كانوا في زمن ابن خلدة، يتقاولون في المدينة فيقول أحدهم لصاحبه: لأنت أفلس من القاضي.

قال: فصار القضاة اليوم، ولاة، وجبابرة وملوكاً أصحاب غلات وضياع وتجارات وأموال...

بقي في القضاء حتى جاء عمر بن عبد العزيز سنة ٨٧ هـ.

١٠ ـ عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة الأنصاري: (٠٠٠ ـ ٩٣ هـ)(*)

استقضاه عمر بن عبد العزيز سنة ٨٧ هـ وهو أمير على المدينة، ثم عزله عزلاً جميلاً، وكان سبب عزله أنه كان إذا اختصم إليه الخصمان في الشيء التافه أخرجه القاضي من ماله، فأصلح به أمرهما. فذُكر ذلك لعمر ابن عبد العزيز، فذكر ذلك للقاضي فقال له: لا أستطيع غير ذلك. فعزله عمر بن عبد العزيز وكان راتبه في الشهر دينارين.

وعبد الرحمن ولد في عهد النبي ﷺ، وسماه أبوه «القاسم» فأنكر الأنصار ذلك، فسماه الرسول «عبد الرحمن». ومات بالمدينة سنة ٩٣ هـ.

١١ ـ أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري: (٠٠٠ ـ ١٢٠ هـ)(*)

ولي القضاء لعمر بن عبد العزيز سنة ٨٧ هـ. ولما عزل عمر،

(*) الإصابة ٦٢٣٥، وطبقات ابن سعد جـ ٨٤/٥.

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٣١/٥. الأغاني جـ ٤ ترجمة الأحوص. وأخبار القضاة لوكيع. =

استقضاه عثمان بن حيّان، وبقي على القضاء حتى سنة ٩٦ هـ. حيث أصبح أميراً على المدينة في عهد سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز.

وكان شديداً على الفساق من الشعراء وله مع الأحوص قصص كثيرة في الأغاني.. وكان رحمه الله يقول: ما بقي من أهل الدعوة غيري، يعني أن الرسول ﷺ قال: «اللهم اغفر للأنصار وأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار»[1].

١٢ ـ أبو طواله عبدالله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصاري: (٠٠٠ ـ ١٣٤ هـ)[*]

ولي القضاء في إمارة أبي بكر بن حزم، وبقي حتى عزله عبد الرحمن بن الضحاك في عهد يزيد بن عبد الملك. وكان فقيهاً «ثقة» ونقل عنه قوله: «ليستْ لنا أخلاقُ آبائنا في الجاهلية مع إسلامنا»..

١٣ ـ سلمة بن عبدالله بن سلمة[**]:

استعمله على القضاء عبد الرحمن بن الضحاك الفهري. وبقي حتى سنة ١٠٤ هـ.

١٤ ـ سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: (٠٠٠ ـ ١٢٧ هـ)[***]

تولى قضاء المدينة مرات لعدد من الأمراء.. تولاه لعبد الواحد

= و«المعارف» لابن قتيبة. «وأمراء المدينة» في هذا الكتاب.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(*) تهذيب التهذيب جـ ٢٩٧/٥. وسير أعلام النبلاء جـ ١١٤/٥. وطبقات ابن سعد جـ ٣٤١/٥.

(**) تهذيب التهذيب جـ ١٤٨/٤. وأخبار القضاة لوكيع جـ ١. والطبري سنة ١٠١ هـ.

(***) الجمهرة/١٣٣. وسير أعلام النبلاء جـ ٤١٨/٥. والمعارف/٢٣٧ والأغاني جـ ٣٥٨/٣. ونسب قريش/٢٧٠ وأخبار القضاة ص ١٦١.

النصري ولإبراهيم بن هشام المخزومي زمن هشام بن عبد الملك، وتولاه في إمارة يوسف بـن محمد الثقفي في خلافة الوليد بن يزيد.. وكان سعد صليباً في الحكم شريفاً يُهاب ويُتقى، وله قصص كثيرة حول القضايا التي عُرضت عليه مع الخلفاء والأمراء والشعراء، تدل على قوته في الحق.

ومن أخباره ما رواه وكيع في أخبار القضاة، أن الوليد بن يزيد أمر بصنع قُبة على ظهر الكعبة لتظلله إذا حجَّ وحملها على الإبل من الشام، ومرّتْ الإبل بالمدينة ومعها قائد وألف فارس، ففزع الناس إلى سعد ابن إبراهيم وكان على قضاء المدينة، فأضرم في القبة النار.

واشتد على السفهاء والشعراء والمغنين فقال الشعراء في هجائه الشعر الكثير وكان سفهاءُ المدينـة يتعرضون لأصحاب السلطان بعد عزلهم لزوال القوة من أيديهم أما سعد بن إبراهيم فكان يخشاه الناس لما عرفوا أنه ما يكاد يُعزلُ عن القضاء حتى يعود إليه.

١٥ ـ سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت الأنصاري(*):

قال ابن حزم: ولي سعيد قضاء المدينة أيام يزيد بن عبد الملك لعبد الواحد النصري وفي «تهذيب التهذيب» ولي قضاء المدينة لإبراهيم بن هشام المخزومي.. وعلى هذا تكون ولايته القضاء بعد سعد بـن إبراهيم في إحدى مرات توليته القضاء. وروى ابن حجر عن مالك: أن سعيداً أُكـره على القضاء. كان فاضلاً عابداً كثير الصلاة.

١٦ ـ محمد بن صفوان بن عبيد الله الجمحي(**):

ولي القضاء لإبراهيم بن هشام، ولخالد بن عبد الملك بن الحارث. قال ابن حجر: محمد بن صفوان، قاضي المدينة أيام هشام.

(*) «تهذيب التهذيب» جـ ٤٢/٤. و«الجمهرة /٣٤٨. و«الأغاني» ترجمة موسى شهوات.

(**) نسب قريش/٣٨٧. والجمهرة/١٦٠. وأخبار القضاة جـ ١ و«تهذيب التهذيب» جـ ٢٣٢/٩.

١٧ ـ الصلت بن زُبيد بن الصلت الكندي(*):

ولي بعد محمد بن صفوان في إمارة إبراهيم بن هشام. روى عنه مالك في الموطأ، وقال الزرقاني شارح الموطأ: وحسبك بتوثيقه رواية مالك عنه. وهو من سلالة ملوك اليمن ـ هاجر أبوه وعمه بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وسكنوها. وكان عمه كثير بن الصلت يسمى «قليل» فسماه عمر بن الخطاب «كثير».

١٨ ـ أبو بكر بن عبد الرحمن(**):

قيل: اسمه رباح بن عبد الرحمن.. ولي القضاء أيام خالد بن عبد الملك بن الحارث وكان شديداً على الشعراء والسفهاء، ولذلك تعرض لألسنتهم بالهجاء.. روى ابن حجر أنه قتل بنهر أبي فطرس سنة ١٣٢ هـ.

١٩ ـ مصعب بن محمد بن عبد الرحمن بن شرحبيل العبدري[١]:

في أخبار القضاة لوكيع أنه تولى القضاء لمحمد بن هشام المخزومي. ونقل ابن حجر عن البخاري أنه كان والياً بمكة.. ولم أر من ولاه قضاء المدينة غير وكيع.. وكان محمد بن هشام والياً على مكة قبل أن يلي المدينة، ولعله استخلفه بعد خروجه من مكة ثم استدعاه ليلي قضاء المدينة. والله أعلم.

٢٠ ـ محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: (٠٠٠ ـ ١٣٢ هـ)[٢]

ولي القضاء لمحمد بن هشام ـ وبقي في القضاء حتى عُزل محمد بن

---

(١) «تهذيب التهذيب» جـ ١٠/١٦٤. وأخبار القضاة لوكيع جـ ١.

(٢) «تهذيب التهذيب» جـ ٩/٨٠. وأخبار القضاة جـ ١.

(*) تاريخ القضاة لوكيع ـ طبقات ابن سعد جـ ٥ ـ والإصابة/٢٢٦٠ والموطأ جـ ٢٤١/١ و«تهذيب التهذيب» جـ ٤٢٠/٨.

(**) الجمهرة ١٦٩، والأغاني جـ ٣ ترجمة موسى شهوات وأخبار القضاة/١٧١ ـ و«تهذيب التهذيب» جـ ٢٣٤/٣.

هشام وولي يوسف بن محمد الثقفي، وهو ابن أبي بكر بن حزم، والي المدينة وقاضيها. توفي سنة ١٣٢ هـ ـ وهو ثقة عند أهل الحديث.

٢١ ـ يحيى بن سعيد الأنصاري[١]:

ولي القضاء في إمارة يوسف بن الثقفي سنة ١٢٥، وعمل قاضياً في العصر العباسي لأبي جعفر المنصور وتوفي سنة ١٤٣ هـ.

٢٢ ـ عثمان بن عمر بن موسى التيمي[٢]:

ولي القضاء في إمارة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز في خلافة يزيد ابن الوليد، وأقره بعد ذلك عبد الواحد بن سليمان في خلافة مروان بن محمد وعاش حتى ولي القضاء لأبي جعفر المنصور ـ توفي سنة ١٤٥ هـ بالحيرة.

٢٣ ـ محمد بن عمران بن إبراهيم[٣]:

آخر قضاة المدينة في عهد بني أمية، تولى بعد جلاء الخوارج عن المدينة في إمارة يوسف بن عروة، وتولى القضاء في العهد العباسي أيام المنصور. وله أخبار كثيرة بسطها وكيع في كتاب القضاة وأكثرها تدور حول بخله. قال وكيع: «وكان رجلاً مصلحاً لماله، فنُسب إلى البخل».

* * * *
* * *
*

---

(١) له ترجمة في فصل الحياة الثقافية من هذا الكتاب وانظر ترجمته «تذكرة الحفاظ» رقم ١٣٠، والمعارف لابن قتيبة/٤٨٢. وطبقات ابن سعد جـ ٥. وسير الأعلام جـ ٥/٤٦٨.

(٢) «تهذيب التهذيب» جـ ١٤٣/٧. وأخبار القضاة جـ ١/ ١٨٠.

(٣) الطبري سنة ١٤٥. وأخبار القضاة جـ ١.



البابُ الرّابع

الحياة الاجتماعية

١ ـ عناصر وطبقات المجتمع المدني.
٢ ـ مظاهر الحياة الاجتماعية.
٣ ـ التغيّر الاجتماعي في المدينة.
٤ ـ حياة الجد واللهو.
٥ ـ التكافل الاجتماعي.



١ ـ عناصر وطبقات المجتمع المدني

أ ـ عناصر المجتمع المدني:

تجمع كتب التاريخ أن اليهود كانوا يسكنون المدينة (يثرب) قبل نزول الأوس والخزرج بها[١]. وكان هؤلاء اليهود قد نزحوا من بلاد الشام أو من مصر، حسب اختلاف الروايات. والرأي الراجح عند المؤرخين أنهم ليسوا عرباً وإن تكلموا اللغة العربية وأجادوها ونظموا الأشعار بها. لأن لهم لغة خاصة هي اللغة العبرية.

والقرآن الكريم عندما يخاطب يهود المدينة، يخاطبهم على أنهم من بني إسرائيل ويذكرهم أن الله فضلهم على العالمين، فهو يضعهم في إطار واحد مع الإسرائيليين الأقدمين زمن موسى عليه السلام[٢].

وقد أردت من هذه المقدمة أن أقول: إن المدينة المنورة لم تكن عربية خالصةً العروبة قبل الإسلام، ولكن فيها العنصر العربي، وفيها العنصر الآخر، ولكن العنصر العربي هو الأكثر. وكان الطابع العربي يغلب على من كان فيها من غير العرب.

---

(١) وفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى للسمهودي. الباب الثالث ص ١٥٦ وما بعدها وكتاب: عمدة الأخبار في مدينة المختار: للشيخ أحمد بن عبد الحميد العباسي الباب الثاني ص ٣٣ وما بعدها. والمدينة المنورة بين الماضي والحاضر «تأليف إبراهيم العياشي».

(٢) سورة البقرة، الآيات ٣٩، ٤٧، ١١٦.

والعنصر اليهودي، الذي وجد في المدينة، له من الأخلاق والتقاليد والأفكار ما يخالف فيه الأوس والخزرج. ومن المؤكد وجود التأثير المتبادل بين العرب واليهود.

ونزح اليهود عن المدينة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية، ولكن بقيت منهم بقايا قليلة أسلمت. ومنهم عبدالله بن سلام، وكعب الأحبار(١).

وكان من بين المسلمين المهاجرين إلى المدينة، عدد من الأعاجم، أذكر منهم سلمان الفارسي(٢) وبلال الحبشي، وصهيباً الرومي. وقد قال عليه السلام: أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة(٣).

وعندما بدأت الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية، بدأت تتوافد إلى المدينة أعداد كبيرة من الرقيق، من أصول مختلفة، منهم الفارسي ومنهم الرومي، وكلما توسع الفتح الإسلامي تنوعت الأسرى، وتعددت أجناسها ومن كل هذه الأجناس يفد إلى المدينة عدد كبير ليأخذ أهل المدينة نصيبهم منه، حتى أصبح له سوق رائجة في المدينة المنورة وغيرها من المدن(٤).

فقد روي أن الجند العربي الزاحف على بلاد فارس، في أيام عمر، أسر بنات يزدجرد ملك الفرس، فَسَبُوهنّ وأرسلوهن مع السبي إلى المدينة

---

(١) كعب بن ماتع، كان من يهود اليمن، فأسلم زمن عمر وقدم المدينة. ثم رحل إلى حمص وتوفي في خلافة عثمان سنة ٣٢ هـ.

(٢) من أصل فارسي، لم يشهد بدراً ولا أحداً لأنه كان في أوقاتها عَبْداً، وأول غزاة غزاها: الخندق من سنة خمس من الهجرة.. توفي في أول خلافة عثمان بالمدائن.

(٣) الجامع الصغير للسيوطي، رواه الحاكم في المستدرك.

(٤) روى البخاري في حديث مقتل عمر بن الخطاب، قوله لابن عباس: قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج في المدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقاً «وروى القسطلاني في شرحه أن عمر قال للعباس لا تدخلوا علينا من السبي إلا الوصفاء فقال العباس: إن عمل أهل المدينة شديد لا يستقيم إلا بالعلوج» شرح القسطلاني جـ ١١٢/٦.

فأمر الخليفة ببيعهن، فأعطاهن إلى دلّال ينادي عليهن في السوق وكان من عادة النبيلات الفارسيات أن يحجبن وجوههن، فكشف الدلال عن وجه إحداهن، فلطمته لطمةً شديدةً على وجهه، فصاح، واعمراه ورفع أمرها إلى الخليفة، فدعاهنّ إليه، وأراد أن يضربهن بالدّرة فحال عليّ دونهن قائلاً: يا أمير المؤمنين إن الرسول قال: «أكرموا عزيز قوم ذل» إن بنات الملوك لا يُبعن، ولكن قوِّمْهن فقوَمهنّ وأعطاه أثمانهن، وقسمهن بين الحسين، ومحمد ابن أبي بكر وعبدالله بن عمر، فولدن ثلاثةً من مشاهير العرب: هم: علي بن الحسين زين العابدين والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله[1].

وروي أن سعيد بن عثمان بن عفان، كان والياً على خراسان زمان معاوية ففتح سمرقند، ثم عزل عن ولايته، وانصرف إلى المدينة، فقتله أعلاج كان قدم بهم من سمرقند[2].

وروى البلاذري في فتوح البلدان، أن معاوية أرسل إلى عمر أربعة آلاف من سبي قيساريه. ويروي المسعودي في مروج الذهب أن الزبير بن العوام، ترك ألف عبد وأمة.

ولم يكن الرقيق هو الطريق الوحيد لدخول العجم إلى المدينة، فقد كانت المدينة مفتوحة أمام جميع المسلمين، فكان يفد إليها كثير من الناس من البلاد المفتوحة، من أجل العبادة أو العلم. فكان في المدينة عدد من الفرس يقال لهم: الماجشون ومنهم يعقوب بن أبي سلمة الماجشون، كان من رجال الحديث، يجالس عروة بن الزبير، وكان أيضاً من ندماء عمر بن عبد العزيز أثناء ولايته على المدينة[3].

---

(١) وفيات الأعيان رقم ٤٢٢.

(٢) أنساب الأشراف ص ١١١.

(٣) وفيات الأعيان، الترجمة رقم ٨٢٣. وذكر ابن خلكان تفسيراً لكلمة ماجشون في ترجمة عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون رقم ٣٧٧. فقال: الماجشون: المورّد أو: الأبيض والأحمر. وقال: وهو معرب من (ماه كون) ومعناه يشبه القمر، أو الأبيض المشوب بحمره. قيل: أصلهم من أصبهان، فكان إذا سلّم بعضهم على بعض قال شوني، شوني، فسمي =

وتروي كتب التاريخ أن الذين قُتلوا من الموالِي يوم الحرة، خمسة آلاف بينما قتل من الأنصار وقريش ثلاثة آلاف[1].

ومعنى هذا، أنه كان في المدينة عدد كبير من الموالي والعبيد. وقد ازداد عدد العبيد فيما بعد لأن الناس قد احتاجوا إليهم في بناء القصور وزراعة البساتين والخدمة في البيوت.

وبسبب كثرة الأعاجم في المدينة، أرخ اللغويون وجود اللحن في المدينة في العهد الأموي، وفشو الكلمات الأعجمية.

إذن فقد كان هناك عنصر أعجمي كبير في المدينة، منهم من كان حُراً ومنهم من كان عبداً. ولا شك أنه كان لهذا العنصر تأثير كبير في الحياة الاجتماعية والعقلية، بما نقلوه من ثقافاتهم وعاداتهم إلى المجتمع العربي.

وإذا أردنا أن نصنف عناصر المجتمع المدني، في العصر الأموي فإننا نجد العناصر التالية: ـ

١ ـ العنصر العربي الخالص: وهؤلاء من قريش والأنصار: الأوس والخزرج وجماعات من العرب جاؤوا إلى المدينة من مناطق أخرى وأقاموا بها في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي عهد الخلفاء الراشدين.

٢ ـ عنصر عربي هجين: وهم أبناء بنات العجم. وقد خرج من هؤلاء جيل تربع على مراكز الشرف في عصر التابعين. وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ منهم القرّاء والعلماء، مثل علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله، ففاقوا أهل المدينة علماً، وعبادة وتقى، فرغب الناس حينئذٍ في السراري.

٣ ـ العنصر الأعجمي الخالص: وهؤلاء يصعب تصنيفهم، لأنهم جاؤوا من

= الماجشون. وفي الأغاني لأبي الفرج: نظرت سكينة إلى يعقوب بن أبي سلمة فقالت: كأنه الماجشون، وهو صبغ أصفر تخالطه حمرة، فلقب به.

(١) الطبري سنة ٦٢. والبداية والنهاية سنة ٦٢.

بلاد متعددة وكان منهم العبيد، ومنهم الأحرار الموالي لمن حررهم أو من العجم المهاجرين إلى المدينة بعد الفتح للمجاورة، وأخذ العلم، كما رأينا في الفرس الذين تسموا الماجشون[1].

ب ـ الطبقات الاجتماعية في المدينة المنورة:

لا أقصد «بالطبقات الاجتماعية» المعنى الذي كان سائداً في العصور القديمة في بعض البلدان التي فتحها الإسلام، حيث قسم المجتمع إلى طبقات بناء على قوانين معينة يعيش الفرد مدة حياته، وهو في طبقته لا يحق له أن يتعداها إلى طبقة أخرى. كما هو سائد في بلاد الهند.

لأن هذا النظام الطبقي حاربه الإسلام، وجعل الناس متساوين في البداية وإنما يتفاوتون بمقدار عملهم في سبيل الآخرة «كلكم لآدم وآدم من تراب» «لا فضل لعربي على عجميّ إلا بالتقوى».

وفي المجتمع الإسلامي، قد يصل الفرد بسعيه إلى درجة من الثروة أو المركز الاجتماعي ولكن هذا لا يمنع أن يكون متساوياً مع أي فرد أمام الشرع الإسلامي. والمراكز الاجتماعية ليست محتكرة لطبقة من الناس، وإنما هي درجة مفتوحة أمام جميع الناس، ـ يصلون إليها بجدهم وسعيهم. فقد يرتفع إلى أعلى المراكز الاجتماعية من كان صفر اليدين منها، وقد يفقد هذا المركز من كان في أعلى قمته[2].

وإذا وُجدت الطبقات الاجتماعية في المدينة، فإنها ليست من صنع

---

(١) انظر تاريخ الطبري حوادث سنة ١٤٥ هـ «وثوب السودان في المدينة» وقد وثب السودان على والي المدينة وقتلوا الجند العباسي، وهرب الوالي، وكان لهم رؤساء ثلاثة.. وكثرتهم تدل على أنهم كانوا موجودين منذ العصر الأموي.

(٢) من أمثلة ذلك: بعض الولاة والأمراء الذين تولوا المدينة ثم عزلوا، وأصبحوا في أدنى السلم الاجتماعي، ومنهم: عبد الرحمن بن الضحاك الفهري، الذي أصبح يتسول ويسأل الناس بعد عزله.

الإسلام، ولا ـ ترتكز على قاعدة شرعية. وإنما هي طبقات فرضتها الظروف السائدة في هذا العصر في المدينة المنورة. لقد كانت نتيجة ظروف سياسية واقتصادية طارئة وتكونت الطبقات عن طريق المصادفة المحضة. فإذا زالت الظروف الطارئة تغير نظام المجتمع حسب الظروف السائدة..

ولتوضيح هذا الكلام أضرب الأمثال:

لقد كون الأمويون أيام عثمان طبقة سياسية، تبعتها منزلة اجتماعية جاءتهم من السلطان والمال..

وعندما تولى الإمام علي تناقصت درجات هذه الطبقة، ولم يبق منها إلا الوجه السياسي، حيث تحولوا إلى طبقة محاربين من أجل الرجوع إلى ما كانوا عليه.

وعندما أخذ معاوية البيعة من الحسن عادت لبني أمية منزلتهم الاجتماعية في المدينة..

ثم جلوا عنها أيام ابن الزبير فعادت المدينة يكاد يتساوى الناس فيها، لأن ـ ابن الزبير لم يكوّن طبقة اجتماعية حوله، ولأن الأحوال لم تستقر في أيامه، فالاستقرار السياسي والاقتصادي من أهم أسباب تكوين الطبقات الاجتماعية.

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز إمارة المدينة، أُعطي الفقهاء منزلة لم يعطوها من قبل أيام الأمويين فأحسوا أنهم أصبحوا أصحاب كلمة في المدينة، وتجرأ أحدهم على أن يقوّم اعوجاجاً في تصرفات عمر وما كان هذا الفقيه يجرؤ على قول ما قال، لوال قبل عمر[1].

---

(١) كان عمر بن عبد العزيز، أثناء إمارته على المدينة، لا زال يستمتع بملاذ الحياة الدنيا في اعتدال. وكان يهتم بلباسه ومظهره، فرآه يوماً الفقيه محمد بن كعب القرظي وهو يلبس ثوباً يكاد يجر ذيله على الأرض. فقال له الفقيه: «ما زاد عن الكعبين فهو في النار» فلم يزد عمر على أن قال له: لا تكن ذبالة تضيء للناس وتحرق نفسها.

(ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٨١).

وعند تولى عمر الخلافة، لم يعد للفقهاء صوتُ في المجتمع، ولم يعودوا مركز قوة معارضة. فقد ألقوا سلاحهم لأن مراكز الأعداء قد سقطت ولم يبق إلا صوت الحق.

وكان في المدينة قبل خلافة عمر، جماعة من المساكين يجمعهم مجلس واحد وعمل واحد وهو بيع الأعلاف لقوافل المسافرين والحجاج، وكانوا يكوّنون طبقة اجتماعية وعندما تولى عمر الخلافة عم الخير جميع الناس، وأخذ كلٌّ إنسان حقه في بيت المال، فزالت هذه الطبقة وأصبحت من الناس.

وأحب أن أذكر أن هذه الطبقات لم تكن متعالية على بعضها البعض، وإن تميزت كل طبقة بنوع من العيش يعلو وينخفض، فالترتيب النفسي لهؤلاء الناس يتساوى في بنائه وإنما يتفاوتون في الشكل الخارجي والمعاش الدنيوي. قد يشعر الأمير، أو صاحب الأموال، أنه في منزلة تفوق منزلة غيره من الناس، ولكنه لن يجد النفس الذليلة التي تعترف له بهذا التعالي، لأن الفقراء وسوقة الناس، يشعرون بالعزة والكرامة التي أعطاهم إياها الشرع الإسلامي، ثم الفضل الأكبر، للمسجد الذي يجمع بين سراة الناس وسوقتهم، وفي المسجد تنخفض نفوس كانت متعالية في مجتمع الشارع وترتفع نفوس أخرى ليتساوى الناس في المنزلة.

وتتكرر هذه الظاهرة النفسية في كل يوم خمسَ مرات، فتنطبع النفوس عليها. . .

قد يصدق على مقدار هذا التفاوت بين الناس: اسم (الدرجة) ويمكن أن نضع لهذه الفقرة عنوان «درجات الناس المعاشية» وهي أقرب ما يكون من المعنى المقصود بقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم[1]﴾.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٥.

أما اسم الطبقات الاجتماعية، فقد أخذ من التاريخ معنى ذمياً مكروهاً إلى النفوس، وهو يقرب من معنى الآية ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً[1]﴾.

وأحب أن أذكر أيضاً، أنني عندما أذكر جماعة في طبقة أو درجة فإنني لا أتعرض لدرجة الإنسان عند نفسه أو عند ربه، وإنما أصف درجة الناس عند الناس أو أصف ما هو واقع بالفعل، وحسب المؤرخ أن ينقل صورة عما رأى أو سمع.

أما درجات الناس، فنستطيع تصنيفها في المدينة المنورة على النحو التالي: ـ

١ ـ في ذروة الهرم المعاشي، نرى أبناء المهاجرين من القرشيين، يستوي في هذا الأمويون وغير الأمويين، لأن الإمارة والقيادة من القرشيين والإمارة كانت أقصر الطريق للحصول على الأموال. وكان هؤلاء القرشيون ينعمون أيضاً بما تدره الدولة عليهم من العطاء، وبما يغدق عليهم الخلفاء من الهبات. وقد بنيتُ حكمي في تصنيف هذه الفئة على ما نراه في كتب التاريخ من أرقام العطايا التي يقدمها الخلفاء الأمويون إلى من يقصدونهم من القرشيين، ومن الإنفاق الكثير الذي نرى أمثلة كثيرة منه، ولا شك أن أكثر اعتماد هؤلاء في نفقاتهم على عطايا الخلفاء:

ومن أمثلة ذلك، ما رواه المصعب الزبيري، أن الحسن بن الحسن بن علي

(١) سورة الزخرف الآية ٣٢. وقد استخدم القرآن اسم «درجة» أو «درجات» للدلالة على التفاوت الاجتماعي، أو للدلالة على التفاوت الحاصل بسبب العمل الصالح. أما اسم «طبقة» فقد استخدم للعبد الزماني أو المكاني. واستخدم المؤلفون العرب اسم «طبقات» في كتب التراجم للدلالة على منزلة الشاعر أو العالم، إذا قيس بغيره. وقد تدل الطبقة على الزمن الذي عاش فيه الشاعر أو العالم لأن العلماء والشعراء يتفاوتون بأزمانهم. انظر «طبقات الشعراء» لابن سلام. و «طبقات الفقهاء» للشيرازي و «طبقات ابن سعد» فمن ارتقى في السلم الاجتماعي فقد صعد درجة ومن نزل فقد هبط إلى «الدَّرك».

كان متزوجاً فاطمة بنت الحسين، فلما حضرته الوفاة قال لفاطمة: إنك امرأة مرغوب فيك، فكأني بعبد الله بن عمرو بن عثمان، إذا خرج بجنازتي قد جاء على فرس مرجلاً جمته، لابساً حُلته، يسير في جانب الناس يتعرَّض لك، فانكحي من شئت سواه، فإني لا أدع من الدنيا ورائي همّاً غيرك. قالت له: أنت آمن في ذلك، وأثلجته بالأيمان من العتق والصدقة، لا تزوجته. ومات الحسن بن الحسن وخرج بجنازته، فوافاه عبدالله بن عمرو في الحال التي وصف الحسن، فنظر إلى فاطمة حاسرةً تضرب وجهها فأرسل لها: إن لنا في وجهك حاجة فارفقي به، فاسترختْ يداها وعرف ذلك فيها، وخمّرت وجهها، فلما حلت أرسل إليها يخطبها فقالت: كيف بيميني الذي حلفت بها، فأرسل إليها: «لك مكان كل مملوك مملوكان ومكان كل شيء شيئان فعوضها عن يمينها فنكحته[1] . . ».

وكان بعضهم يستدين ليجود على الناس في انتظار العطاء، أو يكتب على نفسه ديناً في سبيل الجود، وذلك في انتظار العطاء[2].

ومن إلقاء نظرة على قصور العقيق في المدينة وأسماء أصحابها، نستنتج الكثير من الأدلة على تكوين طبقة القرشيين في المدينة.

وكان وادي العقيق مسكن المترفين من سكان المدينة المنورة، لما يحتاجه الساكن من المال الكثير للبناء وزراعة الحدائق الواسعة التي تحيط بالقصور. وتحتاج إلى عدد كبير من الخدم والعبيد للخدمة. وكانوا يحاولون التباهي والتفاخر بما يبنون ليضاهي أو يفوق نظراءه من المباني.

روى السمهودي، قصة بناء قصر عنبسة بن سعيد بن العاص فقال: ركب هشام بن عبد الملك ومعه عنبسة بن سعيد، فمر بموضع

---

(١) نسب قريش ص ٥٢.

(٢) راجع قصة سعيد بن العاص في نسب قريش ص ١٧٨.

قصر عنبسة، فقال: نعم موضع القصر يا أبا خالد، قد أقطعته لك قال عنبسة: يا أمير المؤمنين من يقوى على هذا؟ فقال هشام: فإني أُعينك فيه بعشرين ألف دينار، فدفعها عنبسة إلى ابنه عبدالله وقال: إنك أنزلت بين الأشياخ، فانظر كيف تبني، فلما فرغ من القصر، بنى ضفائره بالآجر المطبق فقال له عنبسة: أما علمت أن متنزهي أهل المدينة يدقّون عليه العظام، ابنه بالحجارة المطابقة ففعل، وبعث إليه هشام بأربعين بختياً، فكان ينضح عليها في مزارعه وصهريجه[1].

ويروي لنا المصعب الزبيري قصة أخرى من قصص عنبسة بن سعيد، تتعلق بأحواله المالية قال: ذكر عنبسة بن سعيد أنه قال: لما جمعت أهلي قلت: لأرسلنَّ إلى سيد قومي مروان، فلأدعونّه، فأصلحت داري وتجمّلت بالفرشة والستور والخدم والبزة الظاهرة، وتكلفت في ذلك، وصنعتُ طعاماً، وذلك بعدما ملك، ثم دعوته، فأتاني هو وابناه عبد الملك، وعبد العزيز، فجعل ينظر إلى ما هيأت وأتيتُ بالطعام، فوضعته، ثم أدخل يده في الثريد، ثم أقبل عليَّ ويده في الصحيفة يهيء لقمته فقال: يا عنبسة، هل عليك دينٌ؟ قلت: نعم إن عليَّ لدينا، قال: وكم؟ قلت: سبعون ألف درهم. فقبض يده، ورفعها من طعامي وقال لابنيه: ارفعا يديكما، حَرم علينا طعامك، ما كنت تقدر أن تجعل بعض هذه الفضول التي أرى في دَينك، فهو كان أولى به، ثم قام، ولم يأكل من طعامي شيئاً. فلو كان قضاها عني كان ذلك بأنفع لي من عظته[2].

ونعود مرة أخرى لنلقي نظرةً على أسماء من بَنْوا القصور في وادي العقيق فإننا نجد أكثرهم من القرشيين، ولكننا نلاحظ أيضاً أن الهاشميين لم يكن لهم حظ من هذه القصور، رغم أن بعضهم ممن شهر بالجود

---

(١) وفاء الوفاء ج / ١٠٥١. والبختي: نوع من الإبل.

(٢) نسب قريش ص ١٨١. قال بروفينسال، محقق الكتاب، تعليقاً على العبارة الأخيرة. كلا، بل عظته كانت أنفع له، لأنها عظة حق.

والكرم، وينفقون من الأموال ما يستطيعون به بناء ما يريدون. . وقد يكون السبب لأن أكثر الناس الذين بنوا قصورهم في وادي العقيق، من الأمويين. وقد يكون السبب لأنهم أرادوا أن يكونوا قريبين من مسجد رسول الله جدهم، ولأن الذي يسكن وادي العقيق لن يتمكن من أداء الصلوات في المسجد النبوي، وكان ابتعاد الناس عن حرم رسول الله موضع انتقاد من الفقهاء[1].

ولكن هذه الطبقة ليست ثابتة، فقد يزيد عدد رجالها، أو ينقصون لأن كثيراً منهم لم يكوّن مركزه الاجتماعي من مورد ماليّ ثابت، وإنما كوّنه من صلته بالخلفاء، والخلفاء سياستهم ليست موحدة، فمنهم من يعطي ومنهم من يبخل، أو يعطي قوماً ويحرم آخرين.

وكَون الإنسان قرشياً لا يرفعه إلى قمة الهرم الاجتماعي، وإنما يرتفع بالحصول على الأموال التي ينفق منها على تقوية مركزه.

ونضيف إلى هؤلاء الذين يحصلون على أموالهم من العطايا والهبات، جماعة من القرشيين كانت لهم الأراضي المزروعة في مناطق المدينة وتدرّ عليهم أرزاقاً كثيرة، ونخص من هؤلاء كثيراً من آل الزبير، وآل عليّ.

٢ - ثم تأتي فئة أخرى، تمثل السواد الأعظم من السكان، وينتمي إليها الأنصار وغيرهم من العرب الذين سكنوا المدينة وهم ليسوا من أهلها، وفي هذه الطبقة فئات من القرشيين لم يكن لهم مركز سياسي، أو مجد سياسي سابق.

(١) من قصور العقيق: قصر عاصم بن عمر بن عثمان. وقصر عروة بن الزبير، وقصر المغيرة بن أبي العاص، وقصر عنبسة بن عثمان بن عفان، وقصر سعيد بن العاص، وقصر مروان، وقصر إبراهيم بن هشام. وقصر سعد بن أبي وقاص. (انظر وفاء الوفاء ج٣. وآثار المدينة المنورة لعبد القدوس الأنصاري ٤٦ - ٥١).

وهذه الطبقة كانت تختلف حالتها المعاشية حسب السياسة، فإذا رضي الخليفة عن أهل المدينة وتولاها أمير عادل نالها من الخير ما يجعلها تعيش حياة، لا مترفة، ولا فيها مسغبة، وإذا ضيّق الخليفة على أهل المدينة عاشوا حياة الكفاف.

٣ ـ وطبقة الموالي[١] والرقيق، والموالي نوعان، منهم العجمي الوافد إلى المدينة مختاراً، ويكسب عيشه من العمل في الخدمات العامة التي يحتاجها المجتمع، ومنهم المولى المحرر، وقد يبقى تابعاً لمولاه، ويعمل في خدمته، وقد يعمل فيما يحتاجه الناس حسب قدراته. وأما الرقيق، فيبقي في كنف سيده، وتختلف حياتهم تبعاً لاختلاف شخصية المولى. فقد عرف عن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أنه كان رؤوفاً بعبيده، إذا وجد عند أحدهم إحساناً، فإنه يعتقه ويجهزه بالمال.

ومر معنا أن سعيد بن عثمان قتله عبيده الذين أحضرهم إلى المدينة من سمرقند لأنه كان يقسو عليهم في العمل.

وكان جل عمل هؤلاء في الخدمة العامة التي يحتاجها الناس في بيوتهم وأراضيهم. وقد نبغ من هؤلاء الموالي عدد أصبحوا من العلماء المقصودين في المدينة، أذكر منهم نافعاً مولى عبدالله بن عمر، وعكرمة مولى عبدالله بن عباس.

ونبغ من الموالي الشعراء، أمثال: موسى شهوات، وإسماعيل بن يسار ويتحدد غالباً اتجاه الموالي حسب اتجاه الأسرة التي كانوا يعيشون فيها فإن كانت الأسرة تجارية، كان المولى تاجراً، وإن كانت الأسرة علمية كان المولى عالماً.

---

(١) الموالي: جمع مولى، وهو من الأضداد، فقد تطلق على المالك والمعتق، وقد تطلق على العبد والمعتق، وفي الاصطلاح التاريخي: إذا أطلقت: تشمل العجم الذين انتسبوا إلى قبيلة عربية بالولاء أي المناصرة. وقد يكونون أحراراً في الأصل.

٤ ـ ويمكننا أن نضيف فئة أخرى لا تقاس بالفئات السابقة، وهم جماعة من الناس لهم منزلتهم التي اكتسبوها لا عن طريق النسب والمال، وإنما كونوا لأنفسهم درجة اجتماعية بما آتاهم الله من قوة في الإيمان.

فكان الواحد منهم عزيزاً في نفسه، لا يدين بالخضوع إلا لله، وكانوا محل احترام الناس وتقديرهم، وإن كانوا محل إهانة من بعض الأمراء. ولكن إهانة الأمراء لهم، لا لأن الأمراء يحتقرونهم، ولكن هؤلاء العلماء تعالوْا على الأمراء الظالمين، فأرادوا أن يكسروا حدة شموخهم.

وهؤلاء فقهاء المدينة الذين ابتعدوا عن أبواب الأمـراء بعد أن تمادى الأمراء في غيّهم، فاعتزلهم العلماء، لأن صحبتهم مسخطة للرب، ومهينة للعبد. فكسب هؤلاء الفقهاء رزقهم من عمل أيديهم،[١] وتفرغوا معـظم نهارهم لروايـة العلم وفتوى النـاس، وكانـوا جبهة معـارضـة اجتماعية، يقفون في وجه التغيرات الاجتماعية المنحرفة. وما كان لنا أن نعتبر الفقهاء طبقة اجتماعية متميزة لولا وجود الـظروف التي أبعدت الناس عن جادة الصواب، واقتضت هذه الظروف أن توجد هذه الطبقة العزيزة الجانب، ليكون أفرادها المـرساة التي تثبّت الحق وتحفـظه من الضياع أو التشويه، وليبقى الحق والعدل موجودين في أحلك الأوقات وليخرج جيل جديد من وسط الظلام، يحمل مشعلَ الحقّ من جديد، وتبقى راية الحق خفاقـة[٢] وعند زوال السبب القـاضي بوجـود هذه

---

(١) بعض هؤلاء الفقهاء كان يرفض العطاء ويعمل في التجارة لكسب قوته ومن هؤلاء: سعيد ابن المسيب، والإمام مالك، ومحمد بن كعب القرظي.

(٢) وإن وجود طبقة الفقهاء المحافظين في المجتمع ضرورية، ولا سيما في مجتمعنا الإسلامي، ولا بد من وجود المتشددين الرافضين لكل جديد، الداعين إلى التمسك بالقديم، لأن وجود هؤلاء في المجتمع هو الذي يحفظ على المجتمع المسلم توازنه، لأن هؤلاء سوف يقابلهم المتطرفون الآخذون بكل جديد، وعند الصراع بين الجانبين نتوصل إلى الحد الأمثل وهو الأخذ من الجديد بمقدار لا نلقي معه التراث، فنحصل على حد الاعتدال. وبهذا نواكب التطورات الاجتماعية ونغوص في الفقه واللغة والأدب لنستخرج منها ما يناسب التغيرات الجديدة.

الطبقة، فإنها تزول بزواله، ويصبح أفرادها من الناس، لا يتميزون إلا بالوظيفة التي يؤدونها في مجتمعهم. وقد تحقق هذا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز عندما قطع لسان المعارضة بالعدل، فانصرف هؤلاء العلماء إلى العلم ولم يعد الحقُّ في حاجة إلى من يدفع عنه، لأن العدل هو المسيطر، وإذا ساد العدل في المجتمع تزول الفوارق الطبقية بمعناها الكريه، وتحل محلها الدرجات التي يتوزع فيها الناس حسب جدهم وسعيهم، وكل يرضى بما أعطاه الله. وتحقق هذا المطلب في خلافة عمر بن عبد العزيز. فقد سأل عمر قادماً من المدينة عن أهلها فقال: «الظالم مقهور، والمظلوم منصور والغني موفور والفقير مجبور[1]».

* * * *
* * *
*

(١) ابن الجوزي: مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٩٣.

٢ ـ مظاهر الحياة الاجتماعية

لم تلق الحياة الاجتماعية ـ في المجتمع الإسلامي ـ من الدراسة ما لقيت الحياة السياسية. فقد كان اهتمام المؤرخين منصباً على رواية تاريخ الخلفاء والقواد، وبسط القول في المعارك والفتن، ولم يتحدثوا عن الحياة الاجتماعية التي يحياها الناس في البيئات الإسلامية المتعددة والمتنوعة. ثم جاء المؤرخون في العصر الحديث، فأفردوا في كتبهم فصولاً لدراسة الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية. فكانت دراستهم تقوم على تعميم الأحكام. فما يرونه في عاصمة الخلافة يعتبرونه ممثلاً لحال الأمة الإسلامية في الأمصار الإسلامية جميعها. وغاب عنهم وجود بيئات اجتماعية متنوعة ومتعددة تعدد الأمصار. وقد أثّر الإسلام في هذه الأمصار، ووحّد بينها في الدين، ولكن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع لا بدَّ أن تتأثر بالعوامل الجغرافية والاقتصادية والعرفية. ولم يحارب الإسلام العادات الاجتماعية المحلية، إلا إذا خالفت ما جاء في القرآن والسنة.

وقد عزا الباحثون بعض أسباب اختلاف أصحاب المذاهب الفقهية في الفروع إلى اختلاف الحياة الاجتماعية في الأمصار التي نشأت بها المذاهب، كما علّلوا انتشار المذاهب في الأمصار، بأن كل مِصْر اختار من المذاهب ما ناسب حياته[1].

---

(١) انظر «مقدمة ابن خلدون» علم الفقه / ٣٩٢، و «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لشيخ الإسلام ابن تيمية، «والإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» تأليف ولي الله الدهلوي.

وذكر ابن خلدون سبب أخذ أهل المغرب والأندلس بمذهب الإمام مالك فقال: «فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته، وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون من الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها[1]».

ومن هذا المنطلق نجد الحياة الاجتماعية في دمشق، مقر الخلافة، تختلف عنها في العراق، أو في مكة والمدينة، أو في بلاد فارس، أو في بلاد الأندلس أو مصر.. لأن العادات الاجتماعية في اللباس والطعام والزواج تختلف من مصر إلى مصر..، وتختلف الفتوى فيها حسب العوائد السائدة[2].

وهذا الفراغ في كتب التاريخ، وفي كتب الدراسات الإسلامية، جعل مؤرخي الأدب العربي ـ في العصر الحديث ـ يجرؤون على تقديم صورة المجتمع الإسلامي من خلال دراسة الشعراء والمغنين. فجاءت دراساتهم صورة ممسوخة للمجتمع الإسلامي وقدموه لنا في أبشع صورة من خلال مجتمع الشعراء ومن خلال مغامرات الماجنين، واعتقد مؤرخو الأدب، أن الشعر يمثل حقيقة الوضع الاجتماعي وأن سبر أغوار مجتمع ما، يأتي من دراسة الشعراء. أما الفقهاء والعلماء فهم لا يمثلون المجتمع في عرف مؤرخي الأدب.

ومن أسبق مؤرخي الأدب في العصر الحديث الذين تحدثوا عن الحياة

---

(١) مقدمة ابن خلدون. فصل: علم الفقه وما يتبعه من الفرائض.

(٢) قال الإمام القرافي: كل ما في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة.. وقال: بل إذا جاءك أحد من غير أهل إقليمك يستفتيك، لا تجره على عرف بلدك، واسأله عن عرف بلده، ـ وأفته به دون عرف بلدك.. والجمود على المنقولات أبداً ضلال في الدين (من كتاب مالك بن أنس لعبد الحليم الجندي ص ٢٢٤).

الاجتماعية في المدينة المنورة خاصة، والحجاز عامة: المرحوم طه حسين في كتابه «حديث الأربعاء» والمرحوم زكي مبارك في كتابه «حبّ ابن ربيعة وشعره». وكل من جاء بعدهما من الدارسين[1] ردَّد ما استقر عليه طه حسين، وزكي مبارك ولم يكلف الباحثون أنفسهم عناء البحث وإعادة النظر، ووجدوا أمامهم مسلمات تصلح مقدمات لدراسة شاعر أو أديب من العصر الأموي. وانساق وراء دارسي الأدب بعض من كتب عن أعلام الفقهاء في المدينة[2].

وقد أصبح من المسلم به عند مؤرخي الأدب، الحقائق التالية[3]:

إن مجتمع الحجاز (مكة والمدينة)، في العصر الأموي، قد انحلَّ بسبب سياسة بني أمية التي عزلت أبناء القرشيين عن شؤون السياسة وحبستهم في الحجاز. وأغدقت عليهم الأموال، فقضوا أيامهم في اللهو.

ومنها: أن الأمويين شجّعوا حياة المجون في المدينة من أجل القضاء على نفوذها الديني.

ومنها: أن شعر عمر بن أبي ربيعة، ومرويات كتاب الأغاني، مرآة للمجتمع الحجازي في العصر الأموي. وأكد طه حسين: أن الذي يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا العصر، يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبي ربيعة وعند الأحوص الأنصاري.

والمجتمع كما صوره شعر عمر بن أبي ربيعة، وشعر الأحوص الأنصاري. هو المجتمع اللاهي المنكب على الشراب والغناء، مجتمع خلعت فيه المرأة الحرة قناع الحياء، وجالست الشعراء، ونادمت خلعاء المجتمع. كما في سيرة السيدة سكينة بنت الحسين، حسب تصوير كتب الأدب.. ومجتمع

---

(١) انظر: «التطور والتجديد في الشعر الأموي. للدكتور شوقي ضيف.
(٢) انظر «مالك بن أنس» لعبد الحليم الجندي. الفصل الثاني: الشعر والغناء في الحجاز.
(٣) انظر حديث الأربعاء الجزء الأول. ترجمة الأحوص الأنصاري، وعمر بن أبي ربيعة.

الحجاز أيضاً: ترك الاشتغال بالحياة العامة والحياة السياسية وانكب يائساً على ملذاته.

ومن السهل على دارس تاريخ المدينة المنورة في العصر الأموي، أن ينقض ادعاءات دارسي الأدب، ومن السهل الإتيان بالأدلة التي تبطل دعواهم، ليظهر الوجه الصحيح للمجتمع في العصر الأموي، كما يؤخذ من المصادر المتعددة: ومنذ البداية نقول: إن دعوى مؤرخي الأدب مشبوهة، سواء كانت مقصودة أم كانت مبنية على الوهم والدراسة.... الناقصة.. لأنها تصف الإسلام بالعجز عن الامتداد عبر الأزمنة. فقد بدأ الاتهام منذ بداية العصر الأموي ولم يمض نصف قرن على تاريخ هجرة الرسول ﷺ. وتوجه الاتهام خاصة إلى مهبط الوحي ومركزي اشعاع الإسلام (مكة والمدينة).. فإذا زال الإسلام عنهما، وعجز عن الامتداد في محل ينبوعه، فقد زال من غيرها من الأماكن!!

وسوف يظهر من خلال دراستنا بطلان هذه الدعوى، وأن المدينة خاصة بقيت مركز إشعاع ديني في العصر الأموي، وبقي الإيمان يأرز إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جحرها[1].

ومن أول أدلة بطلان أحكامهم: أنهم اعتمدوا في حكمهم على ديوان شاعر أو شاعرين والدراسة التي تقوم على مثال أو مثالين، دراسة ناقصة، ولا تعتمد على الطريقة العلمية التي تستدعي الاستقراء ثم الحكم. وعندما قال القدماء: الشعر ديوان العرب. يقصدون مجموعة الشعر، لا شعر شاعر واحد، فنحن عندما ندرس الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي لن نعتمد على شاعر واحد، لأن كل شاعر يمثل جانباً من الحياة اتجه إليها الشاعر. فامرؤ القيس وحده لا يكفي لدراسة المجتمع الجاهلي، وعنترة وحده لا

---

(١) في الصحيحين: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة، كما تأرز الحية إلى جحرها» ومعنى يأرز: يجتمع، وينضم، ويلتجىء. (جواهر البخاري وشرح القسطلاني).

يكفي ولكننا إذا أردنا دراسة الحياة الاجتماعية لا بد من دراسة الشعر الجاهلي كله، لنحصل على نتائج صادقة. ومع ذلك ستبقى الدراسة ناقصةً إذا لم ندرسْ أمثال العرب، وقصصهم، وما وصلنا من خطبهم.

وعمر بن أبي ربيعة، أو الأحوص الأنصاري، كلاهما يمثل الحياة التي اختارها. فالشاعران قد انخلعا من الحياة العامة، واتجها إلى شعر الغزل والمجون. والأدباء يعرفون أن الشاعر - أي شاعر - لا يعتمد على حقائق ينقلها لنا، فالخيال عنصر أصيل من عناصر الشعر، والشاعر يصور الحياة من خلال رؤيته لها، لا من خلال الواقع.

والشعراء الماجنون، يعتمدون على أحلام اليقظة في تصوير ما لم يستطيعوا الوصول إليه.

وقد اعترف عمر بن أبي ربيعة، بعد أن نسك وترك طريق الغزل، أنه لم يفعل منكراً، وأن كل ما قاله في شعره كان من باب الخيال.

روى أبو الفرج قال: لما مرض عمر مرضه الذي مات فيه، جزع أخوه الحارث جزعاً شديداً، فقال له عمر: أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي والله ما أعلم أني ركبت فاحشةً قط[1].

ومن القصص التي تدل على اختلاق المواقف، ما رواه الأغاني قال: كانت امرأة يقال لها: أم ليث، امرأة صِدق،[2] فكانت قد فتحت بينها وبين جارة لها من الأنصار خوخة، وكانت الأنصارية أجمل أنصارية خُلقتْ، فكلم الأحوص أم ليث أن تدخله في بيتها يكلم الأنصارية من الخوخة التي فتحت بينها وبينها فأبت، فقال الأحوص: أما، لأكافئنك. ثم قال:

هيهات منك بنو عَمْرٍ ومسكَنُهم إذا تشتيّتَ قِنَّسرين[3] أو حَلَبا

---

(١) الأغاني جـ ١/٨٥.

(٢) إذا قلت: رجل صدق، أو امرأة صدق، بالإضافة، كسرت الصاد، وإن نعت بها، فتحتها.

(٣) قنسرين: بكسر القاف، وفتح النون المشددة: كورة بالشام قرب حلب، وهي أحد أجناد =

قامت تراءى وقد جدَّ الرحيل بنا بين السَّقيفة والباب الذي نُقيَا
إني لَمانِحُها وُدّي ومتخذ بأم ليث إلى مَعْروفها سَببا

فلما بلغت الأبيات زوج المرأة، سدَّ الخوخة، فاعتذرت إليه أم ليث فأبى أن يقبل ويصدقها. فكانت أم ليث تدعو على الأحوص[1].

ونستفيد من ذلك أن شعر هذين الشاعرين، لا يمثل المجتمع، وإنما يمثله شعر العصر كله الذي قيل في المدينة، ويمثله الخطباء والفقهاء والمحدثون والقضاة وأخبار الولاة.. فإذا أردنا الحكم الصادق فعلينا دراسة فئات المجتمع كلها وندرس جميع ما رُوي لنا من أخبار أهل المدينة حول فئات المجتمع، وعندها نتعرف على حقيقة الحياة الاجتماعية.

أما كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، فهو المصدر الوحيد الذي اعتمد عليه الأدباء في تصوير الحياة الاجتماعية، وما ورد فيه من القصص جعلوها مناخاً اجتماعياً لقصائد عمر، والأحوص. وهذه القصص (رغم أنها مسندة في روايتها) ـ غير موثوقة. لأن رواة الأخبار والأدب لم يوضعوا على ميزان الجرح والتعديل الذي وضع عليه رجال الحديث، وتساهل العلماء في الأخذ بقصص رواة الشعر، لأنها لا تتعلق بأمر شرعي، وإنما كانوا يستفيدون منها في باب الأدب واللغة والنحو ولم يخطر ببال الوضّاعين، أن يبني عليها المؤرخون أحكاماً اجتماعية، وإنما كان هدفهم التسلية فقط.

أما وإن قصص الأغاني اتخذت دليلاً على حكم يتعلق بأخلاق الناس وأعراضهم، فإن علينا أن نتحقق من عدالة الرواة.

= الشام، فتحها أبو عبيدة بن الجراح سنة سبع عشرة.

(١) الأغاني جـ ٤ / ٢٤٥. ترجمة الأحوص. واسمه عبدالله، ولقب الأحوص: لضيق في مؤخر العينين. وجده عاصم بن ثابت الأنصاري: حميّ الدبر، بعثه الرسول بعثاً فقتله المشركون غيلة، وأرادوا أن يصلبوه، فحمته الدبر، وهي النحل، فلم يقدروا عليه حتى بعث الله السيل في الليل فاحتمله فذهب به.

وصاحب الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، اعترف له المؤرخون بأنه دائرة معارف، تحوي كل ما روي في التاريخ والأدب صحيحه وسقيمه، ويحفظ الخرافات والمغازي، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً ولكن ابن الجوزي يتهمه وقال: ومثله لا يوثق بروايته، فإنه يصرح في كتبه بما يُوجب عليه الفسق ويهوّن شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر.

ونقل ابن كثير في البداية والنهاية رأي ابن الجوزي. وقال العلامة شمس الدين الذهبي: رأيت شيخنا تقي الدين ابن تيمية يضعّفه ويتهمه في نقله، ويستهول ما يأتي به[1].

وأبو الفرج الأصفهاني، أموي النسب[2]، شيعي المذهب لم يكن مخلصاً لشيعته، منخلعاً من أمويته. فقد صنف كتباً لبني أمية أصحاب الأندلس وسيّرها إليهم سراً، وجاءه الإنعام منهم سراً[3]. فهو إذن مضطرب الاتجاه، يجري وراء ـ المنافع، ليس له اتجاه ثابت يسيّره وكتابه الأغاني آلة من آلات المنادمة التي كان يحفظها، والمنادمة من أول شروطها أن تكون قصص النديم مُسليةً مضحكةً غريبةً. فليس من الغريب أن يبالغ أبو الفرج في رواياته وأن يسعى وراء القصص الآبدة ليكون لكتابه القبول عند من يريدون السمر.

وقصص أبي الفرج التي يرويها عن المغنيين والمخنثين[4] في المدينة المنورة

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني، لمحمد عبد الجواد الأصمعي. وقال ابن حجر في «لسان الميزان» وأبو الفرج الأصبهاني «شيعي» وهذا نادر في أموي. يأتي بأعاجيب: «حدثنا، وأخبرنا». ونقل عن النوبختي قوله «كان أبو الفرج أكذب الناس. كان يشتري شيئاً كثيراً من الصحف ثم تكون رواياته كلها منها.

(٢) علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، ولد في أصبهان وتوفي في بغداد. قال الذهبي: والعجب أنه أموي شيعي. توفي سنة ٣٥٦ هـ. (انظر جمهرة أنساب العرب» ١٠٧.

(٣) وفيات الأعيان ترجمة رقم ٤٤٠ جـ٣ / ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(٤) انظر مثال ذلك: قصة الدلال، الجزء الرابع من الأغاني.

وعلاقاتهم بأهل المدينة، لو ذكرت عن العصر الجاهلي، لما صدقها إنسان. . فكيف بالمدينة المنورة في عصر كانت تزخر فيه بالعلماء والمحدِّثين والعابدين وفيها حرم رسول الله ﷺ.

ومن أغرب ما يرويه أبو الفرج تلك القصص حول حياة سكينة بنت الحسين[1] حيث جعل بيتها مقصداً للشعراء العابثين ومأوى للمخنثين تعقد المجالس وتدعو إليها النساء القرشيات ثم يجتمعن بالشعراء ليقولوا فيهن الغزل وكأنَّ المدينة أصبحت خاويةً من الرجال أصحاب الغَيْرة على أعراضهم إن لم يكن بهم بقيةٌ على الدين تحثهم على الحياء.

وروى أبو الفرج قصة لقاءات سكينة بعمر بن أبي ربيعة[2] في وقت كانت المدينة برجالاتها تقف في وجه الأمويين مُتهمةً إياهم بالفسق والخروج عن الدين، بينما سليلة بني هاشم عاكفة على عبثها، وليس هناك رجل من بني هاشم يردّها عن غيها إن لم يكن لها رادع من نفسها!!

وهناك أدلة من الواقع التاريخي تمنع من فشوّ الفساد الاجتماعي بالشكل الذي رواه كتاب الأغاني عن حياة الشاعرين: عمر بن أبي ربيعة، والأحوص. فإن الفترة التي يصورون فيها الحياة الاجتماعية اللاهية، من بداية العصر الأموي حوالي سنة ٤٠ هـ حتى نهاية القرن الأول، وبداية القرن الثاني، وهي الفترة التي عاش فيها، عمر، والأحوص، وسكينة،

(١) انظر ترجمتها في «طبقات ابن سعد» جـ ٨، و «سير أعلام النبلاء» جـ ٥ / ٢٦٢، وهما من أصحاب الروايات الموثوقة في التاريخ، ولم يذكرا شيئاً مما ذكرته كتب الأدب. وانظر مقدمة ابن خلدون ص ١٢. وقد نفى العلاقة بين العباسة وجعفر البرمكي لأنه لا يتناسب مع عصرها وهي قريبة ببداوة العربية، وسذاجة الدين البعيدة عن مراتع الفحش. . . وإذا قيل هذا عن العباسة في القرن الثاني، فكيف تصدق أقوال عن سكينة بنت الحسين بن فاطمة بنت الرسول في القرن الأول.

(٢) ولد عمر بن أبي ربيعة في الليلة التي توفي بها عمر بن الخطاب. . وتوفي سنة ٩٣ هـ. نفاه عمر بن عبد العزيز إلى دهلك. ثم غزا في البحر، فاحترقت السفينة به، فمات غرقاً. والمدينة المنورة منذ عهد يزيد بن معاوية حتى عهد عبد الملك، وهي في حالة استنفار دائم لأنها كانت فترة الحروب بين الحجازيين وبين بني أمية.

وعائشة بنت طلحة[1]، ويدَّعي مؤرخو الأدب أن شباب المهاجرين والأنصار في هذه الفترة انصرفوا عن المشاركة في الحياة السياسية..

وكيف يمكننا أن نصدق هذا، ونحن نعرف أن مكة والمدينة من سنة ٦٠ هـ إلى سنة ٧٤ هـ كانت مسرحاً للحركات السياسية والحربية، ونبدأ بمعركة الحرة التي قتل فيها ألوف من الرجال. والتاريخ يحدثنا أن الذين اشتركوا في المعركة هم سكان المدينة من المهاجرين والأنصار.. ومدينة واحدة تكوّن جيشاً كبيراً يقتل فيه ألوف، لا بد أن يشترك في هذا الجيش معظم رجال المدينة وهؤلاء الذين ثاروا في وجه يزيد من أجل ما أشيع عن فسقه، لا يمكن أن يفعلوا ما ثاروا من أجله، ولا يمكن أن يرضوا عن وجود ما ينكرونه على غيرهم في المدينة المنورة[2].

وبعد معركة الحرة، انتقلت الحركة إلى مكة، وشارك فيها من تبقّى من جيش الحرة وبقيت الحجاز في حالة استنفار دائم مدة عشر سنوات وهي مدة حكم ابن الزبير. ودخلت المدينة تحت حكم ابن الزبير وبقيت متأهبة لردّ الغزو الأموي، فليست هناك فرصة للهو، وشباب بني أمية الـذين كانت الأموال تحت أيديهم رحلوا عن المدينة. وثورة ابن الزبير كانت دينية، هدفها إقصاء الأمويين لأنهم متهمون بالبعد عن الدين، ولا يمكن أن يرضى ابن الزبير عن انتشار العابثين في دولته، وعلى مقربة منه في المدينة المنورة وفي مكة عاصمة خلافته.

فإذا انتقلنا إلى فترة زمنية تالية، فإننا نجد كثيراً من مظاهر الجد التي تدل على أن المجتمع المدني بقي محتفظاً بتفوقه الأخلاقي.

فقد تولى إمارة المدينة هشام بن إسماعيل، والتاريخ يحدثنا أنه سام

---

(١) عائشة بنت طلحة بن عبيدالله. أمها أم كلثوم بنت أبي بكر، وخالتها عائشة زوجة الرسول تزوجها مصعب بن الزبير. كانت أديبة عالمة بأخبار العرب فصيحة توفيت سنة ١٠١ هـ.

(٢) انظر تفاصيل معركة الحرة، وأسبابها في كتاب «المدينة بين الماضي والحاضر» للأستاذ إبراهيم العياشي. وانظر «الباب الثاني» من هذا الكتاب.

الناس خسفاً فلأي سبب فعل هذا؟ ألأنهم كانوا لاهين؟ أم لأنهم كانوا يتحركون في اتجاه معاكس للسياسة الأموية؟ إن شدة الخسف تتناسب مع تيار المعارضة الذي لقيه الأمويون في هذا العهد[١].

ثم جاء الوليد بن عبد الملك، فولي عمر بن عبد العزيز، وكانت سياسته تقوم على تقريب العلماء والفقهاء والاستماع إلى مشورتهم، حيث طلب منهم أن يرفعوا إليه كل ما يشاهدونه من المخالفات. وفي عهد عمر قوي تيار المعارضة، لأنه وجد نوعاً من الحماية في ظل عمر، ولذلك نجد المدينة تفتح أبوابها للعراقيين الفارين من ظلم الحجاج، ويحدبون عليهم وتبلغ درجة المعارضة أشدها عندما يرفض أهل المدينة استقبال الحجاج ماراً بالمدينة إلى الحج[٢].

ويعزل عمر، ويأتي عثمان بن حيان ليكبح جماح المعارضة.. فهل يفعل أهل المدينة كل هذا إذا كانوا سادرين في غيهم منكبين على لهوهم؟.

وفي عهد سليمان، انزاحت الغمة عن أهل المدينة بمشورة عمر وولّى على المدينة أبا بكر بن حزم[٣]، وكان فقيهاً قاضياً، فتعقب الفساق والضالين وفي زمنه نفي الأحوص من المدينة إلى جزيرة دهلك[٤] لأن أهل المدينة قد شكوه، حيث يذكر أسماء نسائهم في شعره[٥].

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز، استمرت ولاية أبي بكر بن حزم، وكان الفقهاء سادةَ الموقف، ولن يتمكن اللاهون من إظهار لهوهم في عهد الخليفة عمر. وقد استمرت خلافة عمر حتى نهاية القرن الأول...

---

(١) انظر فصل: الإدارة الأموية في المدينة، من هذا الكتاب.

(٢) الطبري ج ٧ ص ٢١٤، ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٥٨.

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ٣٠، الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٤٠.

(٤) دهلك: جزيرة في بحر اليمن، وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة، بلدة ضيقة حرجة حارة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها. (معجم البلدان).

(٥) الأغاني ج ٤ / ٢٤٦.

أما قولهم إن الأمويين أشاعوا الفساد في المدينة المنورة، لصرف أهلها عن السياسة، ولإقلال هيبتها الدينية.. فهذا مردود عليهم وليس عندهم من الأدلة ما يؤيده إلا تأويل الأخبار.. وهناك الأدلة الكثيرة على أن الأمويين كانوا يحاربون المفاسد في المدينة المنورة وكان الخلفاء يهتمون بهذا الموضوع ويكتبون فيه إلى ولاتهم والأمثلة على ذلك كثيرة اجتزىء منها بالقليل الدال على ما نريد دون تأويل.

من ذلك أن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، كان على شرطة المدينة مدة خلافة معاوية، واشتد في محاربة الفساد في المجتمع، حتى شكا بعض الشعراء من ذلك فقال:

منع اللهو والهوى وسُرى الليل مصعب
وسياط على أكفّ الرجال تقلب[1]

وروى الأصبهاني قال: كان الدلال ـ أحد مخنثي المدينة.. ملازماً لأم سعيد الأسلمية، وبنت ليحيى بن الحكم بن أبي العاص، وكانتا من أمجن النساء كانتا تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما حتى تبدو خلاخيلهما فقال معاوية لمروان بن الحكم: اكفني بنت أخيك، فقال: أفعل، فاستزارها، وأمر ببئر فحفرت في طريقها، وغُطيتْ بحصير، فلما مشت عليه سقطت في البئر، فكانت قبرها[2].

وروى أبو الفرج قصة الأحوص فقال: كان الأحوص ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة.. ويشيع ذلك في الناس، فنهي فلم ينته، فشُكي إلى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة، وسألوه الكتاب فيه إليه ففعل ذلك، فكتب سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيمه على

---

(١) نسب قريش / ٢٦٨، وانظر ترجمة مصعب بن عبد الرحمن في «قضاة المدينة المنورة» ـ من هذا الكتاب.

(٢) الأغاني ج ٤ / ٢٧٩.

البُلُس[1] للناس، ثم يصيِّره إلى دهلك، ففعل ذلك به فثوى هناك سلطان سليمان بن عبد الملك، ومدة خلافة عمر[2]. . . . وسليمان بن عبد الملك هو الذي أمر أن يُخصى المخنثون في المدينة[3]. وفي رواية «يُحصى» بالحاء المهملة، وكلتا الروايتين تدلّان على ما نقصد إليه.

ومن قصص الدلّال، أنه خرج مع فتية من قريش في نُزهة لهم، وكان معهم شَرَاب فشربوا، وسَقوْه، ثم سألوه أن يغنيهم فغناهم فاستطير القوم مرحاً وسروراً وعلا نعيرهم فنُذر[4] بهم السلطان وتعادت[5] الأشراط. فأحسوا بالطلب فهربوا[6].

وكانت الحدودُ تقام على المخالفين في عهد بني أمية، في شرب الخمر والقذف والقتل وغيرها من المخالفات، وكان القضاة لا يتساهلون في حكم من أحكام الشرع. حتى قامت الحرب بين القضاة، وبين الفساق، وكثيراً ما رأينا شعراً في هجاء القضاة، لأنهم حكموا على أحد الشعراء، بحدّ من حدود الشرع.

ومن هؤلاء القضاء: سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، ولي القضاء زمن هشام بن عبد الملك، واشتد على السفهاء والشعراء والمغنين. ولحق الشاعر موسى شهوات بعض ذلك منه، فقال فيه موسى شهوات:

يتقي الناسُ فحشه وأذاه ... مثل ما يتّقون بول الحمار

لا تَغُرَّنْك سَجْدةٌ بين عينيه ... حذاري منها ومنها فراري

---

(١) البلس، بضمتين: جمع بلاس، كسحاب وهي غرائز كبار من مسوح يجعل فيها التبن، ويشهر عليها من يُنكل به وينادى عليه. ومن دعائهم «أرانيك الله على البلس».

(٢) الأغاني ج ٤ / ٢٤٦.

(٣) قد تكون هذه الروايات غير صحيحة، ولكنني أحببت الاستشهاد بها لنقول لمؤرخي الأدب إذا كان في كتاب الأغاني ما يدل على انتشار المجون، فإن فيه ما يدل على محاربته.

(٤) نذر بهم: علم.

(٥) تعادت: من العدو وهو سرعة الجري.

(٦) الأغاني: ج ٤ / ٢٨٣.

وذُكر أنه جلد رجلاً دخل عليه، فقال الرجل: في أي شيء جلدتني فقال: في السماجة. فقال قائل بالمدينة في ذلك:

جلد الحاكم سعدٌ ابن سَلْم في السماجة
فقضى الله لسعدٍ من أميرٍ كلَّ حاجة[1]

وذكر ابن قتيبة في المعارف أن حمزة بن مصعب بن الزبير، وكان قُتِل يوم قُدَيد قال: وكان شرب، فأخذه بعضُ أمراء المدينة فجلده الحد وأقامه للناس[2].

ووقعة قُديد حصلتْ أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، سنة ١٣٠ هـ. وبذلك يكون حمزة بن مصعب قد جلد الحدَّ في آخر أيام بني أمية. ومن هذه الأمثلة نرى أن خلفاء بني أمية، وولاتهم، وقضاتهم، كانوا يطاردون أهل اللهو والمجون ويطبقون الحدود على المخالفين. والأمثلة واضحة الدلالة على ما نريد دون تأويل فكيف جاز لمؤرخي الأدب أن يتهموا خلفاء بني أمية، وهم خلفاء المسلمين، بأنهم عملوا على نشر الفساد في المدينة المنورة، دون دليل ظاهر وصريح، وإنما تقوم أدلتهم على التأويل[3] وإذا صح أن بني أمية قد انفقوا الأموال على بعض الناس المقربين، فهل عمَّتْ الأموال جميع الناس؟.

وقد قالوا: إن الشباب، والفراغ والجدة: قد سببت انتشار اللهو والغناء في المدينة، ولكن أين الجدة والمال؟ ألم يقرؤوا عن الضيق الاقتصادي

(١) المعارف لابن قتيبة / ٢٣٧. وتوفي سعد بن إبراهيم بالمدينة سنة ١٢٧ هـ فانظر فصل «قضاة المدينة» من هذا الكتاب.
(٢) المعارف ص ٢٢٤.
(٣) اكتفيت بذكر أمثلة من تاريخ المدينة، على محاربة الأمويين للغناء، وهناك أمثلة كثيرة عن مكة. منها ما رواه الأغاني ج ٣ / ٢٨٢. في ترجمة ابن مسجح قال: حدثنا دحمان الأشقر: كنت عاملاً لعبد الملك على مكة، فنمي إليه أن رجلاً أسود يقال له: سعيد بن مسجح أفسد فتيان قريش، وأنفقوا عليه أموالهم فكتب إليّ: أن اقبض ماله وسيره».

الذي حلَّ بالمدينة خاصة والحجاز عامة.

ألم يقرؤوا عن هجرة الناس من المدينـة بسبب قلة الأرزاق وتضييق الخلفـاء عليهم في أرزاقهم، وحرمـانهم أعـطيـاتهم وحقهم في بيت مـال المسلمين[1]؟

لقد أغدق الأمويون الأموال، ولكن على قلة قليلة من الناس منهم الذين بَنَوْا قصور العقيق ومنهم الذين استقبلوا المغنيـن وجالسوهم[2]. أما الكثرة الكثيرة فكانت محرومة، أو صابرة على قضاء الله، مستهينةً بحرمان العبد، آملة في عطاء الرب. تطفىء ظمأها بجوار حرم رسـول الله ﷺ، وتتغذى على موائد القرآن، والسنة، وما أكثرها في حرم رسول الله.

لقد اعتمد المؤرخون في وصف الحال الاجتماعية، على أمثلة قليلة من المغنيـن والشعراء، وتـأولوا وجـود هذه القلة، بـانتشار اللهـو في العصر الأموي.. فما الذي نستنتجه من وجود كثرة من الفقهاء والعُبَّاد، ووجود الحرم النبوي؟

لماذا لا نأخذ من هذا دلالة على انتشار العلوم الدينيـة، والأخلاق الفاضلة، واندحار الفساق في أوكار بعيدة عن الحياة الاجتماعية؟ ما الدلالة التي نستفيدها من ظهور الفقهاء السبعة في العصر الأموي؟ وعلام يـدل قولُهم: مات فلان في سنة الفقهاء، لكثرة مَنْ مات من فقهاء المدينة؟.

ما الذي نأخذه من نبوغ الإمام مالك في الفقـه، في نهاية العصـر الأموي؟[3].. إن عصراً ظهر فيه كبار الفقهاء الذين انتقل منهم العلم إلى الدنيا لا يمكن أن تكون الغلبة في هذا العصر لأهل اللهو..

(١) انظر في هذا الكتاب ـ ترجمة ـ خالد بن عبد الملك: أمير المدينة.

(٢) العقد الفريد ج ٤ / ٤٠١.

(٣) عاش الإمام مالك في العصر الأموي حوالي أربعين سنة ٩٣ـ ١٧٩ هـ. فقد بلغ سن الكمال والنضج في العصر الأموي.

لأن عدد الفقهاء والعابدين يفوق عدد الشعراء والمغنين، وإذا كان للغناء أهله فإن للفقهاء مجتمعاً يفوق مجتمع اللاهين.

وإن مجتمعاً خرَّج الفقهاء السبعة. وعشرات غيرهم، وإن مجتمعاً تتوج بظهور الإمام مالك، لهو المجتمع الفاضل، وأنصار الجدّ هم السائدون فيه، والباحثون عن اللهو هم المندحرون عنه.

ونحن لا ننكر وجود اللهو والغناء في المدينة المنورة، ولا ندّعي أن مجتمع المدينة في هذا العصر، هو المجتمع الكامل الأمثل، ولكننا نعارض أن يكون هذا المجتمع (كما صوره مؤرخو الأدب، اعتماداً على كتاب الأغاني) مجتمعاً خفَت فيه صوتُ الصلاح، وعلا فيه صوت الفجور.

لقد كان اللهو موجوداً، وكان رواده عدداً قليلاً من شباب المدينة المنورة.

وإذا سمع الغناء بعض الفقهاء فإنما يسمعون منه ما كان حلالاً لا يذهب بالوقار ولا يلهي عن الأمور العظيمة.

لقد كان خطأ مؤرخي الأدب أنهم درسوا كتب الأدب ودواوين الشعر واستنتجوا منها صفات المجتمع المدني في العصر الأموي..

ولو قرؤوا الكتب التي تترجم لمئات من الفقهاء والصحابة والعُبّاد لوجدوا صورة المجتمع المدني، المجتمع الذي يظهر فيه جمهور الناس وقد التفوا حول حرم رسول الله ورأوا الناس يتحلقون حول الفقهاء، ويتخلف عن هذا الجمهور قلة قليلة، لا تمثل تصرفاتها حياة اجتماعية[1].

(١) انظر الجزء الخامس من «طبقات ابن سعد» طبقات التابعين من أهل المدينة وفيه حوالي أربعمائة تابعي روي العلم الشرعي عن أكثرهم. و«سير أعلام النبلاء» للذهبي ج ٣، ٤، ٥ وترجم فيها لعشرات من التابعين المدنيين ممن عاشوا في العصر الأموي.

٣ ـ التغيّر الاجتماعي في المدينة المنورة

كان التغير الاجتماعي، في مجتمع المدينة، ضرباً لازماً تفرضه سنة الحياة، والتركيب الاجتماعي الجديد. فليس هناك مجتمع يبقى على حال واحدة إلا إذا كان مجتمعاً مغلقاً. والمجتمع في المدينة ـ بعد الإسلام ـ فرضت عليه الأحداث الجديدة أن يتصل ويتفاعل، وفرضت عليه طبيعة الدعوة الإسلامية أن يتصل ويمتزج، وأن يأخد من غيره ويعطي.

ودواعي التغير الاجتماعي كثيرة، تختص المدينة المنورة بعدد من هذه العوامل. فقد كانت المدينة المنورة عاصمة الخلافة، وهذا يقضي أن يفد إليها أناس من بلاد أخرى، تباينت طبائعهم واختلفت ألسنتهم. يفدون إليها أحراراً قاصدين الخليفة، ويفدون إليها عبيداً أسرى مع الغنائم التي تُرسل إلى المدينة إبّان الفتوحات.

وبعد أن انتقلت الخلافة إلى دمشق، أصبحوا يفدون إلى المدينة عبيداً للتجارة أو لإنجاز الأعمال. وهؤلاء العبيد كان لهم أكبر الأثر في إحداث التغيير الاجتماعي، لأنهم كانوا أكثر امتزاجاً بالسكان وأكثر تأثيراً. فإن كانت امرأة، فقد عملت في البيت خادمةً أو زوجة، وفي كلتا الحالتين لا بد أن تحدث تأثيراً في البيت الذي تدخله.

وإن كانوا رجالاً فهم يعملون خدماً في البيوت أو عمالاً في الأشغال الخاصة، وفي كلتا الحالتين يحدثون التأثير في مجتمعهم.. في الطعام والشراب

واللباس وطرق اللهو. روى صاحب الأغاني قال: أول من نقل الغناء الفارسي إلى الغناء العربي سعيد بن مسجح، وكان أسودَ مُوَلّداً. وذلك أن معاوية بن أبي سفيان لما بنى دوره.. حمل لها بنائين فرساً من العراق فكانوا يبنونها بالجص والآجر، وكان سعيد بن مسجح يأتيهم فيسمع غناءهم على بنيانهم، فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربي ثم صاغ على نحو ذلك[١].

وذكر أبو الفرج أيضاً: أن أول من غنّى بالعربي بالمدينة طويس وهو مولى بني مخزوم.

وروى في مكان آخر: أنه كان بالمدينة مخنث يقال له: النغاشي، فقيل لمروان بن الحكم إنه لا يقرأ من كتاب الله شيئاً، فبعث إليه يومئذٍ وهو على المدينة. فأمر به فقتل في موضع يقال له بطحان[٢].

وشاء الله أن تكون المدينةُ مهاجر الرسول، وفيها حرمه ومسجده، وتشرفت بأن يكون مثواه فيها. ومسجد الرسول أحد ثلاثة مساجد لا تُشد الرحال إلا إليها.. وهذه المكانة جعلتها مدينة مفتوحةً لجميع المسلمين يفدون إليها للعبادة والمجاورة، أو للزيارة، يقيمون فيها ما شاؤوا وقد يطيب لهم السكن والمقام الدائم.

وهؤلاء الناس القادمون تختلف عاداتهم لاختلاف مجتمعهم الذي وفدوا منه، ولا بد أن ينقلوا بعض هذه العادات إلى المجتمع الجديد الذي سيقيمون فيه، ويتأثر بها غيرهم من السكان. كما ينقلون أنواعاً من اللباس والطعام إلى المجتمع الجديد.

فقد ذكروا في سبب تسمية الشاعر: موسى شهوات: أنه كان من أهل أذربيجان وأنه نشأ بالمدينة، وكان يجلب إليه القند والسكر فقالت له امرأة من

---

(١) الأغاني ج ٣ / ٢٨١.

(٢) الأغاني ج ٣ / ٢٩. وبطحان واد بالمدينة، وهو أحد أوديتها الثلاثة: العقيق وبطحان، وقناة. وفي هذا الخبر دليل على محاربة الأمويين لمظاهر الفسق في المدينة.

أهله: ما يزال موسى يجيئنا بالشهوات. فغلبتْ عليه[1] وفي أخبار إسماعيل بن يسار النسائي[2]، أنه سُمّي بالنسائي: لأن أباه كان يصنع طعام العرس ويبيعه، فيشتريه منه من أراد التعريس من المتجملين ومن لم تبلغ حاله اصطناع ذلك. وفي رواية أنه سُمّي بذلك لأنه كان يبيع النجد والفرش التي تتخذ للعرائس فقيل له: إسماعيل بن يسار النسائي[3].

ومن عوامل التغير الاجتماعي.. الجدة. والثراء.. عند فئة من الناس. وكان ذلك ابتداء بعهد عمر بن الخطاب حتى نهاية عهد عثمان، حيث انهالت على المدينة أكداس من الأموال، وسعت كل الناس وفاضت عن حاجتهم. وكانت هذه أموال الغنائم، فقد روي أنه لما جاءت إلى عمر أخماس فارس قال: لا يجنّها سقف تحت السماء حتى أقسمها بين الناس، فأمر فوضعت بين صفيّ المسجد، فأمر عبد الرحمن بن عوف، وعبدالله بن أرقم فباتا عليها ثم غدا عمر فأمر بالجلاليب فكشفت عنها، فنظر إلى شيء لم تر عيناه مثله من اللؤلؤ والجواهر والذهب والفضة، فبكى. فقال ابن عوف: هذا من مواقف الشكر فما يبكيك؟ قال: أجل: ولكن الله لم يعط قوماً مثل هذا إلا ألقى العدواة والبغضاء بينهم. ثم قال: «أنحثو لهم، أم نكيل لهم بالصاع؟ ثم أجمع رأيه أن يحثو لهم فحثاً» ولا شك أن هذه الغنائم زادت فيما بعد في عهد عثمان مع توسع الفتوحات وكان مع أموال الغنائم التي توزع على الناس كافة، أموال التجارة التي برع فيها عدد من رجالات المدينة، منهم عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله وكانت تدر عليهم أرباحاً عظيمة. وقد أحدثت هذه الأموال تغيرات في حياة الناس بعد فترة من الزمن.

---

(١) الأغاني ج ٣ / ٣٥١. والقند: عسل قصب السكر إذا جمد. وموسى شهوات: شاعر مدني، وهو موسى بن يسار، مولى قريش.

(٢) النسائي: بكسر النون: نسبة إلى النساء الذي هو من أسماء جموع المرأة. وفي اللسان أن سيبويه يقول في النسبة إلى نساء: نسوي رداً له إلى واحده. والمخبر عنه: شاعر مدني، عاش حتى نهاية بني أمية. وهو مولى بني تميم من قريش.

(٣) الأغاني ج ٤ / ٤٠٨.

قال ابن خلدون، مبيناً حال العرب في الجاهلية، ثم كيف أثرت فيهم أموال الحضارة: «فلم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من مضر[1] لما كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع، وكانوا ممنوعين من الأرياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة[2] واليمن، فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها.

وقريباً من هذا كانت حال قريش في مطامعهم ومساكنهم حتى إذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد ﷺ، زحفوا إلى أمم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق، فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم، فزخرت بحار الرفه لديهم، حتى كان الفارس الواحد يُقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب، فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر، وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد، وكان عليّ يقول: يا صفراء، يا بيضاء غُرّي غيري، وكان أبو موسى الأشعري يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها للعرب لقلتها يومئذٍ. وكانت المناخل مفقودةً عندهم وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها[3]، ومكاسبهم مع هذا أتم ما كانت لأحد من أهل العالم».. ونقل ابن خلدون عن المسعودي مبلغ ما وصل إليه الناس من الثراء، أيام عثمان بن عفان، وأثر ذلك على حياتهم: فقال: قال المسعودي: في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان له يوم قُتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى[4] وحنين[5]

---

(١) مضر: هو مضر بن نزار، بن معد، بن عدنان، وإلى مضر تنسب قريش وكانوا يسكنون الحجاز.

(٢) ربيعة بن نزار، بن معد بن عدنان: ومن ربيعة بكر، وتغلب وهاجت بينهما حرب البسوس.

(٣) روي أن أول من نخل له الدقيق عثمان بن عفان.

(٤) وادي القرى: واد كبير من أعمال المدينة كثير القرى، بين المدينة والشام فتحه النبي في سنة سبع عنوة، ثم صولحوا على الجزية، وكان سكانه من اليهود.

(٥) حُنين، واد بين مكة والطائف. وعنده حصلت وقعة حنين بعد فتح مكة.

وغيرها، مائتا ألف دينار، وخلّف إبلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلّف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كلَّ يوم. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ ربع الثمن من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً. وخلَّف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يُكسر بالفؤوس غير ما خلَّف من الأموال والضياع. وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والإسكندرية، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج، وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سَمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات، وبنى المقداد[1] داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن[2]».

وهذه الأموال التي امتلكها الصحابة في عهد عثمان، ورثها مستحقوها في المدينة وبقيت في المدينة، وأحدثت تغييراً في جيل أبناء الصحابة في العصر الأموي.

وفي عهد الأمويين شحَّت الأموال عند العامة، ولكنها كثرت عند الخاصة من أمراء البيت الأموي الذين يقطنون المدينة وعند القرشيين عامة، وخاصة أصحاب الأهواء السياسية الذين يحاول الأمويون استرضاءهم. وكانت أعطيات الأمويين لبعض رجالات المدينة تفوق الوصف.

روي أن يزيد بن معاوية سأل عبدالله بن جعفر: كم عطاؤك؟ قال:

---

(١) المقداد بن عمرو: صحابي، وأول من قاتل على فرس في سبيل الله. وفي الحديث: إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي، والمقداد وأبو ذر، وسلمان». وكان المقداد في الجاهلية من أهل حضرموت، واسم أبيه عمرو. ووقع بين المقداد وابن شمر بن حجر خصام فضرب المقداد رجله بالسيف وهرب إلى مكة، فتبناه الأسود بن عبد يغوث الزهري فقيل له: المقداد بن الأسود. إلى أن نزلت الآية: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ «فتسمى ابن عمرو. سكن المدينة ودفن بها سنة ٣٣ هـ.

(٢) مقدمة ابن خلدون: فصل انقلاب الخلافة إلى ملك / ١٧٥.

ألف ألف درهم. قال يزيد: قد أضعفناها لك. قال عبدالله: فداك أبي وأمي، وما قلتها لأحد قبلك. فضاعف يزيد عطاءه ثانية. وخرج عبدالله، فقال للخليفة جلساؤه: تعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف درهم؟ قال لهم: ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده فيها إلا عارية[1].

هذه الأموال التي ذكرت طرفاً منها، والتي بدأت في العهد الراشدي عند العامة ثم انتهت في العهد الأموي إلى الخاصة، صاحبها فراغ سياسي عند مالكيها. والفراغ والمال يضطران الإنسان إلى خلق التغيرات في الحياة الاجتماعية ليقضي وقته سعيداً، وكي يستمتع بوقت الفراغ دون ملل. وقد تضافر العامل المادي، مع هجرة أصناف جديدة إلى المدينة، فساعد ذلك على حدوث تغيرات اجتماعية في المدينة شملت العادات، وضروب التسلية وتطاول الناس في البنيان وتفننوا فيه، وكثر سكان المدينة واتسعت أضعاف ما هي عليها اليوم. حتى قال المطري[2]. إن سكان وادي العقيق وحدهم كانوا أربعين ألفاً في إمارة سعيد بن العاص على المدينة، وهو العهد الأموي. وقال: وكان سعيد أميراً لوادي العقيق[3].

وتفنن الناس القادرون في الطعام واللباس، ووجدنا في المجتمع مَنْ يتفرغ لصنع طعام الولائم والأفراح والمناسبات، فذكر الأغاني أن إسماعيل ابن يسار، إنما لقب بالنسائي، لأن أباه كان يكون عنده طعام العرسات[4] مصلحاً أبداً، فمن طرقه وجده عنده معداً.

وشاع عندهم ما يسمى في العصر الحديث «الموديلات» يجارون فيها

---

(١) البداية والنهاية ج ٩ / ٣٣.

(٢) محمد بن أحمد المطري توفي سنة ٧٤١ هـ. وصاحب كتاب «التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة».

(٣) كان أمير العقيق تابعاً لأمير المدينة. وتعيين الأمير على العقيق دلالة على كثرة الناس، وحاجتهم إلى إقامة الصلاة جماعة، حيث يبعد العقيق عن الحرم النبوي حوالي ستة كيلو متر، وبهذا يصح لمن تجمع في العقيق إقامة الجمعة والجماعة.

(٤) العرسات: جمع عرس، وهو طعام الوليمة. انظر الأغاني ج ٤ / ٤٠٨.

نوعاً من الألبسة التي تشيع في المجتمع لا لجمالها أو لرغبتهم فيها. ومما يروى في ذلك قصة التاجر العراقي الذي قدم المدينة بِعدْلٍ من خُمُر العراق، فباعها كلها إلا السود، فشكا ذلك إلى سعيد الدارمي الشاعر،[١] وكان قد تنسَّك وترك الشعر، ولزم المسجد، فقال للعراقي: ما تجعلُ لي على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها قال العراقي: ما شئت. فعمد الدرامي إلى ثياب نسكه، فألقاها عنه، وعاد إلى مثل شأنه الأول وقال شعراً ورفعه إلى صديق له من المغنيـن، فغنى به، وكان الشعر:

قل للمليحة في الخمـار الأسود   مـاذا فعلت بـزاهـدٍ متعبـد

فشاع هذا الغناء في المدينة، فأقبلت نسوة المدينة على شراء الخمار الأسود وباع التاجر ما كان معه.

وكان عمر بن عبد العزيز أثناء إمارته على المدينة يقول: يكاد رزقي لا يكفي لملابسي، لأنه كان إذا لبس الثوب مرة ورآه الناس لا يعود إليه ثانية[٢] ولم يكن لباس المترفين رخيصاً ولكنه كان يكلف مئات الدنانير، فقد لبسوا الخز والديباج والاستبرق والحلل الموشاة وغالوا في ذلك، فكان مروان ابن أبان بن عثمان يلبس سبعة قمص كأنّها درج، بعضها أقصر من بعض، وفوقها رداء عدني بألفي درهم.. وأصبح في المدينة الغسالـون المختصون بغسل الثياب. فقد روي أن الناس كانوا يسرعون إلى الغسال ليغسلوا ثيابهم في إثر ثياب عمر بن عبد العزيز لتعشق ثيابهم رائحة العطور التي تشربتها ثياب عمر، والتي انحلت في مياه الغسال.

* * * *
* * *
*

(١) توفي سنة ١٥٥ هـ ، وانظر الخبر في «العقد الفريد ج ٦ / ١٥: كتاب الياقوتة في الغناء.
(٢) الخليفة الزاهد ـ لعبد العزيز سيد الأهل.

٤ ـ حياة الجد واللهو

رأينا فيما سبق، التغيرات الاجتماعية التي حصلت في المدينة، نتيجة للتركيب السكاني الجديد. ولعوامل اقتصادية وسياسية طرأت على المجتمع ورأينا أن هذه التبدلات كانت ضرورة اجتماعية فرضتها الظروف الجديدة.

وفي مثل هذا المجتمع ـ مجتمع المدينة ـ الذي حوى عناصر متعددة من مجتمعات متباعدة، وفدوا على المدينة، فلا بد أن يوجد اللاهون والجادون، وأهل الصلاح وأهل الانحراف، فليس في الدنيا كلها المجتمع الكامل الأمثل، إلاَّ في عقول الفلاسفة الذين يحلقون بعيداً عن الواقع الأرضي.

فالمجتمع الأمثل في الإسلام هو المجتمع الذي يغلب فيه الصلاح على الفساد وتنكسر فيه حدة الشر في النفس بفعل العبادة والتوجيه الصالح. وقد علم الله استحالة وجود المجتمع المثالي، ولو أراد لفعل، فخلق الجنة والنار ووضع الثواب والعقاب ووضع الشكر والحمد والتوبة والاستغفار.

ونحن إذا حكمنا على مجتمع المدينة ـ في العصر الأموي ـ بأنه المجتمع الفاضل قصدنا المجتمع الذي يغلب فيه الخير على الشر، وسيادة أهل الصلاح على أهل الانحراف، وشيوع الخير واندحار الشر في بؤر محددة لها روادها القلائل ويفعلون ما يفعلون وهم مستخفون من الناس، ويخشون من مطاردة السلطان، وليس المجتمع الذي يصفه المؤرخون بأنه ساد فيه الخنا وانزوى فيه أهل التقوى.

لقد كانت عين السلطان ساهرة في مطاردة من يفعل منكراً لا يرضى عنه الإسلام ويقام الحدُّ على أهل الانحراف الخلقي، ويُشهّر بهم في المجتمع.

روى أبو الفرج في الأغاني، أن الشرطة في زمن إمارة مروان بن الحكم طاردت جماعة من المنحرفين، فهربوا، وأمسكوا بالدلال، ومعه غلام وجيء بهما إلى الأمير، فأمر قائلاً: أقيموه لعنه الله وأشهروه في المدينة مع الغلام. فأخرجا يُدار بهما في السكك[1].

ولا يعيب المجتمع أن يكون فيه المخطئون، ولكن يعيبه أن يوجد الخطأ فلا يوجد من ينكره.

ولهذا نقول: لقد وجد في المدينة المنورة ـ في العصر الأموي ـ أهل الجد، ووجد أهل اللهو، ووجد اللهو الحلال، ووجد اللهو الحرام. وقد بدأت مظاهر اللهو منذ أيام الخليفة عثمان، وحاربها الخليفة، ووظف من يبحث عن أهل اللهو لمحاربتهم.

روى الطبري[2] قال: أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا ـ أي كثرت الأموال ـ وانتهى وسع الناس (أي بلغوا من الثروة والترف الغاية) طيران الحمام والرمي على الجلاهقات. فاستعمل عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثمان من خلافته فقص الحمام وكسر الجلاهقات[3]».

ومن أنواع اللهو التي شاعت في العصر الأموي، الغناء، نتيجة لكثرة الإماء والجواري من الأعاجم حيث يكثر الغناء عندهم، فانتقل هذا الفن إلى المدينة المنورة.

---

(١) الأغاني ج ٤ / ٢٨٣. والدَّلال: اسمه ناقد، وكنيته أبو زيد، وهو مدني مولى بني فهم. وهو أحد من خصاه ابن حزم أثناء إمارته على المدينة في خلافة سليمان بن عبد الملك.

(٢) ج ٥ / خلافة عثمان بن عفان.

(٣) الجلاهقات: جمع جلاهق: وهو جسم صغير كروي من طين أو رصاص يرمى به وقيل: هي القوس التي يرمى بها البندق. وهي كلمة فارسية.

وقد صادف انتشاراً في المدينة المنورة أكثر من غيرها من البلدان، لأسباب: منها أنه صادف شعباً فيه رقة في الطبع وهم الأنصار الذين كانوا يألفون الغناء قبل الإسلام.

روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لعائشة: أهديتم الفتاة إلى بعلها قالت: نعم، قال: وبعثتم معها مَنْ يغني؟ قالت: لا. قال: أو ما علمتم أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل. ألا بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم[1]

ومن أسباب انتشار الغناء في المدينة وجود فئة من الناس الأثرياء يأتيهم المال دون سعي، وليس عندهم أعمال يديرونها، وماتت عندهم آمال المجد وهؤلاء هم جماعة من أبناء القرشيين عامة، ومن شباب بني أمية خاصة، وجدوا الفراغ والجدة، فطرقوا أبواب المغنين والمغنيات، يقضون عندهم بعضاً من الوقت. وقديماً قال الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجِدة مفسدةٌ للمرء أيّ مفسدة

وهذه الفئة من شباب قريش، هي التي كانت تسرف في سماع الغناء وتسرف في الإنفاق على المغنين، وكان إسرافهم هذا محل استهجان من الخلفاء والعلماء. وروينا سابقاً أن عبد الملك بن مروان، نمي إليه أن رجلاً أسود يقال له سعيد بن مسجح أفسد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم، فكتب إلى الوالي: أن اقبض ماله وسيره.

ومن أسباب انتشار الغناء، أن جماعة من عليّة القوم، وممن لهم دارية بالفقه كانوا لا يرون بأساً بسماع الغناء، ولا يفرقون بينه وبين الشعر، فلما

---

(١) العقد الفريد ج ٦ /٨ ـ الياقوتة الثانية في الغناء «ونيل الأوطار» للشوكاني والحديث رواه ابن ماجه.

حل أن ينشد من الشعر، حل أن يسمع غناءً. وحجتهم في جواز الغناء، أن أصله الشعر الذي أمر النبي ﷺ به، وحض عليه وندب أصحابه إليه، وتجنّد به على المشركين، فقال لحسان بن ثابت: شنَّ الغارة على بني عبد مناف، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام[1].

وقد روي سماع الغناء عن جماعة من الصحابة والتابعين. من هؤلاء عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وهو معدود من الصحابة[2]، وكان لا يرى بأساً بسماع الغناء[3].

روي أن عبدالله بن جعفر كان[4] إذا قدم على معاوية أنزله داره وأظهر له من بره وإكرامه ما يستحقه، فكان ذلك يغيظ فاخته بنت قرظة، زوج معاوية، فسمعت ليلةً غناء عند عبدالله بن جعفر، فجاءت إلى معاوية وقالت: هلم فاسمع ما في منزل هذا الرجل الذي جعلته بين لحمك ودمك، فجاء معاوية فسمع وانصرف. فلما كان في آخر الليل سمع معاوية قراءة عبدالله بن جعفر.

فجاء فأنبه فاخته، فقال: «اسمعي مكان ما أسمعتني».

ورووا أن عمر بن الخطاب سمع الحداء عندما كان في سفر، فلما جاء السحر، طلب من الحادي أن يسكت، لأنه وقت ذكر الله.

وتغنى عُمر يوماً وهو في ركب، بشعر في مدح النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

---

(١) الإصابة» رقم ١٧٠٤، ترجمة حسان بن ثابت ـ وفي الصحيحين أحاديث بهذا المعنى.

(٢) «عنوان النجابة في معرفة من مات بالمدينة من الصحابة». وعبدالله.. ولد في أرض الحبشة لما هاجر أبوه إليها. وكان كريماً يسمى بحر الجود وللشعراء فيه مدائح توفي بالمدينة حوالي سنة ٨٠ هـ، وانظر «الاصابة» ٤٩٥١.

(٣) «الاستيعاب في أسماء الأصحاب».

(٤) المصدر السابق.. وانظر «سير أعلام النبلاء ج ٣ / ٤٥٦. قال: وكان وافر الحشمة كثير التنعم وممن يستمع الغناء».

وما حملتْ من ناقةٍ فوق رحلها أبــر وأوفى ذمــةً من محمــد

فاجتمع الركب يسمعون، فلما رآهم اجتمعوا، قرأ القرآن.

وروي أن عبدالله بن عمر دخل يوماً على عبدالله بن جعفر وبين يديه جارية وفي حجرها عود، فقال: ما هذا يا ابن جعفر؟ قال: وما تظن به يا أبا عبد الرحمن؟ فإن أصاب ظنك فلك الجارية، قال: ما أراني إلا قد أخذتها، هذا ميزان رومي. فضحك ابن جعفر، وقال: صدقت، هذا ميزان يوزن به الكلام، ثم قال للجارية: هات فغنت.

أيــا شــوقــاً إلى البـلد الأميـن وحيي بين زمــزم والـحجـون

ثم قال ابن جعفر: هل ترى بأساً؟ قال: هل غير هذا؟ قال: لا. قال ابن عمر، فما أرى بهذا بأساً[1].

وسمع ابن عمر، ابن محرز يغني:

لــو بُــدّلـتْ أعـلى مـنــازلـهــا سُـفــلاً وأصبــح سـفلُهــا يـعلو
لعــرفت مغنـاهــا بمــا احتملت مـني الـضلوعُ لأهـلهـا قـبــل

فقال ابن عمر: قل إن شاء الله. قال: يفسد المعنى، قال: لا خير في كل معنى يفسده «إن شاء الله»..

وكان عروة بن أذينه[2] يعد ثقةً ثبتاً في الحديث، روى عنه الإمام مالك بن أنس وكان شاعراً لبقاً، غزلاً، وكان يصوغ الألحان والغناء على

---

(١) العقد الفريد ج ٦ ـ الياقوتة في الغناء.

(٢) اسمه عروة بن يحيى، ولقبه أُذينه، بن مالك بن الحارث الليثي شاعر غزل مقدم، من أهل المدينة، ومعدود من الفقهاء والمحدثين ولكن الشعر غلب عليه وهو القائل:

لقـد علمت ومـا الإسـراف من خلقي أن الـذي هـو رزقي سـوف يـأتيـني
أسـعى إلـيـه فيُـعْـييـني تـطلبُـه ولـو قـعـدت أتـاني لا يـعـنـيـني

وقد جمع الدكتور يحيى الجبوري ما وجد من شعره في ديوان مطبوع، توفي سنة ١٣٠ هـ «المعارف لابن قتيبة / ٤٩٢».

شعره في حداثته وينحلها المغنيـن.

ووقفت عليه امرأة وحوله التلاميذ فقالت: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وأنت القائل:

إذا وجدتُ أُوار الحبّ في كبدي عمـدتُ نحو سقـاء القوم ابتـرد
هبني بـردْتُ ببردِ المـاءِ ظاهـره فمن لنـارٍ على الأحشـاء تتقـد

والله ما قال هذا رجل صالح قط.

وقد احتج من أجاز الغناء، بقول الرسول، لعائشة: ألا بعثتم معها من يقول (الحديث) وأن أصل الغناء الشعر، والشعر مباح، سمعه الرسول وصحابته. وأن الرسول عليه الصلاة والسلام استحسن الصوت الحسن في القرآن. فقال لأبي موسى الأشعري لما أعجبه حسن صوته: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داوود»[1].

ولو كانت الألحان مكروهةً، فالقرآن والآذان أحق بالتنزيه عنه. وإن كانت الألحان غير مكروهة فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن وإخراجه عن حدّ الخبر. وإنما جعلت العرب الشعر موزوناً لمد الصوت فيه والدندنة ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور.

أما قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً﴾[2].

فيرى أناس أنها خاصة فيمن نزلت فيهم. ويرون أنها نزلت في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السمر والأحاديث القديمة ويضـاهون بهـا القرآن، ويقولون إنها أفضل منه. وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة «ترجمة عبدالله بن قيس (أبو موسى الأشعري)» رقم ٤٨٩٨.
(٢) سورة لقمان آية ٦.

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث[1] لأنه كان لا يسمع بأحد يريد الإسلام، إلا انطلق به إلى قينة، فيقول: أطعميه، واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد[2].

وقال ابن مسعود في تفسير «لهو الحديث»، في الآية: «هو رجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً[3]».

وحجة من كره الغناء أنهم تأولوا «لهو الحديث» الغناء مطلقاً، ولأن الغناء ينفر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب وهو باطل في أصله.

وقد كرهه قوم على طريق الزهد في الدنيا وملذاتها، كما كره بعضهم الملاذ وترك البر وأكل الشعير، لا على طريق التحريم..

وهكذا نرى أن من انقطع إلى سماع الغناء من أهل المدينة قلة من المترفين وأن من نسب إليهم سماع الغناء من العلماء والفقهاء إنما سمعوا منه ما بعد من الابتذال وسلم من الشهوة، كأغاني القوة والفتوة وما فيه حكمه. وكان سماعهم له عن طريق المصادفة، لا يقصدون إليه، ويكون ذلك للحظة

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ج ١ / ١٤٠. وهو النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف أحد أعداء الله، قتل يوم بدر كافراً. قال البلاذري: كان أشد قريشاً مباداة للنبي ﷺ بالتكذيب والأذى. وكان صاحب أحاديث، ونظر في كتب الفرس، وخالط النصارى واليهود. وكان يحدّث ثم يقول: أينا أحسن حديثاً، أنا أم محمد، ويقول: إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين. فنزلت فيه الآية ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين ـ الأنفال﴾.

قال: وكان النضر قدم الحيرة فتعلم ضرب البربط «العود» وغنى غناء أهل الحيرة وعلّم ذلك قوماً من أهل مكة، وكان غناؤهم قبل ذلك النصب (غناء يشبه الحداء إلا أنه أرق) واشترى قينتين، فنزلت فيه: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ (لقمان ـ ٦).

(٢) أسباب النزول للسيوطي. سورة لقمان.

(٣) تفسير ابن كثير سورة لقمان.

من نهار أو ليل، بحيث لا يطغى على أوقات العبادة. أو يقطعهم من عمل الصالحات.

ومن مجالات اللهو في المدينة، لقضاء أوقات ممتعة، أنهم يخرجون في أيام الربيع، في السنوات الممطرة، إلى الصحاري للاستمتاع بمنظر الأرض التي كسيت بالحشائش والأزهار. وكان عمر بن الخطاب قد كتب إلى ولاته أن يأمروا الناس بالخروج إلى الصحاري في أيام الربيع لينظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها.

وفي أيام الأمطار يخرجون إلى ضفاف الأودية يستمتعون بمناظر المياه التي تملأ الوديان وتبقى أياماً وهي تسيل كأنها النهر.

وقد ورد ذكر العقيق كثيراً في مجال اللهو والمتعة في أيام المطر والربيع، ذكر الأغاني من أخبار عبدالله بن جعفر قال: كان عبدالله بن جعفر معه إخوان في عشية من عشايا الربيع، فراحت عليهم السماء بمطر جَوْد فأسال كلَّ شيء. فقال عبدالله: هل لكم في العقيق؟ وهو متنزه أهل المدينة في أيام الربيع والمطر. فركبوا دوابهم ثم انتهوا إليه فوقفوا على شاطئه وهو: يرمي بالزبد مثل مدّ الفرات[1].

وذكر العقد الفريد في أخبار ابن عائشة المغني، خروج ابن عائشة يوم خرج الناس إلى العقيق. فقال: لما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق فجاء بالعجب، فلم يبق بالمدينة مخبأة ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني، وغنى الناس على شاطىء العقيق. قال: «فما اجتمع لأهل المدينة سرور مثل ذلك اليوم[2]». وفي أيام الصيف، يخرج أهل المدينة إلى البساتين التي كانت تحيط بالمدينة إحاطة الغوطة بدمشق الشام، ويخرجون إلى وادي العقيق الذي كان في العصر الأموي من أجمل

---

(١) الأغاني ج ٣ / ٣٢.

(٢) العقد الفريد ج ٦ / ٣٥.

المناطق وأنقاها هواء وأحلاها ماءً، تشرف مئات القصور على ضفافه وبجانب كل قصر الآبار والبساتين، حتى غص العقيق بالناس، ووصل سكانه إلى أربعين ألف نسمة في العصر الأموي.

وكانت بيئة المدينة المنورة ـ أرضها وهواؤها وسكانها ـ هي التي ساعدت على إقبال جملة من الناس على اللهو البريء.

ومن متممات مجالس اللهو أن يوجد في المجتمع أهل الدعابة والظرف والنكتة، يملحون الجلسات ويضيفون عليها الحياة ويبعدون عنها الملل. وممن شهر في هذه الفترة عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وقد اشتهر باسم: ابن أبي عتيق. وقد استدل به الدكتور طه حسين[1] على انتشار المجون في المدينة وعلى انصراف أبناء الصحابة المهاجرين إلى حياة اللهو فقال: فأما أكثرهم فانصرف إلى اللهو والمجون فقال: «ولعلك تعلم أن هذا الماجن الذي ازدان به الحجاز حيناً ـ وهو ابن أبي عتيق، كان من سلالة أبي بكر».

وقد اعتمد في وصفه على ما جاء في كتب الأدب، ولكن الحقيقة، ليس كما وصفه طه حسين. فقد ذكر المصعب الزبيري في نسب قريش[2] ابن أبي عتيق فقال: كان امرأ صالحاً وقد كانت فيه دعابة وقد سمع من عائشة أم المؤمنين. وذكر من دعاباته، ما حدث أثناء حصار مكة أثناء دولة ابن الزبير. حيث كان الحجاج قد حاصر مكة ومعه سبعمائة، ثم أمده عبد الملك بطارق بن عمرو في أربعة آلاف، فأشرف أحدهم على جبل أبي قُبيس فصاح: أليس قد أخزاكم الله يا أهل مكة، قد أقدمت البطحاء من أهل الشام، أربعة آلاف. فقال ابن أبي عتيق، وكان مع ابن الزبير: بلى والله قد أخزانا الله . قيل: هلا قال: «لم نطقهم وهم سبعمائة فنطيقهم الآن وهم أربعة آلاف».

---

(١) حديث الأربعاء ج ١ / ٢٤١ ـ خلال حديثه عن الشاعر العرجي.

(٢) نسب قريش / ٢٧٨، و «تهذيب التهذيب» ونقل أنه مدني ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات.

ومن ظرفاء أهل المدينة في العصر الأموي، أشعب الطامع[1] وكان مولى لابن الزبير، وقد تأدب وروى الحديث وكان يجيد الغناء، ويضرب المثل بطمعه. وله أخبار ودعابات في كتب الأدب، وكلها تتعلق بالطمع والتطفل[2].

ومن أنواع اللهو، أن يشهد القوم بعض الألعاب الرياضية، كاللعب بالدرق والحراب التي يقوم بها السودان.

وفي المدينة ميدان يسمى «ميدان السبق» كان يجري عنده سباق الجري منذ صدر الإسلام وورد في الأحاديث أنه كانت تجري في الأعياد مبارزات يقوم بها بعض الأحباش.

روى البخاري عن عائشة قالت: دخل رسول الله وعندي جاريتان تغنيان بغناء «بعاث[3]» فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي، فأقبل عليه رسول الله وقال: دعهما... وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب. فإما سألتُ النبي، وإما قال: «تشتهين النظر؟ فقلت: نعم. فأقامني وراءُ.. وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة[4]، حتى إذا مللتُ قال: حسبك قالت: نعم. قال: فاذهبي».

وفي الحديث دليل على جواز الغناء بالشعر إذا كان في وصف الشجاعة وأنه يجوز النظر إلى اللهو، إذا كان فيه تدريب للجوارح على تقليب السلاح لتخف بها الأيدي عند الحرب.

---

(١) أشعب بن جبير، عاش عمراً طويلاً حتى أدرك العباسيين وتوفي سنة ١٥٤ هـ.

(٢) انظر: العقد الفريد، أخبار الطفيليين. وذكر منهم أشعب الطماع. وقد ضرب المثل بطمعه حتى قيل: أطمع من أشعب وبلغ من طمعه أنه قال: لم أنظر إلى اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لي بشيء.

(٣) بعاث: حرب جرت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام.

(٤) أرفدة: لقب جنس من الحبشة.

وقد روى العياشي، أنه رأى في المدينة - في العصر الحديث - أغوات الحرم المدني يلعبون يوم العيد بالدرق والسيف، والأغوات من الأفـارقة، ومعنى هذا أن هذه الألعاب بقيت مع الزمن حتى وصلت إلى عصرنا[1].

ومن أنواع الرياضة، المصارعة: روى صاحب الأغاني ج ٣ /٥٦ في ترجمة الشاعر هلال بن الأسعر - وهو شاعر إسلامي أموي - وكان فارساً شديد البطش فروى الشاعر أنه قدم المدينة وعليها رجل من بني مروان.. فطلبه الأمير لمصارعة عبدٍ ما ترك بالمدينة عربياً إلا صرعه.. قال: فصارعت العبدَ حتى وقع مغشياً عليه، فضحك الأمير، وأمر لي بجائزة وكسوة.

أما مجالات الحياة الجادة فهي كثيرة، تستغرق أوقات معظم الناس. وكان أكثر الناس يفضلون قضاء وقتهم في قلب المدينة ليتمكنوا من أداء الصلوات في حرم رسول الله والجلوس في حلقات العلماء الذين كانت تعمر بهم المدينة وكان لكثير منهم حلقات في المسجد النبوي.

وما بين الصلاة و الجلوس في حلقات العلماء، ينصرفون إلى أعمالهم التي تخصصوا فيها، فكان منهم التجار الذين يجلبون التجارة من مصادرها في بلاد الشام أو مصر، ويتولى أناس بيعها في سوق المدينة، وكان منهم النّجار والحداد والموظف والشرطي[2] وكان منهم من لا عمل له ينتظر عطاء أو صدقة.

---

(١) المدينة بين الماضي والحاضر، لإبراهيم العياشي.

(٢) لم يكن أهل المدينة يدخلون في شرطة الأمير، أو أنَّ الأمراء لم يتخذوا من أهل المدينة شرطة وحرساً، لأن السياسة كانت تقضي بالشدة، وأحياناً يكون فيها هدم بيوت، وابن المدينة لن يجرؤ على فعل هذا مع أهله في المدينة. ولذلك روي أنه لما ولي مروان بن الحكم المدينة ولى مصعب بن عبد الرحمن بن عوف شرطته فقال: إني لا أضبط المدينة بحرس المدينة، فابغني رجالاً من غيرها. فأعانه بمائتي رجل من أهل أيله (ميناء على البحر الأحمر قديماً، شمالي العقبة) فضبطها ضبطاً شديداً.

الأغاني ج ٥ / ٧٤).

ولم يكن في المدينة جيش خاص بالإمارة، لأنها ليست ثغراً، فإذا احتاجوا إلى ذلك فرضـوا البعث على الناس للاشتراك في الجيش، كما حصل عند محاربة جيش أبي حمزة الخارجي زمن مروان بن محمد».

٥ ـ التكافل الاجتماعي

كان المجتمع المدني في العصر الأموي يحوي تشكيلة من العناصر المختلفة في درجاتها[١] وفي أجناسها. ومن مجموع العناصر تكون المجتمع المدني الموحّد تشد عناصره إلى بعضها البعض وحدة روحية، أثمرت التكافل الاجتماعي الرفيع الدرجات.

في المدينة، السروات والأشراف إلى جوارهم موال وعبيد، وفيها الأغنياء والفقراء، والمتعلمون والعمال والشعراء، وفيها من الأسرة الحاكمة، وفيها خصومها. وبنو هاشم وأبناء الصحابة إلى جوار بني أمية، وفيها العرب، وفيها الفرس والروم، والمصريون، والأفارقة والعراقيون والشاميون. . وكان الأمويون يحكمون أهل المدينة بالشدة والقسوة، وكانوا مع ذلك يرتجون رضاهم. وقد أُخذ أهلها بالبأساء والضراء في أكثر العهود فقضت المدينة سنوات حياتها في ضنك العيش ومنعوا من حقوقهم في بيت المال.

---

(١) نفضل استخدام كلمة «درجة» بدلاً من «طبقة» للدلالة على مراتب الناس في المجتمع، وهو اللفظ الذي استخدمه القرآن للدلالة على مراتب الناس في الحياة الدنيا والآخرة، سواء كانت نتيجة مستواهم الاقتصادي، أم لأعمالهم الصالحة. أما كلمة «طبقة» فلم يستخدمها القرآن للمرتبة الاجتماعية، ولم يرد في القرآن مادة «طبق» إلا في لفظين. منها قوله تعالى: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ سورة الانشقاق ومعناها: الحال. ويراد بها يوم القيامة. ووردت «طباق» في قوله تعالى: ﴿خلق سبع سموات طباقاً﴾ أي: بعضها فوق بعض.

أما المال الذي يتحدث عنه المؤرخون ويقولون: أن كثرته سبب في الفساد الاجتماعي، فقد كان مخصوصاً، بعدد قليل من الناس.

والمدينة واحة في قفر، والرزق فيها قليل لا يتسع لهذا الازدحام الجديد. وقد تنبه عمر إلى هذا فقال في إحدى خطبه: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك(١).

فكانت حياة أهل المدينة في هذا العصر ميسورة بالصبر والرضا بما قسم الله لهم وكانت قلة منهم تنال العطايا من الحكام. وكان الخلفاء يحاولون إرضاء سراة الناس. ولا يهمهم سوقة الناس وفقراؤهم.

عندما زار الوليد بن عبد الملك المدينة في ولاية عمر بن عبد العزيز، وزع الأموال على خاصة الناس وحرم عامتهم، فقال له عمر: زدت أهل الغنى غنى، وزدت أهل الفقر فقراً. وحنق الناس يومها على بني أمية وغلت قلوبهم كالمراجل.

وكان مما يخفف حياة الضنك التي يعيشها أهل المدينة: العلاقات الاجتماعية التي تتسم بالتكافل والتعاون. فمن عظم عطاؤه أو ثراؤه، أو من كانت لهم تجارة في موسم الحج كان هؤلاء يجودون بما عندهم أو ببعضه على المعدمين. وكان الفقراء يستدينون في انتظار أُعطيات الرجال الكرماء.

رُوي أن قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، باع أرضاً إلى معاوية بتسعين ألفاً، فقدم المدينة، فنادى مناديه، من أراد القرض فليأت. فأقرض منها خمسين ألفاً، وأطلق الباقي. ثم مرض بعد ذلك فقلَّ عواده، فقال لزوجته: إني أرى قلة من عادني في مرضي هذا، وإني لأرى ذلك من أجل مالي على الناس من القرض. فأمر مناديه فنادى: من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو منه حلٌّ، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه من كثرة العواد.

---

(١) قالها عمر بن الخطاب يحث الناس على الالتحاق بالجيش لمحاربة الفرس في العراق والنجعة: طلب الكلأ في مواضعه، وهي اسم من النجوع، يقال: خرجوا للنجعة.

وكان الناس يستحون من زيارته لعجزهم عن سد ما عليهم من الدين[1].

وكان بعض الخلفاء يزيدون في عطاء سروات الناس لأنهم يعرفون كرمهم.

ومما يروى في ذلك أن يزيد بن معاوية، ضاعف العطاء لعبد الله ابن جعفر فلما روجع يزيد قال: إني أعطيتها أهل المدينة أجمعين. وكان عبدالله بن جعفر من أسخى الناس، يعطي الجزيل الكثير ويستقله.. روي أن رجلاً جلب سكراً إلى المدينة فكسد عنده فلم يشتره أحد، فأمر ابن جعفر قيّمه أن يشتريه وأن يهديه للناس[2].

وكان علي بن الحسين زين العابدين: جواداً. وكان أناس في المدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم به. ولما مات وجدوا في ظهره وكتفيه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين[3].

وقال بعض أهل المدينة: ما فقدنا صدقة السرّ إلا بعد موت زين العابدين. وقيل: إنه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولا يدرون بذلك حتى مات. والمجتمع الذي يقوم على التكافل الاجتماعي، تجد الناس يجودون، كلٌّ بما يقدر عليه.

انظر إلى قصة القرشي الصعلوك يجود على سعيد بن العاص، بالذي يملكه ويحتاج إليه سعيد بن العاص. روى المصعب الزبيري[4] أن عمرو ابن سعيد كان يسد ديون أبيه بعد موته، فأتاه فتى من قريش يذكر حقاً بعشرين ألف درهم على سعيد بن العاص، بخط مولى لسعيد، وبشهادة سعيد على

---

(١) البداية والنهاية ترجمة قيس بن سعد.

(٢) «الإصابة في تمييز الصحابة» ترجمة عبدالله بن جعفر.

(٣) وفيات الأعيان ج ٣ رقم الترجمة ٤٢٢.

(٤) نسب قريش ١٧٧.

نفسه، بخط سعيد بيده. فعرف عمرو خطّ المولى وخط أبيه وأنكر أن يكون هذا المال للفتى، وإنما هو صعلوك[1] من صعاليك قريش. فأرسل إلى مولى أبيه، فدفع إليه الصك، فلما قرأه المولى بكى ثم قال: نعم أعرف هذا الصك. دعاني مولاي وقال لي ـ وهذا الفتى عنده على بابه معه: هذه القطعة الأديم، اكتب، فكتبت بإملائه هذا الحق.. قال عمرو للفتى: وما سبب مالك هذا يا فتى. قال: رأيته وهو معزول يمشي، فقمت فمشيت معه حتى بلغ إلى باب داره، ثم وقفت فقال: هل لك من حاجة؟ فقلت لا، إلا أنني رأيتك تمشي وحدك فأحببت أن أصل جناحك قال: وصلتك رحم يا ابن أخي ثم قال: ابغني قطعة أديم، فأتيت خرّازاً عند باب داره فأخذت منه هذه القطعة فدعا مولاه هذا ثم قال: اكتب فكتب.. ثم دفعها إليَّ وقال: يا ابن أخي ليس لك اليوم عندنا شيء، فخذ هذا الكتاب، فإذا أتانا شيء فأتنا به إن شاء الله، فمات يرحمه الله قبل أن يصل إليه. قال: عمرو: ولا جرم، لا تأخذها إلا وافية[2].

ويظهر التكافل الاجتماعي في وقت الشدائد. حيث يختبر الرجال والمجتمعات فرغم القحط الذي كان ينزل بالمدينة أحياناً، ورغم التضييق الاقتصادي على مجتمع المدينة المزدحم بالسكان، فإننا لم نقرأ أن الناس ماتوا جوعاً بل وجدنا جوداً ممن يقدر عليه، يحيا الناس به، رغم امتداد القحط سنوات عدة.

روى المصعب الزبيري[3] عمن رأى، قال: قحط المطر أثناء ولاية خالد بن عبد الملك في خلافة هشام، وكان يقال لها: سنيات خالد فجلا

(١) الصعلوك: والجمع صعاليك: الفقير، وصعاليك العرب الشعراء: فقراؤهم. وكانوا لصوصاً، ولكنهم لا يسرقون إلا من الأغنياء. وكثيراً ما يجودون بما يسرقون على المحتاجين (انظر «الصعلكة والفتوة» لأحمد أمين.

(٢) الدراهم الوافية: دراهم فارس، الدرهم زنة المثقال الذهب. وعندهم الدراهم البغلية، والدراهم الجواز. وهي تنقص عن البغلية في العشرة ثلاثة. فالعشرة الجواز سبعة بالبغلية.

(٣) نسب قريش ٢٤٦.

الناس من بادية الحجاز فلحقوا بالشام. قال: فحدثني حماد بن عطيل قال: «فحضرت عبدالله بن عروة بن الزبير في أمواله بالفرع[1] يدخل الناس في مربد تمره طرفي النهار، غدوة فيتغدون، وعشية فيتعشون، فما زال كذلك حتى أحيا الناس». .

ومن أمثلة التكافل، ما روي أن سعيد بن المسيب علم أن أحد تلاميذه قد ماتت زوجته، فيزف سعيد ابنته إلى تلميذه. وكانت من أحسن النساء وأكثرهم أدباً وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله. وكان التلميذ فقيراً فأرسل له سعيد بخمسة آلاف درهم، وكان سعيد بن المسيب رفض تزويج ابنته إلى الوليد بن عبد الملك عندما كان ولياً للعهد[2].

وكما قام المجتمع المدني على التكافل، قام أيضاً على الصفاء والود، فقد جمعتهم المدينة، وجمعهم حرم رسول الله فتناسوا ما كان بينهم من الأحقاد السياسية. ووجدنا أبناء الأعداء أصدقاء، تجمعهم أسرة واحدة. ولنأخذ مثالاً سكينة بنت الحسين: يتزوجها مصعب بن الزبير، ثم يتزوج بضرة لها هي عائشة بنت طلحة، فيجتمع عليٌّ وطلحة والزبير بأبنائهم.

ومن أمثلة الود والتضامن في الملمات: عندما قرر أهل المدينة إخراج بني أمية من المدينة، قُبيل معركة الحرة، جاء مروان بن الحكم إلى علي ابن الحسين وقال له: إن.. هؤلاء القوم قد ركبونا بما ترى، فضم عيالنا إلى أهلك، فرحب علي بن الحسين بطلب مروان وضم أهله إلى أهله،[3] رغم ما بين الأمويين وأبناء عليّ من العداوة السابقة، ورغم ما كان بين مروان خاصة

(١) الفرع: قرية بينها وبين المدينة حوالي مائة كيلو متر، على طريق مكة. وكان بها مياه ونخل، وهي قرية غناء كبيرة. وتعتبر في زمانها كالكورة وفيها عدة قرى ومنابر ومساجد للنبي ﷺ. وكانت منطقة الفرع ولاية تتبع المدينة ولها أمير. وكان فيها عيون وبساتين لآل الزبير. ولا زالت المنطقة عامرة خصبة وتسمى وادي الفرع.

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ الترجمة رقم ٢٦٢ و«تهذيب التهذيب» ج ٤ / ١٤٥. و«البداية والنهاية» ج ٩ / ١٠٠، واسم زوج ابنة سعيد، كثير بن أبي وداعة.

(٣) البداية والنهاية سنة ٦٢ هـ .

وبين علي بن أبي طالب.

إن زوال السلطان السياسي عن المدينة وأهلها، كان نعمة على أهل المدينة لأن السياسة تفرق وتبدد[1] وعندما زال ما يتنازع الناس من أجله، جمع بين الناس ما في الرسالة الإسلامية من دعوة إلى الحب في الله عز وجل. وتوارثوا مبدأ المآخاة الذي زرعه رسول الله عند قدومه إلى المدينة، وتشربوا مبدأ الحب الذي قابل به أهل المدينة رسول الله عندما قدم إلى المدينة حيث فتح الأنصار قلوبهم للقادمين الهاربين من الظلم، فأصبح من طبيعة المدني العطف على كل مستضعف..

هذا المجتمع الذي زالت فيه الأحقاد وسيطر الحب على أهله، جعل أهل المدينة يتمسكون بمجتمعهم ولا يقدرون على فراقه، ولا يكادون يبتعدون عنه إلا بمقدار الحاجة ثم يعودون متشوقين إلى أحضان مجتمعهم وإلى حنوّ مدينتهم.

فما السر في هذه العلاقات الاجتماعية المترابطة، وما سر حنو المجتمع على أفراده، وما سر تعلق أهل المدينة المنورة بمدينتهم؟

يبدو لي أن هناك عوامل متعددة أدت إلى تكون هذا المجتمع منها: أن هؤلاء الناس الذين اختاروا المدينة سكناً لهم، لم يكن اختيارهم مبنياً على منافع مادية، أو مركز سياسي. فليس في المدينة شيء من منابع المال التي تمد بيت المال، ومن أراد المنافع المادية فقد هاجر إلى العراق والشام ومصر، ومن أراد المركز السياسي قصد جوار الخلفاء أو لازم الأمصار التي تتاخم ثغور بلاد الفتح.

ولذلك فإننا نجد أن أسباب الخصام والتناحر معدومة في المدينة، وكان

---

(١) المقصود بالسياسة هنا: السياسة التي تبنى على الهوى والمنافع الشخصية. أما السياسة الإسلامية فهي جزء لا ينفصل عن النظام الإسلامي الكامل، ترتبط بالمبادىء الإسلامية العامة ويراعى فيها النظم الإسلامية العادلة.

هدفهم موحداً وهو طلب جوار حرم رسول الله ﷺ.

ومن عوامل تكوين هذا المجتمع، أن الناس حفظوا وصية رسول الله في جيرانه فوجدنا أهل المال والجدة يجودون بما عندهم أو ببعضه على المقلين من جيران رسول الله، فيبقى المجتمع عامراً بسكانه.

روي أن الإمام مالك دخل على المهدي فقال: أوصني فقال الإمام مالك: أوصيك بتقوى الله وحده والعطف على أهل بلد رسول الله وجيرانه فإنه بلغنا أن رسول الله قال: المدينة مهاجري ومنها مبعثي وبها قبري وأهلها جيراني، وحقيق على أمتي حفظ جيراني[1].

وروي أنه لما قدم المهدي المدينة استقبله الإمام مالك وغيره من أشراف المدينة، فلما بصر بمالك، انحرف المهدي إليه فعانقه وسلم عليه وسايره، فالتفت مالك إلى المهدي فقال: يا أمير المؤمنين إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك وهم أولاد المهاجرين والأنصار، فسلمْ عليهم فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ولا خير من المدينة[2] قال المهدي: ومن أين قلت ذلك يا أبا عبدالله؟: قال: إنه لا يعرف قبرُ نبي اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ ومن كان قبر محمد ﷺ عندهم فينبغي أن يُعرف فضلهم على غيرهم. ومن عوامل تكوين المجتمع المدني: ترغيب الرسول في سكنى المدينة، حتى سرى الاعتقاد بكراهة ترك المدينة بعد سكناها. روى الإمام مالك: قول الرسول عليه السلام: أمرت بقرية تأكل

---

(١) وفاء الوفا: ج ١ ولهذا الحديث ما يؤيده في الدعوة إلى إكرام أهل المدينة، كما ورد في صحيح البخاري «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا إنماع، كما ينماع الملح في الماء» وقريب من هذا اللفظ في صحيح مسلم. والحديث المذكور في كتاب «التعريف» للمطري.. عن الحسن عن معقل بن يسار.. وفي «عمدة الأخبار» للشيخ أحمد العباسي ص ٩١.

(٢) يتفق العلماء على أن بيت الله في مكة خير من مسجد الرسول في المدينة، ولكنهم يختلفون في المفاضلة بين مكة والمدينة. وقد روى الإمام مالك في الموطأ (جامع ما جاء في أمر المدينة) أن عمر بن الخطاب قال لعبدالله بن عياش أأنت القائل لمكة خير من المدينة؟ قال: فقلت: هي حرم الله وأمنه وفيها بيته، فقال عمر: لا أقول في حرم الله ولا في بيته شيئاً.

القـرى يقولـون: يثرب وهي المـدينة تنفي النـاس كما ينفي الكـير خبث الحديد[١].

وروى الإمام مسلم قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه أو قريبه هلمّ إلى الرخاء، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده، لا يخرج أحدٌ رغبةً عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه[٢]».

وروي أن عمر بن عبد العزيز حين عزل عن ولاية المدينة وخرج منها التفت إليهـا فبكى، ثم قـال يـا مـزاحم: «أخشى أن نكـون ممن نفت المدينة[٣]». وقد أحب الناس المدينة، تأسياً بحب رسول الله لها، واستجابة لدعوته فقد ورد في الموطأ: دعاء الرسول عليه السلام: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد[٤]».

وفي صحيح البخاري: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة، أوضع راحلته (أي أسرعها) تباشراً بالمدينة». وكان إذا أقبل من مكة واقترب من المدينة، طرح رداءه عن منكبيه وقال: «هذه أرواح المدينة».

ومما يروى من قصص الحنين إلى المدينة وأهلها، قصة الشاعـر أبي قطيفة[٥] الذي نفاه ابن الزبير عن المدينة، وسكن الشاعر الشام فلما طال

---

(١) تنوير الحوالك ج ٢ / ٢٠٢.

(٢) وانظر الحديث في شرح الموطأ ونقل عن ابن عبد البر قوله: والحديث خاص بحياته ﷺ، وأما بعده فقد خرج منها جماعة من الصحابة ولم تعوض المدينة بخير منهم. وقال بعضهم: المراد: يخرج رغبة عن ثواب الساكن فيها، وأما من خرج لضرورة، فليس ممن يخرج رغبةً عنها».

(٣) تنوير الحوالك: ج ٢ / ٢٠٣.

(٤) المصدر السابق وفي «جواهر البخاري» ٢٢٢.

(٥) عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، الأموي القرشي، شاعر، رقيق الشعر كان يقيم بالمدينة، ونفاه عبدالله بن الزبير إلى الشام مع من نفاهم من بني أمية فأقام زمناً في دمشق أكثر فيه الحنين إلى المدينة حتى رقّ له ابن الزبير فأذن برجوعه، فبينما هو راجع أدركه الموت قبل أن يبلغ المدينة حوالي سنة ٧٠ هـ.

مقامه قال يحن إلى المدينة[1].

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا   قُباء وهل زال العقيقُ وحاضره
وهل برحتْ بطحاء قبر محمد   أراهط غرّ من قريش تباكره
لهم منتهى حبّي وصفوُ مودتي   ومحض الهوى مني وللناس سائره

وقال أيضاً يفضل المدينة على الشام، رغم سكناه القصور:

ليت شعري وأين مني ليتُ   أعلى العهد يَلْبنٌ فبَرام[2]
أم كعهدي البقيع أم غيرته   بعدي الحادثات والأيام
كان أشهى إليَّ قرب جوارٍ   من نصارى في دورها الأصنام
يضربون الناقوس في كلّ فجرٍ   ببلادٍ تنتابها الأسقام
وبقومي بُدّلت عكّاً ولخماً   وجذاماً وأين مني جذام[3]
وتبدلْتُ من منازل قومي   والقصور التي بها الآطام
كل قصر مشيّد ذي أواس   تتغنى على ذراه الحمام[4]
أقر مني السلاَم إنْ جئت قومي   وقليل لهم لديَّ السلام
أقْطَع الليل كلّه باكتئابٍ   وزفيرٍ فما أكادُ أنام
نحو قومي إذْ فرقت بيننا الدار   وحادت عن قصدها الأحلام
خشيةً أن يصيبهم عنتُ الدَّهر   وحربٌ يَشيبُ منها الغلام
ولقد حان أن يكون لهذا البعد   عنا تباعدٌ وانصرام

ونلاحظ أن الشاعر قد تعلق قلبه بالمدينة وآثارها ومعالمها، ويرفض

---

(١) الأغاني ج ١ . . ومعالم طابة / ٦٢.
(٢) يلبن: بفتح أوله وسكون ثانية، وفتح الموحدة: جبل قرب المدينة، وبرام: بفتح أوله وكسره جبل عند الحرة.
(٣) عك، ولخم، وجذام: قبائل يمنية كانت تسكن الشام.
(٤) الأواسي: السواري والأعمدة.

البقاء في الشام، وفيها الخليفة الأموي وأنصار بني أمية. رفض البقاء في قصور الشام مع كثرة العطايا والهدايا التي ينالها. فالشاعر في الشام بين أهله الأمويين ويحس أنه غريب بينهم. واعتبر سكان المدينة أهله، ونحن نعرف أن الأمويين نزحوا عن المدينة ولم يبق منهم أحد.

والشاعر أبو قطيفة أموي قرشي لم يحن إلى مكة، موطن قريش والأمويين وإنما مال قلبه إلى المدينة وتعلق بها.. فأي سرّ في تعلق هذا الشاعر؟

هل هناك غير ما ذكرت من شدة الميل إلى هذا المجتمع الذي امتزجت فيه الأرواح في ظل الحياة الروحية التي تنبعث من جوار حرم رسول الله؟ ومن العجيب أن الدكتور شوقي ضيف، اتخذ من قصة حنين أبي قطيفة دليلاً على كثرة اللهو في المدينة وأن الشاعر يحن إلى المدينة متشوقاً للرجوع إلى مجالس الغناء، حيث يقول[1]: «نحن إذن بإزاء مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كي يمرح أهله مرحاً بريئاً مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقي المهذب. ولعلنا الآن نفهم حزن أبي قطيفة الأموي على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق. فقد أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثر مقارناً بينها وبين دمشق، ولا نقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طرد من فردوسه الأرضي حيث يقول:

القصر فالنخل فالجماء بينهما ... أشهى إلى القلب من أبواب جيرون[2]

ويقول:

أَقْطع الليلَ كلَّه باكتئاب ... وزفير فما أكاد أنام

(١) تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) القصر: هو قصر سعيد بن العاص. ذكره مصعب الزبيري في نسب قريش ١٧٦ وقال: كان منزلاً قد اتخذه سعيد وغرس فيه النخل وزرع فيه وبنى قصراً جميلاً والجماء: جبل بالمدينة من ناحية العقيق، سُميت بذلك لأن هناك جبلين هي أقصر منهما، فكأنها جماء. والشاة الجماء: لا قرن لها. قالوا: وفي المدينة ثلاث جماوات. وجيرون: مكان في الشام، وقيل: دمشق.

. . . إلى أشعار كثيرة تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة في مسقط رأسه، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له في الرجوع». ولا أدري كيف طوعت للدكتور شوقي ضيف نفسه أن يفسر أشعار أبي قطيفة لتكون دليلاً على نظرية مبنية على مصادر هشة متهافتة؟ هل كان الشاعر يخجل من ذكر أسماء المغنيين وأماكن اللهو في شعره، لو كان يقصد ذلك؟ وهل كان عبدالله بن الزبير غافلاً عن مقصود أبي قطيفة عندما سمح له بالرجوع؟ وإذا كان ابن الزبير يعرف ما يقصده الشاعر، فهل كان ابن الزبير يسمح برجوع الشاعر إلى المدينة من أجل أن يخوض في مواطن اللهو؟ وابن الزبير يحارب ذلك ويهاجم بني أمية من أجله. وإذا كانت المدينة مرتعاً لأهل اللهو والغناء في زمن ابن الزبير ومن قبل ذلك زمن معركة الحرة، فكيف سمح زعماء المدينة لهؤلاء أن يعيشوا بينهم؟

وأين ذهب عن الدكتور شوقي، تذوقه الأدبي، ولماذا لم يربط الأبيات ببعضها؟ هل كان الشاعر حزيناً لا ينام من أجل تركه الغناء في المدينة، أم أنه كان حزيناً على ما حل بقومه من الفرقة؟.

لا يجوز للدكتور شوقي أن يقطع بيتاً أو بيتين من سياقهما ليستدل بهما على رأي، أو يعطي البيت تفسيراً يوهم السامع بصدقه. إننا لم نعهد في الدكتور انحرافاً وسوء نيّة، ولكن الذي يبدو لي أنه أصبح كحاطب ليل يجمع من أجل أن يلبي رغبات الناشرين، الذين يريدون أن يستغلوا شهرة اسمه في باب الأدب والنقد. وليس عند الدكتور، الوقت للتحقيق ومراجعة النصوص، فأعطى أحكاماً عامة مبنية على قصص الأغاني، وعملاً بنظرية أستاذه الدكتور طه حسين، التي اتخذها تلاميذه من بعده قاعدةً مسلمة، ولم يحاولوا الرجوع إلى مصادر جديدة لم تكن موجودة عندما كتب طه حسين مقالاته في «حديث الأربعاء[1]».

---

(١) كتب الدكتور طه حسين «حديث الأربعاء» مقالات ونشرت في الصحافة سنة ١٩٢٤ م وجمعت في كتاب سنة ١٩٢٥ م وأكثر المصادر التي كانت بين يدي الكتاب في ذلك الوقت: =

وإذا كان أبو قطيفة يحنّ إلى المدينة من أجل اللهو والغناء، فما بال المرأة المدنية التي تزوجها رجل من أهل الشام، و خرج بها إلى بلده على كره منها فسمعت منشداً ينشد شعر أبي قطيفة في الحنين إلى المدينة، فشهقت شهقةً وخرت على وجهها ميتة.

وهذا هو الشعر الذي سمعته من شعر أبي قطيفة:

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا ... جبوب المُصلّي أم كعهدي القرائن[1]

وهل أدؤر حولَ البلاطِ عوامرٌ ... من الحيّ أم هل بالمدينة ساكن

إذا برقت نحو الحجاز سحابةٌ ... دعا الشوقَ مني برقُها المتيامن

فلم أتركْها رغبةً عن بلادها ... ولكنه ما قدر الله كائن

أحنّ إلى تلك الوجوه صبابةً ... كأني أسيرٌ في السلاسل راهن[2]

وما رأي الأدباء في حنين ابن المولى، وقد شهد له أبو الفرج الأصبهاني بأنه شاعر ظريف عفيف نظيف الثياب حسن الهيئة[3].

وقال: قدم ابن المولى إلى العراق في بعض سنيه فأخفق وطال مقامه، وغرض به[4] وتشوق إلى المدينة فقال في ذلك:

ذهب الرجال فلا أُحسّ رجالاً ... وأرى الإقامةَ بالعراق ضَلالاً

وطربت إذ ذكر المدينة ذاكرٌ ... يَوْمَ الخميس فهاج لي بَلْبَالاَ[5]

= كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني. فبنوا آراءهم على مروياته دون غيرها وقد ظهرت فيها بعد كتب تاريخية تعطي صورة أخرى للمجتمع غير صورة كتاب الأغاني.

(1) الجبوب: الأرض الغليظة. وجبوب المصلى في شعر أبي قطيفة. قاله ياقوت: وقال السمهودي لا استبعد أنه تصحيف: جنوبَ، ويقصد الجهة. والقرائن: ثلاث دور اتخذها عبد الرحمن ابن عوف فدخلت في المسجد.

(2) القصة والأبيات في: المغانم المطابة للفيروز آبادي / ٦٤.

(3) أخبار ابن المولى في الأغاني ج ٣ /٢٨٦. وهو محمد بن عبدالله بن مسلم ابن المولى مولى الأنصار، عاش في الدولتين الأموية والعباسية.

(4) غرض: ضجر وقلق.

(5) البلبال: شدة الهم.

فظللتُ أنظر في السماء كأنني   أبغي بناحية السماء هلالاً
طرباً إلى أهل الحجاز وتارةً   أبكي بدمع مُسبل إسبالاً
إن الغريب إذا تذكر أوشكتْ   منه المدامع أن تفيض علالاً[1]

* * * *
* * *
*

(١) علالاً: مرة بعد أخرى.

الباب الخامس

الحياة الاقتصادية ومظاهر العمران في المدينة

تمهيد: جغرافية المدينة ومواردها الطبيعية

١ ـ سياسة الأمويين الاقتصادية في المدينة.

٢ ـ موارد الرزق في المدينة.

٣ ـ العمران في المدينة في العصر الأموي.

٤ ـ وادي العقيق.

تمهيد

جغرافية المدينة ومواردها الطبيعية

إن إقامة الناس في مكان ما، وتكوين المجتمعات المدنية والقروية، يكون مبنياً على أسس تكفل لهؤلاء الناس العيش واستمرار البقاء. ولا سيما جزيرة العرب الواسعة التي تغمر الصحاري أكثر أجزائها، وكانت الصفة الغالبة لسكان شبه الجزيرة العربية أنهم أهل رحلة دائمة جرياً وراء منابت العشب، ومناهل الماء. أما أهل المدن فإن ثباتهم في مكانهم كان أكثر من رحلتهم، لأنهم اختاروا أماكن يجدون فيها وسائل العيش الدائم.

فمكة كان عمرانها، استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي، إليهم، وارزقهم من الثمرات﴾[1].

فأصبحت محجاً للعرب يقصدونها لأداء مناسكهم عند الكعبة. والطائف أرض، ذات أمطار وآبار وزراعة، ينتجون حاجاتهم من الرزق ويفيض منه أشياء يبيعونها في أسواق العرب في الجزيرة، ويشترون ما نقص من حاجاتهم التي لا تنتجها مدينتهم، وكان سوق عكاظ السنوي بجوار مدينتهم.

والمدينة المنورة ـ يثرب سواء سكنها الناس بعد الطوفان، أم سكنها اليهود أيام سيدنا موسى، أم هاجروا إليها من الشام، فإنهم لم يختاروها إلا لما

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

فيها من الخيرات التي تهيء أسباب العيش. والروايات التاريخية التي تتحدث عن أول من سكن المدينة، تذكر خصب المدينة خاصة، والحجاز عامة. روى السمهودي[1] أن العماليق[2] كانوا قد انتشروا في البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله، وكان الحجاز إذ ذاك أشجَر بلاد الله وأظهره ماء. وفي رواية عن سبب سكنى اليهود المدينة أن علماءهم كانوا يجدون صفة رسول الله في التوراة، وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل بين حرتين، فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة، فلما رأوا تيماء[3] وفيها النخل نزلها طائفة منهم وظن طائفةٌ أنها خيبر فنزلوها، ومضى أكثرهم وأشرفهم فلما رأوا يثرب سبخة[4] وحرة وفيها النخيل، قالوا: هذه البلد التي تكون مهاجر النبي. وسواء صحت هذه الأقوال أم لم تصح، وكانت موضوعة، فإن الخبر قد وضع ليناسب بيئة جغرافية واقعة بالفعل، وتدل على أن يثرب كانت ذات خصب منذ القديم، حتى ناسب أن توضع الأخبار المطابقة لأرضها.

أما الأوس والخزرج فإنهم رحلوا إليها من اليمن بعد سيل العرم وخراب سد مأرب وكانت بلادهم كما وصفها القرآن ﴿بلدة طيبة[5]﴾ ويروى أنها كانت أخصب البلاد وأطيبها، وعندما خربت سبأ ورحل أهلها وتفرقوا في البلاد، اختاروا أماكن الخصب لأنهم اعتادوا ذلك. فنزل فريق منهم العراق، ومنهم من نزل الشام، واختار الأوس والخزرج «يثرب».

وكان كاهنهم قد وصف لهم البلاد عند تفرقهم، ومما قاله سجعاً: ومن

---

(١) وفاء الوفا ج ١.

(٢) بنو عملاق بن أرفخشد بن سام بن نوح. وقال ياقوت: كان أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل وعمر بها الدور والآطام العماليق، وهم من العرب، وجبابرة الشام وفراعنة مصر منهم.

(٣) تيماء: بالفتح والمد، بلدة بين المدينة والشام، تبعد عن المدينة حوالي ٣٥٠ كيلو متر ولا تزال معروفة، بلدة كبيرة عامرة، وفيها النخيل.

(٤) أرض سبخة: ذات نزّ وملح. أو ما يعلو الماء من الطحالب. والأرض التي لم تحرث ولم تعمر.

(٥) سورة سبأ آية ١٥.

كان منكم يريد الراسخات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بالحرة ذات النخل، فكان الذين سكنوا يثرب ذات النخل الأوس والخزرج[1].

ويروى أن الملك تبعاً لما قدم المدينة، بعث رائداً ينظر مزارع المدينة فأتاه وقال: قد نظرت، فأما قناة[2] فحب ولا تبن، وأما الحرار فلا حب ولا تبن وأما الجرف[3] فالحب والتبن[4].

وقد أردت من هذه الروايات أن أبين أن المدية المنورة كانت واحة خصبة بل هي مجموعة من الواحات الخصبة تكون منطقة زراعية خصبة ويسكنها مجتمع واحد يمكن أن نطلق عليه في القديم ما يطلق عليه في العصر الحديث: «منطقة المدينة المنورة».

فقد كانت هناك عدة من القرى ـ ولا زالت ـ وقد تبعد عن المدينة ولكنها متصلة بأهل المدينة من الناحية الاقتصادية، حيث يملك أهل المدينة أراضي زراعية واسعة في هذه القرى، ويعود ريعها لأهل المدينة.

ومن أمثلة ذلك: ينبع: وكانت في القديم على مسافة أربعة أيام من المدينة. وكانت تتبع إمارة المدينة المنورة، ولا زالت حتى وقتنا الحاضر. وسميت ينبع لكثرة ينابيعها. قال بعضهم: عددت بها مائة وسبعين عيناً. وكان لعلي بن أبي طالب ضياع بها[1]. ومنها «وادي القرى[2]» وهو واد كثير

---

(١) وفاء الوفاء ج ١.

(٢) قناة: واد بالمدينة، وهو أحد أوديتها الثلاثة عليه حرث ومال بين أحد والمدينة وقد يقال: وادي قناة. قالوا: سمي بذلك: لأن تبعاً مر به فقال: هذه قناة الأرض. وقيل: إن ماء الوادي يأتي من الطائف. ماراً بجنوب جبل أحد ويفيض في الغابة شمالي المدينة.

(٣) الجُرف: بالضم والسكون: موضع على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشام. كانت به أموال لأهل المدينة. وهي اليوم سنة ١٤٠٤ هـ: قرية عامرة تتصل بالمدينة، وفيها المزارع.

(٤) انظر المغانم المطابة في معالم طابة ٨٨.

(٥) يوجد اليوم «ينبع البحر» وهي ميناء عامرة. «وينبع النخل» قال العلامة حمد الجاسر في تعليقه على كتاب «المغانم المطابة» الأقوال المذكورة في كتب التاريخ تنطبق على ينبع النخل، وقد ضعف شأنها الآن». وتبعد ينبع عن المدينة حوالي تسعين ومائة كيلو متر.

(٦) وادي القرى يشمل منطقة «العلا» و«الحجر» وما يقربها. وفي الحجر كانت منازل ثمود. =

القرى بين المدينة والشام وكانت معتبرة من أعمال المدينة، ولأهل المدينة بها أموال يرجع ريعها إليهم ومنها «الفرع» فيها العيون التي كانت تسقي أكثر من عشرين ألف نخلة. ويقال: إن قرية الفرع هي أول قرية مارت إسماعيل وأمه التمر بمكة[1].

ومنها جبل «آره» من أشمخ ما يكون من الجبال، تخر من جوانبه عيون على كل عين قرية، منها الفرع، وأم العيال، والمضيق، والوبرة وتكتنف هذه القرى (آرة) من جميع جوانبه، وفي كل هذه القرى نخيل وزروع[2].

ومنها: خيبر، وهي بلدة ذات مزارع ونخل كثير وتبعد عن المدينة شمالاً خمسين ومائة كيلو متر. ومن القرى الغنية «فدك» وهي قرية على يومين من المدينة أفاءها الله على رسوله سنة سبع صلحاً، وفيها عين فوارة ونخيل كثير (معجم البلدان) ولها قصة في كتب السيرة (انظر تاريخ ابن شبة ص ٢٠٠).

أما جغرافية المدينة نفسها، فهي تقع في سهل يبدأ من تلال أحد شمالاً ويمتد جنوباً بضعة أميال، وترتفع ارتفاعاً تدريجياً كلما صار نحو الجنوب. وجبل أحد فرع من جبال السراة المعروفة باسم جبال الحجاز ولذلك وصفها ابن خرداذبة فقال: المدينة حجازية نجدية[3] يريد بذلك أنها تقوم قرب السفح الجبلي الشرقي الفاصل بين نجد وتهامة. أما السمهودي فيقول: المدينة حجازية بلا إشكال.

وتحيط بالمدينة الجبال ولابتان[4] وتكتنفها الوديان التي كانت تفيض

= وهناك بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾.

(١) المغانم المطابة ص ٣١٦.

(٢) المصدر السابق ص ٤. ولا زال كثير من هذه القرى موجوداً حتى اليوم.

(٣) المسالك والممالك.

(٤) اللابه: الحرة. وقد حدد الرسول عليه السلام حرم المدينة فقال: اللهم إن إبراهيم حرم مكة وأنا أحرم ما بين لابتيها «وهما لابتان، واحدة شرقية، وأخرى غربية» (الموطأ) ج ٢ / ما جاء في تحريم المدينة.

بالمياه في فصل الشتاء، وتكون خلف السدود بحيرات تسقي الزرع مدة طويلة وينفذ منها قدر كبير إلى باطن الأرض فتغذي المياه الجوفية وتمتلىء الآبار بمياهها وتكثر بسببها العيون.

وقد عدّ المؤرخون عشرات الآبار[١] التي ورد ذكرها في الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية، ولا شك أنه كانت عشرات غيرها مما لم يذكر في السيرة.

وعدّوا من العيون خمس عشرة عيناً كلها تسقي مزارع المدينة. وبالقرب من جبل أحد منطقة زراعية تسمى العيون، لكثرة عيونها.

والمدينة المنورة، وإن كانت قليلة الأمطار، إلا أن وديانها تمتلىء من السيول التي تأتي من أماكن بعيدة.

ومن أمثلة ذلك: «وادي قناة» سمي بذلك لأن تبعاً لما غزا المدينة نزل به فلما شخص عن منزله قال: هذه قناة الأرض.

ويأتي هذا الوادي من «وج» بالطائف. وفي أعلاه قرب المدينة يسمى «الشظاة» ونقل السمهودي: أن وادي قناة يأتي من المشرق حتى يصل إلى السد الذي أحدثته نار الحجاز[٢]. وكان الوادي قد انقطع بسبب البركان وانحبس السيل حتى صار بحراً مد البصر عرضاً وطولاً، كأنه نيل مصر عند زيادته. ثم انخرق سد البركان وسال الماء حتى كون وادياً، يصل إلى مشهد سيدنا حمزة شمالي المدينة عند سفح جبل أحد. ويسمى الآن: سيل سيدنا حمزة، ثم يستمر السيل حتى يصب في زغابه، مجتمع السيول غربي مشهد سيدنا حمزة.

---

(١) انظر: وفاء الوفاء، «والمغانم المطابة في معالم طابة» و«عمدة الأخبار في مدينة المختار» «ومعجم البلدان» «وتاريخ المدينة» لابن شبة ص ١٥٦.

(٢) حدث بركان سنة ٦٥٤ هـ، في الحرة الشرقية، في المنطقة التي تسمى الآن «العاقول» وسد مجرى قناة، وحجز وراءه بحيرة من الماء، وربما هي التي تسمى الآن بحيرة العاقول، حيث بنت الحكومة السعودية سداً يحجز المياه، وتبقى المياه في البحيرة سنة كاملة أو أكثر إذا جاءتها سيول كثيرة.

ومن الأودية المشهورة «رانوناء» الذي كان إحدى متنزهات أهل المدينة لما فيه من الرياض النضرة، وهو جنوب غرب المدينة. وكان على هذا الوادي سد يحصر الماء خلفه دلالة على كثرة ما يكتنفه من المياه[1].

ووادي بطحان: بضم الباء: رُوي قول الرسول فيه: «إن بطحان على ترعة من ترع الجنة[2]». وكانت عليه أموال بني النضير.

ومن أكثر الأودية شهرة: «وادي العقيق».. وسوف أفرد له بحثاً خاصاً لما له من الدلالة على الحالة الاقتصادية في العصر الأموي..

وتربة المدينة المنورة: رملية جيرية غرينية، وهذا الخليط يجعل الأرض خصبةً مما جعلها تجود فيها غابات النخيل جودة فائقة. حتى لقد كان فيها وفيما حولها مائة صنف من ثمرات النخيل. ويمكن أن يزرع في تربتها: الرمان والخوخ والمشمش والتين والحمضيات، والموز. ومن أجود الثمار بعد النخيل العنب الذي تجود زراعته في منطقة المدينة، وهم يزرعونه في مساحات واسعة.

ومما يدل على خصب أرض المدينة، ما ذكره المؤرخون، عن الأراضي التي حماها الرسول ﷺ ومن بعده أبو بكر وعمر وعثمان. ومنها حمى «النقيع[3]» وهو على مسافة عشرين فرسخاً من المدينة في أطراف وادي العقيق، وهو أخصب موضع هناك ووصفه السمهودي بأنه: «قاع طيب ينبت أحرار البقل والطرائف وتشابك شجره حتى يصبح كالأجمة وهو كثير العضاه والغرقد والسدر والسَّلم والطلح والعوسج».

وقال الرسول فيه: «حمى النقيع نعم مرتع الأفراس يحمى لهن ويجاهد

---

(١) آثار المدينة المنورة، لعبد القدوس الأنصاري: وفي «المغانم المطابة» أن مسجد الجمعة، في بطن وادي رانوناء. وهو أول مسجد صلى فيه رسول الله الجمعة بعد خروجه من قباء.
(٢) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة عن عائشة: ج ١ / ١٦٨.
(٣) النقيع: بالنون الفوقية الموحدة.

بهنّ في سبيل الله تعالى[1]». ورُوي أن عمر رضي الله عنه رأى شعيراً في روث فرس عام الرمادة فقال: لأجعلن له من غرز النقيع ما يكفيه ويغنيه عن طعام المسلمين. «وفي رواية أن عمر رضي الله عنه رأى رجلاً يعلف بعيراً فقال له: أما كان في النقيع ما يكفيك؟».

وذكر الإمام مالك: أن عمر رضي الله عنه كان يحمل في العام الواحد على أربعين ألف بعير، وقال مالك: بلغنا أن الخيل التي أعدها عمر ليحمل عليها في الجهاد، من لا مركوب له، عدتها أربعون ألفاً[2].

وهذه الأعداد الكبيرة من الجمال والخيل لا بد لها من أرض معشبة خصبة وواسعة حتى تتسع لها وتكفي لرعيها.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف كان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً[3]، وأن رجلاً زار المدينة ليلقى أصحاب رسول الله، فلقيهم إلا عبد الرحمن بن عوف، وسأل عنه فقيل له: إنه في أرضه في الجرف. فلما جاءه ألفاه واضعاً رداءه وبيده المسحاة يحول بها الماء. وروى ابن عبد البر في «الاستيعاب» أن عبد الرحمن بن عوف خلف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس، ترعى بالنقيع.

* * * *
* * *
*

(١) المغانم المطابة / ٤١٦، و«تاريخ المدينة» لابن شبة /١٥٥.
(٢) تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك» ج ١ / ٣٠٨.
(٣) الناضح: البعير، ينضح الماء من البئر أو النهر. انظر «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» لابن عبد البر. ترجمة عبد الرحمن بن عوف.

١ - سياسة الأمويين الاقتصادية في المدينة

كانت المدينة عاصمة الخلافة أيام ثلاثة من الخلفاء الراشدين توالت الفتوحات في أيامهم، وكانت الغنائم تأتي تباعاً إلى عاصمة الخلافة فتوزع الأموال على مستحقيها ولكنها لم تكن بالقدر الذي يجعل الناس في سعة دائمة لأنها كانت تأتي في فترات متباعدة. وكان أبو بكر يوزع ما يأتي من الأموال على الناس بالتساوي ولا يؤخر منها شيئاً. وفي زمن عمر عندما كثرت الأموال دون الدواوين وأصبح العطاء راتباً سنوياً مقدراً، حسب السابقة في الإسلام أو القرب من رسول الله. وكان الناس جميعاً يشعرون بالعدل في قسمة الأموال. يتفاوتون في معيشتهم حسب سعي كل منهم في عمله لأن بيت المال لا يستطيع أن يكفي جميع المسلمين دون أن يعملوا. ومع ذلك كانت تحدث أحياناً مجاعات بسبب القحط وندور الأمطار، وخاصة عند أهل البادية.

وقد روى أبو هلال العسكري[١] أن أول من حمل الطعام من مصر إلى الحجاز عمر رضي الله عنه. وذلك أن الأرض أجدبت على عهد عمر،

---

(١) الأوائل /١٤٢ و«تاريخ المدينة» لابن شبة ج ٢. والمشهور أن القحط حصل عام الرمادة سنة ١٨ هـ . وفي تاريخ فتح مصر أقوال. بعضهم قال: فتحت سنة ٢٠ هـ ، وقال بعضهم سنة ٢٥ هـ ، وقال بعضهم سنة ١٦ هـ . وعلى الرواية الأخيرة يصح الخبر بورود الطعام من مصر. أو يكون القحط استمر سنوات حتى فتحت مصر سنة ٢٠ هـ . وعلى كل حال فإن استغاثة عمر بالأمصار ثابتة، وفي إحدى روايات ابن شبة أن عمر كتب إلى الشام والبصرة، ولم يذكر مصر».

فألقت الرعاة عصيها فتقاطرت البوادي على المدينة، واجتمع فيها خمسون ألفاً، فكان عمر رضي الله عنه يعولهم. فكتب عمر إلى عماله: الغوث الغوث، فحملوا إليه في البر والبحر، وحمل عمرو بن العاص من مصر في بحر أيلة طعاماً كثيراً، وفي البر مثله فقال عمر لأبي عبيدة مرّ به إلى البادية واقسم الطعام فيهم وألبسهم الطروف وانحر لهم الإبل، ففعل، وأكلوا واحتملوا اللحم والودك[1] وحلف عمر لا يأكل سمناً ولا لحماً حتى يحيا الناس، ثم كتب إليه عمرو بن العاص: إن الخلق لا يشبعهم إلا الخالق، فمر الناس فليستسقوا. فمشى عمر إلى العباس عم النبي ﷺ حتى صعد به المنبر، واستسقى بعمّ النبي ﷺ فنزلت الأمطار حتى ملأت الأرض[2].

أما في عهد عثمان فقد تغير الحال في الفترة الأخيرة من خلافته، فكان يمنح بعض أقاربه الأموال التي تزيد عن حقهم في بيت المال، كما فعل مع عمه الحكم وابنه مروان، وغيرهم من الأمويين. وعزّر بعض الناس بحرمانهم من عطائهم، لأنهم ناظروه في بعض أعماله، كما فعل عثمان مع عبدالله بن مسعود حيث حرمه عطاءه لأنه انتقد سياسة عثمان[3].

ورغم أن عثمان أعطى من لا يستحق الكثير، وحرم بعض من يستحق، إلا أن ـ الناس في زمانه لم يحسوا بالضائقة الاقتصادية، لأن الخير كان يسع الجميع ولأن الناس في المدينة لا زالوا ينعمون ببقايا الأموال الكثيرة التي حصلوا عليها في عهد عمر، وأوائل عهد عثمان، وكانت مجالات العمل وفيرة، تدر على الناس جميعهم أموالاً وفيرة. فمنهم من كان في جيوش الفتح، وكل جندي له نصيب من الغنائم غير نصيب أهل الديوان القاعدين. ومنهم من يعمل في الزراعة والتجارة، وكانت تدر أرباحاً وفيرة، لأن كثرة

---

(١) الودك: الشحم.

(٢) ابن الجوزي: عمر بن الخطاب ص ٢١٢ و«تاريخ المدينة» لابن شبة ٧٣٨ وفيه أن الذي كتب إلى عمر أبو موسى الأشعري.

(٣) تاريخ المدينة لابن شبة ج ٣ / ١٠٤٩، وقال: إن الوليد بن عقبة ـ وإلى الكوفة ـ كتب إلى عثمان يبغضه على ابن مسعود، فسيره من الكوفة إلى المدينة، وحرمه عطاءه ثلاث سنين.

الأمـوال في أيدي النـاس تجعلهم يقبلون على الشـراء. ومن أخبار عبـد الرحمن بن عوف، نعرف كيف تضاعفت الأموال في أيدي الناس، فتضاعفت التجارة وتضاعفت الأرباح.

وعبد الرحمن بن عوف، هاجر إلى المدينة وهو لا يملك شيئاً. وآخى الرسول بينه وبين سعد بن الربيع، فقال له: إن لي حائطين[1] فاختر أيهما شئت. فقال: بارك الله لك في حائطيك، مـا لهذا أسلمت، دلني عـلى السوق. قال: فدله فكان يشتري السمنة ولأقطـة والإهاب، فجمع من وراء ذلك أموالاً كثيرة.

وروى ابن كثير عن الزهري: أن عبد الرحمن بن عوف تصدق على عهد النبي بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفاً، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس ثي سبيل الله. وكان عامة ماله من التجارة[2] وقال ابن كثير: فكثر ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام فلما دخلت المدينة: سُمع لأهل المـدينة رجة، فقالت عائشة، ما هذه الرجة فقيل لها: عير قدمت لعبد الرحمن ابن عوف سبعمائة تحمل الطعام من الشام فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبواً. «فلما بلغ عبد الرحمن قال: أشهدك يا أمه، أنها بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله[3]».

ولما حضرته الوفاة أوصى لكل رجلٍ ممن بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار وكانوا مائة فأخذوها حتى عثمان وعلي.

وأوصى لكل امرأة من أمهات المؤمنين بمبلغ كثير. وأعتق خلقاً من مماليكه، ثم ترك بعد ذلك مالاً جزيلاً، من ذلك ذهب قطع بالفؤوس.

---

(١) الحائط: البستان. وانظر «الإصابة» لابن حجر، والاستيعاب لابن عبد البر.
(٢) البداية والنهاية ج ٨ / ١٦٣.
(٣) البداية والنهاية ج ٧ / ١٦٤.

وكانت نساؤه أربعاً، فصولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفاً[1].

ولعبد الرحمن بن عوف أمثال، كطلحة، والزبير..

وهكذا نعرف أن المدينة حتى نهاية عهد عثمان، كانت عامرة بالناس، عامرة بالأموال، عامرة بالتجارة.. وبدأ هذا الرخاء في التراجع قليلاً منذ انتقلت الخلافة من المدينة، فبدأت الأموال تنقص من أيدي العامة، والخاصة ولم نعد نسمع عن أمثال ابن عوف وطلحة والزبير، في الثراء أيام بني أمية بل أصبحنا نجد من علية القوم من يموت وعليه دين، أمثال سعيد بن العاص. ويتبدل الرخاء الاقتصادي العام، وينحصر في فئة قليلة، وأصبحت أيام الرخاء معدودة في حياة أهل المدينة في العهد الأموي.

فقد كانت سياسة الأمويين الاقتصادية في المدينة، والحجاز، تضييق الخناق على الناس، بسبب موقف أهل المدينة من الحكم الأموي وظهور المعارضة الشديدة منذ عهد معاوية[2].

ومن الأسباب أيضاً أن الخلفاء والأمراء لم يتبعوا الحق في توزيع أموال الأمة فبيت المال أصبح نهباً للخليفة، أو أمير الإقليم. وأصبح توزيع العطاء تابعاً لرأي الخليفة أو الأمير، يحرم منه من أراد الخليفة حرمانه ويعطي من أراد. والميت يُمحى اسمه والمولود لا يعطي[3].

وقد روى لنا المصعب الزبيري، قصة عاصم بن الوليد بن عتبة، وقد أرسله معاوية إلى المدينة بالعطاء، وتعطينا هذه القصة الدلالات الاقتصادية في هذا العصر. قال: وكان معاوية بن أبي سفيان وجه عاصماً إلى المدينة، بالعطاء، فقدم به وكان العطاءُ يدفع إلى العرفاء، وكان لكل قبيلة عريف يأخذ أعطيتهم ويدفعها إليهم، فحبس عاصم أعطية الناس وقال: يأتيني

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٣٦.

(٢) الخربوطلي: عبدالله بن الزبير ٢٧١.

(٣) أبو يوسف: الخراج ص ٢١٩.

أهلها فأدفع إلى كل رجل عطاءه في يده. وكان العرفاءُ يأخذونها فلا يغيبون غائباً ولا يميتون ميتاً، ويصدقون أهلها، فيعطونهم بعضاً ويأخذون بعضاً، فأراد عاصم أن يصحح الديوان. فلا يعطون غائباً ولا ميتاً ويأتيه أهل العطاء فيدفع إليهم أعطيتهم وقد عرفهم. فكره الناس ذلك، لما كانوا يصيبون من حظ الموتى والغيب، وامتنعوا من إتيانه، فأقام على ذلك أياماً، ثم دخل المسجد، فمر بحلقة فيها الحسين وعبدالله بن الزبير، وعمرو بن عثمان فوقف عليهم فسلم، فقال له بعض أهل الحلقة: ما يمنعك أن تدفع هذا المال إلى أهله؟ قال: أمرني أمير المؤمنين أن أدفعه إلى الحاضر دون الغائب والحي دون الميت ولا أعطي أحداً إلا في يده. قالوا: فكيف تصنع بالنساء؟ أتعطيهن في أيديهن - يريدون بذلك الحجة عليه، قال: والنساء أيضاً فحصبوه وغضبوا من كلمته، فحصبه الناس حتى لجأ إلى بعض دور بني أمية: فقال لهم عبدالله ابن الزبير: إنكم إذا أحدثتم حدثاً فأخاف أن يعاقبكم عليه معاوية، فاجعلوها واحدةً وقوموا إلى هذا المال فاقسموه بين أهله، فقام الحسين، وعمرو ابن عثمان وعبدالله بن الزبير، فقسموا بين الناس.. فبلغت القصة معاوية فأعرض لهم عنها[1].

والروايات التاريخية تُفيدنا أن معاوية قطع العطاء عن الناس، ويبدو أن هذا حصل في الفترة الثانية من ولاية معاوية عندما رفض زعماء الحجاز البيعة لابنه يزيد بولاية العهد، وروينا فيما سبق قصة عبدالله بن صفوان[2] حيث دخل على معاوية وطلب منه أن يفرض للمنقطعين ممن لا ديوان لهم[3] وحثه على الاهتمام بالقواعد من النساء، ممن لا معيل لهن.

وقد ضيق معاوية على أهل المدينة حتى باع كثير منهم الأرض والدور

---

(١) نسب قريش ١٥٤.

(٢) عبدالله بن صفوان بن أمية بن خلف. من أصحاب ابن الزبير وقتل بمكة يوم مقتل ابن الزبير سنة ٧٣ هـ.

(٣) نسب قريش ص ٣٨٩.

لمعاوية بأرخص الأثمان. وكأنه يعمل على سياسة التهجير لتخلو المدينة من المعارضين أو يقل الازدحام فيخف خطرها.

وقد أعلن عن هذا بعض أهل المدينة، فقال وهو ينظر إلى ضياع معاوية في المدينة: إن هذه الأموال كلها لنا، ونالتنا المجاعة، فاشتراها معاوية بجزء من مائة من ثمنها.

ولذلك تعجب الناس عندما اشترى معاوية داراً من رجل بمبلغ كبير. فقد باع حويطب[1] بن عبد العزى لمعاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار فاستكثرها الناس فقال: وما أربعون ألف دينار لرجل له أربعة عيال[2].

وعندما خلع أهل المدينة أيام الحرة يزيد بن معاوية ظن أن العامل الاقتصادي هو سبب النقمة عليه، فكتب إلى أهل المدينة يمنيهم بالرخاء الاقتصادي إن هم رجعوا عن خلعه.

وتعطينا رسالة يزيد إلى أهل المدينة، دلالات على الحال الاقتصادية المتردية التي وصل إليها الناس في عهد معاوية. حيث كتب إليهم: إن هم أقروا بالطاعة ونزعوا عن حركتهم، فلهم عليه عهد الله وميثاقه أن لهم عطاءين في كل عام ما لا يفعله بأحدٍ من الناس طول حياته، عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف. ولهم عليه عهد الله وميثاقه أن يجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة بالشام والعطاء الذي يذكرونه أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو لهم عليه وافراً كاملاً.

ومما يدل على قساوة الحياة الاقتصادية في المدينة زمن يزيد بن معاوية: «أن يزيد بعد أن وصله ما حل بأهل المدينة على يد جند الشام، يروى أنه

---

(١) حويطب: من قريش، صحابي، حارب الإسلام إلى أن فتحت مكة، فأسلم وشهد حنيناً والطائف انتقل إلى المدينة ومات بها سنة ٥٤ هـ (الإصابة) ١٨٨٢.

(٢) انظر الخبر في «الإصابة» ترجمة حويطب: وقال: إن الدار بمكة، ورواية المصعب الزبيري «بالمدينة». نسب قريش ٤٢٦.

تأسف لما حل بأهل المدينة وسأل مستشاريه عما يجبرهم بعد هذه النازلة: فأشاروا عليه: أن يرسل الطعام والكساء إليهم[1]».

وفي فترة حكم ابن الزبير، لم تكن حياة أهل المدينة أحسن حالاً. فابن الزبير كان مشهوراً بالتقتير في العطاء. ولم يكن من سياسته توزيع الأموال على الأنصار والمؤيدين، بل لم يكن من سياسته تأليف قلوب الأنصار بالمال. وقد روينا قبل ذلك، عند مناقشة سياسته، أنه رفض إعطاء وجوه العراق عندما قدم بهم مصعب عليه، وكان ذلك من أسباب انحراف زعماء العراق عنه واتصالهم بعبد الملك. وقال الشاعر فيه:

رأيت أبا بكر وربك غالبٌ   على أمره يبغي الخلافة بالتمر[2]

وبالتالي فإنه لن يوزع الأموال على أهل المدينة، لأن فيها الكثير من مناوئيه والكثير ممن رفض مبايعته، وخاصة آل هاشم.

وكانت فترة حكمه قلقة، والاضطراب السياسي يؤدي إلى التدهور الاقتصادي. وعندما جاء المروانيون لم يكن موقفهم أجمل من موقف معاوية من الناحية المالية وإذا كانت المدينة قد دانت لمعاوية وابنه يزيد بعد حروب، فإنها أيضاً قد دانت لعبد الملك بن مروان بعد حروب متوالية.

ولذلك استمرت سياسة التضييق المالي، لأن الحذر بقي مسيطراً على العلاقات بين الطرفين، فلقي أهل المدينة الاضطهاد من ولاة بني مروان وحلت المجاعات في المدينة، دون أن يتحرك الخلفاء لإغاثة الناس فاضطر الناس إلى الهجرة، لأن الأحوال الاقتصادية وصلت إلى حال لا يطاق معه الصبر.

روى الإمام مالك في الموطأ[3]: «أن مولاة لعبد الله بن عمر أتته أيام

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ سنة ٦٤.

(٢) المعارف لابن قتيبة / ٢٢٥.

(٣) ما جاء في سكنى المدينة والخروج منها / ٢٠٠.

الفتنة فقالت: إني أردت الخروج يا أبا عبد الرحمن، اشتد علينا الزمان فقال لها: اقعدي لكاع، فإنني سمعت رسول الله يقول: لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنتُ له شفيعاً يوم القيامة».

وروى ابن كثير عن الزهري[1] قال: أصاب أهل المدينة حاجة زمان فتنة عبد الملك بن مروان، فعمت أهل البلد. فتذكرت: هل من أحد أمتّ إليه برحم أو مودة أرجو إنْ خرجتُ إليه أنْ أصيب عنده شيئاً، فما علمت من أحد أخرج إليه. ثم خرجت حتى قدمت دمشق، . . وأتيت المسجد، فنظرت إلى أعظم حلقة فجلست فيها، فجاء رجل من عند أمير المؤمنين عبد الملك، فقال: لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ما جاءه مثله منذ استخلفه الله، قالوا: ما هو؟ قال: كتب إليه عامله على المدينة هشام بن إسماعيل، يذكر أن ابناً لمصعب بن الزبير من أم ولد مات، فأرادت أمه أن تأخذ ميراثاً منه، فمنعها عروة بن الزبير، وزعم أنه لا ميراث لها، فتوهم أمير المؤمنين حديثاً سمعه من سعيد بن المسيب يذكر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في أمهات الأولاد، ولا يحفظه الآن. قال ابن شهاب: فقلت: أنا أحدث به، فقام إليَّ قبيصة[2] حتى أخذ بيدي حتى دخل الدار على عبد الملك. . وقال: هذا يا أمير المؤمنين يحدثك بالحديث الذي سمعته في أمهات الأولاد[3] قال ابن شهاب: فقال لي عبد الملك: من أنت؟ قلت: أنا محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب فقال: أما والله إن كان أبوك لأباً نعاراً في الفتنة مؤذياً لنا فيها قال الزهري: فقلت يا أمير المؤمنين قل: كما قال العبد الصالح ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾[4] فقال أجل. قال: فقلت: يا أمير

---

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزهري القرشي. كان أبوه مسلم بن عبيد الله مع ابن الزبير. توفي سنة ١٢٤ هـ . وكان يسكن المدينة، ثم خرج إلى الشام.

(٢) هو قبيصة بن ذؤيب من خزاعة، وكان على خاتم عبد الملك بن مروان. قال ابن قتيبة في المعارف وهو الذي أدخل الزهري على عبد الملك، فوصله وفرض له: توفي ٨٦ هـ .

(٣) انظر تفصيل المسألة في الباب الثالث من هذا الكتاب.

(٤) سورة يوسف / ٩٢.

المؤمنين افرض لي فإني منقطع من الديوان فقال: إن بلدك ـ المدينة ـ ما فرضنا فيه لأحدٍ منذ كان هذا الأمر. ثم نظر إلى قبيصة وأنا وهو قائمان بين يديه، فكأنه أومأ إليه أن افرض له، فقال: قد فرض إليك أمير المؤمنين. فقلت: إني والله ما خرجت من عند أهلي إلا وهم في شدة وحاجة ما يعلمها إلا الله وقد عمت الحاجة أهل البلد قال: قد وصلك أمير المؤمنين[1].

وقد حدثت مجاعات أخرى، نذكر منها ما حدث أيام خلافة هشام بن عبد الملك في إمارة خالد بن عبد الملك بن الحارث، واستمرت المجاعة سنوات. سميت (سنيات خالد) ولم نسمع أن الخلفاء هبوا لإغاثة الناس في هذه المجاعات فكان الناس يهاجرون، ومنهم من يتصبّر بما يجده عند أهل الجود من أهل المدينة[2]. وقد أشار أبو حمزة الخارجي إلى هذه المجاعة في خطبة ألقاها عندما استولى على المدينة سنة ١٢٩ هـ. فذكر أنه زار المدينة زمن هشام بن عبد الملك وقد أصاب الثمار عاهة «فكتبتم إليه تسألونه أن يضع عنكم خراجكم ففعل، فزاد الغني غنى والفقير فقراً، فقلتم له: جزاك الله خيراً، فلا جزاكم ولا جزاه خيراً[3]».

ولم يكتف الخلفاء بحرمان أهل المدينة من حقهم في بيت المال، ولكنهم شددوا عليهم في جمع الأموال منهم وإرسالها لبيت مال الخليفة في دمشق والمعروف أن أهل المدينة ليس عليهم خراج أو ضريبة، وليس عليهم إلا زكاة أموالهم.

وكان عثمان بن عفان: «أول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم[4]»

---

(١) البداية والنهاية ج ٩ / ٣٤٦. ترجمة ابن شهاب، وانظر تاريخ المدينة لابن شبة ص ٧٢٢.
(٢) انظر القصة في «نسب قريش للزبيري» ٢٤٦.
(٣) الكامل لابن الأثير ج ٥. وقوله: يضع خراجكم. المقصود بالخراج: زكاة الثمار أو العشر. لأنه ليس على أرض المدينة خراج.
(٤) الأوائل: لأبي هلال العسكري ١٤٨ قال: خطب عثمان في شهر رمضان فقال: أيها الناس هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليقضه وليزك ما بقي. «قال أبو يوسف: لما جعل عثمان إخراج الزكاة إلى أرباب الأموال سقط حقه في الأصل، فليس لخليفة بعده أن يطالبهم =

ثم عاد الأمويون إلى جمعها، وخاصة صدقة الماشية والثمار. وقد ساموا الناس ظلماً في جمعها. وقد روي في سبب بناء المقصورة في المسجد النبوي، أن مروان بن الحكم بعث ساعياً إلى تهامة لجمع الزكاة، فظلم رجلاً، فجاء المظلوم إلى المدينة، وضرب ساعياً بسكين، وبعدها اتخذ مروان المقصورة للصلاة فيها[1].

وزكاة الأموال هذه من حق المصارف التي حددها القرآن الكريم، ولكن الخلفاء الأمويين لم يصرفوها في وجوهها الشرعية، وإنما ضموها إلى جملة الأموال التي يتصرفون فيها بهواهم. وأشار أبو حمزة إلى ذلك في إحدى خطبه فقال: «يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل في كتابه على القويّ والضعيف فجاء تاسع ليس له فيها سهم فأخذها لنفسه مكابراً محارباً[2]».

ولذلك نجد بعض الموظفين على جمع الصدقات، يوزعها في وجوهها ولا يأتي بها إلى الأمير. روي أن نوفل بن مساحق بن عبدالله بن مخرمة[3] كان يلي المساعي، فأخذه بعض الأمراء بالحساب فقال له: «أين الغنم؟ قال: أكلناها بالخبز. قال فأين الإبل؟ قال: حملنا عليها الرجال. قال: وكان لا يصرف إلى الأمراء من المساعي شيئاً يقسمها ويطعمها[4]».

وقد أحس عمر بن عبد العزيز بهذا الظلم، فشرط على الوليد بن عبد

= به. وليس ذلك كصدقة المواشي لأن أرباب الأموال يحفظون أموالهم تحت أيديهم، وحفظ الصحاري على الإمام.

(١) وفاء الوفا ج ٢ / ٥١٠.

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٥ (يشير إلى آية التوبة رقم ٦٠ ويبين فيها القرآن مصارف الزكاة الثمانية والأمويون ليسوا من هذه المصارف.

(٣) نوفل بن مساحق، القرشي المدني، من قضاة المدينة، نشأ بالمدينة، وولي قضاءها وكان يلي جباية الصدقات فيقسمها ويطعمها ولا يرفع منها إلى الأمراء شيئاً، توفي زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (تهذيب التهذيب) ١٠ / ٤٩٢.

(٤) نسب قريش ٤٢٧.

الملك عندما ولاه إمارة المدينة، بقوله: إنك استعملت مَنْ كان قبلي، فأنا أحب أن لا تأخذني بعمل أهل العدوان والظلم والجور. «فقال له الوليد: اعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا درهماً واحداً[1]».

ولم يكتفوا بذلك: ولكن اعتدوا على ما وقفه الرسول على المسلمين، وهو سوق المدينة المنورة. فقد حدد الرسول مكان السوق وقال: (هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج[2]) وكان عمر بن الخطاب يمنع الحَدّاد من بناء كيره في السوق حتى لا ينتقص السوق، بل منع من وضع جرة يسقى منها الناس، ليبقى السوق على اتساعه. وأمر عمر بن عبد العزيز إنما السوق صدقة فلا يُضربن على أحد فيه كراء. فاعتدى معاوية على هذا السوق وبنى داراً أخذها من السوق وفي عهد عثمان ولى ابن عمه الحارث على سوق المدينة فأخذ الضرائب من الناس. وفي عهد هشام بن عبد الملك: قام إبراهيم بن هشام المخزومي أمير المدينة، فبنى داراً أخذ بها السوق كله وجعل لدار السوق حوانيت في أسفلها وعلالي تكرى للسكن. وعندما توفي هشام بن عبد الملك قام الناس على الدار فهدموها[3].

* * * *
* * *
*

(١) الخليفة الزاهد ـ لعبد العزيز سيد الأهل.
(٢) الخراج هنا: الضريبة. والحديث رواه ابن شبة في تاريخ المدينة ج ١ / ٣٠٤.
(٣) الأوائل لأبي هلال العسكري / ١٥٤، وتاريخ المدينة لابن شبة ج ١ / ٢٧٠.

٢ - موارد الرزق في المدينة

تعددت نواحي العمل في المدينة المنورة، كأي مدينة تزدحم بالسكان، فتتعدد حاجات الناس كلما زاد عددهم وتطورت طرق معاشهم، والمدينة المنورة في العهد الأموي شهدت ازدحاماً سكانياً حتى أصبحت من المدن الكبرى في ذلك العصر، أو من مدن الحجاز الرئيسية.

قال السمهودي متحدثاً عن سعة المدينة في الصدر الأول: «ومن تأمل ما ذكر من دور المهاجرين ومنازل القبائل منهم، مع ما سبق من منازل الأنصار رأى أمراً عظيماً فيما كان من عمارة المدينة وسعتها، واتصال بعضها ببعض، وآثار ما كان من العمارة شاهد بذلك اليوم[١]. واسم المدينة صادق على ذلك كله[٢] وسيأتي في ترجمة قباء أنها كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة الشريفة، أي بما بينها من النخيل. ولهذا لم تكن الجمعة تقام بغير المسجد النبوي، ولو كانت قباء وغيرها من القرى المنفصلة اليوم منفصلة في زمنه ﷺ، وبها تلك القبائل من الناس لوجب إقامة الجمعة في كل قرية بها

(١) يقصد بذلك أيام المؤلف، وقد عاش حتى بداية القرن العاشر للهجرة سنة ٩١١ هـ.

(٢) انتشرت المنازل في المدينة المنورة انتشاراً متصلاً، على رقعة واسعة في جميع اتجاهات المدينة، يمكن أن نقدرها بأكثر من خمسة كيلو مترات من جميع الجهات ابتداء من نقطة المسجد النبوي. فمن جهة الجنوب والشرق كانت تمتد إلى جامع قباء، وتمتد حتى سد وادي بطحان والحرة الشرقية كلها. ومن الشمال والغرب اتسعت حتى وصلت إلى جبل أحد إلى حدود العقيق والقبلتين وهذه المناطق فقد خربت فيما بعد، ومنها ما أصبح قرى منفصلة، ثم عاد العمران مرة أخرى في العصر السعودي فشمل المناطق المذكورة كلها.

أربعون. . فقد كانت كلها في حكم البلد الواحد فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين[1]».

هذا الاتساع العمراني والسكاني، لا بد أن تتعدد معه الأعمال التي تلبي رغبات البيئة الجغرافية والاجتماعية. فكان في المدينة الزارع والتاجر والحداد والنجار والعامل، ولا بد أن يوجد العاطلون عن العمل، كما يوجد العاملون في وظائف الإمارة. وسوف أعرض بعض نواحي العمل في المدينة المنورة على وجه الإيجاز:

الزراعة:

رأينا فيما سبق أن المدينة المنورة وما يتبعها من القرى كانت تتوفر لها عوامل الخصب والزراعة المنتجة. وخاصة في موسم الأمطار وفيضان الأودية حيث تمتلىء الأودية بالمياه، وتمكث مدة طويلة وراء السدود المقامة وكانت توجد الآبار الكثيرة التي تدل على وجود المياه الجوفية، وتوجد العيون التي تسقي مساحات كبيرة من الأرض.

وكانوا يستفيدون من مياه السيول في شتى زراعاتهم، ويقسمون المياه بين المزارعين، ونستدل على هذا بما ورد في كتب الحديث، حول الخصومات التي قضى رسول الله فيها بين المتخاصمين في مياه السيول.

رُوي أن رجلاً من قريش كان له سهم من بني قريظة[2]. فخاصم إلى

---

(١) وفاء الوفا ج ٢.

(٢) قريظة: قبيلة من يهود المدينة، غزاهم الرسول سنة خمس من الهجرة، وفيهم حكم سعد ابن معاذ: بقتل من جرت عليه الموسى (البالغين) وسبي الذرية والنساء وقسمة أموالهم. بين المسلمين. «أنساب الأشراف» ج ٣٤٧/١. قال الفيروز أبادي لما قدمت اليهود المدينة نزلوا السافلة فاستوبؤوها، فبعثوا رائداً لهم حتى أتى العالية (العوالي في الوقت الحاضر) فرجع وقال: قد وجدت بلداً نزهاً طيباً، ومياهها طيبة في مناخر الحرَّة وهو وادي مهزور فنزلت قريظة عليه. . قال: وكانت المدينة أشرفت على الغرق في خلافة عثمان من سيل مهزور حتى اتخذ عثمان له ردماً.

النبي ﷺ في سيل مهزور الذي يقسمون ماءه، فقضى بينهم أن الماء إلى الكعبين لا يحبس الأعلى على الأسفل[1].

وفي رواية عن عبدالله بن الزبير، أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في شراج الحرة[2] التي يسقون بها النخل. فقال الأنصاري: سرّح الماء يمرّ، فأبى عليه الزبير، فاختصما عند النبي ﷺ، فقال الرسول للزبير: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري فقال: آنْ كان ابنَ عمتك؟ فتلوّن وجه الرسول ثم قال: اسق يا زبير حتى يرجع الماء إلى الجدر[3]».

وتعددت المزروعات في المدينة ولكنهم كانوا يهتمون بأنواع تجود في منطقة المدينة، ومنها: النخيل والعنب والحبوب.

وكان النخيل أكثر المزروعات حتى أن ثماره تفيض عن حاجة السكان فيصدرون ما زاد عن الحاجة إلى المدن المجاورة مثل مكة والطائف.

وفي بعض الفترات تقدمت الزراعة وكثر الإنتاج الزراعي، لكثرة الأيدي العاملة في استصلاح الأراضي وحفر الآبار. رُوي أن عثمان بن عفان خلج خليجاً حتى صبه في باطن بلد من الجرف[4] وجعله لبناته من نائلة بنت الفرافصة، وأنه استعمل فيه ثلاثة آلاف من سبي بعض العجم. وروى الذهبي في ترجمة عبدالله بن جعفر أنه اشترى أرضاً سبخة فأصلحها، فأحب الخليفة عثمان أن يشتري جزءاً منها فباع عبدالله ربعها بمائة وعشرين ألفاً، وكان قد اشتراها كلها بستين ألفاً[5]».

---

(١) «معالم طابة» للفيروز آبادي / ٣٩٨، وموطأ الإمام مالك «ج ٢ / ١٢١ وشرح القسطلاني على البخاري ج ٤ / ٢٠١.

(٢) الشرج: الجمع شراج، وشروج: مسيل الماء من الحرة إلى السهل. والحديث في «صحيح البخاري، شرح القسطلاني ج ٤ / ١٩٦.

(٣) الجدر: قيل: أصل الشجرة. وقيل: مجتمع الماء عند أصول النخل.

(٤) البلد: كل مكان من الأرض. عامراً كان أو خلاء.

(٥) «سير أعلام النبلاء» ج ٣ / ٢٤٦.

وكان لمعاوية اهتمام بالزراعة في المدينة المنورة، حيث كان يهتم بشراء الأراضي في المدينة وزراعتها. قال السمهودي: كان بالمدينة وما حولها عيون كثيرة تجددت بعد النبي، وكان لمعاوية اهتمام بهذا الباب. ولهذا كثرت في أيامه الغلال بأراضي المدينة. وكان لمعاوية بالمدينة أراضٍ واسعة حتى كان يجدّ بالمدينة وأعراضها مائة ألف وسق وخمسين ألف وسق تمراً، ويحصد مائة ألف وسق حنطة(١)».

وورد أن عبد الرحمن بن عوف كان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً. وتذكر كتب التاريخ عدداً كبيراً من المزارع في العهد الأموي منها: مزارع أبي هريرة ومزارع عروة بن الزبير، ومزارع مروان بن الحكم، وبستان سعيد ابن العاص ومزارع الجرف! والغابة. وغيرها من الإقطاعات التي كانت لرجال من المدينة في كثير من القرى المجاورة في ينبع ووادي الفرع، ووادي القرى.

والملاحظ على هذه المزارع التي يذكرها المؤرخون، أنها كانت إقطاعات كبيرة لعدد محدود من رجالات المدينة، أو يملكها رجال لا يسكنون المدينة كمعاوية بن أبي سفيان.

ويبدو أن الإنتاج الزراعي الكثير كان يأتي من هذه المزارع الكبيرة لأن أصحابها كانوا يقدرون على خدمة الأرض بما عندهم من الأموال حيث يجلبون العبيد والعمال لزراعة الأرض. أما صغار الزراع فإن الكثير منهم قد هجر بستانه، أو باعه لأنه لا يقدر على خدمته، وخاصة في الأيام التي تجف فيها مياه الأودية وتحتاج الأرض إلى السقاية من الآبار.

وحفر الآبار والسقاية منها يحتاج إلى النفقات التي لا يقدر عليها صغار الزراع.

ولا شك أن الإنتاج الزراعي رغم كثرته، فإنه لا يفي بحاجات أهل المدينة لكثرة سكانها في هذا العهد. ولا سيما منتوج الحنطة

---

(١) وفاء الوفا ج ٣ / ٩٨٨.

ومن مجالات العمل:

التجارة:

وكانت التجارة في عهد الخلفاء الراشدين - عمر وعثمان، نشطة وقوافل التجارة تأتي إلى المدينة من داخل الجزيرة وخارجها. فكانت تأتي من الطائف القوافل محملة بالزبيب. وتأتي القوافل من اليمن محملة بالثياب والأقمشة، والصناعات المعدنية. وتأتي القوافل من الشام ومصر محملة بالطعام والدقيق والحنطة، والزيوت وغيرها من الحاجيات وكانت هذه القوافل في تجارة رجل واحد. فكان عبد الرحمن بن عوف من أكبر تجار المدينة. ورأينا أن قافلة من قوافل تجارته في عهد عثمان كانت مكونة من سبعمائة بعير محملة بالبضائع المتنوعة. وكان للزبير تجارة واسعة حتى تجمعت لديه أموالٌ كثيرة قالوا: إنها من نصيبه من الفيء ومن التجارة المبرورة[1].

ولم تكن التجـارة في سوق المدينة مقصورة على فئة معينة، فكان كثير من العلماء الأعلام يعملون في التجارة. حيث كانت التجارة عمل الفقهاء الذين يرفضون العطاء ويعفّون عن قبول هدايا الأمراء. فكان سعيـد بن المسيب يتّجر في الزيت وكان رأسماله أربعمائة دينار.

والملاحظ في أخبار التجارة في العصر الأموي، أنه لم يوجد في المدينة أصحاب التجارة الواسعة التي تشبه تجارة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، ولم نعد نسمع بالقوافل الكبيرة التي تنطلق من المدينة لجلب التجارة.

والذي لاحظناه أنها تجارة فردية يقوم بها أصحاب رأس مال صغير. ولم تعد مقصورة على أهل المدينة، ولكننا وجدنا من يقدم بتجارة إلى المدينة من أهل العراق أو غيرها من البلدان.

وقد قرأنا في الأغاني[2] قصة التاجر العراقي الذي قدم بالخُمر إلى

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ترجمة الزبير، و«الإصابة في تمييز الصحابة».

(٢) الأصفهاني: الأغاني ج ٧ ص ٢١٤.

المدينة، فباعها كلها إلا السود منها، فاحتال الشاعر الدارمي لذلك، وعمل شعراً يتغزل بذات الخمار الأسود، فنفقت.

وقرأنا في ترجمة عبدالله بن جعفر، أن رجلاً جلب سكراً إلى المدينة فكسد، فأمر بشرائه وتفريقه على الناس.

وفي أخبار الشاعر موسى شهوات ـ أن سبب تسميته (شهوات) أنه كان من أهل أذربيجان، وأنه نشأ بالمدينة، وكان يجلب إليها القند والسكر، فقالت له امرأة من أهله: «ما زال موسى يجيئنا بالشهوات[1]».

ويبدوا أن السبب في قلة القوافل التجارية: أن التجارة كانت في الحجاز، يختص بها القرشيون[3]، أما الآن فإن زعامة قريش قد أغناها الله بما وليت من أمر المسلمين ويأتيها المال دون كد أو كدح.

وربما كان السبب أن الحجاز أصبح إقليماً مفتوحاً يأتي إليه المسلمون لأداء ـ مناسك الحج أو العمرة، أو الزيارة، وقد رخص الإسلام أن يقصد المسلمون البيت للعبادة، والمنافع التجارية. وقد يأتي هؤلاء بتجارة معهم عند قدومهم إلى المدينة أو مكة. وبالتالي «تصبح سوق الحجاز عامرة بما يحتاجون إليه على مدار السنة، يضاف إلى هذا، أن المدينة كانت محطة على طريق القوافل بين الشام واليمن[3].

وربما كان السبب أن الحال الاقتصادية في المدينة قد ضعفت، وخاصة في الربع الأخير من القرن الأول، وبداية القرن الثاني، حيث تناقصت الأموال التي خلفها الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار، والتي نماها كبار

---

(١) الأغاني ج ٣ / ٣٥١ والقند: عسل قصب السكر إذا جمد.

(٢) كانت للمدينة في العصر الجاهلي أسواقها التي يقصدها العرب، ولكنها لم تكن لها قوافلها التجارية التي تشبه قوافل قريش. وكان نشاطها التجاري يأتي من ورود العرب إلى أسواقها لأخذ حاجتهم من التمر وغيره، وكانت أيضاً محطة على طريق القوافل بين مكة والشام، وبين الشام واليمن (المدينة في العصر الجاهلي للدكتور محمد الخطراوي).

(٣) انظر «طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب» لنعيم زكي فهمي.

الصحابة في عصر الخلفاء الراشدين. وعندما لا تكون التجارة مربحة يتحول الناس إلى غيرها.

وربما كان السبب أن أصحاب الأموال الكثيرة في المجتمع المدني، في عصر بني أمية، كانت تأتيهم عن طريق العطاء، والهبات الكبيرة من الخليفة، وهذه كافية دون حاجة إلى تجارة.

ولم تعد التجارة هي مصدر الثراء، وإنما أصبحت الإمارة والقيادة مصدراً للربح الوفير، كما كان التقرب من القواد والأمراء يفيض على المتقرب الأموال الكثيرة.

ومن مصادر الرزق غير التجارة والزراعة، أعمال أخرى كثيرة تلبّي حاجات المجتمع: فكان هناك: غسال الثياب، وخراز النعال، والحداد، والنجار ومنجد الفراش، وهناك من يصنع الطعام ويبيعه للناس.

وهناك موارد رزق في موسم الحج، حيث كان بعض الناس يؤجرون بيوتاً لسكنى الحجاج وزوار المدينة، والتجار[1].

ومنْ ينظر في فقه الإمام مالك، يجد كثيراً من الأعمال التي كانت منتشرة في المدينة، ويتعرف على كثير من موارد الرزق، لأن الإمام مالك كان يرى أن عمل أهل المدينة حجةً، حيث توارثوه عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وعن الصحابة رضوان الله عليهم ونجد هذا في باب «الزكاة» و «البيوع» و «المساقاة[2]».

(١) ذكر ابن شبة في تاريخ المدينة، أن معاوية بنى دارين بسوق المدينة، وضرب عليهما الخراج. وبنى هشام بن عبد الملك داراً بالسوق، فلم تزل على ذلك حياة هشام بن عبد الملك وفيها التجار، فيؤخذ منهم الكراء حتى توفي هشام». ج ١ / ٢٧٠.

(٢) انظر «الموطأ» وكتاب «عمل أهل المدينة»، تأليف الدكتور أحمد محمد يوسف.

٣ - العمران في المدينة في العصر الأموي

ازدحمت المدينة بسكانها في العهد الأموي. وأوى إلى المدينة كثير من الناس منهم العابدون المجاورون حرم رسول الله، ومنهم طلاب الراحة والهدوء، حيث انتهت الحركات المسلحة في المدينة بنهاية عهد ابن الزبير، وأصبحت ملجأ للسروات من القرشيين، يجمعون بين متاع الدنيا بما أوتوا من المال، ويستروحون شذى الحرم النبوي الشريف عن قرب، ونتيجة لهذا الازدحام السكاني حصلت بعض التطورات العمرانية، منها ما كان من عمل الدولة، ومنها ما كان من عمل الناس. وسوف أعرض لبعض مظاهر العمران الرسمي، وبعض مظاهر العمران الشعبي.

- في المجال الرسمي:

لم يكن للخلفاء الأمويين اهتمام بالعمران والبناء، فكانت اهتماماتهم في عصر الخلفاء العظام بتوطيد الحكم والفتوحات.

فمعاوية المؤسس الأول، توجه إلى القضاء على خصومه بعد توليه الخلافة كما انشغل فترة بولاية العهد لابنه. وعبد الملك بن مروان: المؤسس الثاني قضى شطراً من خلافته في محاربة ابن الزبير.

أما الخلفاء الذين تولوا بعد انتهاء القرن الأول فكانوا بين لاهٍ عابث وبين منشغل بالقضاء على الثورات أو الوقوف في وجه المؤامرات التي دارت

بين أعضاء البيت الأموي. . وأما عمر بن عبد العزيز، فكان همه الإصلاح الاجتماعي مما أفسده الخلفاء من قبله، ولم يكن من رأيه التطاول في البنيان.

ولم يحفظ لنا الزمان من المباني الخالدة - في عهد بني أمية في المشرق إلا ما بُني أيام الوليد بن عبد الملك. ويبدو أن فترة الاستراحة كانت في أيامه، وكانت له اهتمامات بالبناء الخالد على مر الزمان، وخاصة بناء المساجد. فهو الذي بنى مسجد دمشق، وبنى قبة الصخرة في القدس، وأول من أقام المسجد النبوي على أسس متينة[1].

ولم تبق آثار خالدة للأمويين في المشرق، إلا ما بُني أيام الوليد بن عبد الملك[2] وانتقل اهتمام الوليد بالعمران إلى رعيته، مما جعل الرواة يحاولون إيجاد التفسير الواقعي للقول المشهور: «الناس على دين ملوكهم» ولذلك قالوا كانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول: ماذا بنيت؟ وماذا عمرت؟.

وكانت همة أخيه سليمان في النساء، وكانت الناس كذلك: يلقى الرجل الرجل فيقول: كم تزوجت؟ ماذا عندك من السراري؟.

وكانت همةُ عمر في قراءة القرآن، وفي الصلاة والعبادة، وكان الناس كذلك. يلقى الرجل الرجل فيقول: كم وردك؟ كم تقرأ كل يوم؟.

ولا شك أن هذه القصة حيكت فيما بعد، بناء على ما عرف الناس من سيرة كل خليفة، ولأنهم لم يجدوا آثاراً خالدة إلا من أيام الوليد بن عبد الملك.

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٩٥.

(٢) لابن خلدون في مقدمته، رأى في قلة المباني الخالدة أيام الحكم العربي، ذكره في فصلين، الأول: فصل: في أنَّ المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول. «والثاني: فصل في أن المباني التي يختطّها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل». انظر ص ٣١٢ - ٣١٣ - من المقدمة.

ويبدو أن بناء الآثار الباقية كانت هواية عند الوليد، ولذلك نجده يحقق رغبته بالقوة إن عاق هذه الرغبة عائق، وقد حقق رغبته بالقوة في بناء مسجد دمشق وشارك بنفسه في هدم معالم الكنيسة التي بني المسجد على آثارها وكذلك نجده في توسعة الحرم المدني يقف صامداً أمام تحديات الناس وأصرّ على التوسعة رغم أن هذه التوسعة لم يطلبها أحدٌ ولم يشك أهلُ المدينة ضيق مسجدهم، كما حصل أيام عمر وعثمان، حيث دعت الحاجة إلى التوسعة.

توسعة المسجد النبوي الشريف[١]:

أسس المسجد النبوي لأول مرة على يدي النبي ﷺ في العام الأول للهجرة[٢]. وكان موضعه مربداً لغلامين يتيمين، فأعطياه للرسول ﷺ. فقال الرسول: ابنوا لي عريشاً كعريش موسى تماماً وظُلةً كظُلةِ موسى والأمر أعجل من ذلك، قيل: وما ظلةُ موسى قال: كان إذا قام فيه أصاب رأسُه السقف. وعمل فيه الرسول بنفسه ترغيباً لهم، وطفق رسول الله ينقل معهم اللبن في ثيابه ويقول·

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمُهاجرة

وروي: أن الرسول بنى مسجده بالسميط[٣] ثم إن المسلمين كثروا فقالوا يا رسول الله، لو أمرت بالمسجد نزيد فيه، قال: نعم، وأمر به فزيد فيه وبني جداره بالأنثى والذكر[٤] ثم اشتد عليهم الحر فقالوا: يا رسول الله

(١) اعتمدت في هذا البحث ـ عن المسجد النبوي ـ على ثلاثة مصادر: وفاء الوفا للسمهودي وعمدة الأخبار: للعباسي. وآثار المدينة المنورة للأستاذ / عبد القدوس الأنصاري واعتمدت في ذكر مساحة المسجد، بالمقاييس الحديثة على آثار المدينة المنورة حيث ذكرتها الكتب القديمة بالذراع، فأحببت ذكرها بالأمتار لتكون مفهومة لدى القارىء الحديث.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٢.

(٣) السميط: الآجر القائم بعضه فوق بعض.

(٤) الأنثى والذكر: لبنتان مختلفتان.

لو أمرت بالمسجد فظللك؟ فقال نعم، فأمر به، وأقيمت فيه سوارٍ من جذوع النخل ثم طرحت عليها العوارض والخصص والإذخِر، فعاشوا فيه حتى أصابتهم الأمطار، فجعل المسجد يكف عليهم، فقالوا: يا رسول الله: لو أمرت بالمسجد فطُيِّن، فقال لهم رسول الله: لا، عريش كعريش موسى عليه السلام. فلم يزل كذلك حتى قُبض رسول الله.

وكان جداره قبل أن يظلل قامة، فإذا كان الفيء ذراعاً، صُلِّي الظهر وإذا كان ضعف ذلك صُلِّي العصر.

ونقل العباسي في عمدة الأخبار: أن رسول الله بنى مسجده مربعاً وجعل قبلته إلى بيت المقدس، جعل طوله سبعين ذراعاً في عرض ستين أو أزيد وجعل له ثلاثة أبواب[1].

ولم يزد أبو بكر في المسجد شيئاً، لأنه اشتغل بالفتح. فلما ولي عمر رضي الله عنه كَثُر الناس في عهده، وضاق بهم المسجد، فطلبوا منه أن يزيد فيه، وأدخل فيه دار العباس، فجعل طوله مائة وأربعين ذراعاً، وعرضه مائة وعشرين[2] وبدل أساطينه بأُخر من جذوع النخل، وسقفه بجريد النخل. وجعل سترة المسجد فوقه ذراعين أو ثلاثة. وقد بني أساسه بالحجارة إلى أن بلغ قامة، وجعل له ستة أبواب.

ولم يزل كذلك إلى سنة أربع من خلافة عثمان، فكلمه الناس أن يزيد في المسجد، فشاور أهل الرأي فأشاروا عليه بذلك.

فغيَّره عثمان وزاد فيه زيادة كثيرةً، وبنى جُدُرَه بالحجارة المنقوشة والقَصَّة[3]

---

(١) قال الأنصاري: وكانت مساحته ٣٥ متراً من الجنوب إلى الشمال، و٣٠ متراً من الشرق إلى الغرب. وزاد فيه النبي سنة سبع من الهجرة حتى صار مربعاً.

(٢) قال الأنصاري: زاد عمر سنة ١٧ هـ نحو خمسة أمتار من الجنوب، وعشرة أمتار في الغرب، وخمسة عشر متراً في الشمال.

(٣) القصة: الجص، وسمي موضع قرب المدينة (بذي القصة) لأنه كان به قصة.

وجعل عُمُدَه من حجارة منقوشة وسقفه بالساج[1]. وبنى المقصورة بلبن مطبوخ وجعل فيها طيقاناً ينظر فيها الناس إلى الإمام، وكان يصلي فيها خوفاً من الذي أصاب عمر.

ولم يزل المسجد كذلك إلى أيام الوليد بن عبد الملك، وكانت له همة في البناء وخاصة بناء المساجد[2]، ففي سنة ٨٨ هـ قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة، يأمره بهدم المسجد النبوي وإضافة حُجَر أزواج الرسول وأن يوسّعه من قبلته وسائر نواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع. ومن باعك ملكه فاشتره منه، وإلا فقوّمه له قيمة عدلٍ ثم اهدمه وادفع إليهم أثمان بيوتهم فإن لك في ذلك سلفَ صدقٍ، عمر وعثمان.

فجمع عمر وجوه الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فشقَّ عليهم ذلك وقالوا: هذه حُجر قصيرةُ السُّقوف وسقوفها من جريدِ النخل وحيطانها من اللبن وعلى أبوابها المسوح، وَترْكُها على حالها أولى، لينظر إليها الحُجَّاج والزوار فينتفعوا بذلك ويعتبروا به ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة. فكتب عمر إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء، فأرسل إليه يأمره بالخراب وبناء المسجد، فلم يجدْ عُمر بدّاً من هدمها. ولما شرعوا في الهدم صاح الأشرافُ ووجوه الناس من بني هاشم وغيرهم وتباكوا مثل يوم مات النبي ﷺ[3].

قالوا: وأرسل الوليد إلى ملك الروم يقول له: إنا نريد أن نعمّر مسجد نبينا الأعظم فأعنا بعمال وفسيفساء. فبعث إليه ملك الروم عمالاً وأحمالاً من

---

(١) الساج: نوع من الخشب الجيد الصلب.
(٢) الطبري ج ٨ ص ٧.
(٣) البداية والنهاية ج ٩ / ٧٥.

الفسيفساء وأحمالاً من السلاسل للقناديل[1].

وكان عمر قد خمّر النُّورَة التي يُعمل فيها الفسيفساء سنةً، وجعل العُمُدَ حجارة حشوها الحديد والرصاص. وكان الأروام يصنعون في الحيطان قصوراً وأشجاراً.

ومما أحدثه عُمر في المسجد، أنه أدخل الحجرة النبوية في المسجد، وجوّف المحراب وجعَل الحيطان من الداخل مزخرفةً بالرُّخام والذهب والفسيفساء، وذهَّب الأساطين. وأحدث في المسجد أربع منارات في كل ركن واحدة، وفرغ من بنائه في ثلاث سنين. وكانت المنارةُ الرابعة مطلّةً على دار مروان مقر الإمارة، فلما حج سليمان بن عبد الملك أذن المؤذن فأطل على سليمان وهو في الدار فأمر بتلك المنارة فهدمت إلى ظهر المسجد. ولم يزل المسجد على ثلاث منارات حتى سنة ٧١٦ هـ فأمر السلطان محمد قلاوون بإنشاء منارة رابعة[2].

ولما بنى عمر المسجد ووسعه جعل له عشرين باباً.

وبقي المسجد على هذه الحال حتى زمن المهدي، فزاد فيه سنة ١٦١ هـ.

ـ عين الأزرق:

وهي المأثرة الوحيدة التي خلّدتْ خلافة معاوية، وإمارة مروان ابن الحكم على المدينة. قال الفيروز أبادي[3] وتسميها العامة: العين الزرقاء لعلهم توهموا أن اسمها مأخوذ من صفة مروان بن الحكم، الذي كان أزرق

(١) ذكر هذا الخبر أكثر المؤرخين. وأنكر ابن كثير أن يكون الوليد استعان بملك الروم في عمارة المسجد النبوي. وقال: المشهور أن هذا إنما كان من أجل جامع دمشق. البداية والنهاية ج ٩ / ٧٥).

(٢) عمدة الأخبار ص ١٠٩.

(٣) معالم طابه / ٢٩٥.

العينين. فأضافها الناس إليه. ولا زالت حتى وقتنا الحاضر تسمى بهذا الاسم، وتنسب المياه التي تسقي المدينة إلى العين الزرقاء، ولها هيئة خاصة تقوم على إدارتها أنشأها الملك عبد العزيز رحمه الله[١].

وهذه العين أجراها مروان بن الحكم أثناء إمارته على المدينة، في أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجري. بأمر من معاوية بن أبي سفيان. وأصل العين أيام إجرائها الأولى من بئر الأزرق غربي مسجد قباء، وقد أُضيف إليه آبار في أوقات متفاوتة، كبئر أريس[٢] وبئر بويرة[٣] كما أنها أُمدتْ بينابيع حفرت في جنوبي بئر الأزرق. ولم يحدد معاوية في أمره المكان الذي يجري منه الماء إلى المدينة، وإنما كان الأمر بإجراء عين ماء لتسقي المدينة، فاختار مروانُ أن يكون منبع العين من بئر الأزرق بقباء، فحفرها هناك وأجراها في النفق الأرضي، ولما بلغت المدينة بنى لها المناهل ففاضت منها في فروع متعددة.

وتُعد عين الأزرق فاتحة عصر جديد في حياة سكان المدينة، لأنها نقلتهم من طور الاستقاء من الآبار، وما يلزم لهذا الاستقاء من دلاءٍ وبكراتٍ، إلى طور الاستقاء من المناهل الفياضة مباشرة دون كلفة.

وكانت الآبار عمدة شرب أهل المدينة حتى جاءت خلافة معاوية، ففكر في مشروع يُبقي له أحسن الأحدوثة وأطيب الذكرى، وهو إرواء مدينة

---

(١) آثار المدينة المنورة / ٢٦٤.

(٢) بئر أريس: يقع غربي مسجد قباء. منسوب إلى رجل من اليهود يقال له أريس وعليها كان مال لعثمان بن عفان. وفي هذه البئر سقط خاتم النبي من يد عثمان في السنة السادسة من خلافته واجتهد ثلاثة أيام في استخراجه، فلم يعثر عليه. قالوا: ومنذ ذلك اليوم حصل الاختلاف عليه لفوات بركة الخاتم.

(٣) البويرة: تصغير البئر يستقى منها الماء. والبويرة منازل بني النضير التي غزاها رسول الله بعد أُحد بستة أشهر فأحرق نخلهم وقطع زرعهم وفيه نزلت ﴿ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾..

الرسول من ماء مَعين، على غرار ما يشاهده في الشام حيث الأنهار تروي أهلها بهذه الطريقة.

ولا شك أن معاوية قد أمر بهذه العين في الفترة الأولى من خلافته قبل أن يرفض أهل المدينة البيعة لابنه يزيد. وكأنه أراد أن يتقرب إلى أهل المدينة ويكسب ودهم وأن يحظى بدعوات قاصدي مسجد رسول الله، وتكون له من الأعمال التي لا ينقطع ثوابها بعد الموت، وتعتبر من الصدقة الجارية.

* * * *
* * *
*

٤ ـ وادي العقيق

وادي العقيق، جزء من تاريخ المدينة المنورة في العصر الأموي اتصل عمرانه بتاريخ الأمويين في المدينة، وله صلة بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في العصر الأموي، ولذلك فإن قارىء تاريخ المدينة في هذا العصر، لا بد أن يبحث عن تاريخ العقيق، والباحث في هذا العصر لا بد أن يضمن بحثه تاريخ وادي العقيق. فهو من الحضارات التي سادت ثم بادت، سادت بسيـادة الأمويين، وبادت بسقوط الأمويين.

ولهذا فقد خصه المتقدمون بتآليف مفردة، وصل إلينا نُقولٌ منها في الكتـب التي أرخت للمدينة المنورة. وممن ألف في العقيق: الزبير بن بكار[١] نقل عنه الفيروز أبادي في (معالم طابه). ونقل عنه السمهودي في (وفاء الوفا) وممن ألف في العقيق: هارون بن زكريا الهَجَري[٢].

العقيق: اسم لكل مسيل ماء شقَّه السيل في الأرض فأنهره ووسعه. ولهذا قالوا: إن ببلاد العرب أربعة أودية تسمى بالعقيق فكل ما انطبق عليه

---

(١) من أحفاد الزبير بن العوام، عالم بالأنساب وأخبار العرب، ولد في المدينة. وولي قضاء مكة، وتوفي بها. من تصانيفه المطبوعة «نسب قريش وأخبارها» «وكتاب الموفقيات» ألفه للموفق بن المتوكل العباسي وكان يؤدبه. توفي سنة ٢٥٦ هـ.

(٢) عالم بالأدب وبلدان الجزيرة العربية، وهو من (هجر) بالاحساء. سكن مكة، واستقر بالمدينة. وللشيخ حمد الجاسر كتاب عن «أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضيع» واسمه هارون ابن زكريا الهجري من أهل القرن الثالث والرابع.

الاسم سُمي عقيقاً. وعقيق المدينة سمي بذلك: لأنه عقَّ الحرة، أي شق وقطع، وقيل سمي بذلك: لأن حمرة الوادي كحمرة العقيق.

ونسب المؤرخون إلى تبع عندما قدم المدينة، أنه وضع أسماء لبعض الأماكن ومر بالعقيق فقال: هذا عقيق الأرض فسُمي العقيق[1].

جغرافية وادي العقيق:

مصدر وادي العقيق وأصل مسيله من حضير[2] جنوب المدينة المنورة، بينه وبين المدينة مسيرة يوم ونصف على الأقدام. ثم يمر بغربي جبل عير[3] ثم يصل إلى ذي ـ الحُليفة[4] ثم يسير مشرقاً إلى أن يحاذي حرة الوبرة في قسمها الذي يطلع إلى المدينة، ثم يعرّج إلى الشمال، ويصب في زغابة شمالي جبل أحد، وهو مصب السيول.

ويسمى وادي العقيق، ابتداء من ذي الحُليفة إلى بئر رومة شمالي غرب المدينة قالوا: وهما عقيقان، أدناهما عقيق المدينة، وهو أصغر وأكبر فالأصغر فيه بئر رومة والأكبر فيه بئر عروة.

والعقيق الآخر على مقربة منه، وهو من بلاد مزينة.

وللعقيق، ضفاف وعرصتان[5]. والعرصتان بعقيق المدينة من أفضل بقاع المدينة وأكرم نواحيها وأنزه أصقاعها، وبنو أمية كانوا يمنعون البناء في

---

(١) التعريف. للمَطري ص ٦٧، ابن خردازبه: المسالك والممالك ص٩٣ ياقوت : معجم البلدان ج ٢١٧.

(٢) قاع فيه آبار ومزارع يفيض عليها سيل النقيع، جنوب المدينة المنورة. ومنه يبتدىء العقيق.

(٣) جبل عير: بلفظ العير مرادف الحمار. وهو جبل جنوب المدينة المنورة قرب ذي الحليفة. ويحد حرم المدينة من ناحية الجنوب. وورد في الحديث «المدينة حرم ما بين عير إلى ثور». وثور: جبل شمال المدينة، وهو غير جبل ثور الموجود في مكة.

(٤) محرم الحاج، وتسمى الآن: أبيار علي.

(٥) العرصة: ساحة الدار. وكل حومة متسعة ليس فيها بناء تُسمّى عرصة، سميت لاعتراص الصبيان فيها، أي: للعبهم فيها.

عرصة العقيق ضناً بها، ولم يكن أمير المدينة يقطع بها قطيعةً إلا بأمر الخليفة.

وهما العرصة الكبرى لأن العقيق يحيط بها من جميع جوانبها، والعرصة الصغرى التي ينيفها الماء من أحد جانبيها.

وحوله جماوات[١] وهي ثلاث هضاب سود كبار قائمة بطرف العقيق على شفيره الغربي. وعلى أطراف الجماوات كانت تقوم القصور والبيوت ومن الجماوات تصب المياه على وادي العقيق، ولذلك ارتبط تاريخها به[٢].

تاريخ وادي العقيق وعمرانه:

وردتْ أحاديث صحيحة في فضل وادي العقيق منها قوله عليه الصلاة والسلام: «أتاني الليلة آت فقال: صل في هذا الوادي المبارك[٣]».

وعن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «العقيق وادٍ مبارك[٤]».

وقال عليه الصلاة والسلام: «نعم المنزل العرصة لولا كثرة الهوام».

ورُوي أن الرسول ركب إلى العقيق ثم رجع فقال: يا عائشة جئنا من هذا العقيق فما ألين موطئه وأعذب ماءه. قالت: فقلت: يا رسول الله أفلا ننتقل إليه قال: «وكيف وقد ابتنى الناس؟».

وروي أن عمر بن الخطاب كان إذا انتهى إليه أن وادي العقيق قد

---

(١) الجماء: ما كان دون الجبل.

(٢) يمكننا أن نحدد منطقة العقيق التي أهلت بالسكان: ابتداء من آبار علي ذي الحليفة ثم المنطقة التي فيها جسر عروة، ودار الشيخ الحافظ، ثم المنطقة التي فيها الجامعة الإسلامية وقصر الأمير، وضاحية مسجد القبلتين.

(٣) كتاب «التعريف» للمطري، عن البخاري في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ص ٦٥.

(٤) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة ج ١ / ١٤٨.

سال قال: «اذهبوا بنا إلى هذا الوادي المبارك وإلى الماء الذي لو جاءنا جاءٍ من حيث جاء لتمسحنا به».

وروي أن الرسول ﷺ أقطع بلال بن الحارث المزني، العقيق كله. فلم يزل على ذلك حتى ولي عمر فدعا بلالاً فقال: قد علمت أن رسول الله لم يكن يمنع شيئاً سئله، وإنك سألته أن يعطيك العقيق فأعطاكه فالناس يومئذٍ قليل لا حاجة لهم. وقد كثر أهل الإسلام واحتاجوا إليه، فانظر ما ظننتَ أنك تقوى عليه فأمسكه واردد إلينا ما بقي نقطعه. فأخذ عمر ما زاد عن حاجة المزني، وبدأ يقطعه الناس[1].

ولكن لم يبدأ الناس بالبناء على ضفافه وعرصاته إلا في عهد عثمان. قال المطري: وابتنى الناس بالعقيق من خلافة عثمان ونزلوه وحفروا به الآبار وغرسوا فيه النخل والأشجار من جميع نواحيه على جنبتي وادي العقيق.

أما العصر الذهبي لوادي العقيق فقد بدأ منذ خلافة معاوية، حيث استقر الأمر للأمويين، وكثر عمرانه بعد عام الجماعة الثاني أيام عبد الملك، وبعد القضاء على فتنة ابن الزبير حيث استقر الأمويون في المدينة المنورة، وبدأ أبناء الصحابة يقطفون ثمار ما ورثوا من أموال آبائهم التي حازوها أيام الفتح الأول في عهد عمر وعثمان.

وكانت المدينة قد أصبحت مزدحمة بسكانها، فأراد أهل المال أن ينعموا بالسكنى في القصور الواسعة التي تحيط بها البساتين، على غرار ما رأوا في بلاد الشام ومصر والعراق.

وكان وادي العقيق، هو المناخ المناسب لمطلب هؤلاء الأثرياء، لوجود الأراضي المتسعة للبناء والزراعة، مع وفرة المياه في جوف الأرض، وإمكان الاستفادة من مياه الوادي عندما يفيض. ناهيك عن عذوبة مائه وجودة هوائه. وقربه من قلب المدينة حيث يحتاجون إليها لقضاء حوائجهم وليبقوا

---

(١) التعريف ص ٦٦، وتاريخ المدينة لابن شبة ص ١٤٩ - ١٥٠.

على صلة بالمسجد النبوي، فلا يحتاجون إلى شد الرحال إذا اشتاقوا إلى زيارة المسجد والسلام على رسول الله، ويتحقق لهم في آخرتهم مجاورة الصحابة في بقيع المدينة، وتكتب لهم شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد نقل السمهودي عن أبي علي الهَجَرِي وصفاً للعقيق وقصوره من بدايته حتى نهايته فقال: إن سيل الوادي يفضي إلى الشجرة التي بها محرم رسول الله ثم يلي ذلك مزارع أبي هريرة ثم تتابع القصور يمنةً ويسرة بها منازل الأشراف. . . ويذكر أسماء أصحاب القصور ابتداء من سفح جبل عير حتى يصل إلى بئر رومة في العَرْصة الكبرى، قرب مصب الوادي في زَغَابة[1].

وحقق الأستاذ عبد القدوس الأنصاري[2] في مواقع القصور والدور بالعقيق وقسمها حسب مناطق العقيق، فذكر منها:

أ - القصور الواقعة بطرف حرة الوبرة إلى بئر رومة: ومنها قصر عروة ابن الزبير بقرب بئره. وهو قرب جسر عروة حالياً المقام فوق وادي العقيق ليمر فوقه الطريق المؤدي إلى مكة وجدة.

ب - القصور التي في العرصة الكبرى الواقعة فيها بئر رومة: ومنها قصر عبدالله بن عامر - وقصر مروان بن الحكم.

ج - القصور التي بالعرصة الصغرى: ومنها: قصر سعيد بن العاص، ولا زالت أطلاله موجودة داخل القصر الملكي

د - القصور الواقعة في سفح الجماوات: وهي قصور كثيرة لرجال من قريش.

هـ - القصور الكائنة بسفح جبل عير: ومنها قصر لإبراهيم بن هشام والي المدينة أيام هشام بن عبد الملك.

---

(١) وفاء الوفا / ١٠٥٣.

(٢) آثار المدينة المنورة ٢٢٢.

وذكروا على ضفاف الوادي المزارع الكثيرة التي تدل على خصب المكان. من ذلك قولهم في مزارع سعيد بن العاص: «وغرس النخل والبساتين وكان نخلها أبكر شيء بالمدينة. قالوا: وكان نخل سعيد بالعرصة لا يطير حمامها».

وكانوا يجوّدون في البناء، ويبنونه بالحجارة ويكسونه بالقَصة، ويتفننون في أشكال البناء للفخر والمباهاة. ومن ذلك خبر قصر عروة بن الزبير: قالوا: اشترى عروة موضع قصره، وابتنى قصراً، واحتفر الآبار، وكان بناؤه جنابذ[1] وكان لعبدالله بن عمرو بن عثمان الناحية الأخرى وله قصور وآبار، فوشى به عند السلطان أنه حمل على حق السلطان، فأرسل عمر بن عبد العزيز والي المدينة، من هدم جنابذه وسدم بثاره. فوصل الأمر إلى الوليد بن عبد الملك. فكتب إلى عمر: ما عروة ممن يتهم، فدعه وما انتقص من حق السلطان.. وقال عروة: جزعوا من جنابذ بنيتها، والله لأبنينها، بناء لا يبلغونه إلا بشق الأنفس، فعاد وبنى قصره، وحفر بئره[2].

ومن ذلك قصة عاصم بن عمرو بن عثمان، وكان بنى قصراً عظيماً على مقربة من بئر عروة.. فتعاون عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، وعمر بن عبدالله بن عروة.. على هجاء قصر عاصم: ومما قالاه:

ألا يا قصر عاصم لو تبين … فتستعدي أمير المؤمنين
فتذكر ما لقيتَ من البلايا … فقد لاقيتَ حزناً بعد حين
تبيت على طريق الناس طُراً … يسبك كلُّ ذي حسب ودين

---

(١) الجنابذ: جمع جنبذ وهو ما استدار وارتفع كالقبة.

(٢) معالم طابة ٣٤٤. وقال عروة يفخر بعمله:

بنيناه فأحسنّا بناه … بحمد الله في خير العقيق
نراهم ينظرون إليه شزراً … يلوح لهم على وضح الطريق
فساء الكاشحين وكان غيظاً … لأعدائي وسُرَّ به صديقي
يراه كل مرتفقٍ وسار … ومعتمر إلى البيت العتيق

يُـرى فيك الـدخـان لغيـر شيء   فقـد سمّيت خـدّاع الـعيـون

فقال عاصم يرد عليهم:

بنـوا وبنيتُ واتـخـذوا قصـوراً   فمـا ساووا بـذلـك مـا بنيت
بـنيـت على الـقـرار وجـانبـوه   إلى رأس الشـواهق واستـويت
فـليس لعـامـل فيهـا طعـامٌ   وليس لضيفهم فـيهـا مـبيت[1]

وقد سحر العقيق الناس بجماله، فتغنى به الشعراء، وقالوا فيه أرق الشعر وأعذبه، وكادوا لا يطيقون له فراقاً، وكان من مصادر الذكرى والحنين إلى المدينة.

ومن ذلك قول الشاعر عمرو أبي قطيفة يحن إلى العقيق وقصر سعيد ابن العاص ويفضله على دمشق عندما نفاه ابن الزبير[2]:

والقصر ذو النخل فالجماء بينهما   أشهى إلى النفس من أبواب جَيْرون

وقال بعض الشعراء، وهو في غاية العذوبة:

على ساكني بطن العقيق سـلام   وإن أسهـروني بـالفـراق ونـامـوا
حَـظَرتمْ عليّ النـومَ وهـو محللٌ   وحلَّلتُم التعـذيبَ وهـو حـرام
ألا ليت شعري هل إلى الرمل عودةٌ   وهـل لي بتلك البـانتين لمـام
وهـل نهلةٌ من بئر عـروة عذبـةٌ   أداوي بهـا قلبـاً بـراء أوامُ...

وقد بدأ الخراب يحلّ بوادي العقيق، قصوره، وبساتينه، بعد أن دالت دولة بني أمية، وقتل منهم من قتل، وهرب من هرب. حتى قال المطري المتوفى سنة

(١) معالم طابه ٣٤١. والشاعر الأول يتهم عاصماً بالبخل. ويرد عاصم عليهم: بأنه بنى قصره على قارعة الطريق ليراه كل إنسان فيقصده. أما هم فقد بنوا قصورهم بعيداً عن الطريق وفي أماكن مرتفعة حتى لا يقصدهم الضيوف.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص ٩١.

٧٤١ هـ «وكانت فيه قصور مشيدة ومناظر رائعة وآبار عديدة وحدائق ملتفة فخرب على طول الزمان ولم يبق فيه اليوم إلا آثار». وقال السمهودي المتوفى في أوائل القرن العاشر:

فآثار أبنية مكان العقيق موجودة إلى اليوم، وهي دالة على ما كان به من القصور الفائقة والمناظر الرائعة وآلابار العذبة الحسان والحدائق الملتفة الأغصان دثرتْ على طول الزمان وتكرر الحدثان، وبقي هناك بعض الآبار وبقايا الآثار فترتاح النفوس برؤيتها وتنتعش الأرواح بانتشاق نسمتها فهي كما قال حبيب بن أوس[١]:

ما ربعُ ميَّةَ معموراً يطيف به ... غيلانُ أبهى ربأً من ربعها الخَرِب[٢]
ولا الخدودُ وإن أُدمين من نظرٍ ... أشهى إلى ناظرٍ من خدّها التَّرِب

وقال أعرابي:

ألا أيها الركب المحثون هل لكم ... بأهل عقيقٍ والمنازل من علم
فقالوا: نعم تلك الطلول كعهدها ... تلوح وما يغني سؤالك عن عِلمْ[٣]

---

(١) البيتان من قصيدة أبي تمام التي مطلعها:
السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحَدُّ بين الجِد واللعب

(٢) غيلان: هو غيلان بن عقبة، وكنيته ذو الرمة، الشاعر المشهور، عشق «ميّة» المنقرية واشتهر بها. توفي سنة ١١٧ هـ.

(٣) وفاء الوفا ١٠٦٨.

توجد في هذه الأيام ١٤٠٤ هـ مزارع وبساتين متفرقة في وادي العقيق، لاتضاهي ما كان عامراً في العصر الأموي. وأهم المزارع اليوم قرب ذي الحليفة، وتعرف بمزارع الإحساء لقرب الماء من ظاهر الأرض.. ولكن الحياة بدأت تدب على أطراف العقيق وعلى ضفافه، حيث بدأت المباني تمتد نظراً لاتساع المدينة، ولوجود الرخاء الاقتصادي الذي عم المملكة. وتكاد تصبح منطقة العقيق اليوم جزءاً من المدينة حيث عمرت الطريق المؤدية إلى ذي الحليفة، وأصبحت ذو الحليفة مدينة عامرة. كذلك عمرت المدينة فيما كان يسمى العرصة الكبرى من وادي العقيق حيث مباني الجامعة الإسلامية والقصر الملكي. وعمرت منطقة بئر رومة.



الباب السادس

الحياة الفكرية

١ ـ مظاهر النشاط الفكري.
٢ ـ العلوم الدينية وأبرز علماء المدينة.
٣ ـ الحياة الأدبية.



١ - مظاهر النشاط الفكري

أ - مركز المدينة العلمي:

تعتبر المدينة المنورة من أهم المراكز الفكرية[١] في العصر الأموي، ؛ إن لم تكن أهمها جميعاً.

وقد ورد في الحديث أن رسول الله قال: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة[٢]» وقد تحدث الشيخ أبو زهرة عن هذا الحديث فقال: «وهذا الحديث صحيح يسوقه المالكية للدلالة على تقدم الإمام مالك رضي الله عنه، إذ أنه المقصود بهذا الحديث في نظرهم، وإن ذلك شاهد له بالفضل والعلم دون غيره[٣]. ثم قال: ونحن نسوقه لغير هذا، نسوقه لبيان فضل العلم في المدينة واستبحار علمائها وامتيازها بكثرة العلماء، وامتياز فقهائها بعلم الآثار، وأنه لا يوجد أحد أعلم بسنة رسول الله من علمائها، وأن عالم المدينة في عصر الصحابة لا

(١) أقصد بالحياة الفكرية، مجموعة المعارف التي كان الناس يخوضون فيها في العصر الأموي، وهي علوم ظهرت لحاجة الناس إليها في أمور دنياهم وآخرتهم. وأقصد بها علوم: الفقه، والتفسير، والحديث، والشعر وتوابعه أما العلوم التي أحدثت في العصر العباسي، والتي كان مصدرها الترجمة، والاتصال بالأمم الأخرى، فإن هذه العلوم، كانت في بدايتها أواخر العصر الأموي ولم تكن نضجت بعد، وليس لها مركز قوي في الأمصار الإسلامية.

(٢) مقدمة شرح الموطأ - للإمام السيوطي.

(٣) مالك / ٩٢.

يوجد أعلى منه وكذلك في عصر التابعين، وكذلك في عصر تابعي التابعين وقد نتدرج في ذلك إلى عصر الاجتهاد.. ويدل الحديث على عدم زيادة غيرهم عنهم، لا على نقص غيرهم.

وقد تضافرت عوامل كثيرة على أن تكون المدينة مركز الحياة الفكرية في عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. ومن أهم العوامل أن المدينة كانت النبع الأصلي الصافي المنير، الذي فاض على العالم الإسلامي، حيث كانت المدينةُ مهاجر رسول الله ﷺ، وفيها نزل الشرع الإسلامي وأُنشئت المدينة الفاضلة التي كان أساس الحكم فيها كتاب الله تعالى وسنة رسوله. والتشريعات الدينية (ما عدا العقيدة) والصلوات كلها نزلت بالمدينة. وبها سنة رسول الله في القضاء بحكم القرآن وبيانه وتفسيره وإعلان أحكامه للناس. وكانت المدينة منبعاً لأكثر الأحداث التاريخية في صدر الإسلام، وبها حدَّث النبي أكثر حديثه، وهو لا يُفهم تمام الفهم إلا أن يفهم ما أحاط به من ظروف مدنية.

فلما انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى كانت المدينة قصبة الدولة الإسلامية وموطن الخلافة، وفيها تفتّق عقل الصحابة في استخراج أحكام إسلامية تصلُح لما جَدَّ من شؤون في المجتمعات الإسلامية بعد الفتوح التي كثرت واتسعت بها رقعة الإسلام. ولذلك «ولأسباب أخرى تتصل بحسن السياسة» أبقى عمر بن الخطاب أكثر الفقهاء من الصحابة بجواره يستشيرهم ويستفتيهم وكون منهم مجلس شوراه[1].

وهؤلاء الصحابة قد شاهدوا ما فعل النبي وسمعوا ما قال، وكانوا شركاء في بعض ما وقع من أحداث، فهم يحدِّثون بما سمعوا وشاهدوا.

ويكاد المرء يجزم بأن جلَّ الصحابة كانوا في المدينة، وأن الذين سمعوا ووعوا كثيراً من أمور الشريعة كانوا في المدينة، وأن قلة من الصحابة كانوا في

---

(١) ابن الجوزي: عمر بن الخطاب ص ٨٦.

غير المدينة لأن أشهر من أسلم من أهل مكة هاجر مع النبي إلى المدينة وكان من يسلم بعد الهجرة من أهل مكة يهاجر كذلك إلى المدينة وكانت المدينة مقصدَ من يريد الإسلام في عهد النبي من سكان جزيرة العرب وكثير منهم يقيم بجوار النبي فلا يفارقه.

ولما قُتل الفاروق وآلت الخلافة إلى عثمان سمح للصحابة الذين احتجزهم عمر أن يخرجوا إلى الأقطار المفتوحة، فكانوا نوراً بها، وكذلك كان الأمر في عهد عليّ رضي الله عنه. وقد خرج هو نفسه من المدينة إلى الكوفة وكان ملازموه الأصل العلمي لمدرسة الكوفة مما تلقوه عليه من فتاوى وأقضية وما رووه عنه من أحاديث نبوية[1].

فلما جاء الحكم الأموي أرز من بقي من الصحابة هم وتابعوهم إلى المدينة ليبتعدوا عن ذوي السلطان، ولكيلا يكون في وجودهم على القرب منهم ما يدل على رضاهم بكل ما يأتون وما يفعلون، ولم يبق حول معاوية إلا الذين شايعوه.

ولما جاءت خلافة يزيد، ثم حكم آل مروان، واشتدت الفتن وكثر[2] الخروج كان العلماء من التابعين يجدون في جوار الحرم النبوي راحةً لهم حيث آثار الرسول وصحبه قائمة، فعكفوا على الدراسات الدينية وبيان أمور الدين للناس فيما يجد من الأحداث.

ولذلك كان أكثر التابعين بالمدينة ومكة وقليل منهم من كان بالعراق والشام وأقل من ذلك كانوا بمصر وغيرها من سائر البلدان الإسلامية.

فلما جاء آخر العصر الأموي وقد اشتدت المحن بالبيت الأموي، كان العلماء يجيئون إلى الحجاز فارين بعلمهم من الفتن، حتى لقد رأينا أبا

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٣٣.
(٢) الطبري ج ٧ ص ١٥.

حنيفة[1] شيخ فقهاء العراق يفرّ ناجياً بنفسه إلى مكة مجاوراً بيت الله واستمر بها إلى أن سقط حكم الأمويين واستقر الأمر للعباسيين فعاد إلى الكـوفة مستقره ومقامه.

ومن العوامل المساعدة على رقيّ الحياة الفكرية في المدينة، أنها كانت في عهد الفتوح مورداً للأسرى، وكثير من هؤلاء الأسرى من الفرس أو الروم، وكانوا من الطبقة العالية في قومهم. وكانوا متعلمين على النمط الذي ساد في قومهم فأقام منهم في المدينة كثيرون وكانوا موالي لكبار الصحابة وأسلموا على أيديهم، فصبغوا الحياة الإسلامية بعقليتهم، وكانوا قد ألفوا في قومهم علماً منظماً وكتباً مدونة فأخذوا يتبعون هذا في تعاليم الإسلام. ومن هؤلاء نافع مولى ابن عمر، وسليمان بن يسار مولى السيدة ميمونة زوج النبي ﷺ . وأبو الزناد عبدالله بن ذكوان الملقب فقيه المدينة. قال الذهبي: وكان صاحب كتابة وحساب، وفد على هشام بن عبد الملك بحساب ديوان المدينة[2].

ومن العوامل المساعدة على غزارة العلم وحفظه في المدينة، أن كثيراً من الصحابة والتابعين اعتزلوا الفتن والحروب التي حدثتْ في صـدر الإسلام والعصر الأموي، وابتعاد هؤلاء عن الفتن جعلهم يتفرغون لحفظ العلم ونقله وطال بهم الأجل حتى تمكنوا من نقل التراث إلى غيرهم، أو تمكن كثير من التابعين أن يلتقي بالصحابة، وتمكن تابعو التابعين أن يلتقوا بالتابعين[3].

وهذا فضل من الله تعالى ليتحقق وعده بحفظ الدين والتشريع كما تكفل بحفظ القرآن. ومن هؤلاء الصحابة (الذين اعتزلوا الفتن وطال بهم العمر، حتى فترة طويلة من العصر الأموي) سعد بن أبي وقاص، وعبدالله ابن عمر، وكان علي بن أبي طالب يغبطهما على ما فعلا. قال الذهبي، في ترجمة

---

(١) النعمان بن ثابت.. ولد سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٥٠ هـ. ويعد من التابعين، وعاش في العصر الأموي حوالي خمسين عاماً.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي، الطبعة الرابعة رقم ١٢١.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣١٨.

سعد بن أبي وقاص: «اعتزل الفتنة ولم يقاتل مع علي ومعاوية ثم كان عليّ يغبطه على ذلك، وروي عن علي أنه قال: لله منزلٌ نزله سعد، وابن عمر، لئن كان ذنباً إنه لصغير ولئن كان حسناً إنه لعظيم[1]».

وامتد العمر ببعض الصحابة بعد ابن عمر، فتوفي جابر بن عبدالله بالمدينة سنة ٧٨ هـ وتوفي سهل بن سعد الساعدي سنة ٩١ هـ.

وامتد عصر التابعين في المدينة إلى العصر العباسي...

ولهذه العوامل وغيرها، كانت المدينة أغزر علماً وأبعد شهرة، تخرج منها أكثر علماء هذا العصر في التفسير والحديث والفقه والسيرة... وقصدها طلبة العلم من أقاصي البلدان لتلقي العلم من علمائها.

والأدلة على كثرة العلماء في المدينة، وغزارة العلم فيها، كثيرة: منها: أن عمر ابن عبد العزيز لما أراد أن يفقه الناس في أمور دينهم لم يجد إلا المدينة يرجع إلى علمائها ليجد منهم المرشدين والمفقهين. فأمر بتفريق علماء المدينة في الأمصار ليعلموا الناس ويرشدوهم.

ومنها أن عمر بن عبد العزيز عندما أراد أن يحفظ السنة، أمر أن تُدوَّن السنة المشهورة بالمدينة فكتب إلى أبي بكر بن حزم والي المدينة أن يدون ذلك. وقال له: «انظر ما كان من حديث رسول الله أو سنة أو نحوها فاكتبه لي، فإني خفتُ دُروسَ العلم وذهاب العلماء[2]».

وكانت قوافل العلماء تترى على مدى العصر الأموي، حتى كثروا في عهد الإمام مالك فأخذ ينتقي مَنْ يروق له أن يأخذ منه، وروي عنه أنه قال: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركتُ سبعين ممن يقول: قال فلان: قال رسول الله، عند هذه الأساطين، وأشار إلى مسجد

---

(١) تذكرة الحفاظ الذهبي، الطبعة الأولى رقم ٩، وقد عاش سعد بن أبي وقاص حتى سنة ٥٦ هـ. وعاش عبدالله بن عمر حتى سنة ٧٤ هـ.

(٢) مالك: حياته وعصره ـ محمد أبو زهرة ١٣٦.

الرسول فما أخذتُ عنهم وإن أحدهم لو أوتمن على بيت مال لكان به أميناً إلا أنهم لم يكونوا من أهل الشأن».

ومن الأدلة على رقي الحياة العلمية في المدينة المنورة، أن الإمام مالك يعتبر عمل أهل المدينة مصدراً فقهياً يعتمد عليه في فتاويه، ولذلك نجده يذكر بعد الأخبار والأحاديث، «الأمر المجتمع عليه عندنا» ويريد بهذه العبارة إجماع أهل المدينة على عمل معين. ومعنى هذا أنه يعتبر إجماع أهل المدينة لا اجتماع علمائها فقط، وكأن المدينة على مستوى عالٍ من العلم. وحجة الإمام مالك في هذا: أن القرآن المشتمل على الشرائع وفقه الإسلام نزل في المدينة وأهلها، هم أول من وُجّه إليهم التكليف، وأول من خوطبوا بالأمر والنهي، وأقاموا عمود الدين، ثم قام فيهم من بعد النبي، أتبعُ الناس لرسول الله وهو أبو بكر، ثم جاء عمر، ثم عثمان، فنفذوا سنة رسول الله بعد تحريها والبحث عنها، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل ويتبعون تلك السنن، فالمدينة لهذا قد ورثت علم السنة وفقه الإسلام في عهد تابعي التابعين، وهو العهد الذي رآها فيه مالك وهو العصر الأموي وبداية العصر العباسي[1].

ويرى أنه إذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم يجز لأحد خلافه للوراثة التي آلت إليهم، ولا يجوز لأحد انتحالها لبلده ولا ادعاؤها له، فالمدينة خاصة بهذه الوراثة[2].

وكان الإمام مالك يقدم في بعض الأحيان عمل أهل المدينة على خبر الآحاد، لأن ـ الرأي المشهور المعمول به في المدينة هو سنة مأثورة مشهورة، والسنة المشهورة مقدمة على أخبار الآحاد.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ترجمة مالك).
عبد الحليم الجندي: الإمام مالك ص ٢١٨.

(٢) انظر «عمل أهل المدينة بين مصطلحات مالك وآراء الأصوليّين» للدكتور أحمد محمد نور سيف.

وليس الإمام مالك هو المبتدع لهذا، فشيخه ربيعة الرأي كان يرى؛ هذا الرأي ويقول: «ألفٌ عن ألف خير من واحد عن واحد». وقال الإمام مالك: رأيت محمد بـن أبي بكر بن حزم، وكان قاضياً، وكان أخوه عبدالله كثير الحديث، رجل صدق، فسمعت عبدالله إذا قضى محمد بالقضية قد جاء فيها الحديث مخالفاً للقضاء، يعاتبه، ويقول له: ألم يأت في هذا حديث كذا، فيقول: بلى، فيقول له: فما بالك لا تقضي به، فيقول: فأين الناس عنه؟ يعنى ما أجمع الصلحاءُ بالمدينة على العمل به أقوى[1].

وكان الإمام مالك يريد من أهل الأمصار الأخرى أن يكونوا تبعاً لأهل المدينة في التطبيق العملي لأمور الشرع. ولذلك نجد الإمام مالك يكتب إلى الليث بن سعد، فقيه أهل مصر في زمانه، يعاتبه في مخالفته لما عليه أهل المدينة، وأنقل هنا رسالة الإمام مالك لما فيها من الفائدة في هذا الميدان[2].

«من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد. . سلام عليكم، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية وعافانا وإياكم من كل مكروه. . . واعلم رحمـك الله بلغني أنك تُفتي الناسَ بأشياء مختلفة، مخالفة لما عليه الناسُ عندنا وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك، واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخافَ على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه. فإن الله تعالى يقول: ﴿والسابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار[3]﴾ وقال تعالى: ﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القولَ فيتّبعون أحسنه[4]﴾ فإنما الناس تبع لأهـل

---

(١) مالك / ٣٠٤ للشيخ محمد أبي زهرة.

(٢) عن كتاب «مالك» للشيخ أبي زهرة. نقلاً عن كتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك» تأليف القاضي عياض سنة ٥٤٤ هـ». والليث بن سعد، كان معاصراً للإمام مالك وتوفي في مصر سنة ١٧٥ هـ.

(٣) سورة التوبة آية ١٠٠.

(٤) سورة الزمر ١٨.

المدينة إليها كانت الهجرة، وبها تنزّل القرآن، وأُحل الحلال وحُرّم الحرامُ، إذْ رسول الله بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل، فيأمرهم فيطيعونه، ويسنُّ لهم فيتبعونه حتى توفاه الله، واختار له ما عنده صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته.

ثم قام من بعده أتبعُ الناس له من أمته، وممن ولي الأمر من بعده، بما نزل بهم، فما علموا أنفذوه وما لم يكن عندهم فيه علمٌ سألوا عنه ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك، في اجتهادهم، وحداثة عهدهم وإن خالفهم مخالف أو قال أمرؤ: غيره أقوى منه وأولى، ترك قوله وعمل بغيره. ثم كان الناس التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أر لأحد خلافه، للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها. ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا، لم يكونوا فيه من ذاك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك جازٍ لهم.

فانظر رحمك الله فيما كتبتُ إليك لنفسك، واعلم أني أرجو ألا يكون قد دعاني إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده، والنظر لك والضن بك، فأنزل كتابي منزلته، فإنك إن تعلمت تعلم أني لم آلك نصحاً، وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر، وعلى كل حال، والسلام عليكم ورحمة الله».

ولم تكن وراثة أهل المدينة العلم المنقول فقط، ولكنهم ورثوا روح الإسلام أيضاً، فكانت الفتوى عندهم تعتمد على النقل، وعلى الاستفتاء القلبي عملاً بالقول المأثور «استفت قلبك وإن أفتوك». ولذلك نجدهم يبيحون ما كان يكرهه أهل الأمصار الأخرى في زمنهم.

ومن ذلك، إقبال عامة الناس على سماع الأصوات الحسنة ذات المعاني

الجليلة، ولم ير كبار الفقهاء بأساً في سماع الغناء، في الوقت الذي كان ينكره فقهاء العراق[1].

ولهذا لم تكن المدينة مركزاً للعلوم الشرعية فقط، وإنما كانت مركزاً لفن جديد قديم، وهو الغناء. والغناء فن جديد في طرق أدائه وأصحاب الأداء فيه، حيث كان عامتهم من الجواري والموالي، ولكن الغناء فن قديم، لأنه يعتمد على الشعر العربي المبنى على الأوزان والقوافي، ويستطيع كلٌّ حافظ له أن ينشده ملحناً، ولهذا فقد وضع النقاد، الشعر العربي، ضمن الشعر الغنائي، لأنه لوحظ فيه الغناء عند قوله.

ولم يكن إقبال الناس على الغناء في المدينة، لانتشار المجون، أو لانصراف الناس عن معالم الدين، أو لكثرة الترف، ولكنهم رأوا فيه متعة من المتع التي أباحها الله. وقد افترق الفقهاء في الغناء إلى مذاهب وآراء فكان مذهب أهل المدينة إباحة السماع، ونُقلت الإباحة عن بعض الصحابة، وبعض التابعين من أهل المدينة[2].

وقد أثَّر هذا في الحياة الفكرية، فجعلها نديةً بعيدة عن التعقيد وطبع الناس بالرقة وصرفهم عن حياة العنف التي كانت توجد في بعض الأمصار الأخرى.

ب ـ الخصائص العامة للحياة الفكرية في المدينة المنورة:

١ ـ كانت الحياة الفكرية في المدينة المنورة ـ في العصر الأموي ـ بعيدةً عن الأفكار العقلية التي تأثرت بها الدراسات في الأمصار الأخرى، وخاصة العراق، فقد كانت المدينة نائيةً بالجزيرة العربية عن الفلسفات والعقائد التي دخلت إلى الإسلام عن طريق الفرس والروم. وكان العلم الرائج في المدينة

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٢١.

(٢) نيل الأوطار ج ٧ / ٢٦٤. للإمام الشوكاني.

هـو علم الكتاب والسنة والاستنباط الفقهي تحت ظلهما.

أما علم الملل والنحل[1] الجديدة فكان قليلاً، لم يتأثر به الدارسون تأثر العراقيين به ولذلك اتسمت الحياة الفكرية بالبساطة والوضوح والتسليم للنصوص الشرعية وقلَّ الجدل، إلا ما يكون في موسم الحج عندما يلتقي العلماء من جميع الأمصار الإسلامية.

وكان علماء المدينة ينكرون القول في الشرع بالرأي. وعندما ظهر بعض العلماء الذين يميلون إلى معرفة العلل والغايات التي من أجلها شرعت الأحكام، بدأ النزاع بين أهل الحديث وأهل الرأي. فقد كان أهل الحجاز عامة يعتمدون في فتواهم على النص الشرعي: الكتاب والسنة. أما أهل الرأي، فيرون أن الشريعة معقولة المعنى، وكان مذهب الرأي ينتشر في العراق وعند قلة من أهل المدينة أمثال: ربيعة بن فروخ المسمى ربيعة الرأي[2].

روي أن ربيعة الرأي سأل سعيد بن المسيب عن عقل ـ الدية ـ أصابع المرأة: ما عقل الأصبع الواحدة؟ فقال: عشرة من الإبل فقال: فأصبعان؟ قال عشرون. قال: فثلاث؟ قال: ثلاثون قال: فأربع؟ قال: عشرون. قال: ربيعة: فعندما عظم جرحها نقص عقلها، فقال سعيد: أعراقي أنت؟ هي السنة.

وكان الإمام مالك ينفر من الجدل العلمي الذي يكون الغرض منه السبق والفوز على غرار ما كان موجوداً في العراق بين أصحاب الفرق

(١) من أقدم المسائل التي خاض فيها الناس: الكلام في مسألة القدر، وحرية الإرادة الإنسانية وبدأ قليلاً في عصر الخلفاء الراشدين. يروى أن عمر بن الخطاب أتي بسارق فقال له: لم سرقت فقال: قضاء الله. فأمر به فقطعت يده وضربه أسواطاً فقيل له في ذلك فقال القطع للسرقة، والجلد لما كذب على الله، ثم كثر الكلام في هذه المسائل في العصر الأموي وخاصة في العراق، ولذلك كان فقهاء العراق يتسلحون بالثقافات العقلية، ليمكنهم الرد على أصحاب الأهواء الذين كانوا يفتعلون الجدل مع المسلمين لإحراجهم وإضعاف العقيدة في نفوسهم.

(٢) من أهل المدينة، وتوفي بالعراق سنة ١٣٦ هـ.

والمذاهب. وعندما طلب الرشيد من الإمام مالك أن يناظر أبا يوسف، جبه الرشيد بقوله: ليس العلم كالتحريش بين البهائم والديكة[1].

ومن العوامل التي ساعدت على صفاء الفكر المدني، وبعده عن الجدل العقلي أن المدينة المنورة كان يسود فيها مذهب أهل السنة والجماعة، ولم تكن ميداناً للمذاهب الإسلامية السياسية الباقية: الشيعة والخوارج.

أما الشيعة: فلم يكن لهم بالمدينة أتباع في العصر الأموي، رغم أن المدينة كانت مركز بني هاشم وآل علي.

لأن آل علي أنفسهم لم يكونوا يرون من الآراء ما تراه الشيعة. فكان محمد بن علي بن الحسين، أبو جعفر الباقر، أحد من تدّعي فيه الشيعة أنه أحد الأئمة الإثني عشر، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر وقال: ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما[2]، وكان ابنه جعفر الصادق على مذهبه[3].

وكل الدلائل تشير إلى أن نشأة الحزب الشيعي لم تكن بالمدينة، وإنما كان بالكوفة، وبقيت الكوفة على مر العصور مركزاً للشيعة، حيث أصبحت الكوفة بعد انتصار معاوية ولاية تابعة للشام، بعد أن كانت عاصمة الدولة الإسلامية في خلافة علي، فكان أهلها يحاولون استرداد المجد لها، فنشأ التشيع بينهم[4].

وهذا ملاحظ في حركات الشيعة في العصر الأموي، فالذين كتبوا إلى الحسين يستقدمونه سنة ٦٠ هـ إلى الكوفة، كلهم من زعماء القبائل العربية

---

(١) مالك: حياته وعصره ـ للشيخ محمد أبي زهرة ٣٣، وانظر تذكرة الحفاظ الذهبي رقم ١٩٩.

(٢) البداية والنهاية ج ٩ / ٣٠٩.

(٣) أبو جعفر الباقر خامس الأئمة عند الشيعة توفي سنة ١١٤ هـ. وابنه: جعفر بن محمد الإمام السادس وتوفي سنة ١٤٨ هـ.

(٤) تاريخ الإمامية، للدكتور عبدالله فياض ص ١٩٤.

الساكنة في الكوفة وسوادها.

وكانت حركة (التوابين[1]) من الشيعة الكوفيين. وأكثر الذين قتلوا في معركة (عين الوردة[2]) من شيعة الكوفة.

وعندما خرج زيد بن علي[3] أيام هشام بن عبد الملك، كان مركزه الكوفة.

أما الخوارج: فليس لهم في المدينة أتباع، لأن آراء الخوارج المتطرفة في الفقه والسياسة، لا تناسب آراء أهل المدينة التي تعتمد على السنة، وتلتزم رأي الجماعة في السياسة.

يروي المؤرخون أن أبا حمزة الخارجي عندما دخل المدينة أحسن السيرة في أهل المدينة، ومالوا إليه حتى سمعوه يقول: برح الخفاء، أين عن بابك نذهب؟ ثم قال: من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، فعند ذلك أبغضوه ورجعوا عن محبته[4].

ولم يرو المؤرخون أن أهل المدينة قد اتبعوا مذهب الخوارج، سواء قبل أبي حمزة أم بعده. وهناك روايات عن أفراد قلائل لا يمثلون إلا أنفسهم ومن ذلك ما رواه ابن الأثير في الكامل، قال: وممن قتل مع أبي حمزة، عبد العزيز القارىء المدني، وكان من أهل المدينة يكتم مذهب الخوارج، فلما دخل أبو

---

(١) رأت الشيعة في الكوفة، بعد أن تخلوا عن نصرة الحسين «أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه» وصاحوا عند قبر الحسين طالبين التوبة وسموا أنفسهم «التوابين» وتزعم حركتهم خمسة منهم: سليمان بن صرد الخزاعي، وهو صحابي. وكانت هذه الحركة أثناء سيطرة ابن الزبير على العراق.

(٢) عين الوردة: المكان الذي التقى فيه عبيدالله بن زياد، مع جيش التوابين.

(٣) زيد بن علي بن الحسين بن علي. إمام الفرقة الزيدية، حرضه أهل الكوفة على قتال الأمويين، واستشهد سنة ١٢٢ هـ. بالكوفة. وأرسل رأسه إلى المدينة فنصب عند قبر النبي يوماً وليلة. ثم حُمل إلى مصر فنصب بالجامع، فسرقه أهل مصر ودفنوه.

(٤) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٣. والطبري ج ٧ / ٣٩٧.

حمزة المدينة انضم إليه فلما قتل الخوارج قتل معهم[1].

ويُروى أن عثمان بن حيان المري، وإلى المدينة أيام الوليد الأموي، قد ظفر بأبي بيهس، هيصم بن جابر[2]، وقطع يديه ورجليه، وكان هذا رأس الفرقة البيهسية من الخوارج. ولكن المذكور كان من أهل العراق فطلبه الحجاج فهرب إلى المدينة المنورة[3]. .

وهكذا نعرف أن من خصائص الحياة الفكرية، أنها تنتمي إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وتأخذ في مجمل آرائها بالحديث وعمل أهل المدينة، ولا تعمل العقل في تفسير الأحكام، إلا عند قلة من أهل المدينة.

٢ ـ في عصر التابعين وتابعي التابعين، بدأ ظهور عدد كبير من الموالي في مجال العلم، أو ممن كانوا من أبناء الجواري، وآباؤهم من العرب. فقد كان أكثر حملة العلم في عصر الصحابة من العرب، حتى إذا جاء عصر التابعين وتابعيهم، كان بعض حملة العلم من العرب. وأكثرهم من الموالي، أو أبناء الموالي، أو من كانت أمهاتهم من الإماء. وقد انتبه إلى هذه الظاهرة ابن خلدون، فعقد لها فصلاً تحت عنوان: «فصل في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم». يقول فيه: الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم. . مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه، والقوم يومئذ عربٌ لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة وجرى الأمر على ذلك

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل ـ ج ٥ / ٣٩١.

(٢) هيصم ـ بالصاد المهملة ـ وفي المعارف لابن قتيبة: هيضم بالضاد المعجمة. محمد بن سعد بن ضبيعة رأس الفرقة البيهسية من الخوارج، وكان فقيهاً متكلماً قتل سنة ٩٤ هـ .

(٣) المعارف لابن قتيبة / ٦٢٢.

زمن الصحابة والتابعين، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله «القراء» أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين، لأن الأمية يومئذٍ صفة عامة في الصحابة، بما كانوا عرباً، فقيل لحملة القرآن يومئذٍ: قراء إشارة إلى هذا، فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة.. وقد كنا قدمنا أن الصنائع منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها، فصارت العلوم لذلك حضريةً وبعُدَ عنها العرب وعن سوقها، والحضر لذلك العهد هم العجم أو مَنْ في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذٍ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس.. وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة، فشغلتهم الرياسة وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم[1]».

وهناك سبب آخر لكثرة حملة العلم من العجم، وهو أن الصحابة استكثروا من الموالي يستخدمونهم في بيوتهم وفي أعمالهم، فإذا كان الصحابي تاجراً فمواليه أعوانه في التجارة، وإذا كان عالماً كانت مواليه تلاميذه في العلم. ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم في السر والعلن[2].

والدليل على ذلك: نافع مولى ابن عمر فقد أخذ عنه أكثر علمه، وعكرمة مولى ابن عباس، فقد مات عبدالله بن عباس وعكرمة في الرق، فباعه ولده علي بن عبدالله من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار، فأتى عكرمة مولاه علياً فقال له: ما خير لك، بعت علم أبيك بأربعة آلاف، فاستقاله، فأقاله، فأعتقه، وقد وجد العلماء الموالي في طبقة كبار التابعين، ثم كثروا في الطبقة التالية من صغار التابعين، وكانوا أكثر في تابعي التابعين.

ومن كبار التابعين: الفقهاء السبعة في المدينة المنورة، وكان منهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٩.

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٩٤.

سليمان بن يسار مولى أم المؤمنين ميمونة. والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله أمهما من بنات يزد جرد كسرى ملك الفرس، وكذلك كانت أم علي بن الحسين زين العابدين، وهو من فقهاء المدينة.

ومن علماء المدينة، الموالي، وكانوا من التابعين، عطاء بن يسار، وربيعة ابن فروخ الملقب ربيعة الرأي، وأبو الزناد عبدالله بن ذكوان، وصالح بن كيسان ومحمد بن المنكدر، وغيرهم كثير.

وكما كانت هذه الظاهرة في المدينة، كانت أيضاً في الأقاليم الأخرى، مما أثار انتباه الناس في تلك الأيام.

جاء في العقد الفريد: قال ابن أبي ليلى(١): قال لي عيسى بن موسى(٢) وكان شديد العصبية للعرب: من كان فقيه البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن(٣) قال: ثم مَنْ؟ قلت: محمد بن سيربن (٣ - ١١٠ هـ) قال: فما هما؟ قلت: موليان. قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح (٢٧ - ١١٥ هـ). ومجاهد بن جبير (٢١ - ١٠٤ هـ). وسعيد بن جبير(٤) قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالٍ. قال فما فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم (متوفى سنة ١٣٦ هـ). ومحمد بن المنكدر(٥) ونافع بن أبي نجيح(٦) قال فما هؤلاء، قلت: موالٍ. فتغير لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت:

---

(١) محمد بن عبد الرحمن، ولي القضاء بالكوفة لبني أمية ثم لبني العباس مدة ثلاث وثلاثين سنة متوفى سنة ١٤٨ هـ.

(٢) متوفى سنة ١٦٧ هـ وهو ابن أخي السفاح العباسي.

(٣) الحسن بن يسار البصري، ولد بالمدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب وسكن البصرة متوفى سنة ١١٠ هـ.

(٤) خرج على الحجاج مع ابن الأشعث في العراق، فلما هزم أصحاب ابن الأشعث هرب سعيد إلى مكة، فأمسك به والي مكة وأرسله إلى الحجاج؛ فقتله الحجاج سنة ٩٤ هـ وعمره تسع وأربعون سنة.

(٥) محمد بن المنكدر، القرشي التيمي رهط أبي بكر الصديق هكذا ورد نسبه في المعارف لابن قتيبة. وفي تذكرة الحفاظ للذهبي ١١٤. وهذا يعني أنه عربي قرشي متوفى سنة ١٣٠ هـ.

(٦) لعلّه أراد نافع بن أبي نعيم القارىء المدني، ولم أجد نافع بن أبي نجيح، ويوجد عبدالله.

ربيعة الرأي وابن أبي الزناد عبد الرحمن (ـ ١٧٤ هـ). قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي، فأربدَّ وجهه ثم قال: فمن فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه[١] ووهب بن منبه (متوفى سنة ١١٤ هـ). قال فمن هؤلاء؟ قلت: من الموالي فانتفخت أوداجُه وانتصب قاعداً. قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبدالله الخراساني قال: فما كان عطاء هذا قلت: من الموالي، فازداد وجهه تربداً واسودّ اسوداداً حتى خفتُه ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول الشامي (ـ ١١٢ هـ). قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى. قال: فتنفس الصعداء ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فوالله لولا خوفه لقلت: الحكم بن عتبة[٢]، وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر فقلت: إبراهيم النخعي[٣] والشعبي[٤] قال: فما كانا، قلت عربيان. قال: الله أكبر، وسكن جأشه»...

وكما نبغ في المدينة الفقهاء الموالي، كذلك نبغ الشعراء الموالي في العصر الأموي ومن هؤلاء: موسى بن يسار المعروف بموسى شهوات. وإسماعيل بن يسار النسائي. ناهيك من فنّ الغناء الذي كان جل أهله من الموالي.

٣ ـ بدأت بوادر تدوين العلوم في أواخر العصر الأموي: وكان العلم في صدر الإسلام يتجه إلى التلقي بالسماع ولم يدون في الكتب، فلما اتجهت طوائف من الناس للعكوف على العلوم المختلفة يدرسونها، اتجه العلماء في آخر العصر الأموي إلى التدوين، وأخذت العلوم تتميز وصار لكل علم علماء قد اختصوا به يتعمقون فيه ويضبطون قواعده لذلك أخذ الفقهاء والمحدّثون

---

(١) طاووس بن كيسان توفي سنة ١٠٦ هـ. وابنه عبدالله مات في خلافة أبي العباس.

(٢) مولى لكنده ـ توفي بالكوفة سنة ١١٥ هـ.

(٣) ابراهيم ين يزيد، النخعي، من مذحج باليمن، وكان من نزلاء الكوفة، مات متخفياً من الحجاج سنة ٩٦ هـ.

(٤) عامر بن شراحيل بن عبد الشعبي وهو من حمير، منسوب إلى جبل باليمن توفي سنة ١٠٥ هـ.

في تدوين الحديث والفقه منذ العصر الأموي وكان فقهاء الحجاز يجمعون فتاوى عبدالله بن عمر وعائشة وابن عباس ومن جاء بعدهم من كبار التابعين بالمدينة وينظرون فيها ويستنبطون منها ويفرّعون عليها.

وروى هشام بن عروة قال: أحرق أبي يوم الحَرة كتب فقه كانت له. فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي[1]. وروي أن أبان بن عثمان كتب صحفاً فيها سيره، وقدمها إلى سليمان بن عبد الملك. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى والي المدينة أبي بكر بن حزم، أن يكتب له الأحاديث فإنه يخشى دروسها. وأملى الإمام مالك الموطأ وهو في المدينة.

٤ ـ كان العلم في هذه الفترة يُدرس في المساجد، يجلس العلماء في المسجد وحولهم الآخذون عنهم على شكل حلقات. وتكبر الحلقة وتصغر تبعاً لقدر الأستاذ.

ونقرأ في تراجم علماء المدينة، أن كثيراً منهم كان له حلقة في المسجد النبوي، من هؤلاء: ربيعة الرأي، الذي قالوا في ترجمته: كان يجلس في مسجد رسول الله في المدينة ويأتيه مالك وأشراف المدينة ويحدق به الناس وكانت حلقته وافرة.

كذلك كان يفعل جعفر الصادق (١٤٨ هـ) في المدينة وقد أخذ عنه مالك وأبو حنيفة وكانت له حلقة في المسجد النبوي. وكان للإمام مالك حلقة يقصده طلبة العلم فيها.

وكان مع المسجد بعض المكاتب التي تعلم مبادىء القراءة والكتابة، ومبادىء اللغة العربية.

ذكر ابن قتيبة في المعارف من المعلمين: علقمة بن أبي علقمة: مولى

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٣١٦.

عائشة وكان يروي عنه مالك بن أنس، وكان له مكتب يعلم فيه العربية والنحو والعروض ومات في خلافة المنصور[1].

وكانت العلوم الشرعية تنشط وحدها دون رعاية الولاة أو الخلفاء، فقد أقبل الناس على نقل العلوم الشرعية حرصاً على حفظها من الضياع، ولحاجة الناس إليها، وكان ذلك بدافع ديني محض، ورغبة شخصية لا يرجون من ورائه عرض الحياة الدنيا، ولذلك نجد في تراجم كثير من علماء المدينة أنهم كانوا يعملون ليكسبوا قوتهم، وكانت تضيق بهم الحال أحياناً فلا يجدون ما يطعمون به عيالهم. وقد رأينا الزهري يهاجر إلى دمشق للبحث عن رزق عياله. وكان الإمام مالك في أول أمره في عسرة شديدة حتى كانت تبكي ابنته من الجوع أحياناً، فيأمر بحجر الرحى فيحرك لئلا يسمع الجيران. وروي أنه عندما كان في مرحلة طلب العلم نقض سقف بيته فباع خشبه[2].

ولم يكن إغفال الخلفاء النظر في حال العلماء، مقصوداً لذاته، ولم يكن ذلك تقصيراً من الخلفاء تجاه العلماء، وإنما كان العلماء غالباً يتعففون عن مد أيديهم إلى أموال الخلفاء، ويحجمون عن طرق باب السلطان حتى لا يكون أخذ المال منهم مدعاة إلى موافقتهم على بعض المخالفات الشرعية.

يضاف إلى هذا أن الاهتمام بالعلم والعلماء لم يكن قد ظهر في العصر الأموي وإنما ظهر ذلك في العصر العباسي، لا لأن العباسيين أكثر اهتماماً بالعلم، ولكن طبيعة التطور هي التي فرضت ذلك.

وعندما نجد الشعراء في العصر الأموي أحسن حالاً من العلماء، لا لأن ـ الأمويين اهتموا بهم وسألوا عن حالهم، ولكن الشعراء هم الذين كانوا يطرقون أبواب الخلفاء ويطلبون حاجتهم بقصائد المدح، وكانت الحال

(١) المعارف ٥٤٩.
(٢) مالك: حياته وعصره ص ٤٦.

السياسية تدعو إلى تشجيع الشعراء الذين يؤيدون حق الأمويين في الخلافة، للرد على شعراء الأحزاب السياسية المناوئة.

ثم كانت الطبيعة العربية البدوية هي الغالبة ولم يتّجر الناس في قضايا العلم، فكان الذوق العام يميل إلى سماع الشعر ويستحسن أبياته السائرة[1].

* * * *
* * *
*

---

(١) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي ٢١٦.
أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٣١١.

٢ ـ العلوم الدينية وأبرز علماء المدينة

تميزت كل مدينة من المدن المشهورة بالعالم، بناحية من نواحي الفكر. فالبصرة كانت تتميز في علومها الدينية بالمسائل التي تتصل بالعقيدة، فنشأت فيها الفرق المختلفة التي تتكلم في فلسفة العقائد، وكان بها علماء في الوعظ والقصص مثل الحسن البصري، وكان بها فقه قليل والكوفة كان بها الفقه العراقي الذي يقوم على آثار عبدالله بن مسعود وآراء إبراهيم النخعي، وكان بها فقه القياس والاستحسان.

أما الشام، فكان بها الفقه الذي يقوم على تعرف آثار الصحابة والتابعين وقليل من الآراء. ويمثل هذا الفقه، عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ومدرسته[1].

أما المدينة المنورة: فقد كان بها الحديث، وكانت بها آثار السلف الصالح وكانت بها آراء الصحابة الذين امتازوا بالرأي كعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت ومن تلقى عليهم من بعدهم. فكان فيها الحديث والسنة والرأي. وكانت الحركة الدينية في المدينة أكثر الحركات انتشاراً وأوسعها ميداناً وكان اشتغال الناس بالعلوم الشرعية أكثر من اشتغالهم بأي نوع من أنواع المعارف. وقد شهرت المدينة في هذا العصر بعلمائها في الشرع ولم تشهر

---

(١) عبد الرحمن بن عمرو، من (الأوزاع) بطن من همدان، وكان يسكن بيروت ومات بها سنة ١٥٧ هـ.

بالشعر والأدب. ولو أحصينا تراجم المشهورين من رجالات المدينة في هذا العصر لوجدنا أكثرهم ممن له اشتغال بعلوم الشرع.

وليس غريباً أن تشتغل المدينة بعلوم الشرع، وأن تختص به دون غيرها من البلدان وأن تبز هذه العلوم غيرها من أنواع المعارف، فليس للمدينة خيار في ذلك، فقد فرضه التاريخ الذي مر بهذه المدينة، فهي مهاجر النبي ومكان نزول آيات التشريع من القرآن وفيها اجتمع أصحاب الرسول وبقيت مقر الخلفاء ومعهم كبار الصحابة لا يغادرون المدينة المنورة. وكان لا بد لهذا الدين من حملة ونقلة حتى ينتقل إلى أجيال أخرى، ولا بد لهذا الدين من علماء ومفسرين ومفتين، لاستخراج الفتاوى المناسبة لما جَدّ من أعمال العصر.

وهكذا نشط أهل المدينة في حمل هذه الأمانة وحفظها من الضياع، لنقلها إلى أرجاء العالم الإسلامي. فأقبلوا على القرآن يتفهمونه ويحفظونه ويروون ما أثر من التفسير.

وأقبلوا على الحديث النبوي يجمعونه ويشرحونه، وأخذوا يستنبطون من القرآن والسنة الأحكام التي يحتاجها الناس فيما يعرض لهم من الأمور الجديدة.

واهتموا بعلوم أخرى لها علاقة وثيقة بالقرآن والحديث: ومنها علوم الشعر واللغة، وكانوا يهتمون بها في سبيل تذليل معرفتهم للقرآن والسنة.

واهتموا بالتاريخ، لأنه تاريخ العقيدة الإسلامية، وفيه الكثير من المغازي الشرعية.

وأكثر ما تميزت به المدينة من العلوم الشرعية: الحديث، والفقه: أما التفسير فكانت مدرسته في مكة حيث آثار عبدالله بن عباس ومروياته.

وهناك «القصص» ولكنه كان قليلاً، وكانت بدايته عن طريق بعض من

أسلم من أهل الكتاب، أو ممن له اطلاع على قصص أهل الكتاب. ويروى أن أول من قصَّ في مسجد رسول الله تميم الداري[1]، وكان نصرانياً، وأسلم سنة تسع، وهو من أهل اليمن، ويروى أنه استأذن عمر بن الخطاب أن يقص في المسجد فمنعه[2] وقيل: سمح له في أواخر خلافته، ثم أذن له عثمان أن يذكّر الناس ويقص عليهم مرتين في الأسبوع ولم يكن هذا العمل مستحسناً عند الصحابة والعلماء، لأن القاص يروي الصحيح والسقيم من الأخبار، هدفه الترغيب والترهيب والوعظ، وقد فرّق الليث بن سعد بين نوعين من القصص: قصص العامة، وقصص الخاصة، فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع إليه الناس يعظهم ويذكرهم، وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه، وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية وولَّى رجلاً على القصص، فإذا سلَّم من صلاة الصبح، جلس وذكر الله وحمده وصلى على النبي ودعا للخليفة وأهل ولايته ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة[3]، ويبدو أنه أصبح فيما بعد ـ في عصر بني أمية ـ وظيفة يؤجر فاعلها، ولذلك نجد من يسمى «قاص الجماعة»، «وقاص أهل المدينة» وروى ابن شبة في تاريخ المدينة أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً وهو أمير على المدينة أن يقص على الناس وجعل له دينارين كل شهر، فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير كلَّ سنة[4] وروي أن مسلم بن جندب كان قاصاً لأهل المدينة[5] وفي تاريخ ابن شبة أن عمر بن الخطاب أمر عبيد بن عمير أن يذكّر الناس بعد الصبح وبعد العصر في مسجد رسول الله بالمدينة[6] وابن عمير مكي، وقال ابن حجر في «تهذيب التهذيب» قاص أهل مكة..

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» ٨٣٧.

(٢) انظر «تاريخ المدينة» لابن شبة ج ١/٩.

(٣) خطط المقريزي.

(٤) تاريخ المدينة لابن شبة ج ١ / ١٥.

(٥) «تهذيب التهذيب» ج ١٠/١٢٤. تابعي توفي ١٠٦ هـ وكان معلم عمر بن عبد العزيز. قال: وكان يقضي بغير رزق... ولعله كان يقصّ ـ بالصاد المهملة، لأنه لم يذكر في قضاة المدينة.

(٦) تاريخ المدينة ج ١ / ١٣.

وهناك فنٌّ آخر، ولكنه كان في بدايته ولم يصل إلى مرحلة النضج في العصر الأموي وهو جمع المغازي وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وروي أن عروة بن الزبير (٢٣ ـ ٩٤ هـ) كان أقدم من ألف في سيرة رسول الله، ولكنها حرقت أيام الفتنة وكذلك فعل معاصره أبان بن عثمان (٢٢ ـ ١٠٥ هـ). ولكن هذا الموضوع لم يكن من موضوعات البحث المستقل لأنه كان غالباً يختص بسيرة الرسول، ولا سيما غزواته، وغزوات الرسول اهتم بها أهل الحديث، كما اهتموا بغيرها من السنن، لأنها من مصادر الاستنباط الفقهي.

وإذا قلنا: إن أكثر ما تميزت به المدينة: الحديث والفقه، فليس معنى هذا وجود التخصص، كما حصل في العصر العباسي، بل إن كل عالم من علماء المدينة كان يجمع بين الحديث والفقه والتفسير والمغازي، ولكن عنايتهم بالحديث، لأن فيه قضاء رسول الله المستمد من القرآن والوحي، وفيه فتاوى الصحابة الذين شهدوا التنزيل وتتلمذوا على رسول الله ﷺ.

والاختصاص التام لم يظهر واضحاً إلا في العصر العباسي، عصر الاجتهاد، وظهور أئمة الفقه[1].

ومع ذلك نجد العلماء يميزون بين علماء هذا العصر حسب غلبة ما اشتغل به كل واحد. كما صنع الذهبي في تذكرة الحفاظ، حيث اهتم بالمكثرين من الحديث وأهمل فقهاء كباراً، لأنهم ليس لهم رواية كثيرة في الحديث. مثال ذلك: عندما ذكر اسم «خارجة بن زيد بن ثابت» أحد الفقهاء السبعة، قال: «من كبار العلماء إلا أنه قليل الحديث فلهذا لم أذكره في الحفاظ[2]».

---

(١) ترجم ابن قتيبة في المعارف: للتابعين، دون أن يميز بينهم، لأنه لم يكن في عصرهم اختصاص يميز بينهم. ثم ترجم لأصحاب الرأي والفقهاء، وظهر أكثرهم في عصر الاجتهاد. ثم خص أصحاب الحديث ممن تخصصوا به، وخص أصحاب القراءات بباب مستقل لأنهم شهروا بهذا الفن، وهكذا صنع مع أصحاب الفنون الأخرى.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ترجمة رقم ٨٢.

قوافل العلماء في المدينة

شهدت المدينة المنورة ـ في العهد الأموي ـ ازدحاماً بالعلماء، منذ بداية العصر حتى نهايته. مما جعل المدينة المنورة أرضاً خصبة ومنهلاً ثراً مستمراً طيلة أيام العصر الأموي، وحافظت المدينة على مركزها الأول في العلوم الشرعية، وعلى شهرتها كمصدر من مصادر العلم يقصده الطالبون.

وإذا كانت الأمصار الأخرى، قد شهرت بأشخاص معدودين في مجال العلم، فإن المدينة قد شهرت بكثرة العلماء الذين يعتبرون في منزلة عالية من منازل العلم، وإذا كانت الأمصار الأخرى قد أخذت فقهها عن صحابي، فإن المدينة المنورة شهدت في العصر الأموي عدداً كبيراً من الصحابة.

ولا أستطيع في هذه العجالة أن أعرّف بجميع العلماء المشهورين في المدينة في العصر الأموي، ولكنني سأختار نماذج ممن حفل بهم العصر الأموي من بدايته حتى نهايته لنعرف من خلال هذه التراجم أن المدينة المنورة بقيت مدرسة عامرة بالأساتذة والتلاميذ، طيلة العصر الأموي.

وسوف أبدأ أولاً، بعدد من الصحابة الذين امتد بهم العمر، وعاشوا في العصر الأموي وكان لهم أثر في تكوين مدرسة التابعين، ثم أثني بمدرسة التابعين ثم من تبعهم حتى نهاية العصر الأموي.

أ ـ مدرسة علماء الصحابة في العصر الأموي ـ من أهل المدينة المنورة ـ

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ـ سنة ٥٧ هـ[١].

عاشت في العصر الأموي سبع عشرة سنة. وكان فقهاء الصحابة يرجعون إليها وتفقه بها جماعة. وروى عنها جماعة من التابعين: منهم مسروق بن الأجدع (ـ ٦٣ هـ) وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير

---

(١) الإصابة: كتاب النساء ت ٧٠١. وطبقات ابن سعد (٨: ٣٩) ومنهاج السنة (٢: ١٨٢) «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» لبدر الدين الزركشي تحقيق سعيد الأفغاني.

والقاسم بن محمد، والشعبي، ونافع مولى ابن عمر.

وكانت غزيرة العلم: قال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بالطبّ منها. وقال عروة: ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال وحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة، وعلى رواياتها المعول في معرفة ما كان رسول الله يفعل في بيته.

أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني: ـ سنة ٥٩ هـ.

أسلم سنة سبع من الهجرة، ولازم الرسول حتى لحق بربه، وكان أكثر الناس رواية عن رسول الله. وكان من أصحاب الصُّفة فقيراً ذاق جوعاً وفاقة، ثم صلُح حاله أيام الخلفاء الراشدين وكثر ماله. وكان كثير العبادة والذكر. ولي إمرة المدينة. وناب عن مروان في إمرتها. أخذ عنه عدد كبير من التابعين، منهم صهره زوج ابنته سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، وطاووس، والشعبي، ونافع مولى ابن عمر. قال الذهبي: كان من أوعية العلم ومن كبار أئمة الفتوى مع الجلالة والعبادة والتواضع. قال البخاري: روى عنه ثمانمائة نفس أو أكثر[1].

زيد بن ثابت الخزرجي الأنصاري[2]:

اختلفوا في وفاته فقيل سنة ٤٥ هـ وقيل سنة ٥٤ وقيل سنة ٥٥ ـ . . أمره النبي أن يتعلم خط اليهود فجوّد الكتابة. وكتب الوحي وحفظ القرآن وأتقنه وأحكم الفرائض. انتدبه الصديق لجمع القرآن ثم عينه عثمان لكتابة المصحف وثوقاً بحفظه ودينه وأمانته وحسن كتابته. وفي الحديث: «أفرض أمتي زيد بن ثابت».

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (ترجمة أبي هريرة)، و«الإصابة» الكنى / ١١٧٨.

(٢) الإصابة ترجمة (٢٨٨٠). وتذكرة الحفاظ «للذهبي» ج ١ / ٣٠ و«طبقات ابن سعد» ج ٢ / ١٩٠.

حدَّث عنه ابنه خارجة أحد الفقهاء السبعة، وابن عمر، وعطاء ابن يسار وعروة. وقرأ عليه القرآن جماعة منهم ابن عباس.

أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك بن سنان: ـ ٧٤ هـ[١].

أنصاري خزرجي. وفي المعارف: منسوب إلى «الخدرة» وهم من اليمن، كان من علماء الصحابة، وروى حديثاً كثيراً وأفتى مدة. وكان من أهل الصُّفة وروى عنه، ابن عمر، وجابر بن عبدالله، ومن التابعين روى عنه نافع وأبو سلمة بـن عبد الرحمن بن عوف.

عبدالله بن عمر بن الخطاب: ـ ٧٣ هـ[٢].

أحد الأعلام في العلم والعمل، وهو شقيق أم المؤمنين حفصة. وكان كثير الاتباع لرسول الله، ينزل في كل منزل نزل فيه فيصلي فيه. حتى أن النبي نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس وذكر مولاه نافع، أن عبدالله تتبع أمر رسول الله وآثاره وأفعاله حتى كأنه خيف على عقله.

وكان من أئمة المسلمين في عصره ومن أعلام الفتوى. ولم يدخل في شيء من الفتن التي حصلت في زمانه، وكان ممن يُرشح للخلافة، ولكنه كف عن ذلك. روى نافع قال: دخل ابن عمر الكعبة فسمعته يقول في سجوده: ما يمنعني من مزاحمة قريش في هذا الأمر إلا خوفك[٣].

وروى عنه كثير من التابعين، أكثرهم رواية عنه: ابنه سالم، ومولاه نافع.

---

(١) «المعارف» ٢٦٨، و«تهذيب التهذيب» ٣ / ٤٧٩ و«تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٤٤.

(٢) «تذكرة الحفاظ» ج ١ /٣٧. والإصابة ت ٤٨٢٥، وطبقات ابن سعد ٤ / ١٠٥.

(٣) انظر «عبدالله بن عمر» للأستاذ / محيي الدين مستو.

جابر بن عبدالله الخزرجي: - ٧٨ هـ[١].

كان مفتي المدينة في زمانه، وهو من المكثرين في الرواية، كانت له حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. وقد أخذ عنه عدد من التابعين منهم الحسن البصري، ومحمد بن المنكدر وخلق كثير.

* * *

تلك كانت نماذج من علماء الصحابة الذين امتد بهم الأجل فكانوا غرة العصر الأموي في الفتوى والعلم، وكان هؤلاء ممن طال أجلهم وكثر علمهم وعملهم، ويكفي أن نذكر أن هؤلاء - ما عدا عائشة - لم يدخلوا في الفتن والتزموا جانب الحياد، داعين إلى الوحدة بين المسلمين، فكان تفرغهم للرواية والفقه، له أثر كبير في تلقي التلاميذ عنهم.

وقد فقدنا علماً كثيراً عندما شارك عشرات من الصحابة في الفتن الدائرة فكان حتفهم بسيف الفتن. وقد قتل عشرات من الصحابة في معركة الحرة وفتنة ابن الزبير كان يمكن لهؤلاء أن يزينوا القرن الأول إلى نهايته بالعلم والعمل ورواية الحديث وكان يمكن أن يكون له أثر في قلة وضع الحديث. لأن وضع الحديث بدأ في الربع الأخير من القرن الأول عندما مات جيل الصحابة، ولم يبق من يقول للوضاعين كذبتم. وقد أحس عمر بن العزيز بخطورة الوضع، فأمر بتدوين الأحاديث قبل أن يكثر الوضع فيها[٢].

ب - مدرسة الفقهاء السبعة من التابعين:

هذه المدرسة هي التي نقل أصحابها فقه الصحابة، ولكن الذين نقلوا فقه الصحابة كانوا أكثر من سبعة، بل كان الممتازون من الفقهاء في هذا العصر كثيرين. فلماذا شاع في هذا العصر تسمية سبعة فقهاء؟ يبدو أنَّ كثرة

---

(١) «الإصابة» ج ١ / ٢١٣. «وتذكرة الحفاظ» ج ١ / ٤٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٤.

الفقهاء في هذا العصر، جعل الناس يختار كل منهم سبعة من الفقهاء يراهم أكثر تأثيراً من غيرهم في نظره، وقد اتفق على عدد منهم.. وربما اختاروا سبعة ممن كانوا أكثر العلماء في الفتوى بعد صحابة الرسول. وقيل: لأنهم كانوا يتشاورون في الفتيا عندما ينزل أمر معضل، أو لأنهم عاشوا في وقت واحد[1].

وهؤلاء الفقهاء السبعة، ومن في طبقتهم ممّن عاصرهم، حملوا المشعل من الصحابة وأضاؤوا به بقية القرن الأول وبداية القرن الثاني. وصيروا النصف الثاني من القرن الأول إلى صورة تقارب النصف الأول باتباع السنة في العلم والعمل.

وكان هؤلاء الفقهاء، هم المدرسة التي كونت الفقه المدني وجعلت له كياناً متميزاً أساسه الإفتاء بما أفتى به السابقون من أصحاب الرسول والسير على منهاجه والمشاكلة بين أحكام الوقائع الجديدة والقديمة فهم يجتهدون بآرائهم أحياناً ولكن في الدائرة التي سار فيها فقه الصحابة.

وكان هؤلاء الفقهاء أثريّين، وكانوا فقهاء يدرسون فقه السلف ويخرّجون عليه فيما لم يجدوا أثراً للنبي ولا لصحبه، فيفتون بما ينقدح في عقولهم تخريجاً على ما اشتهر من قضاء رسول الله[2].

ومن هؤلاء من غلب عليه الحديث وقل عنده الفقه والإفتاء، كعروة ابن الزبير وأكثرهم كان يغلب عليه الإفتاء والفقه.

وقد اختلف في أسماء الفقهاء السبعة، ونظمهم بعض الشعراء فقال[1]:

(١) «سعيد بن المسيب» للدكتور وهبة الزحيلي. و«الإمام مالك» للشيخ أبو زهرة.

(٢) الفقهاء السبعة: مصطلح ظهر عند أهل المدينة، أرادوا به الفقهاء المبرزين بالمدينة من التابعين، ويبدو أنهم كانوا يتشاورون، ويصدرون عن رأي فيما يعرض عليهم من القضايا، وهناك كتاب اسمه «كتاب السبعة» فيه مسائل يرويها عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، وقد نقل عنه ابن حزم، ويوجد جانب منه في سنن البيهقي.

(١) «البداية والنهاية» ج ٩ / ١١٦ سنة ٩٤.

ألا كــل من لايقتـدي بــأئمــة فقسمته جبراً عن الحق خــارجة
فخـذهم عبيـدالله عــروة قــاسم سعيـد أبو بكـر سليمان خــارجة

ونظمهم ـ أحد الفقهاء السبعة ـ وهو عبيدالله بن عبدالله، في منظومه تشيد بجمال هذلية قدمت المدينة فقال[1]:

أحبـك حبــاً لا يُـحبـك مثله قــريبٌ ولا في العــالمين بعيــد
وحبـك يــا أم العــلاء متيـمي شهيـدي أبــو بكـر فـذاك شهيـد
ويعلم وجـدي «قاسم بن محمـد وعــروة مــا ألقى بكم وسعيــد
ويعلم مـا أخفي «سليمــان» كله وخــارجــةٌ يبــدي بنــا ويعيــد
متى تسألني عما أقـول وتخبري فللحب عنــدي طــارف وتليــد

وبعضهم يعدّ سالم بن عبدالله منهم، وأبا سلمة بن عبد الرحمن، ويخرج أبا بكر، وعبيدالله وبعضهم لا يعدّ سليمان بن يسار.

وسوف أقدم تعريفاً بكل واحد من هؤلاء، وأضيف إليهم، سالم بن عبدالله وأبا سلمة، لأجمع بين الآراء.

١ ـ سعيد بن المسيب، المخزومي القرشي: ـ ٩٤ هـ[2].

أبرز علم العرب في وقت كان العلم فيه للموالي. قالوا: لما مات العبادلة عبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبدالله بن عمر، صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي، إلا المدينة فإن الله خصها بقرشي فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب غير مدافع. ولد في عهد عمر بن الخطاب وبقي حتى عصر الوليد بن عبد الملك. ولم يكن من الموالين لبني أمية، ولكنه عكف على الدرس، لا يثير فتنة ولا يحرك أحداً.

---

(١) «زهر الآداب» ج ١ / ١٦٩.

(٢) «تهذيب التهذيب» ج ٤. «تذكرة الحفاظ» أ ١ / ٥٤.

وكان يأخذ على معاوية أنه ألحق زياداً به، وخالف بذلك حديث النبي: «الولد للفراش وللعاهر الحجر[1]». وكان يستنكر أفعال الأمويين مع عدم التحريض عليهم. وكان لا يقبل جوائز السلطان وله أربعمائة دينار يتجر فيها بالزيت. جلده والي المدينة في عهد عبد الملك، هشام بن إسماعيل، لأنه رفض البيعة للوليد في حياة أبيه. وجلده والي ابن الزبير لأنه لم يبايع لابن الزبير. . انصرف سعيد إلى الفقه انصرافاً تاماً ولم يُعنَ إلا به، ولم يعنَ بتفسير القرآن. فكان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: لا تسألني عن آية من القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه، يعني عكرمة مولى ابن عباس. وقد التقى بطائفة كبيرة من الصحابة وأخذ عنهم وتلقى عليهم، وأخص ما كان يطلبه قضايا رسول الله وقضايا أبي بكر وعمر وعثمان، وأخذ أكثر علمه عن زيد بن ثابت، وجلّ روايته عن أبي هريرة حيث كان سعيد زوج ابنته. . وذاع ذكره بسبب جرأته في الفتوى، وكثرة ما نقل عنه العلماء.

٢ ـ عروة بن الزبير: ـ ٩٤ هـ[2].

إمام، عالم، تفقه بخالته عائشة، وكان عالماً بالسيرة حافظاً ثبتاً. قال عنه الزهري: رأيته بحراً لا ينزف. . ولد في خلافة عثمان. وأدرك الفتن التي وقعت بعد مقتل عثمان إلى أن استقر الأمر لبني مروان، ولكنه لم يشارك في واحدة من الفتن، فكان منصرفاً كل الانصراف إلى الدراسات العلمية، فدرس الفقه والحديث. فكان في الحديث، بحراً لا تكدّره الدلاء.

وإذا كان ابن المسيب أفقه التابعين بالمدينة، فقد كان عروة أغزرهم حديثاً.

وكان معنياً بتدوين ما يتلقاه من حديث وفقه، فروي أنه كتب كتباً ولكنه تهيّب أن تكون مع كتاب الله، فأزال هذه الكتب. وروى ابنه هشام

(١) انظر تفصيل المسألة في «العواصم من القواصم» لأبي بكر بن العربي / ٢٤٠.
(٢) «تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٦٣. و «تهذيب التهذيب» ج ٧. و «سير الأعلام» ج ٤ / ٤٢١.

أنه كانت له كتب فأحرقها يوم الحرة. ولكنه ندم، فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي. وكان يصوم الدهر، ومات صائماً، وكان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف ويقوم به الليل فما تركه إلا ليلة قطعتْ رجله، حيث وقعت فيها الأكلة فنشرها. وكان قد بنى قصراً في وادي العقيق وسكن فيه.

٣ ـ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي: ـ ٩٤ هـ[١].

اسمه وكنيته واحدة، ولد في خلافة عمر.. وكان ثقة حجة فقيهاً إماماً كثير الرواية. وكان صالحاً عابداً وكان يقال له: راهب قريش. وكان مكفوفاً. مات في المدينة في سنة الفقهاء وهي سنة أربع وتسعين، ولم يكن جريئاً في الإفتاء كسعيد بن المسيب، ويغلب عليه فقهه الأثر.

٤ ـ القاسم بن محمد بن أبي بكر: ـ سنة ١٠٦ هـ[٢].

قتل أبوه محمد بن أبي بكر، فربي يتيماً في حجر عمته عائشة، فتفقه منها وكانت أمه من بنات يزدجرد كسرى ملك الفرس.

قال يحيى بن سعيد الأنصاري: ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضّله على القاسم وقال غيره: ما رأيتُ فقيهاً أعلم من القاسم وما رأيت أحداً أعلم بالسنة منه.

وقال ابن سعد: كان إماماً فقيهاً ثقة رفيعاً ورعاً كثير الحديث. وكان مع تدينه فيه همة وكياسة واعتزام للأمور. ولذلك قال عمر بن عبد العزيز: لو كان لي من الأمر شيء لاستخلفت أُعيمش بني تيم، يعني القاسم. قال الذهبي تعليقاً: وصدق، فإن الخلافة من بعده كانت معهودة إلى يزيد بن عبد

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٦٣. و«تهذيب التهذيب» ج ١٢ و«سير الأعلام» ج ٤ / ٤١٦.

(٢) «تهذيب التهذيب» ج ١، و«طبقات ابن سعد» ج ٥ / ١٨٧.

الملك من سليمان. وقيل: كان الناس في المدينة يكرهون اتخاذ السراري للأولاد، حتى خرج القاسم وسالم بن عبدالله، وعلي بن الحسين، وهم أولاد خالة من بنات كسرى، فأحب الناس الزواج من السراري.

٥ ـ عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: ـ ٩٨ هـ[١].

الفقيه العلم، المدني، الضرير، أحد الفقهاء السبعة، أخذ عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس. وأخذ عنه عدد من العلماء. قال الزهري: كان عبيدالله من بحور العلم. وكان ابن شهاب الزهري يأتيه ويسمع حديثه، ويستقي له الماء من البئر.

وكان مع إمامته في الفقه والحديث شاعراً محسناً، وهو مؤدب عمر ابن عبد العزيز. قال ابن عبد البر. لم يكن بعد الصحابة فقيه أشعر منه، ولا شاعر أفقه منه. وقال عمر بن عبد العزيز: لو كان عبيدالله حياً ما صدرت إلا عن رأيه.

٦ ـ خارجة بن زيد بن ثابت: ـ ١٠٠ هـ[٢]

كان فقيه رأي كأبيه زيد، ورث علم أبيه، فغلب عليه ما اشتهر به أبوه وهو الرأي والعلم بالفرائض. ولذلك كان خارجة قليل الحديث. كثير الإفتاء بالرأي وكان على علم بالفرائض. قال مصعب الزبيري: وكان خارجة وطلحة بن عبدالله ـ طلحة الندى ـ في زمانهما يُستفتيان وينتهي الناس إلى قولهما ويقسمان المواريث بين أهلها من الدور والنخل والأموال ويكتبان الوثائق للناس وذلك بغير جُعْل.

وكان مع علمه وفقهه وفتياه واتصاله بالناس في أول أمره، من عبّاد

---

(١) «سير الأعلام» ج ٤ / ٤٧٥ و«تهذيب التهذيب» ج ٧ / ٢٣. «وزهر الآداب» ج ١ / ١٦٩.
(٢) « سير أعلام النبلاء» ج ٤ / ٤٣٧. و«تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٩١، و«تهذيب التهذيب» ج ٣.

المدينة، وقد دفعته العبادة آخر أمره إلى العزلة والانفراد، ولذلك لم ينتشر من فقهه وعلمه شيء كثير.

٧ ـ سليمان بن يسار: ـ ١٠٧ هـ[1].

كان مولى للسيدة ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ ويقال: إنها كاتبته، ففرضت عليه مقداراً من المال يكون حراً إذا أداه، وقد أداه فكان حراً وحدث أنه استأذن على السيدة عائشة قال: فعرفت صوتي فقالت: أسليمان؟ قلت: سليمان. قالت: أديت ما قاضيت عليه أو قاطعت عليه، قلت: بلى، لم يبق إلا يسير. قالت: ادخل أنت مملوك ما بقي عليك شيء. وقد روى عن زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وأمهات المؤمنين ميمونة وعائشة وأم سلمة. وكان منه فهم دقيق.

نمّى علمه وفقهه بدراسة شؤون الناس وتعرف أحوالهم. فقد كان مشرفاً على سوق المدينة عندما كان عمر بن عبد العزيز والياً عليها.

وكان من أئمة الاجتهاد. قال الذهبي عن الحسن بن محمد بن الحنفية: هو أفهم عندنا من سعيد بن المسيب. وقيل: كان المستفتي يأتي سعيد بن المسيب فيقول له: عليك بسليمان بن يسار.

هؤلاء هم الفقهاء السبعة الذين اتفق أكثر الناس عليهم، وقد عاصرهم عدد كبير من العلماء كانوا بحراً في العلم، يمكن أن يضافوا إليهم، لأنهم ساهموا في حمل شعلة العلم في النصف الثاني من القرن الأول. ومن هؤلاء سالم بن عبدالله وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعدهما بعضهم من الفقهاء السبعة. وفي طبقتهم نافع مولى ابن عمر. وسوف أخص كل واحد من هؤلاء بكلمة.

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٩١ و«سير الأعلام» ج ٤ / ٤٤٤. و«طبقات ابن سعد» ج ٥ / ١٧٤.

٨ ـ سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب: ١٠٦هـ[١].

قال الذهبي: أحد من جمع بين العلم والعمل والزهد والشرف. سمع أباه وعائشة وأبا هريرة، وسعيد بن المسيب، وأخذ عنه عدد كبير من التابعين. وكان شديد الأدمة، خشن العيش، يلبس الصوف تواضعاً. وكان أبوه معجباً به وكان يقول:

يلومونني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم

قيل: كان سالم يشتري الثوب بدرهمين.

وقال له سليمان بن عبد الملك: أي شيء تأكل؟ قال: الخبز والزيت فإذا وجدت اللحم أكلته.

فكان سالم على سمت أبيه وعدم رفاهيته. وقيل: دخل في ثياب رثّة غليظة على سليمان بن عبد الملك فأجلسه معه على سرير الخلافة. وقد عدَّه بعضهم من الفقهاء السبعة.

٩ ـ أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: ـ ١٠٤ هـ[٢].

اسمه وكنيته واحدة. روى عن أبيه يسيراً وعن عثمان، وعائشة وأبي هريرة، وأخذ عنه الزهري ويحيى بن سعيد..

وكان من كبار أئمة التابعين غزير العلم ثقة عالماً. قال الزهري: أربعة وجدتهم بحوراً: عروة بن الزبير، وابن المسيب، وأبو سلمة وعبيدالله بن عبدالله.. قال الذهبي: كان أبو سلمة يتفقه ويناظر ابن عباس ويراجعه. وعده الذهبي من الطبقة الثانية من حفاظ كبار التابعين.

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٨٨. و«طبقات ابن سعد» ج ٥ / ١٩٥.

(٢) «تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٦٣. و« سير أعلام النبلاء» ج ٤ / ٢٨٧.

١٠ ـ نافع مولى عبدالله بن عمر: ـ ١١٧ هـ[١].

ديلمي الأصل، مجهول النسب، أصابه عبدالله بن عمر صغيراً في بعض مغازيه ونشأ في المدينة. حدَّث عن مولاه ابن عمر، وعن عائشة وأبي هريرة وأخذ عنه عدد كبير منهم مالك بن أنس، والأوزاعي. قال البخاري وغيره: أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر. وكان من أعلم التابعين بفتاوى ابن عمر.. روى نافع قال: أعطى عبدالله بن جعفر عبدالله بن عمر فيَّ اثني عشر ألفاً فأبى، وأعتقني. وقال خدمت ابن عمر ثلاثين سنة فأعطاه ابن عامر فيَّ ثلاثين ألفاً فقال: إني أخاف أن تفتنني دراهم ابن عامر. اذهب فأنت حر.. وقد بعث به عمر بن عبد العزيز إلى مصر يعلم أهلها السنن. وكان عمر قد فرَّق علماء المدينة على الأمصار الإسلامية ليعلموهم السنن.

١١ ـ الأعرج عبد الرحمن بن هرمز: ـ ١١٧ هـ[٢].

عرفه ابن قتيبة في المعارف فقال: صاحب أبي هريرة.

وهو مولى ربيعة بن الحارث بن عبد الملك... وعرَّفه الذهبي فقال: الحافظ القارىء كاتب المصاحف.

سمع أبا هريرة وأبا سعيد الخدري، وحدَّث عنه الزهري وأبو الزناد ويحيى بن سعيد وهو أول أستاذ للإمام مالك.

وكان خبيراً بأنساب العرب وافر العلم.

تحوَّل في آخر عمره إلى ثغر الإسكندرية مرابطاً، فأقام بها حتى تُوفي.

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٩٩. و«تهذيب التهذيب» ج ١٠.

(٢) «المعارف» لابن قتيبة ٤٦٥، و«تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٩٧.

جـ ـ تلاميذ مدرسة الفقهاء السبعة.

أساتذة هذه المدرسة، هم بعض تلاميذ مدرسة الفقهاء السبعة، وهم الذين نقلوا العلم عن كبار التابعين، وأوصلوا العصر الأموي إلى نهاية المضمار، فكانت المدينة بهم منارة العلم، ومقصد العلماء ومأرز الإيمان. قال الذهبي: وفي عصر هذه الطبقة تحولت دولة الإسلام من بني أمية إلى بني العباس في عام اثنين وثلاثين ومائة، فجرى بسبب ذلك التحول سيول من الدماء، وذهب تحت السيف عالَمٌ لا يحصيهم إلا الله بخراسان والعراق والجزيرة والشام، وفعلت العساكر الخراسانية ـ الذين هم المسودة ـ كل قبيح، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وسوف أخص بعض أعلام هذه الفترة بتراجم تبين قدرهم، وماهم من الفضل.

محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري: ٥٨ ـ ١٢٤ هـ[1].

من بني زهرة من قريش.. تابعي من أهل المدينة. أول من دون الحديث قال أبو الزناد: كنا نطوف مع الزهري على العلماء ومعه الألواح والصحف يكتب كل ما سمع. وقال عنه الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من الزهري يحدث في الترغيب فنقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن العرب والأنساب قلت لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة فكذلك.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب، فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه..

وقد أخذ عنه الإمام مالك، وقال عنه إنه بحر العلم.

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ج ١ / ١٠٨. و«البداية والنهاية» ج ٩ / ٣٤٠. وتهذيب التهذيب ج ٩ / ٤٤٥.

نزل الشام واستقر بها. وكان يؤدب أولاد هشام بن عبد الملك..
وروي: أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يملي على بعض ولده شيئاً. فأملى عليه أربعمائة حديث، ثم لقي هشاماً بعد شهر فقال للزهري: إن ذلك الكتاب ضاع، فدعا بكاتب فأملاها عليه، ثم قابل بالكتاب الأول، فما غادر حرفاً واحداً.

محمد بن المنكدر: ٥٤ ـ ١٣٠ هـ[١].

محمد بن المنكدر بن عبدالله بن الهدير (بالتصغير) من قريش. من أهل المدينة سمع من أبي هريرة وابن عباس وجابر.. قالوا عنه: كان من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون. وكان سيد القُرّاء. جمع على ثقته وتقدمه بين العلم والعمل.. له في الكتب نحو مائتي حديث.

أبو الزناد فقيه المدينة: ١٣١ هـ[٢].

عبدالله بن ذكوان، وهو من الموالي. وكان ذا منزلة دينية رفيعة. حتى ولاه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز خراج العراق. وكان يلقب: أمير المؤمنين في الحديث. روى عن الفقهاء السبعة وتلقى عليهم، وأخذ عنه الإمام مالك.

قال الليث بن سعد: رأيت خلفه ثلاثمائة تابع من طالب فقه وطالب شعر وصنوف، ثم لم يلبث أن بقي وحده وأقبلوا على ربيعة الرأي.

قال المصعب الزبيري: كان أبو الزناد فقيه المدينة، وكان صاحب كتابة وحساب، وفد على هشام بحساب ديوان المدينة، وكان يعاند ربيعة.

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ج ١ / ١٢٧. و«تهذيب التهذيب» ج ٩ / ٤٧٣.
(٢) «المعارف» / ٤٦٤. و«تهذيب التهذيب» ج ٥ / ٢٠٣. و«تذكرة الحفاظ» ج ١ / ١٣٤.

ربيعة بن فروخ ـ ربيعة الرأي: ـ ١٣٦ هـ[١].

من موالي آل المنكدر. كان إماماً حافظاً فقيهاً مجتهداً بصيراً بالرأي ولذلك يقال له: ربيعة الرأي. وقال المصعب الزبيري: هو صاحب الفتوى في المدينة كان يجلس إليه وجوه الناس. وبه تفقه مالك.

ولما قدم السفاح المدينة، أمر له بمال فلم يقبله.

توفي بالأنبار في مدينة الهاشمية التي بناها أبو العباس عبدالله السفاح، وكان قد أقدمه أبو العباس من المدينة للقضاء.

يحيى بن سعيد الأنصاري: ـ ١٤٣ هـ[٢].

من أبناء الأنصار وينتهي إلى بني النجار، وكان قاضي المدينة، وأخذ عن الفقهاء السبعة. ثم أصبح قاضي القضاة للمنصور العباسي.

حدَّث بعض أهل العلم قال: سمعت صائحاً يصيح بمكة أيام مروان بن محمد، لا يفتي الحاج إلا يحيى بن سعيد، ومالك بن أنس.

وقد أخذ الإمام مالك عنه فقه الرأي كما أخذه عن ربيعة الرأي.

توفي بالهاشمية سنة ثلاث وأربعين ومائة.

مسك الختام: مالك بن أنس، إمام دار الهجرة: ٩٤ ـ ١٧٩ هـ

هو مالك بن أنس[٣] بن مالك بن أبي عامر من حمير.

قدم أحد أجداده من اليمن إلى المدينة. وجده أبو عامر من أصحاب

---

(١) «المعارف» / ٤٩٦. و«تهذيب التهذيب» ج ٣ / ٢٥٨. و«تذكرة الحفاظ» ج ١ / ١٥٧.
(٢) «المعارف» / ٤٨٠. و«تهذيب التهذيب ج ١١. و«تذكرة الحفاظ» ج ١ / ١٣٧.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ١١٦، محمد أبو زهرة: مالك ص ٢١٠، و«المعارف» ٤٩٨، وعده من أصحاب الرأي و«تذكرة الحفاظ» ج ١ / ٢٠٧.

رسول الله، عاش مالك في الدولة الأموية حوالي أربعين سنة. فقد نضج، وجلس للفتوى في عصر بني أمية، ولذلك ختمت به الحلقة الذهبية. والعصر الذهبي.

كان الربيع بن مالك، عم مالك يروي الحديث. وأبوه مالك بن أبي عامر يروي عن عمر بن الخطاب وعثمان وطلحة، وكان ثقة.

قال ابن قتيبة في المعارف: حُمل بمالك ثلاث سنين.

حدث مالك عن نافع عن ابن عمر. وهي سلسلة الذهب. وأخذ عن الزهري وابن المنكدر. وأخذ عنه العلم عدد كبير لا يحصى، فقد كان مقصد الطلاب والعلماء إن لم يقصدوه خاصة، قصدوه في موسم الحج.

قال بعضهم: قد رأيت باب مالك بالمدينة كأنه باب الأمير. وجلس للإفتاء وهو صغير. قال بعضهم: قدمت المدينة بعد موت نافع بسنة فإذا لمالك حلقة، ونافع توفي سنة ١١٧ ومعنى هذا جلوس مالك للإفتاء وهو في سن الخامسة والعشرين. وكان ذلك في العصر الأموي الذي نؤرخ للحياة الفكرية فيه.

وللإمام مالك: كتاب الموطأ، في الحديث والفقه. قال الشافعي عنه: ما في الأرض كتاب في العلم أكثر صواباً من موطأ مالك وعده بعضهم مع كتب الصحاح.

وقد بقي مالك في المدينة لم يغادرها طول حياته إلا إلى الحج، ومع ذلك انتشر فقهه في أنحاء العالم الإسلامي وخاصة في بلاد المغرب العربي. طلبه الخليفة المهدي للذهاب إلى مدينة السلام، فقال مالك، قال النبي ﷺ: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون[1]».

ونقل الذهبي عن ابن سعد قال: كان مالك يأتي المسجد ليشهد

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ ج ٢ / ٢٠٢ تنوير الحوالك.

الصلوات والجنائز ويعود المرضى ويقضي الحقوق ويجلس في المسجد ثم ترك الجلوس فيه، فكان يصلي وينصرف، وترك شهود الجنائز، فكان يأتي أصحابه فيعزيهم، ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد الصلاة في المسجد ولا الجمعة، واحتمل الناس ذلك كله، فكانوا أرغب ما كانوا فيه وأشد له تعظيماً، وكان ربما كُلِّم في ذلك: فيقول: ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره. ويبدو أنه كان مريضاً بسلس البول فلا يستطيع الجلوس.

قال ابن قتيبة في المعارف: وسُعي به إلى جعفر بن سليمان ـ والي المدينة ـ وقالوا: إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، فغضب جعفر، ودعا به، وجرده فضربه بالسياط، ومدَّت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمراً عظيماً، فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة وكأنما كانت تلك السياط حَلْياً حلي به.

مات سنة تسع وسبعين ومائة ـ وله يوم مات خمس وثمانون سنة ودفن بالبقيع.

ويبدو أن مالك قد استأثر بالفتيا في زمنه، وعلا صوته كل صوت حتى قيل: «أيفتى ومالك في المدينة» فذهبت مثلاً.. وإذا قيل: إن الإمام مالك معدود من علماء العصر العباسي، فكيف ننظمه في سلسلة علماء المدينة في العصر الأموي؟.

نقول: لقد كان الإمام مالك ثمرة من ثمرات العصر الذي نؤرخ له، وفرعاً من الدوحة التي أظلت العالم الإسلامي، وقد رأينا أنه أخذ فقهه من مدرسة الفقهاء السبعة. وقد جاء العصر العباسي وهو في سن النضج والكمال، وقد أشرف على الأربعين من عمره..

وقد افترى عليه المؤرخون في العصر الحديث، فتناقلوا خبراً عن طفولته، يفيد بأن الإمام مالك كان في حداثته يتبع المغنين حتى حذق الغناء، ولكن أُمَّه صرفته عنه قائلة له: «إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى

غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه، فإنه لا يضر معه قبح الوجه». وقد نقل هذا الخبر أحمد أمين في «فجر الإسلام» ص ١٧٧، واستشهد به على عناية أهل المدينة بالغناء. ولكن هذا الخبر موضوع، ولا يتفق مع سيـرة حياة الإمام، فقد رواه أبو الفرج الأصبهاني في أخبار المغني طويس ح ٤ / ٢٢٢ عن إسحق بن محمد بن أبان الكوفي.. وهذه القصة تدل على انعدام الثقة في أخبار أبي الفرج، لأن إسحق بن محمد يقول عنه ابن حجر في «لسان الميزان»: كذاب مارق من الغلاة، وكان خبيث المذهب، وقال: وقد روى عنه أبو الفرج قصة مالك مع حسين الأشقر وأن مالكاً كان يجيد الغناء.. قال: وهي قصة مختلقة، ولا يغترّ بها، فإنها من رواية هذا الكذاب».. فعلينا أن ننتبه إلى كل ما ينقله مؤرخو الأدب والحضارة في العصر الحديث، لأنهم لم يعتمدوا على مصادر موثوقة.

* * * *
* * *
*

٣ ـ الحياة الأدبية في العصر الأموي

أ ـ تمهيد عن الشعر في العصر الجاهلي وصدر الإسلام:

نشط الشعر في يثرب قبل الإسلام، وكانت المدينة أشعر القرى العربية في الجاهلية[١]، وذلك بسبب الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج قبيل الإسلام وكانت تساير الحرب بين الأوس والخزرج حرب الشعر بل كانت معارك الشعراء لا تقل احتداماً عن ميادين الحرب. قال ابن سلام في طبقات الشعراء: «وبالطائف شعراء وليس بالكثير، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا. وذلك الذي قلل شعر عُمَان وأهل الطائف[٢]».

وجاء الإسلام وفي المدينة عدد من الشعراء الفحول منهم: حسان ابن ثابت وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وهؤلاء الثلاثة من الخزرج. وقيس بن الخطيم وهو من الأوس[٣].

كما كان في يهود المدينة وأكنافها شعر جيد، منهم السموأل بن عادياء

(١) عقد ابن سلام في طبقات الشعراء، باباً تحت عنوان «شعراء القرى العربية» وقال: «وهن خمس: المدينة، ومكة، والطائف، واليمامة، والبحرين، وأشعرهن قرية المدينة».
(٢) طبقات الشعراء، باب: شعراء القرى العربية.
(٣) توفي نحو ٢ قبل الهجرة.

من أهل تيماء. ومنهم الربيع بن أبي الحقيق من بني النضير.

وفي بداية الدعوة الإسلامية بقي الشعر نشطاً حتى فتح مكة، وشارك شعراء المدينة المنورة في الحرب الدائرة بين المسلمين وقريش. وكان الرسول يشجع حسان بن ثابت على هجو القرشيين ويقول له: اهجهم وروح القدس معك. وذلك لأن القرشيين استخدموا هذا السلاح في حربهم مع المسلمين، فكانوا يسلطون شعراءهم لهجاء الرسول والمسلمين. فكان حسان بن ثابت يذهب إلى أبي بكر ليدله على عورات ومثالب القرشيين فيعيرهم بها[١].

وبعد أن دانت الجزيرة للإسلام، وتم فتح مكة، وقُضي على أقوى قوة كانت تناهض المسلمين - وهي قريش - خمدت نار الشعر في زمن الخلفاء الراشدين، لأسباب كثيرة منها: أن الحروب كانت دائرة بين عرب وعجم ولا يجدي الشعر في هذه المعارك. ولأن المسلمين قد تلهوا بالفتوحات ولم يعد يبهرهم قول الشعر امام بلاغة القرآن الكريم، بل كان الخلفاء ينهون عن رواية الشعر القديم لما فيه من إيقاظ العصبية الجاهلية.

فقد مر عمر بن الخطاب بحسان بن ثابت وهو ينشد في مسجد رسول الله فانتهره عمر، فقال حسان: قد أنشدت فيه من هو خير منك، فانطلق عمر[٢].

كذلك حارب عمر الشعراء الذين يقولون في أغراض لا يرضى عنها الإسلام أمثال الحطيئة الشاعر المشهور بالهجاء، وكان عمر قد حبس الحطيئة حتى يرجع عن هجاء الناس.

كذلك حارب عمر شعراء الخمر، ومنهم أبو محجن الثقفي[٣]..

---

(١) الأغاني ج ٤ / ١٣٨، وانظر «الإصابة» ج ١ / ١٧٠٤.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة.

(٣) عمرو بن حبيب، كان منهمكاً في شرب النبيذ فحده عمر مراراً ثم نفاه إلى جزيرة بالبحر فهرب إلى القادسية حيث كان سعد بن أبي وقاص يحارب الفرس، فحبسه سعد عنده، ثم شارك في أحد أيام حرب القادسية. توفي سنة ٣٠ هـ.

وخمدت نار العصبية إبّان العهد الراشدي، وكانت العصبية من أقوى عوامل تهيج الشعر.

وهكذا نجد أن الأسباب التي كانت تهيج الشعراء في الجاهلية، قد حاربها الإسلام، فقلّ الشعر في هذا العصر.

يُروى أن أرطاه بن سهية[1] دخل على عبد الملك بن مروان فقال: «هل تقول اليوم شعراً؟ فقال: كيف أقول، وأنا ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب، وإنما يكون الشعر على هذا[2]».

وعندما خمدت جذوة الشعر، نهض فنٌّ أدبي كان المسلمون في حاجة إليه وهو فن الخطابة، لأنه أصبح من شعائر الإسلام في صلاة الجمعة والعيدين وفي توديع الجيوش وحثها على الجهاد.

وكذلك نهض مع الخطابة فن الرسائل حيث توسعت رقعة الدولة وكان مركز الخلافة في المدينة ويكتب الخليفة إلى ولاته بما يراه.

ب ـ الحركة الأدبية في العصر الأموي:

بدأ العهد الأموي سنة ٤١ هـ ـ وانتهى سنة ١٣٢ هـ . وعرفنا سابقاً أن الشعر ـ في صدر الإسلام ـ قد خمدت جذوته ما عدا فترة الصراع بين قريش والمسلمين. وبعد ذلك انصرف الناس عن الشعر إلى سماع القرآن والحديث أو الاشتراك في الجهاد. وقضي على الأسباب التي تساعد على تهييج الشعراء، لأنها مفسدة للمجتمع أو مؤدية إلى تفككه[3].

وكان معظم الشعراء الذين نبغوا في العهد الراشدي، من الشعراء

---

(١) أرطاه بن زفر وسهية أمه. شاعر من فرسان الجاهلية، معمر، عاش قريباً من نصف عمره في الإسلام وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان توفي حوالي سنة ٦٥ هـ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٤٧.

(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام.

المخضرمين أدوا رسالتهم في بداية عهد الدعوة وفترة الحرب بين المسلمين والمشركين. وعندما ولد جيل جديد في الإسلام، ونشأ وترعرع في العصر الراشدي وخاصة في أيام أبي بكر وعمر، وفي النصف الأول من خلافة عثمان، ففتح هذا الجيل عينيه، في فترة اكتساب الثقافة من عُمُره ـ فوجد مناخاً عبقاً بقراءة القرآن، ودراسة الحديث الشريف ووجد نداءات متوالية إلى الالتحاق بجيوش الفتح، فكان اتجاه الشباب إلى ما وجد في بيئته، وهذا الجيل هو الذي عاش في صدر العصر الأموي، ولذلك نجد كثرة كثيرة ممن عاش في بداية العصر الأموي من صغار الصحابة، أو من كبار التابعين، وكان الاتجاه الغالب على هذا الجيل رواية علوم الإسلام وكانت هناك قلة قليلة اتجهت نحو الشعر.

ثم تلا ذلك جيل ولد في نهاية العهد الراشدي وأوائل العصر الأموي وهؤلاء قد تفتحت أعينهم على تغيرات اجتماعية جديدة في المجتمع المدني، فوجد عدد من الشعراء الذين توجه جل شعرهم إلى فن الغزل، وتميز عدد كبير منهم بالإقلال.

وعندما تحدث مؤرخو الأدب المحدثون، عن الحياة الأدبية في المدينة[1] في العصر الأموي، أجملوا الكلام في العصر الأموي، وطبقوا عليه موازينهم التي ابتدعوها منذ بداية العصر حتى نهايته، والحقيقة أن العصر الأموي ينقسم إلى قسمين: العصر الأموي الأول ـ والعصر الأموي الثاني.

ويرى مؤرخو الأدب في العصر الحديث: أن المال قد كثر في المدينة في العهد الأموي، فأدى إلى الترف، والترف أدى إلى انتشار الغناء والمغنين والغناء أدى إلى كثرة شعر الغزل[2].

---

(١) ومنهم جورجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية) وطه حسين (حديث الأربعاء).

(٢) من أقدم من تحدث في هذا الباب، في العصر الحديث، كارلو نالينو، في محاضراته التي ألقاها في الجامعة المصرية ١٩١٠ ـ ١٩١١ م وجمعت في كتاب تحت عنوان: «تاريخ الآداب العربية» نشر دار المعارف ـ وهو مستشرق إيطالي متوفى سنة ١٩٣٨ م وقد أخذ عنه طه حسين في كتابه =

ويرى شوقي ضيف أن الشعر في المدينة نهض نهضة واسعة، وتعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قريش وغيرهم ممن تعرب في بلدتهم من الموالي وأبنائهم[1]. واعتمد في هذا الرأي على إحصاء ما ورد في كتاب الأغاني من تراجم الشعراء الذين عاشوا في المدينة أو من أصل مدني.

ورأيي في الحياة الأدبية ينحصر في النقاط التالية:

١ ـ لم يكن للشعر ـ في المدينة ـ من القوة ما للشعر في الأمصار الأخرى والأدلة على ذلك كثيرة، نذكر منها ما نعتمد فيه على مؤرخي الشعر القدماء، الذين خصصوا كتباً لتراجم الشعراء، وبنوا كتبهم على أسس فنية يقاس عليها الشعر.

ومن هؤلاء ابن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ، في كتابه: طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين. ويظهر من اسم الكتاب أنه خصه للشعراء الجاهليين، والشعراء الإسلاميين، وقسم الشعراء إلى طبقات حسب فحولة الشاعر ومنزلته في الشعر ـ فكان نصيب الشعراء الإسلاميين عشر طبقات، وكانت الطبقة السادسة حجازية، وذكر أربعة شعراء فقط، كان نصيب المدينة منها شاعراً واحداً هو: الأحوص بن عبدالله. ومعنى ذلك أن ابن سلام لم يعترف إلا بفحولة شاعر واحد من شعراء العصر الأموي في المدينة المنورة.

ثم جاء ابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء» وكان أكثر تساهلاً من ابن سلام في اختياره لمن يترجم لهم فقال: وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في

= «حديث الأربعاء» هذه الأفكار وقدمها إلى تلامذته في جامعة القاهرة. ومن أكثر تلامذة طه حسين اعتناقاً لآرائه الدكتور شوقي ضيف حيث تعتبر كتب شوقي ضيف الأدبية والنقدية شرحاً لآراء طه حسين.

(١) العصر الإسلامي ص ١٤٣.

الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل. فأمــا من خفي اسمه وقل ذكره وكسد شعره وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة[1].

ومع هذا التساهل في ذكر الشعراء، فإنه لم يترجم إلا لأربعة من شعراء أهل المدينة في العصر الأموي، وهم: الأحوص، وموسى شهوات، وعروة بن أذينة، وإبراهيم بن هرمة.

وإذا عرفنا أن عدد تراجم ابن قتيبة ست ومائتان، فإن تخصيص المدينة بأربعة فقط يعد قليلاً بالقياس إلى عدد التراجم، وبـالقياس إلى النهضـة الشعرية التي يتحدث عنها مؤرخو الأدب.

أما التراجم الكثيرة التي وردت في كتاب الأغاني، فإنها لا تدل على كثرة الشعراء، لأن كتاب الأغاني ليس مختصاً بالشعراء فقط، وإنما ترجم للمغنيـن، وهو يهتم بتراجم أصحاب الأصوات، ولو لم يكن لهم إلا الأبيات القليلة، وقد يتحدث عن المعارك والحروب بمناسبة ما ورد فيها من الأشعار. فليس كل من ترجم له الأصبهاني مختصاً بقول الشعر.

ولو كان كل من يقول الشعر يعتبر من الشعـراء لعددنـا آلافاً من الشعراء لأن كل مَنْ نال نصيباً من الثقافة العربية، يمكنه أن يقول شعراً، وقد يقول الأبيات أو المقطوعات، ولكن الشعر لم يغلب عليه.

قال ابن قتيبة[2]: «ولم أعرض في كتابي هذا لمن كان غلب عليه غير الشعر فقد رأينا بعض من ألف في هذا الفن كتاباً يذكر في الشعراء من لا يعرف بالشعر ولم يقل منه إلا الشذ اليسير. . ولو قصدنا لذكر مثل هؤلاء في الشعراء لذكرنا أكثر الناس، لأنه قل أحدٌ له أدنى مسكة من أدب وله أدنى حظ من صبغة إلا وقد قال من الشعر شيئاً ولاحتجنا أن نذكر صحابة رسول

---

(١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة ص ٨.

(٢) الشعر والشعراء ص ٩.

الله وجلة التابعين وقوماً كثيراً من حملة العلم ومن الخلفاء والأشراف ونجعلهم في طبقات الشعراء».

٢ ـ انعدمت الأسباب التي تنتج فحول الشعراء في المدينة المنورة: ومن أهم الأسباب العصبية القبلية، والأحزاب السياسية. فقد أصبح أهل المدينة ـ في العصر الأموي ـ حزباً واحداً وأهل مدينة واحدة، يجتمعون حول رأي واحد وهو الإنكار على بني أمية، وكان موقف بني أمية من أهل المدينة واحداً وهو الحذر الشديد.

ولم يدخل الشعر في المعارك السياسية التي دارت بين أهل المدينة والأمويين إلا قليلاً، وكان اشتراك شعراء المدينة في المعركة السياسية، اندفاعاً شخصياً غير مدعوم، ولذلك نجد الشعر الذي قيل في هذا الميدان قليلاً، ومن أمثلة ذلك عندما هجا الأخطل الأنصار بتحريض من يزيد بن معاوية احتد النعمان بن بشير، ودخل على معاوية وقال شعراً يدافع به عن مركز الأنصار، ويشتم الأخطل ولكن معاوية يقضي على الفتنة في مهدها ويرضي النعمان بن بشير، وتطوى القصة[1].

وعندما ثار أهل المدينة يوم الحرة، لم يؤيد الشعراء حركتهم، والشعراء الذين رثوا قتلى الحرة كانوا من خارج المدينة، ومنهم عبدالله بن قيس الرقيات[2]. وكذلك عندما قامت دولة ابن الزبير لم ينظم شعراء المدينة قصائد في تأييدها. وكان شاعر ابن الزبير هو عبدالله بن قيس الرقيات ولم يكن من أهل المدينة.

ولا شك أن السبب في سكوت الشعراء، كون حركات الحجاز لم تكن مؤيدة بالمال ولم يكن أصحابها من ذوي المال، وعبدالله بن الزبير كان قليل

---

(١) انظر: الكامل، في اللغة والأدب، للمبرد ج ١ / ١٠٤.

(٢) انظر كتاب ابن الرقيات للدكتور علي الجندي ناصف، وانظر أيضاً فصلاً عن هذا الشاعر في كتاب (عبدالله بن الزبير للدكتور علي حسني الخربوطلي).

العطاء لا يجود على الشعراء. ولذلك عاش شاعر الزبيريين في العراق في كنف مصعب بن الزبير. والشعراء إذا لم تقدم إليهم المال فإنهم لا يجودون إلا بالقليل.

وعندما قُتل الحسين، لم نسمع بالقصائد المؤثرة في مقتله رغم أن يوم مقتله كان مأتماً عند أهل المدينة.

فهل كان الشعراء يخشون من بطش بني أمية؟ أم أن الشعراء لا يقولون في الأغـراض التي تهم غيرهم إلا بالمال؟ فإذا مدحوا كانوا يطمعـون في عطاء، وإذا رثوا كانوا يطمعون في عطاء من الورثة.

وأهل العطاء والأموال كانوا في العراق أو في الشام.

ولابد أن شعراء المدينة انصرفوا عن المشاركة في المنازعات السياسية حتى لا يصيبهم عقاب بني أمية، أو طمعاً في أن يكون لهم صلة بهم في مستقبل الأيام. ولذلك نجد شاعراً أموياً من الأمويين أنفسهم هو الذي يتصدى للأمويين، بسبب منزلته منهم، وهـو عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص وهو أخو مروان بـن الحكم.

روي أن عبد الرحمن بن الحكم كان عند يزيد بن معاوية عندما قدم عليه رأس الحسين بن علي، فقال في ذلك:

أبلغ أميـر المؤمنين فـلا تكـنْ كمـوتر أقـواسٍ وليس لهـا نبـل
سُمَيّة أمسى نسلُها عددَ الحصى وبنت رسول الله ليس لها نسل[1]

وكان عبد الرحمن قد اعترض على معاوية عندما ضم زياداً إليه ونسبه إلى أبي سفيان. فصرح بما لم يستطع الفقهاء أن يواجهوا به معاوية.

فقال عبد الرحمن بن الحكم لمعاوية:

---

(١) الأغاني ج ١٣ / ٢٥٩. وسمية: أم عبيدالله بن زياد الذي كان والياً على العراق.

أتغضب أن يقال أبوك عفّ　　وترضى أن يقال أبوك زان

٣ ـ تأثرت الحياة الأدبية في المدينة المنورة بعدد من المؤثرات، من أهمها الغناء وكان مذهب أهل المدينة إباحة سماع الغناء[1]. وقد أثر الغناء في الشعر حيث كان في معظمه شعر مقطوعات صغيرة ومن الأوزان الخفيفة التي تصلح للغناء. وأثر فيه بأن جعله شعراً رقيقاً سهلاً يصدر عن طبع لا تكلف فيه، لأنهم يقولونه رغبة في التخفيف من لواعج الصدر.

قيل لعبيد الله بن عتبة: أتقول الشعر على شرفك؟ فقال: لابد للمصدور أن ينفث[2].

وأثّر الغناء في الشعر بأن جعله في أكثره غزلاً، لأن الغزل هو الشعر الرقيق الذي يصلح للغناء.

وقد تأثر الغناء والغزل بعوامل خارجية طارئة، منها وفود الإماء والجواري إلى المدينة المنورة، ولكن السبب المباشر لإقبال الناس عليه أنه وجد أرضاً خصبة وطبيعة اجتماعية مناسبة.

حيث كان الغناء والغزل موجودين منذ العصر الجاهلي، وللأنصار إقبال عليه. يدل على ذلك حديث الرسول عليه السلام الذي رواه ابن ماجه[3] عن ابن عباس: حيث سأل عائشة إن كانت قد أرسلت مع العروس من يغني وقال: «إن الأنصار قوم فيها غزل».

---

(١) عقد الإمام الشوكاني، في كتابه «نيل الأوطار» ج ٧ / ٢٦٤. بابا عن اللهو وآلاته. وقال: في الباب أحاديث كثيرة، وقد وضع جماعة من أهل العلم في ذلك مصنفات ولكنه ضعفها جميعاً بعض أهل العلم حتى قال ابن حزم: إنه لا يصح في الباب حديث أبداً وكل ما فيه موضوع. وقد اختلف في الغناء مع آلة من آلات الملاهي وبدونها فذهب الجمهور إلى التحريم وذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر إلى الترخيص في السماع ولو مع العود. واستدلوا بعبد الله بن جعفر الذي كان يسمع الغناء على العود. ونقل عن الثقات أن عبدالله بن الزبير كان له جوار عوّادات. ونقل أن مذهب الإمام مالك إباحة الغناء بالمعازف».

(٢) زهر الآداب ج ١ / ١٧٠.

(٣) نيل الأوطار ج ٦ / ٣٣٦.

ومما ساعد على ذلك أن أهل المدينة، كانوا أكثر الناس ظرفاً وأكثرهم طيباً وأحلاهم مزاحاً وأشدهم اهتزازاً للسماع وحسن أدب الاستماع[1] وروي عن عبدالله بن جعفر قوله: إن لي عند السماع هزة، لو سُئلت عندها لأعطيت ولو قاتلت لأبليت.

ومما يروى عن رقة أهل الحجاز عامة وأهل المدينة خاصة: أن أبا حازم[2] خرج يوماً يرمي الجمار فإذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها وألهتهم بجمالها، فقال لها: يا هذه، إنك بمشعر حرام وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم فاتقي الله واستتري، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ فقالت: إني من اللاتي قيل فيهن:

أماطت كساء الخز عن حرّ وجهها[3] — وأرخت على المتنين بُرداً مهلهلاً

من اللاتي لم يحججن يبغين حِسبةً — ولكن ليقتلن البريء المُغَفّلا

فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة ألا يعذبها الله تعالى بالنار. . فبلغ ذلك الشعبي ـ فقيه العراق ـ فقال: ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم، أما والله لو كان من قُرى العراق لقال: «اعزبي عليك لعنة الله».

ومما ساعد على ذلك أن فقهاء المدينة المنورة، كانوا لا يرون بأساً في رواية شعر الغزل، وسماعه.

روي عن سعيد بن المسيب، أن عبيد الله بن قيس الرقيات جاءه، فهش وقال: مرحباً بظفر من أظفار العشيرة. ما أحدثت بعدي؟ قال: قد قلت أبياتاً وأستفتيك في بيت منها فاسمعها، وقال هات، فأنشده:

---

(١) زهر الآداب ج ١ / ١٧٢.

(٢) سلمة بن دينار المخزومي، ويقال له: سلمة الأعرج، فارسي الأصل، وهو عالم المدينة وقاضيها وشيخها، وكان زاهداً عابداً. توفي سنة ١٤٠ هـ.

(٣) حر الوجه: بضم الحاء: ما بدا منه، وخيار كل شيء.

هـل للديـار بـأهلهـا عـلم أم هـل تبـين فينـطق الـرَّسْم
يـا صـاح هـل أبكـاك مـوقفنـا أم هـل علينـا في البكـا إثـم

فقال سعيد: لا والله ما أبكاني.

قال ابن قيس الرقيات:

بـل مـا بكـاؤك منـزلاً خلقـاً قـفـراً يـلوح كـأنـه الـوشـم

فقال سعيد: اعتذر الرجل، ثم أنشد:

أتلبث في تكريت لا في عشيرةٍ شهـود ولا السلطان منك قـريب
وأنت امـرؤ للحزم عنـدك منزل وللدين والإسـلام منـك نصيب

فقال سعيد: لا مقام على ذلك. فاخرجْ منها، قال: فعلت، قال: قد أصبت أصاب الله بك[1].

وسمع سعيد بن المسيب منشداً ينشد: لمحمد بن عبدالله الثقفي يشبب في أخت الحجاج:

فلم تـرعيني مثـل سِـرْبٍ رأيتـه خـرجْنَ من التنعيم مُعْـتمـرات
تضوع طيباً بطنُ نعمان إذْ مشت بـه زينبُ في نسـوة عـطرات
يخبئن أطـرافَ البنـانِ من التُّقى ويخرُجْنَ شطر الليل معتجرات[2]

فقال سعيد: هذا والله مما يلذ استماعه.

وقيل لسعيد بن المسيب: إن قوماً من أهل العراق لا يرون إنشاد الشعر. فقال: لقد نسكوا نسكاً أعجمياً.

ولذلك وجدنا بعض الفقهاء المشهورين يقولون الغزل الرقيق، ومن

---

(١) الأغاني ج ٥ / ٩١.

(٢) زهر الآداب ج ١ / ١٧٤. والاعتجار: لبسة للمرأة والأبيات لمحمد بن عبدالله الثقفي النميري. ونعمان: بفتح النون: واد بالعراق. زينب: أخت الحجاج.

هؤلاء عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم علم المدينة. وقد رويت له أشعار رقيقة منها قوله[1].

شققت القلب ثم ذررتُ فيه هواكِ فليم والتأم الفطور
تغلغلَ حبُّ عثمة في فؤادي فبادية مع الخافي يسير[2]
تغلغل حيث لم يبلغ شرابٌ ولا حزنٌ ولم يبلْغ سرور

وعبيد الله بن عتبة هو الذي جمع الفقهاء السبعة في أبيات غزلية رقيقة قالها في امرأة من هذيل قدمت المدينة. وكانت جميلة ومعها ابن لها صغير وهي أيم، فخطبها الناس وأكثروا، فقال فيها أبياتاً، جمع فيها الفقهاء السبعة.

فقال له سعيد بن المسيب: قد أمنت أن تسألنا، ولو سألتنا ما شهدنا لك بزور[3].

ومن الفقهاء المشهورين عروة بن أذينة، قال ابن قتيبة عنه[4]: كان شريفاً ثبتاً يُحمل عنه الحديث، ويَروي عنه مالك بن أنس الفقه. وقال الحصري في زهر الآداب: وكان عروة بن أذينة على زهده وورعه وكثرة علمه وفهمه، رقيق الغزل كثيره، وهو القائل[5]:

إذا وجدتُ أُوار الحبّ في كبدي أقبلت نحو سقاء القوم ابترد
هبني بردْتُ ببرد الماءِ ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد

وروي أنه مرت به سكينة بنت الحسين فقالت له:

---

(١) مجالس ثعلب ج ١ / ٢٣٦ تحقيق عبد السلام هارون.
(٢) عثمة: زوجة الشاعر، وكان غضب عليها فطلقها ثم ندم على ذلك.
وقوله في البيت الأول: ليم: مسهل: لئم، يقال: لأمه فالتأم. أي: سده فالتحم. والفطور: الشقوق.
(٣) الأغاني ج ٧. وزهر الآداب ج ١ / ١٦٩.
(٤) الشعر والشعراء: ترجمة رقم ١٠٤. والمعارف ص ٤٩٢.
(٥) الشعر والشعراء رقم ١٠٤، وزهر الآداب ج ١ / ١٦٧.

أنت الذي تزعم أنك غير عاشق وأنت تقول:

قالت وأبثثتها سرّي فبحت به ... قد كنت عندي تحبّ الستر فاستتر

ألست تبصرُ مَنْ حولي؟ فقلتُ لها ... غطّى هواك وما ألقى على بصري

والله ما خرج هذا من قلب سليم قط.

ومن رقيق شعره الغزلي الأبيات المشهورة التي يقول منها:

إن التي زعمتْ فؤادك ملها ... خُلقتْ هواك كما خلقتَ هوى لها

فإذا وجدت لها وساوس سلوة ... شفع الضمير إلى الفؤاد فسلّها

بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها ... بلباقةٍ فأدَقّها وأجلّها

لما عرضت مسلماً لي حاجة ... أخشى صعوبتها وأرجو ذُلَّها

منعت تحيتها فقلت لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلها

فدنا وقال لعلها معذورة ... في بعض رقبتها فقلت: لعلها

وهكذا وجدنا أن الشعر، وخاصة الغزل، وافق ظرفاً ورقة، وطبعاً بعيداً عن القسوة، فظهر على كل لسان، لأنه من الغزل العفيف الذي لا يتعرض لعورات الناس.

وقد قيل لأبي السائب المخزومي: أترى أحداً لا يشتهي النسيب؟ فقال: أما ممن يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا[١].

(١) قال ابن قتيبة في تعليل بدء القصائد بالغزل: «وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن.. فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها.. ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليُميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه. وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام».
مقدمة الشعر والشعراء ص ٢٠.

وكان أبو السائب المخزومي رجلاً صالحاً زاهداً يصوم الدهر وكان أرقّ خلق الله وأشدهم غزلاً، وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة. وقال عنه الحصري: كان أبو السائب غزير الأدب كثير الطرب، وله فكاهات مذكورة وأخبار مشهورة، وكان جده يكنى أبا السائب أيضاً. وكان خليطاً لرسول الله ﷺ، فكان النبي ﷺ إذا ذكره قال: نعم الخليط كان أبو السائب، لا يشاري ولا يماري(١).

قال: واسم أبي السائب عبدالله، وكان أشرافُ أهل المدينة يتسطرفونه ويقدمونه لشرف منصبه وحلاوة ظرفه.

وعندما سمع أبيات عروة بن أذينة التي مطلعها:

إن التي زعمت فؤادك ملها ... خُلقتْ هواك كما خلقت هوى لها

طرب وقال: هذا والله الدائم الصبابة الصادق العهد، لا الذي يقول:

إن كان أهلك يمنعونك رغبةً ... عني فأهلي بي أضنُّ وأرغب

وعندما عرض عليه الطعام قال: لا والله ما كنت لأخلط بهذه الأبيات طعاماً حتى الليل.

٤ ـ ومن المؤثرات في الحياة الأدبية، المُلَح والفكاهات، التي كانت نتيجة لرقة الطبع الذي تميز به أهل المدينة، ولأنهم عرفوا من الدين نصوصه وتشربوا روحه، فلم تطبع حياتهم بالتزمت العقلي الذي اتصف به عبّاد أهل الأمصار الأخرى. ولذلك نجدهم يمرحون ويمزحون ويستقبلون الفكاهات اللطيفة، إذا كانت لا تقدح في الدين ولا تغض من المروءة. وقد قال الرسول عليه السلام: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً».

وقال أبو الدرداء: «إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو لأقوى به على

---

(١) يشاري: يجادل.

الحق» وقال ابن مسعود: «القلوب تمل كما تمل الأبدان فاطلبوا لها طرائف الحكمة». فَهمٌّ أهل المدينة، الحنيفية السمحة، التي جاء بها الرسول عليه السلام من عند الله.

ولذلك نجد كتب الأدب تعبق بعدد من أهل الطرائف والمُلَح، يستمع إليهم جميع الناس على اختلاف درجاتهم الاجتماعية والعلمية.

وشهد العصر الأموي عدداً من أهل الفكاهات، اشتهر منهم: أشعب ابن جبير الطامع. مولى عبدالله بن الزبير، قالوا: وكان أملح الناس، وكان أهل المدينة يقولون: تغير كل شيء إلا ملح أشعب وخبز أبي الغيث ومشية برة وكان أبو الغيث يعالج الخبز بالمدينة، وبرة بنت سعيد بن الأسود كانت من أجمل النساء وأحسنهن مشية، وأشعب يضرب به المثل في الطمع[1].

وكان أشعب قد نشأ في حجر عائشة بنت عثمان، مع أبي الزناد[2] قال أشعب فلم يزل يعلو ونحط حتى بلغنا الغاية.

وكان يعاصر أشعباً صاحب ملح آخر، ويشاركه في الطمع، وهو: الغاضري. نقل الحصري عن الزبير بن بكار قال: رئي الغاضري ينازع أشعب الطمع عند بعض الولاة ويقول: أصلح الله الأمير. إن هذا يدخل عليّ في صناعتي ويطلب مشاركتي في بضاعتي[3].

وكانا جميعاً فرسي رهان ورضيعي لبان في بيانهما، إلا أن الغاضري كان لا يتخلق بالطمع تخلق أشعب.

ومن أصحاب الدُّعابة في هذا العصر، ابن أبي عتيق: قال المصعب الزبيري: وقد كانت فيه دعابة، وقد سمع من عائشة أم المؤمنين؛ وهو

---

(١) زهر الآداب ج ١ / ١٦٢.
(٢) عبد الرحمن بن ذكوان، فقيه المدينة. توفي سنة ١٣١ هـ.
(٣) زهر الآداب ج ١ / ١٦٠.

عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق[1].

ويرى بعض المؤرخين المحدثين، إن وجود أهل الفكاهة في المدينة في هذا العصر دليل على حياة الترف والمجون، ولكن هذا ليس دائماً، وأحياناً كثيرة يكون وجود مثل هؤلاء نابعاً من طبيعة الشعب، وقد ينتج وجود هؤلاء من أحوال سياسية واجتماعية معينة، وقد عرفنا في تاريخ بعض الشعوب أن الكبت السياسي، أو الضيق الاقتصادي يجعل الناس يكثرون من الفكاهة والنكتة، لتكون رمزاً لما يكنونه في أنفسهم ولتخفف بعض الآلام التي يحس بها الناس ولا يستطيعون التصريح بها.

وقد اجتمعت كل هذه العوامل عند أهل المدينة، من رقة في الطبع وميل إلى المرح، ومن ضيق اقتصادي وكبت سياسي..

لأن هؤلاء لم يكونوا ندماء في مجالس الأمراء ليقال إن مجالس الأمراء هي التي أنتجتهم، بل كان هؤلاء من عامة الناس، ويجتمع بهم الناس جميعهم ولم يختص بهم أحد.

حـ ـ شعراء المدينة في العصر الأموي:

كثر الشعراء في المدينة في العصر الأموي، ولكن الشعر لم يكثر، ويمكننا أن نقول: لقد امتد الشعر أفقياً، ولكنه لم يصعد عالياً، ويمر العصر الأموي فلا نجد شعراء كشعراء العراق والبلاط الأموي، كان في العراق والشام، جرير، والأخطل، والفرزدق، والراعي، وغيرهم كثير ممن تصدروا الطبقة الأولى من شعراء الإسلام.

وكان في المدينة شعراء كثيرون، أو كثير ممن قال الشعر، ولكن النقاد لم يضعوا واحداً منهم في طبقة جرير والفرزدق والأخطل.

لأن أهل المدينة كان كثير منهم شاعراً بطبعه، ولكن الذين اختصوا

---

(١) نسب قريش / ٢٧٨.

بقول الشعر قليل. وقال كثير منهم الشعر، ولكنه لم يُعدّ من الشعراء، ومن يقرأ في كتاب الأغاني يجد عدداً كبيراً ممن ترجم لهم في العصر الأموي، من شعراء المدينة، ويفوق عددهم، شعراء الأمصار الأخرى في العصر نفسه. فتوهم بعض المؤرخين أن الشعر في المدينة قد كثر وأربى على الشعر في الأمصار الأخرى. والسبب في كثرة من ترجم لهم الأغاني من أهل المدينة، إن كتاب الأغاني بُني في أصل وجوده على الغناء، وكان مركز الغناء في المدينة أو الحجاز في العصر الأموي، وكان أكثر من اتصل بالمغنين أهل المدينة بحكم المجاورة وكثرة الأصوات التي غناها المغنون لشعراء من أهل المدينة[1].

وسوف ألقي نظرة سريعة على الشعراء الذين وردت أسماؤهم في كتاب الأغاني لنتبين منزلتهم من الشعر، بناء على رأي النقاد القدماء أولاً، وبناء على ما وصلنا من أشعارهم.

١ ـ النعمان بن بشير الأنصاري: (٢ ـ ٦٥ هـ)[2]

له ديوان مطبوع، وله أخبار في كتب الأدب، ولم يذكره ابن سلام في طبقاته ولا ابن قتيبة في الشعر والشعراء، ومع هذا فنحن لا نعده من شعراء المدينة في العصر الأموري مع أنه من الأنصار، لأنه منذ قتل عثمان ترك المدينة وعاش في كنف معاوية مؤيداً له وعاملاً له في بعض الولايات وتوفي بحمص سنة ٦٥ هـ.

٢ ـ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: (٦١ ـ ١٠٤ هـ)[3].

اشتهر بالشعر في زمن أبيه فقال حسان:

(١) انظر كتاب (أبو الرج الأصفهاني) للدكتور محمد خلف الله.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣١١. و«تهذيب التهذيب» ١٠ / ٤٤٧، . . . و«الإصابة» ٨٧٣٠.

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٢٥٩، و«تهذيب التهذيب» ج ٦ / ١٦٢، و«الكامل» للمبرد ج ١ / ١٧٤.

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

ولكن لم يرو له القدماء ديوان شعر، ووصلت إلينا أشعاره موزعة في كتب الأدب وقد جمعها الدكتور سامي مكي العاني وطبعها في ديوان وقد ذاع ذكره بسبب ما كان بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم من الهجاء وتشبيبه برملة بنت معاوية الذي أدى إلى أن يطلب يزيد بن معاوية من الأخطل أن يهجو الأنصار. ولم يذكره ابن سلام في الطبقات ولا ابن قتيبة في الشعر والشعراء.

ومعاركه مع عبد الرحمن بن الحكم في كتاب الأغاني، ولم تكن معارك سياسية وإنما كانت لأسباب شخصية.

٣ ـ عبدالله بن محمد الأحوص: (٠٠٠ ـ ١٠٥)(١)

الأحوص لقبه، والحوص: ضيق في مؤخر العينين.

وجده عاصم بن ثابت الأقلح، الذي يقال له: حميّ الدبر. وكان الرسول قد بعثه بعثاً فقتله المشركون وأرادوا أن يصلبوه فحمته الدبر وهي النحل فلم يقدروا عليه حتى بعث الله الوادي في الليل فاحتمله فذهب به.

والأحوص: ذكره ابن سلام الجمحي في الطبقة السادسة من شعراء الإسلام وقدّم عليه عبدالله بن قيس الرقيات.

وذكره أبو الفرج في الجزء الرابع وقال: وجعل محمد بن سلام الأحوص وابن قيس الرقيات ونصيباً وجميل بن معمر طبقةً سادسة من شعراء الإسلام، وجعله بعد ابن قيس وبعد نصيب. قال أبو الفرج: والأحوص لولا ما وَضع به نفسه من دنيء الأخلاق والأفعال أشد تقدماً منهم عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة، وهو أسمح طبعاً وأسهل كلاماً وأصح معنى منهم. وكان قليل

---

(١) «طبقات ابن سلام» و«سير أعلام النبلاء» ج ٤ / ٥٩٣.
«الأغاني» ج ٤ ص ١١٨، «حديث الأربعاء» لطه حسين ج ١.
ابن قتيبة: «الشعر والشعراء» ترجمة رقم ٩٣.

المروءة والدين هجّاء للناس. وقد أمر الوليد بن عبد الملك بنفيه إلى جزيرة دهلك عندما كان عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة. وبقي حتى أخرجه يزيد بن عبد الملك، وترجم له ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» وجمع الأستاذ عادل سليمان شعر الأحوص تحت عنوان «شعر الأحوص الأنصاري» وأكثره مقطوعات صغيرة.

ومن كتب عنه من مؤرخي الأدب في العصر الحديث طه حسين في «حديث الأربعاء»، وشوقي ضيف في «العصر الإسلامي» وعده من شعراء الغزل الصريح. وفي كتابه: الشعر الغنائي في المدينة.

واتخذوا من شعره دليلاً على حياة المجون التي سادت في المدينة إبّان العصر الأموي!! وقد بينا سابقاً خطأ ما ذهبوا إليه في فصل الحياة الاجتماعية.

٤ ـ سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: (٠٠ ـ ١١٥هـ)[١]

ذكره الأغاني وقال عنه: شاعر متوسط في طبقته ليس معدوداً في الفحول، ولم تكن له نباهة أبيه وجده.

وله مدائح في بني أمية. وقال ابن قتيبة: في ترجمة حسان: وولد لحسان عبد الرحمن من أخت مارية أمّ إبراهيم ابن رسول الله وكانت تسمى (سيرين) وكان عبد الرحمن بن حسان شاعراً، وكان له ابن يقال له: «سعيد ابن عبد الرحمن». ولم يذكر أنه شاعر.

وفي حماسة ابن الشجري نصوص من شعره، وليس له ديوان شعر مجموع.

٥ ـ عبد الرحمن بن أرطاة بن سيحان المحاربي: (٠٠٠ ـ ٥٠ هـ)

ذكره «الأغاني» وقال أبو الفرج جـ ٢٤٢/٢: شاعر مقل إسلامي ليس

---

(١) الأغاني ج ٢ ص ٢٦٩، و«الشعر والشعراء» ج ١ / ٢٢٥.

من الفحول. وكان منقطعاً إلى بني أمية كواحد منهم وله في بعضهم مدائح. ولد في أطراف المدينة ووفد على الشام وتوفي بالمدينة.

أكثر شعره في الشراب والغزل والفخر، ومدح أحلافه من بني أمية. وقل أن تجد له شعراً في غير الأغاني، وليس له ديوان شعر مجموع.

٦ ـ إبراهيم بن هرمة، الكناني القرشي: (٠٠٠ ـ ١٧٦ هـ)

ذكره أبو الفرج في الأغاني جـ ٣٦٧/٤ وذكره ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» رقم ١٧٩. وله أخبار في مجالس ثعلب.

وهو من سكان المدينة من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، رحل إلى دمشق ومدح الوليد بن يزيد الأموي فأجازه، ثم وفد على المنصور العباسي في وفد أهل المدينة، فتجهم له ثم أكرمه، وانقطع إلى الطالبيين وله شعر فيهم. وهو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم. قال الأصمعي: خُتم الشعر بابن هرمة. وكان مولعاً بالشراب، وجلده صاحب شرطة المدينة. ولم أجد له ديواناً مطبوعاً..

٧ ـ محمد بن عبدالله بن مسلم، المعروف بـ: ابن المولى: (٠٠٠ ـ ١٧٠ هـ)

مولى بني عمرو بن عوف من الأنصار.

ذكره أبو الفرج في الأغاني جـ٣/١٨٦. وقال: شاعر متقدم مجيد من مخضرمي الدولتين ومداحي أهلهما. وكان ظريفاً عفيفاً نظيف الثياب حسن الهيئة.

ولد ونشأ في المدينة، ومدح بها عبد الملك بن مروان، وأسن حتى لحق الدولة العباسية، وأدرك المهدي. ومدحه.

وكان له قوس اسمها «ليلى» ويذكرها في شعره، فظنّها الناس امرأة يشبب بها، فلامه الحسن بن زيد على ذكر ليلى في شعره. فحلف بالطلاق أنه

ما تعرض لمحرم قطُّ ولا شبب بامرأة مسلم ولا معاهد قطُّ.

وقال: إن ليلى، هي قوسي سميتها ليلى لأذكرها في شعري، فإن الشعر لا يحسن إلا بالتشبيب.

وله شعر رقيق في التشوق إلى المدينة عندما كان في العراق.. ومن أبياته السائرة:

وبالناس عاش الناس قِدْماً ولم يزلْ   من النـاس مرغـوب إليه وراغب

ولم أجد له ديوان شعر مطبوع، وأخباره في غير الأغاني قليلة...

٨ ـ إسماعيل بن يسار النسائي: (٠٠٠ ـ ١٣٠ هـ)

ذكره أبو الفرج في الأغاني جـ ٤٠٨/٤ وقال: كان مولى بني تيم ابن مرة وكان منقطعاً إلى آل الزبير، فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك وفد إليه مع عروة بـن الزبير ومدحه ومدح الخلفاء من ولده بعده. وعاش عمراً طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بني أمية ولم يدرك الدولة العباسية. وكان طيباً مليحاً مندراً، بطّالاً مليح الشعر[1] وكان كالمنقطع إلى عروة بن الزبير.

وإنما لقب: النسائي، لأن أباه كان يصنع طعام العرس ويبيعه فيشتريه من أراد التعريس من المتجملين وممن لم تبلغ حاله اصطناع ذلك.

واشتهر بشعوبيته وشدة تعصبـه للعجم، يفتخر بهم في شعـره على العرب. وفي الأغاني أشعار له يفخر فيها بالعجم على العرب، ومنها القصيدة التي مطلعها:

مـا على رسم مِنـزلٍ بـالجنـاب   لـو أبان الغـداة رجـع الجـواب

ويقول فيها:

---

(١) مندرا: يأتي بالنوادر من قول أو فعل. وبطّال: كثير الهزل والمزاح، يقال: بطل الرجل يبطل بطالة (باب فرح) إذا هزل.

إنما سُمي الفوارس بالفر ... س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أُمام علينا ... واتركي الجور وانطقي بالصواب
وأسألي إن جهلت عنا وعنكم ... كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسو ... ن سفاهاً بناتكم في التراب

وليس لإسماعيل بن يسار ديوان مطبوع، وأخباره في غير الأغاني قليلة.

٩ ـ موسى بن يسار (شهوات): (. . . ـ ١١٠ هـ)

نشأ وعاش بالمدينة. وهو من أهل أذربيجان. قالوا: وليس في المدينة شاعر من الموالي إلا وأصله من أذربيجان. وفي سبب تلقيبه (شهوات) روايات منها، ما ذكره ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» رقم ١٠٣: لأن عبدالله ابن جعفر كان يتشهى عليه الأشياء فيشتريها له موسى ويتربّح عليه وقيل: سمي بذلك لقوله في يزيد بن معاوية:

لست منا وليس خالُك منا ... يا مضيع الصلاة بالشهوات

ويرى بعض مؤرخي الأدب أنه أخو إسماعيل بن يسار. ومنهم البكري في «سمط اللآلي» ومنهم شوقي ضيف في تاريخ الأدب «العصر الإسلامي» ولعل في هذا وهماً، لاشتراك الاسمين في الأب «يسار» وهو اسم يطلق على كثير من موالي الجيل الأول هرباً من الأسماء الأعجمية التي كانوا يُعرفون بها. ولم يذكر أبو الفرج في الأغاني هذه القرابة، وذكر لإسماعيل بن يسار أخوين شاعرين هما محمد وإبراهيم ولم يذكر موسى.

وليس لموسى شهوات ديوان شعر مجموع مطبوع. وله أشعار وأخبار متفرقة ومن شعره الذائع: في مدح عبدالله بن عمرو بن عثمان.

ليس فيما بدا لنا منك عيبٌ ... عابه الناس غير أنك فان
أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان

وترجمته في الأغاني جـ ٣/٣٥١. «والشعر والشعراء» رقم ١٠٣.

١٠ ـ عروة بن يحيى ولقبه أذينه: (٠٠٠٠ ـ ١٣٠ هـ)

شاعر غزل مقدم من أهل المدينة، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً وقد تناقلت كتب الأدب أشعاره الرقيقة في الغزل، ونجد أمثلة منها في الأغاني، و«الشعر والشعراء» و«المعارف» لابن قتيبة. وزهر الآداب للحصري جـ ١ ومجالس ثعلب جـ ٢/٤٣٣. وقد جمع الدكتور يحيى الجبوري ما وجد من شعره في ديوان مطبوع.

ويقال: إنه كان يضع الألحان لأشعاره، ومنها لحنه على الشعر:

يا ديار الحي بالأجمة ● لم تبيّن دارُهما كَلِمة

وله مع هشام بن عبد الملك قصة حول أبيات قالها عروة: روى ثعلب في مجالسه جـ ٢/٤٣٤ عن يحيى بن عروة بن أذينة قال: أتى أبي وجماعة من الشعراء هشام بن عبد الملك فأنشدوه، فنسبهم، فلما عرف أبي قال: ألست القائل:

لقد علمتُ وما الإشراف من خُلقي ... إن الذي هو رزقي سوف يأتيني[1]
أسعى له فيعنّيني تطلبُه ... ولو قعدتُ أتاني لا يُعَنيني

أفلا جلست حتى يأتيك؟ قال: فسكت أبي فلم يجبه. فلما خرجوا جلس أبي على راحلته حتى قدم المدينة، وتنبه هشام عليهم فأمر بجوائزهم ففقد أبي، فسأل عنه، فأُخبر بانصرافه فقال: لا جرم والله ليعلمَنَّ هذا أن ذاك سيأتيه في بيته. قال: ثم أضعف له ما أعطى واحداً من أصحابه وكتب إليه فريضتين كنت أنا آخذهما.

(١) الإشراف: الحرص، والبيت في لسان العرب مادة «شرف» بالشين المعجمة ويروى «الإسراف» بالسين المهملة» وانظر «مجالس ثعلب».

١١ ـ عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي: (٠٠٠ ـ ٩٨ هـ)

من أعلام التابعين، ومن الفقهاء السبعة. وله شعر جيد. وله مختارات موزعة في كتب الأدب: مجالس ثعلب جـ ٢٣٦/١. وزهر الآداب للحصري جـ ١٧٠/١ وفي الأغاني جـ ١٤٥/٩. وقال عنه أبو الفرج: ولعبيد الله شعر فحل جيد ليس بالكثير. وفي حماسة أبي تمام مقطوعات من شعره.

وكان مؤدب عمر بن عبد العزيز. وقال فيه عمر: لو كان عبيد الله حياً ما صدرت إلا عن رأيه ولوددت أن لي بيوم من عبيد الله غرماً. ومن شعره، قوله:

إذا شئت أن تلقى خليلاً مصافياً   لقيت وإخوان الثقات قليلُ

* * *

هؤلاء هم شعراء المدينة المنورة في العصر الأموي، وقد وردت أسماء أخرى في كتاب الأغاني، ليس لهم شعر يجعلنا نلقبهم بالشعراء ومنهم: جعفر ابن الزبير، وله أخبار حول بعض الأصوات في الأغاني[1]، ومنهم عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي.. كان صاحب فصاحة وبيان، ولم يذكره المؤرخون مع الشعراء..

وعندما نلقي نظرة على شعراء المدينة المنورة المترجم لهم، نجد أكثرهم من المقلين، ليس لهم دواوين تخلدهم في صفوف الشعراء، ولو كانوا من المكثرين الفحول لتناقل الرواة أشعارهم كما تناقلوا أشعار الفحول ووصلت إلينا دواوينهم برواية القدماء.

وليس مقصودي أن أحطّ من منزلة المدينة الأدبية، وإنما أردت أن أؤرخ للحياة الفكرية في المدينة، وأن يأخذ كلُّ فرع من فروع المعرفة، حقه من الوصف كما هو في الواقع، بالنظر إلى الفروع الأخرى.

(١) الأغاني ج ١٥ ص ٤.

لأن من ينظر في كتب الأدب فقط، يحسب أن أهل المدينة لم يشتغلوا بغير الشعر والغناء في عصر كان الازدهار الفكري لفروع المعرفة المتعلقة بالحديث والقرآن. وإن النشاط العلمي المتعلق بالدين، هو الذي أوصل إلينا هذا التراث الشرعي الذي أمد الأجيال التالية بفقه الحياة. ولابد أن هذا النشاط كان كبيراً في هذا الجانب، يتناسب مع ضخامة ما وصلنا من التراث.

وقد رأينا هذه النتيجة عندما استعرضنا رجالات العلوم الشرعية ورجالات الشعر. فإذا حفل العصر الأموي بعشرة شعراء لم تصل منزلتهم إلى منزلة الفحول، فقد حفل العصر الأموي في المدينة بعشرات من أساطين العلم الشرعي، وقد ترجمنا لعدد منهم كانوا قادة في عصرهم فكانت زعامة العلوم الشرعية إلى المدينة بسبب وجودهم...

انتهى الكتاب

محمد محمد حسن شراب

* * * *

* * *

*

المصادر والمراجع

أولاً: «المخطوطات»

- **محمد كبريت**: محمد بن عبدالله بن محمد: (١٠١٢ - ١٠٧٠ هـ)، «الجواهر الثمينة في محاسن المدينة» مكتبة عارف حكمت بالمدينة.
- **عبدالله بن محمد بن فرحون**: .. (٦٩٣ - ٧٦٩ هـ)، «تاريخ المدينة المنورة» مكتبة عارف حكمت.
- **عبدالله بن محمد المرجاني**: (٦٣٣ - ٦٩٩ هـ)، «بهجة الشموس والأسرار في تاريخ هجرة المختار». مكتبة عارف حكمت.

ثانياً: «المصادر والمراجع» المطبوعة

- **ابن الأثير**: علي بن محمد (٦٣٠ هـ)، الكامل في التاريخ - دار الفكر ببيروت - ١٩٧٨ م.
- **أحمد أمين**: (١٩٥٤ م)، فجر الإسلام - الطبعة العاشرة - ١٩٦٩ م دار الكتاب العربي/ بيروت.
- **الأصفهاني**: علي بن الحسين (٠٠٠ - ٣٥٦ هـ)، كتاب الأغاني - مصورة عن طبعة دار الكتب. وزارة الثقافة بمصر.
- **البلاذري**: أحمد بن يحيى (٠٠ - ٢٧٩ هـ)، أنساب الأشراف - تحقيق: محمد حميد الله. دار المعارف بمصر.
- **ابن تيمية**: أحمد بن عبد الحليم، «منهاج السنة».
- **ثعلبة**: أحمد بن يحيى (٢٠٠ - ٢٩١ هـ)، مجالس ثعلب: شرح وتحقيق: عبد

السلام هارون. دار المعارف طبعة ثالثة.
- **ابن حجر العسقلاني**: أحمد بن علي (٠٠ - ٨٥٢ هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة - مكتبة المثنى، بغداد «تهذيب التهذيب» الطبعة الأولى في الهند.
- **ابن حزم**: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم: (- ٤٥٦ هـ)، جمهرة أنساب العرب - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة رابعة دار المعارف بمصر.
- **حسن إبراهيم حسن**: (١٨٩٢ - ١٩٦٨ م)، تاريخ الإسلام جـ ١ - مكتبة النهضة بالقاهرة طبعة ثامنة ١٩٧٤ م.
- **الحصري**: إبراهيم بن علي (- ٤٥٣)، «زهر الآداب» تحقيق علي البيجاوي - مطبعة عيسى البابي - طبعة ثانية.
- **الخضري**: محمد بن عفيفي (١٨٧٢ - ١٩٢٧ م)، «تاريخ التشريع الإسلامي» دار الفكر بيروت ط ٨ ١٩٦٧ م، «تاريخ الأمم الإسلامية» الجزء الأول - طبع القاهرة.
- **ابن خلدون**: عبد الرحمن بن محمد (- ٨٠٨ هـ)، مقدمة ابن خلدون - المطبعة البهيـة المصرية.
- **ابن خلكان**: أحمد بن محمد (٦٠٨ - ٦٨١ هـ)، وفيات الأعيان: تحقيق الدكتور إحسان عباس - دار صادر بيروت.
- **الخياري**: السيد أحمد ياسين (١٩٠٣ - ١٩٦٠ م)، «أمراء المدينة المنورة وحكامها» الطبعة الأولى - ١٩٦٢ م.
- **دائرة المعارف الإسلامية**: ... ترجمة محمد ثابت الفندي، وزملاؤه، انتشارات جهان طهران.
- **الذهبي**: محمد بن أحمد (٧٤٨ هـ)، «تذكرة الحفاظ» دار إحياء التراث العربي «سير أعلام النبلاء».
- **الزبيري**: المصعب بن عبدالله (١٥٦ - ٢٣٦ هـ)، «نسب قريش» تحقيق ليفي بروفنسال - دار المعارف بمصر.
- **الزركلي**: خير الدين: (... - ١٩٧٦ م) «الأعلام» دار العلم للملايين - بيروت.
- **أبو زهرة**: محمد أبو زهرة، «مالك حياته وعصره» دار الفكر العربي.
- **السخاوي**: محمد بن عبد الرحمن (٨٣١ - ٩٠٢ هـ)، «التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة».

- **ابن سعد**: محمد بن سعد (١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ)، «طبقات ابن سعد».
- **ابن سلام**: محمد بن سلام الجمحي (١٥٠ ـ ٢٣٢ هـ)، «طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين».
- **السمهودي**: علي بن عبدالله بن أحمد المصري: (٨٤٤ ـ ٩١١ هـ)، «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- **السيوطي**: عبد الرحمن بن أبي بكر (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ)، «تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك» المكتبة التجارية الكبرى بمصر، «لباب النقول في أسباب النزول» مطبعة الملاح بدمشق. «تاريخ الخلفاء» دار التعاون مكة المكرمة. «الجامع الصغير».
- **الشايب**: أحمد الشايب، «تاريخ الشعر السياسي» القاهرة.
- **ابن شبة**: عمر بن شبة (٠٠٠ ـ ٢٦٢ هـ)، «تاريخ المدينة المنورة».
- **بنت الشاطىء**: الدكتورة عائشة عبد الرحمن، «سكينة بنت الحسين» دار الكتاب العربي بيروت.
- **شوقي ضيف**: الدكتور. . .
  - تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) دار المعارف بمصر ـ الطبعة السابعة.
  - التطور والتجديد في الشعر الأموي (دار المعارف ـ القاهرة).
- **الشوكاني**: محمد بن علي بن محمد (١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ)، «نيل الأوطار» دار الجبل، بيروت ١٩٧٣ م.
- **الطبري**: محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ)، «تاريخ الرسل والملوك» تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر.
- **طه حسين**: الدكتور. .
  - الفتنة الكبرى دار المعارف بمصر.
  - حديث الأربعاء دار المعارف بمصر.
- **عادل سليمان**: «شعر الأحوص الأنصاري» الهيئة المصرية للكتاب.
- **العباسي**: أحمد بن عبد الحميد، «عمدة الأخبار في مدينة المختار» نشر أسعد درابـــزوني.
- **عبد الحليم الجندي**: «مالك بن أنس» دار المعارف.
- **ابن عبد ربه**: أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ)، «العقد الفريد» تحقيق أحمد أمين وزميلاه ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة.

- **عبد العزيز سيد الأهل**: «الخليفة الزاهد» بيروت.
- **عبد القدوس الأنصاري**: «آثار المدينة المنورة» المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٩٣ هـ.
- **عبدالله فياض**: الدكتور، «تاريخ الإمامية» مؤسسة الأعلى - بيروت - ١٩٧٥ م.
- **ابن العربي**: محمد بن عبدالله (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ)، «العواصم من القواصم». تحقيق: محب الدين الخطيب.
- **العسكري**: الحسن بن عبدالله أبو هلال (٣٩٥ هـ)، «الأوائل» تحقيق: محمد السيد الوكيل.
- **ابن عساكر**: علي بن الحسن (٠٠٠ - ٥٧١)، «تهذيب تاريخ دمشق الكبير».
- **علي حسني الخربوطلي**: الدكتور
  ١ - تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي. دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٩ م.
  ٢ - عبدالله بن الزبير. أعلام العرب رقم ٤٢.
  ٣ - المختار الثقفي (أعلام العرب).
- **علي حافظ**: «فصول من تاريخ المدينة المنورة».
- **عماد الدين خليل**: «ملامح الانقلاب الإسلامي» الدار العلمية بيروت.
- **العياشي**: إبراهيم بن علي (٠٠ - ١٤٠٣ هـ)، «المدينة بين الماضي والحاضر» المكتبة العلمية بالمدينة ١٩٧٢ م.
- **الفيروز أبادي**: محمد بن يعقوب (٠٠٠ - ٨١٧ هـ)، «المغانم المطابة في معالم طابة» تحقيق حمد الجاسر - دار اليمامة بالرياض. «القاموس المحيط».
- **ابن قتيبة**: عبدالله بن مسلم (- ٢٧٦ هـ)
  ١ - «المعارف» تحقيق ثروت عكاشة - دار المعارف بمصر.
  ٢ - «الشعر والشعراء» دار الثقافة - بيروت.
  ٣ - «الإمامة والسياسة» (مطبعة الحلبي القاهرة).
- **القسطلاني**: أحمد بن محمد (٠٠٠ - ٩٢٣)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري.
- **ابن كثير**: الحافظ إسماعيل بن عمر (٧٠١ - ٧٧٤ هـ)، «البداية والنهاية» مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٦ م.
- **الماوردي**: علي بن محمد (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ)، «الأحكام السلطانية» (القاهرة).
- **المبرد**: محمد بن يزيد (٢١٠ - ٢٨٦ هـ)، «الكامل في اللغة والأدب» مكتبة

المعارف ـ بيروت.
ـ **محمد جمال الدين سرور**: الدكتور، «الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية»، (دار الفكر العربي ـ القاهرة).
ـ **محمد رضا**: أمين مكتبة جامعة القاهرة: (٠٠ ـ ١٩٥٠ م)، عثمان بن عفان ـ طبع عيسى البابي الحلبي.
ـ **محمد عجاج الخطيب**: الدكتور، «السنة قبل التدوين» دار الفكر بدمشق.
ـ **محمد العيد الخطراوي**: الدكتور، «المدينة في العصر الجاهلي» الطبعة الأولى.
ـ **محمد فؤاد عبد الباقي**: (١٨٨٢ ـ ١٩٦٨ م)، «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» عيسى البابي الحلبي، «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم».
ـ **المسعودي**: علي بن الحسين (٠٠٠ ـ ٣٤٦ هـ)، «مروج الذهب ومعادن الجوهر».
ـ **المطري**: **محمد** بن أحمد (٦٧١ ـ ٧٤١ هـ)، «التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة»، نشر أسعد درابزوني.
ـ **المقريزي**: (+ - ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي، «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم» (القاهرة ١٩٢٧ م).
ـ **هزاع الشمري**: «حقائق عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية». وزارة المعارف السعودية.
ـ **هيكل**: الدكتور محمد حسين، «الفاروق عمر» جزءان (مطبعة مصر ٣٦٤ هـ).
ـ **وكيع**: محمد بن خلف بن حيان (ـ ٣٠٦ هـ)، «أخبار القضاة».
ـ **وهبة الزحيلي**: الدكتور، «سعيد بن المسيب» دار القلم بدمشق.
ـ **ياقوت الحموي**: (٥٧٤ ـ ٦٢٦ هـ)
ـ «معجم البلدان» طبع بيروت.
ـ «معجم الأدباء» (القاهرة).
ـ **أبو يوسف**: (+ ١٩٢ هـ = ٨٠٧ - ٨٠٨) يعقوب بن إبراهيم، «كتاب الخراج» (المطبعة الأميرية ـ بولاق ١٣٠٢ هـ).

* * * *
* * *
*



محتويات الكتاب

تقديم ٥

الإهداء ٧

مقدمة الكتاب ٩

مكانة هذا الكتاب ١٥

الباب الأول: عام الجماعة .... (١٩ - ٩٢)

١ - تمهيد: أ - الأمويون قبل عام الجماعة ٢١

ب - الأحداث قبل العصر الأموي، وأثرها على الحياة في المدينة ٢٦

١ً - مقتل عثمان رضي الله عنه ٢٦

٢ً - قصة عبد الله بن سبأ ٢٩

جـ - انتقال الخلافة إلى الكوفة، وأثرها على الحياة في المدينة ٦١

٢ - عام الجماعة بداية العصر الأموي ٦٣

المدينة في خلافة معاوية ٦٦

٣ - آراء أهل المدينة في عهد معاوية ٧٦

٤ - موقف أهل المدينة من بيعة يزيد بن معاوية بولاية العهد ٨٦

أ - مراحل أخذ البيعة ٨٦

ب - رأي في ولاية العهد ٨٨

الباب الثاني: الأحداث السياسية في المدينة، في عهد يزيد بن معاوية، وبني مروان .... (٩٣ - ١٦٠)
١ - موقف المدينة من خلافة يزيد بن معاوية ....
أ - شخصية يزيد ٩٥
ب - خلافة يزيد ١٠١
٢ - موقف المدينة من حركة الحسين بن علي ١٠٤
أ - بداية حركة الحسين ١٠٤
ب - رأي أهل المدينة في حركة الحسين ١٠٧
جـ - رأي المؤرّخين في حركة الحسين ١١٠
٣ - موقف المدينة من حركة عبد الله بن الزبير ١١٣
أ - بداية حركة عبد الله بن الزبير ١١٣
ب - أسباب موقعة الحرّة ١٢٢
جـ - مراحل معركة الحرّة ١٢٦
د - كلمة في معركة الحرّة ١٣٢
هـ - نهاية نفوذ ابن الزبير ١٣٩
و - كلمة في حركة عبد الله بن الزبير ١٤٥
٤ - نهاية الأحداث السياسية: أبو حمزة الخارجي في المدينة ١٥٦
الباب الثالث: الإدارة الأموية في المدينة .... (١٦١ - ٢٤٧)
١ - سياسة الخلفاء الإدارية ١٦٣
أ - سياسة معاوية ويزيد الإدارية ١٦٥
ب - المدينة في ظل إدارة ابن الزبير ١٧١
٢ - ولاية عمر بن عبد العزيز المدينة ١٨٥
أ - نبعة عمر بن عبد العزيز وموطنه ١٨٥
ب - المدينة في عهد إمارته وخلافته ١٨٩
٣ - أمراء المدينة في العهد الأموي ١٩٧
ملاحظات حول أمراء المدينة ٢١٨

اختصاصات أمير المدينة ٢٢٥
ديوان المدينة ٢٣١
٤ ـ قضاة المدينة في العصر الأموي ٢٣٥

الباب الرابع: الحياة الاجتماعية في المدينة .... (٢٤٩ ـ ٣١٠)
١ ـ عناصر وطبقات المجتمع المدني ٢٥١
أ ـ عناصر المجتمع المدني ٢٥١
ب ـ الطبقات الاجتماعية في المدينة ٢٥٥
٢ ـ مظاهر الحياة الاجتماعية ٢٦٥
٣ ـ التغيّر الاجتماعي في المدينة المنورة ٢٨٠
٤ ـ حياة الجدِّ واللّهو ٢٨٧
٥ ـ التكافل الاجتماعي ٢٩٨

الباب الخامس: الحياة الاقتصادية ومظاهر العمران في المدينة .... (٣١١ ـ ٣٥٣)
تمهيد: جغرافية المدينة ومواردها الطبيعية ٣١٣
١ ـ سياسة الأمويين الاقتصادية في المدينة ٣٢٠
٢ ـ موارد الرزق في المدينة ٣٣١
٣ ـ العمران في المدينة: في المجال الرسمي: ٣٣٨
ـ توسعة المسجد النبوي ٣٤٠
ـ عين الأزرق ٣٤٣
٤ ـ وادي العقيق ٣٤٦
جغرافية وادي العقيق ٣٤٧
تاريخ وادي العقيق وعمرانه ٣٤٨

الباب السادس: الحياة الفكرية .... (٣٥٥ ـ ٤٢٢)
١ ـ مظاهر النشاط الفكري ٣٥٧
أ ـ مركز المدينة العلمي ٣٥٧
ب ـ الخصائص العامة للحياة الفكرية ٣٦٥

٢ ـ العلوم الدينية وأبرز علماء المدينة ٣٧٦
قوافل العلماء في العصر الأموي ٣٨٠
أ ـ مدرسة علماء الصحابة ٣٨٠
ب ـ مدرسة الفقهاء السبعة ٣٨٣
جـ ـ تلاميذ مدرسة الفقهاء السبعة ٣٩٢
٣ ـ الحياة الأدبية في العصر الأموي ٣٩٨
أ ـ تمهيد عن الشعر في العصر الأموي وصدر الإسلام ٣٩٨
ب ـ الحركة الأدبية في العصر الأموي ٤٠٠
جـ ـ شعراء المدينة في العصر الأموي ٤١٣
المراجع والمصادر ٤٢٣
محتويات الكتاب ٤٢٩